



مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

+00481+ 1 80X88 8Σ +C00001Σ1 +Σ1HX01Σ1 8 +U0001Σ1

Revue de Recherche en Sciences Humaines et Cognitives

مجلة علمية دولية محكمة تصدر بشكل شهري



المجلد 1 - العدد 5 - السنة الأولى - غشت 2024
جميع حقوق النشر محفوظة للناشر والمجلة

رقم الهاتف

+212 614-024544

البريد الإلكتروني

contact@crshc.com

رقم الصحافة

07/2024

الترقيم الدولي

3009-5581

الإيداع القانوني

2024PE0032

مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

الإيداع القانوني: 2024PE0032

ردمدم : 3009-5581

رقم الصحافة: 07/2024

رقم الواتساب: +212 6 14 02 45 44

البريد الإلكتروني: rrshc@gmail.com

العنوان الإلكتروني: www.crshc.com

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر وللمجلة
المغرب © 2024

مواقع التواصل الاجتماعي للمجلة



Tiktok



Youtube



Facebook

مسجلة ومفهرسة في قواعد بيانات عالمية



المدير المسؤول:

محمد بوغوتة

رئيس التحرير:

جمال الدين السراج

مدير التحرير:

سعيد الاشعري

أعضاء هيئة التحرير:

فريد أمعشوشو

محمد البوزيكي

عبد الله بوغوتة

وسام شهير

هشام كزوط

سعيد أرديف

د. جمال الدين السراج

رئيس التحرير

أستاذ التواصل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة - المملكة المغربية



”مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية هي منبر أكاديمي يهتم بنشر الأبحاث والدراسات في مجالات العلوم الإنسانية والعلوم المعرفية. تهدف هذه المجلة إلى تعزيز فهمنا للعقل البشري، والثقافات المختلفة، وتأثير العوامل الاجتماعية والنفسية على سلوك الإنسان وتفكيره. تتضمن مجالات الدراسة في المجلة مجموعة واسعة من التخصصات مثل علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم اللغة، والفلسفة، والأدب، وعلوم الإعلام والتواصل، وعلم الاجتماع، والعلوم السياسية، والتاريخ، وغيرها من العلوم الإنسانية والاجتماعية والمعرفية. تعتبر هذه المجلة مصدراً هاماً للباحثين والأكاديميين لنشر أبحاثهم ومشاركة أفكارهم مع المجتمع الأكاديمي العالمي“

ضوابط النشر في المجلة

- يشترط في البحث ألا يكون منشوراً من قبل، وأن يتسم بالراهنية والعمق، وأن تتميز مراجعته الأساسية بالجدة والتنوع؛
- تُقبل البحوث باللغات الآتية: اللغة العربية - الأمازيغية - الفرنسية - الإنجليزية - الإسبانية؛
- يجب أن يتراوح عدد كلمات البحث ما بين 4000 و6000 كلمة. وعلى كل كاتب أن يرفق دراسته، أو مقالته، بملخصين، الأول بلغة المقالة، والثاني باللغة الإنجليزية في حدود 200 كلمة لكل ملخص؛ مع نبذة من سيرته العلمية وصورة شخصية؛
- ترسل البحوث باللغة العربية ببرنامج (Word)، خط (Sakkal Majalla)، حجم 16 في المتن و12 في الهامش و1.5 في interligne؛ وباللغة الفرنسية أو الإنجليزية بخط (Calibri Light)، حجم 12 في المتن و10 في الهامش؛
- يلزم احترام الضوابط العلمية والأخلاقيّة في كل ما يتعلق بالتوثيق والتهميش، وإثبات الحالات متسلسلة أسفل كل صفحة دون استرسال؛
- تخضع البحوث والدراسات على محكّمين من ذوي الخبرة وحسب تخصص المقال؛
- تقبل البحوث الفردية وكذا الجماعية في حدود شخصين؛
- تتولى اللجنة العلمية إبلاغ الكاتب بتسلم مادته حال ورودها، ثم إبلاغه لاحقاً بقرار الهيئة العلمية حول مدى صلاحية مادته للنشر، سواءً كانت مقبولة للنشر كما هو، أو تحتاج إلى تعديلات أو تحسينات قبل النشر، أو رفضها في حال كانت غير مناسبة لمعايير المجلة.

لا تعبر الآراء الواردة في المجلة إلا عن آراء أصحابها،

وبالتالي تبقى مسؤولية الكاتب قائمة متى خالفت القوانين الجاري به العمل.

جميع حقوق النشر محفوظة للناسر والمجلة

العنوان : مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

موقع المجلة : www.crshc.com

عنوان المراسلة : contact@crshc.com

الهاتف/الواتساب : +212 614-024544

الإخراج الفني : محمد بوغوتة

الإيداع القانوني : 2024PE0032

ردمد : 3009-5581

رقم الصحافة : 07/2024

المطبعة : مكتبة قرطبة، وجدة، المغرب

حقوق الطبع : محفوظة للناسر والمجلة © 2024

الهيئة الاستشارية لمجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

د. فريد أمعشوشو

مركز تكوين

مفتشي التعليم المغرب

د. عبد الله بوغوتة

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين

بجهة الشرق، المغرب

د. سعيد أرديف

المدرسة العليا للتربية والتكوين

جامعة محمد الأول بوجدة، المغرب

د. رفيق أوباشير

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة

الشرق، المغرب

الهيئة العلمية لمجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

د. فريد لمريني

جامعة محمد الأول، المغرب

د. يحيى عمارة

جامعة محمد الأول، المغرب

د. محمد دلال

جامعة محمد الأول، المغرب

د. حسن احساين

جامعة محمد الأول، المغرب

د. فؤاد أزروال

المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، المغرب

د. الطيب بركان

جامعة محمد الأول، المغرب

د. هشام كزوط

جامعة محمد الأول، المغرب

د. وسام شهير

جامعة محمد الأول، المغرب

د. عائشة عبد الواحد

جامعة محمد الأول، المغرب

د. بثينة حساني

جامعة محمد الأول، المغرب

د. خليل عبد الجليل

جامعة محمد الأول، المغرب

د. أحمد أوجاك

جامعة محمد الأول، المغرب

د. أسماء هلال

جامعة محمد الأول، المغرب

د. كمال بورمضان

جامعة محمد الأول، المغرب

الهيئة العلمية لمجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

د. يوسف ماحي

جامعة محمد الأول
المغرب

د. محمد علي الدراوي

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
بجهة الشرق، المغرب

د. طارق حمدنا الله أحمد حمدنا الله

خبير لدى المجلس الأعلى للبيئة والترقية
الحضرية والريفية، السودان

د. سلام جبار منشد حسين الاعاجيبي

جامعة المتنبي، العراق

د. عائشة محمد عثمان مصطفى

جامعة الإمام المهدي، السودان

أ.د. صباح علي السليمان

جامعة تكريت، العراق

د. مروان السكران

أكاديمية بيت اللسانيات الدولية، تركيا

د. محمود قدوم

جامعة بارتين، تركيا

د. محمد بودشيش

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
لجهة الشرق، المغرب

د. بلال داوود

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
بجهة الشرق، المغرب

د. جميلة رحمانى

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
بجهة الشرق، المغرب

د. أيوب الشاوش

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
بجهة الشرق، المغرب

د. حاتم فهد هنو ذياب الطائي

جامعة الموصل، العراق

د. سماح محمد محمد حيدة

جامعة باشن الأمريكية، مصر

د. هناء فاضل سلمان

الجامعة المستنصرية، العراق

د. الصادق علي وداعة عثمان

جامعة سنار، السودان

د. عزيز صالح علي الدعيس

جامعة صنعاء، اليمن

د. ريم محمد طيب حامد الحفوزي

جامعة الموصل
العراق

الهيئة العلمية لمجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

د. عبد الصمد مجوقي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة
طنجة تطوان الحسيمة، المغرب

د. منير كلخة

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
لجهة الشرق، المغرب

د. عبد العزيز الصادقي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة
الشرق، المغرب

د. عبد المجيد بوفرعة

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
لجهة الشرق، المغرب

د. نجيب علالي

المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
لجهة الشرق، المغرب

د. محمد حمداوي

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
لجهة الشرق، المغرب

محتويات العدد

4	 محتويات العدد
7	 افتتاحية العدد
8	 د. أحمد أبركان في محاولة تأصيل جهاز مفاهيمي للشأن البيئي في الإسلام
38	 د. فريد أمعضشو في تعريف الاغتراب
50	 يوسف شملال - امحمد الكرام كروнологيا أهم المراحل التي مرت منها البيبليوغرافيا: من العصور القديمة إلى حدود القرن 17م
91	 سميرة عثمانى منظومة القيم في ظل العولمة الإعلامية
110	 د. عبد الرحيم سالم التسويق العصبي: استراتيجية جديدة لتوجيه سلوك المستهلك
137	 خريصي عبد الحكيم الحركة الاحتجاجية بالمغرب بين واقع التجربة الميدانية والعالم الافتراضي (دراسة حالة المحتجين لحدث 20 فبراير 2022 حول ارتفاع أسعار المنتوجات الغذائية)
166	 محمد بن ادريس العلوي إشكاليات تدبير الزمن التشريعي للقوانين

	سبل انعتاق الأسرى المسيحيين بالمغرب خلال القرن 18م
178	سكينة الريفي
	طقس تاغلا عند البدو الرحل الأمازيغ بوادي نون بالجنوب المغربي الرمز والدلالة
194	أحمد بلّاج
	الحبُّ لا يُقهر.. الحبُّ صانع مُعجزات! الحبُّ في شعر محمود درويش
210	خديجة الكبوري
	نظرة استشرافية للنهوض بالثقافة الشعبية من خلال الصناعة الإعلامية
233	زكرياء الأنصاري - محمد الحبنوني
	دور الرحلة العلمية في تطور الدرس اللغوي بالمغرب الأقصى
250	عبد الحكيم العبدى
	المغرب المجهول: المستكشفون والرحالة الأجانب بحث في آليات المعرفة والسلطة
274	عبد الاله بوعلي - د. حاجي البكاي
	التدين الأندلسي: أنموذجا للتعايش الحضاري مع الآخر
288	محمد لمقدم

افتتاحية العدد

يسرنا أن نقدم لكم هذا العدد من مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، الذي يتضمن مجموعة متنوعة من المقالات العلمية والأبحاث القيمة التي تمت مشاركتها من قبل باحثين وأكاديميين متميزين من مختلف الجامعات المغربية والعربية. نهدف من خلال هذا العدد إلى تعزيز الحوار الأكاديمي وتبادل المعرفة بين الباحثين والمهتمين في الحقول المعرفية المختلفة.

يتميز هذا العدد بمشاركة مقالات تغطي طيفاً واسعاً من المواضيع في العلوم الإنسانية والمعرفية، بدءاً من الدراسات الأدبية والتاريخية، مروراً بالأبحاث الإنسانية والاجتماعية، وصولاً إلى الدراسات اللغوية والتحليلات القانونية. كل مقال يساهم في تقديم رؤى جديدة وفهم أعمق للتحديات والقضايا التي تواجه مجتمعاتنا اليوم.

نحن في مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية نؤمن بأهمية العلم والمعرفة في تحقيق التقدم والازدهار. ونسعى دائماً لدعم الباحثين وتشجيعهم على تقديم أبحاثهم وإبداعاتهم الفكرية للمجتمع الأكاديمي والجمهور العام. إن تنوع المواضيع والأفكار المطروحة في هذا العدد يعكس الثروة الفكرية والعلمية التي تزخر بها جامعاتنا، ويساهم في تعزيز الفهم والتفاهم بين مختلف الثقافات والمجتمعات.

نأمل أن تجدوا في هذا العدد ما يلهمكم ويفتح أمامكم آفاقاً جديدة من المعرفة والتفكير النقدي. نتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في إعداد هذا العدد، وندعو جميع الباحثين والمهتمين إلى مواصلة التفاعل والمشاركة في الأعداد القادمة من المجلة.

مع أطيب التحيات، هيئة تحرير مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية.

حرر بوجدة، في: 31 غشت 2024

رئيس التحرير

الدكتور جمال الدين السراج

في محاولة تأصيل جهاز مفاهيمي للشأن البيئي في الإسلام

د. أحمد أبركان

أستاذ التعليم العالي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة
المغرب



ملخص:

تشغل البيئة في عصرنا الحاضر مكانة رئيسة ومحورية لما لها من انعكاسات على صحة الفرد والمجتمع. فقد فطر الله تعالى هذه البيئة لاحتضان الإنسان من الوهلة الأولى التي أوجده الله فيها على وجه الأرض.

حديثاً بدأ الاهتمام بالجانب البيئي في أوائل السبعينيات من القرن الماضي. وقد تدرجت كلمة "بيئة" في مفهومها الاصطلاحي من مجرد مفهوم محدود وضيق دال على الطبيعة باعتبارها وسطاً ومجالاً بما يلازمها من نبات وحيوان وجماد إلى فضاء أشمل وأوسع، لاسيما بعد أن احتضنت عناصر جديدة ذات تأثير مباشر في حياة الإنسان وفي مجموع الحياة البيئية. فقد ضمت البيئة إلى مفهومها المتعارف عليه العناصر الفيزيائية، لتنقل إلى الأنظمة والتوازنات التي تتحكم في جميع العناصر، لتشمل بعد ذلك كافة المنشآت المشيدة في إطار الأنظمة الاجتماعية التي تدير شؤون المجتمعات البشرية.

والمستخلص من مجموع التحديدات الاصطلاحية للفظ "بيئة" أنها تضم ثلاث منظومات متكاملة وفق ما انتهت إليه استنتاجات بعض الباحثين في الشأن البيئي، وهي المحيط الحيوي "biosphere"، والمحيط المصنوع أو التكنولوجي "Technosphere"، والمحيط الاجتماعي "Sociosphere".

إن مفهوم البيئة في الإسلام يصر على إبراز ذلك الحيط الناظم الذي يربط بين مكونات البيئة والنظام البيئي وبين النفس البشرية التي يراد لها أن تبلغ درجة التركية والتطهير. والمتأمل في الدراسات والكتابات التي تخص جوانب البيئة وما حوته يخلص إلى ما مؤداها أن الاهتمام بشؤون البيئة وحمايتها والحفاظ عليها مما يمكن أن يلوئها أو يكدر صفوها أو يخل بتوازنها، هو من صنيع الغرب واجتهاده، وأنه كان دائماً السباق إلى كل مبادرة تخص البيئة وما يتعلق بمقوماتها ومكوناتها؛ ناسياً أو متناسياً الدور الربادي للإسلام في حماية البيئة ورعايتها، وما هذا الجهل وذاك التنكر لحضور الإسلام في موضوع البيئة إلا سببا من أسباب غياب البعد التاريخي الإسلامي لمصطلح "بيئة" وكذا مدلولاته عند هؤلاء. لقد حث الإسلام من خلال تشريعاته وأحكامه ونصوصه وآدابه وإرشاداته إلى حماية البيئة ووقايتها والعناية بها والرفق بكل مكوناتها ومحيطاتها، مع التحذير المسبق من مغبة تكدير صفوها وإلحاق الأضرار بها عن طريق الملوثات بمختلف أنواعها وأجناسها.

لقد حدد الإسلام المنهج والسبيل أو السبل التي يتحتم على الإنسان اتباعها في تعامله مع البيئة، من خلال ضبط قواعد علاقته بها في تعامله مع مكوناتها المادية منها والمعنوية على حد سواء، حتى يتسنى له الانتفاع بمقداراتها الاقتصادية، والاجتماعية، والبيولوجية، والفيزيائية.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أبركان، أحمد. (2024، غشت). في محاولة تأصيل جهاز مفاهيمي للشأن البيئي في الإسلام. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 37-8.

Abstract:

Nowadays, the environment plays an important role in human societies as it reflects the state of health of both the individual and society. Allah has created this nature to provide humans with shelter and sustenance.

Researchers have started their concern with nature since 1970s, and the term “nature” has known a developing conception from its limited view of nature as the natural environment involving, for example, trees, rivers, seas, mountains, and animals to its general definition of whatever surrounds humans and maintains their balance; nature has come to mean even the built environment. Therefore, from this general definition, the term “nature” covers three interconnected categories: the biosphere, the technosphere, and the sociosphere.

The Islamic conception of Islam embodies that interconnecting line of nature that combines the constituents of nature, the ecosystem, and human nature that is meant, through faith, to achieve the highest degree of purity. Although the West has carried out a lot of studies on nature, it has overlooked the Islamic conception. Islam has insisted on the protection of nature, preserving, and caring for, it and warned against harming it through whatever pollutes or destroys it.

Islam has defined ways to protect nature and shown humans how to follow these ways through respecting Islamic rules in dealing with it, so that they can benefit from its economic, physical, and biological resources..

تقديم عام:

تشغل البيئة في عصرنا الحاضر، مكانة رئيسة ومحورية لما لها من انعكاسات على صحة الفرد والمجتمع. فقد فطر الله تعالى هذه البيئة لاحتضان الإنسان من الوهلة الأولى التي أوجده الله فيها على وجه الأرض. وجعلها (بيئة حفيّة به، حانية عليه، رفيقة بصحته، ضامنة لأسباب حياته. وقد كان يمكن أن يظل الأمر كذلك، كما استمر منذ آلاف السنين، لولا أنّ ما واكب التحضر السريع والتصنيع اللاهث من تغيّر عميق وتبدل وخيم وبيل في بنية هذه البيئة ونسيجها وتركيبها، قد جعل منها مصدر شر بدل أن تكون مصدر خير، ومباءة مرض بدل أن تكون مثابة عافية. وسرعان ما أخذ الإنسان يعاني ما جنت يداه، ويدفع غاليا جزاء ما اقتترف من عدوان على موازين هذه البيئة الخيرة المعطاء)¹.

ورد في الموسوعة العربية الميسرة أن الإرهاصات الأولى للاهتمام بالبيئة وصحتها كانت في منتصف القرن 19، فقد ذكرت أنه (انتشر بمدينة ميونيخ في منتصف القرن التاسع عشر الحى التيفودية بسبب إلقاء الفضلات البرازية في أقبية وخزانات وأخذ الماء من آبار سطحية، فاتجهت الأنظار إلى جواز علاقة هذا باستيطان المرض، وعمل المسؤولون على إيجاد مجار جديدة، وأخذ الماء من البحيرات، فانقطعت الحى التيفودية منها. ومنذ ذلك التاريخ وجه الأطباء والمسؤولون على الصحة اهتمامهم إلى نظافة البيئة باعتبارها مصدر الأمراض الوبائية، فصدرت قوانين لصيانة مياه الشرب وتصريف الفضلات تصريفا صحيا، وتطبيق أحكام خاصة بنظافة الشوارع والمسكن والمصانع. ورغم اكتشاف الجراثيم والكائنات الحية المسببة للأمراض المعدية، وتحويل الأنظار إلى الكائنات الحية الممرضة، ومشاربه، ومقدرة الإنسان على مقاومتها، ظل للبيئة مكانتها الهامة في

¹ - الخياط محمد هيثم: صحة البيئة في ميزان الإسلام، صدر ضمن سلسلة الهدي الصحي للتحقيق الصحي من خلال تعاليم الدين، رقم 7، منظمة الصحة العالمية، المكتب الإقليمي للشرق المتوسط، 1995، راجع التقديم بقلم الدكتور حسين عبد الرزاق الجزائري، المدير الإقليمي للمنظمة.

علاقتها بصحة السكان وسارت تدرس بالمعاهد بوصفها علما أو فرعاً من فروع الصحة العامة، ولذلك تطور علم صحة البيئة¹.

أما حديثاً فقد بدأ الاهتمام بالجانب البيئي في أوائل السبعينيات من القرن الماضي، فانعقد لهذا الغرض جملة من المؤتمرات كان من أهمها: مؤتمر ستوكهولم بالسويد سنة 1972، ومؤتمر تبليسي سنة 1977، ومؤتمر ريو دي جانيرو وقمة الأرض سنة 1992. وقد أكدت في مجموعها على ضرورة إعداد برامج دولية للتربية البيئية².

1- تحديد مفهوم البيئة:

المقصود بالبيئة عموماً هو ذلك المحيط الذي يعيش فيه الإنسان، ويحن إليه في حال السفر أو الاغتراب؛ وهو ومرجعه وموئله في آخر المطاف، رغب في ذلك أم أبى.

وتتكون هذه البيئة من البيئة الجامدة (الطبيعة) التي خلقها الله سبحانه تعالى، والبيئة (الصناعية) التي صنعها الإنسان؛ كما تشمل البيئة (الأرضية)، والبيئة السماوية بما تحويه من شمس وقمر ونجوم.

على أن البيئة الصناعية تتكون مما يحفره الإنسان من أنهار، وما يغرسه من أشجار، وما يُعبده من طرق، وما ينجزه من أبنية، وما يصنعه من أدوات وآلات، صغيرة دقيقة كانت أم كبيرة.

1-1 لفظ البيئة لغة

يقصد بالبيئة في المعاجم العربية: المنزل والحال، وهي كلمة مشتقة من لفظة

¹- الموسوعة الميسرة، ط 2، طبعة دار الشعب، مؤسسة فراكلي، 1972، ص 1119.

²- محمد أحمد الخضي ونواف أحمد سمارة: القيم البيئية من منظور إسلامي، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، المجلد التاسع، العدد الثاني، 2009، بتصرف عن ص 72.

"بؤاً"، يقال: (باء إلى الشيء، يبوءُ بؤاً، أي: رجع)¹. ويطلق هذا اللفظ على المنزل الذي ينزل به الإنسان، ولعل مرد ذلك راجع إلى أن منزل الإنسان هو معاده الذي يرجع إليه، فأخذ معنى النزول في المكان من كثرة تردد الرجوع إليه وتواليه².

ولفظه "بيئة" لفظة عربية أصيلة، يرجع جذرها اللغوي إلى مادة "بؤاً" (الباء والواو والهمزة أصلان: أحدهما الرجوع إلى الشيء، والآخر تساوي الشينين)³.

وللبيئة دلالات لغوية كثيرة في لغة العرب، حاول الجوهري استعراض معظمها في قوله: (المباءة: منزل القوم في كل موضع، وتعني أيضا معطن الإبل أي: مسكنها.

وتبؤأت منزلاً: نزلته، وبؤأت الرجل منزلاً: هيأته، ومكنت له فيه.

وهو ببيئة سوء، أي: بحالة سوء.

وبؤأت الرمح نحوه، أي سدده نحوه.

والباءة، مثل الباعة، والباء: النكاح.

البواء: السواء، ويقال: دم فلان بؤاء لدم فلان إذا كان كفؤاً له، وأبأت القاتل بالقتيل أي: قتلت به)⁴.

¹ - ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأفريقي المصري الأنصاري): لسان العرب، دار الحديث القاهرة، 2002، ج 1/ص 542.

² - إيمان قشقوش: موقف الشريعة الإسلامية من موضوع حماية البيئة، أطروحة مقدمة في نطاق الواجبات نيل ماجستير في الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة حيفا، تموز 2007، ص 7 (بتصرف).

³ - ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريا): معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1411هـ/ 1991، ج 1/ص 312.

⁴ - الجوهري (إسماعيل بن حماد): الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، ج 1/ص 161-162.

2-1 لفظ البيئة في القرآن الكريم:

بالرجوع إلى القرآن الكريم نجد أن الفعل "بؤاً" ورد باشتقاقاته المختلفة أربع عشرة مرة بدلاتين رئيسيتين: أولاهما بمعنى الانصراف والرجوع بالشيء والاعتراف به أو الاستحقاق، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾¹، وقوله عز من قائل: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾²، وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾³، وقوله جل شأنه: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾⁴.

وثانيهما، وهي الغالبة، بمعنى النزول والإقامة بمكان أو منزل، كما في الآيات التالية: يقول الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَادْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾⁵، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾⁶، ويقول عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ

¹ - سورة البقرة/ الآية 61.² - سورة آل عمران/ الآية 112.³ - سورة المائدة/ الآية 29.⁴ - سورة آل عمران/ الآية 162.⁵ - سورة الأعراف/ الآية 74.⁶ - سورة الحج/ الآية 26.

يَخْتَلِفُونَ¹، ويقول جل شأنه: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ²﴾ أي: تنزلهم منازلهم وتجعلهم ميمنة وميسرة وحيث أمرتهم، ويقول عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَآجِرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ³﴾، ويقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ⁴﴾، ويقول تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ⁵﴾، ويقول جل شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ⁶﴾، ويقول عز من قائل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ⁷﴾، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ مَبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ⁸﴾.

أما لفظة "بيئة" بهذه الصيغة فلم ترد في النص القرآني، تقول إيمان قشقوش (ولم ترد صيغة المصدر في السياق القرآني "بيئة"، وأعتقد أن الكلمة المرادفة للبيئة

¹ - سورة يونس/ الآية 93.

² - سورة آل عمران/ الآية 121.

³ - سورة النحل/ الآية 41.

⁴ - سورة الحشر/ الآية 9.

⁵ - سورة الزمر/ الآية 74.

⁶ - سورة يوسف/ الآية 56.

⁷ - سورة يونس/ الآية 87.

⁸ - سورة يونس/ الآية 93.

هي لفظة الأرض المهيأة للإقامة والسكن، وتشمل كل المخلوقات الحية وغير الحية، والظواهر والعلاقات المختلفة¹.

3-1 لفظ البيئة في الحديث النبوي الشريف:

جاء حديث رسول الله ﷺ متضمنا لجذر "بؤأ" بمشتقاته، كقوله ﷺ: ((يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء))²، وقوله ﷺ: ((من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار))³ [مسلم، البخاري، الترمذي، أبي داود، ابن ماجه، أحمد]، وجاء في حديث سيد الاستغفار: ((اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ))⁴.

¹ إيمان قشقوش: موقف الشريعة الإسلامية من موضوع حماية البيئة، ص 9

² راجع: البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي): صحيح البخاري، طبعة جمعية البشري الخيرية للخدمات الإنسانية والتعليمية، كراتشي، باكستان، 1437هـ/2016م، الحديث رقم 5066، كتاب النكاح/ باب من لم يستطع الباءة فليصم، ج3/ ص 2305، ومسلم (أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري): صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار الحديث، القاهرة، 1412هـ/1991م، الحديث رقم 91، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تأقت نفسه إليه ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، ج2/ ص 1018-1019، وابن دقيق العيد: إحكام الأحكام، شرح عمدة الأحكام، دار الجيل، 1416هـ/1995م ج2/ص 552، والسفاري (محمد بن أحمد بن سالم): غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، ط 2، مؤسسة قرطبة، 1414هـ/1993م، ج 2/ص 412.

³ أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم برقم 107، ج1/ ص 189؛ ومسلم في المقدمة باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم برقم 3، ج1/ ص 10.

⁴ صحيح البخاري: أخرجه البخاري، الحديثان رقم 6306 و6323، ج 4/ ص 2798 وص 2806؛ والطبراني (أبو القاسم سليمان بن أحمد): المعجم الكبير، حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الحديث رقم 7172، ج 7/ ص 350-351.

بشيء من التفصيل نحاول استعراض هذه الدلالات المتباينة وما سواها للفظ "بيئة" فيما يلي:

أ- دلالته على معنى الرجوع، من ذلك قولهم: باء بالشيء بواء وبواء بمعنى رجع، وقد جاء في قول الله تبارك وتعالى في حق بني إسرائيل: ﴿وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾¹.

ب- دلالته على الإقرار والاعتراف والتحمل، يقال: باء به وإليه، وباء عليه بمعنى احتمله واعترف به، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ في دعائه: ((أَبُو لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُو بَذْنِي)). (قال الأصمعي: باء بإثمه، فهو يَبُو بواء به بواء: إذا أقر به. وفي الحديث: أَبُو بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُو بَذْنِي أي ألزمت وأرجع وأقر)².

ج- دلالته على التكافؤ والمساواة، من ذلك مثلاً قولهم: باء فلان بفلان أي قتل به.. وهو كفاء له.. وبأواه كان دمه كفناً لدمه.. وقولهم: تباوأ القتيلان في القصاص أي تعادلا³. جاء في معجم "اللسان": (والبواء: السواء. وفلان بواء فلان: أي كفؤه إن قُتِلَ به، وكذلك الاثنان والجميع.. البواء: التكافؤ، يقال: ما فلان ببواء لفلان: أي ما هو بكفاء له. وقال أبو عبيدة يقال: القوم بَوَاءً أي سواء. ويقال: القوم على بواء. وقُسِمَ المال بينهم على بَوَاءٍ أي على سواء... ويقال: هم بواء في هذا الأمر: أي أَكْفَاءٌ نُظَرَاءُ)⁴.

د- دلالته على النزل والإقامة، يقولون: بَوَأ فلانا منزلاً، فيه أنزله، وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة دالة على هذا المعنى، من ذلك مثلاً قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾⁵. وورد في معجم

¹ - سورة البقرة/ الآية 61.

² - راجع ابن منظور: لسان العرب، ج 1/ص 542، وإبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1425هـ/2004م، ج 1/ص 75.

³ - راجع ابن منظور: لسان العرب، ج 1/ص 543، وإبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ج 1/ص 75.

⁴ - ابن منظور: لسان العرب، ج 1/ص 543.

⁵ - سورة العنكبوت/ الآية 58.

"العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي: (الباء، والمباءة: منزل القوم حين يتبوؤون في قبل واد، أو سند جبل، ويقال: بل هو كل منزل ينزله القوم)¹ جاء في "اللسان": (يقال: بَوَّأْتُهُ مَنْزِلًا، وَأَثَوَيْتُهُ مَنْزِلًا ثَوَاءً: أَنْزَلْتُهُ، وَبَوَّأْتُهُ مَنْزِلًا أَي جَعَلْتُهُ ذَا مَنْزِل. وفي الحديث: "مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"، وتكررت هذه اللفظة في الحديث ومعناها: لِيَنْزِلَ مَنْزِلُهُ مِنَ النَّارِ.. وَيُسَمَّى كِنَاسُ الثَّوْرِ الْوَحْشِيِّ مَبَاءً، وَمَبَاءُ الْإِبِلِ: مَعْطِئُهَا)². وجاء في حديث رسول الله ﷺ: ((من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)). (أراد بالباءة النكاح والتزويج. ويقال: فلان حريص على الباءة أي على النكاح. ويقال: الجماعُ نَفْسُهُ بَاءً، والأصلُ في الباءة المنزل ثم قيل لعقد التزويج بَاءً لَأَنَّ مَنْ تَزَوَّجَ امْرَأَةً بَوَّأَهَا مَنْزِلًا. والهاء في الباءة زائدة)³.

هـ- دلالة على الحالة، ورد في "تاج العروس" للزبيدي: (البيئة بالكسر الحالة، يقال: إنه لحسن البيئة)⁴. وجاء في "لسان العرب": (وبَاءَتْ بِيئَةً سَوْءٍ، على مثال بَيْعَةٍ؛ أي بِحَالٍ سَوْءٍ، وَإِنَّهُ لَحَسَنُ الْبَيْئَةِ، وَعَمَّ بَعْضُهُمْ بِهِ جَمِيعَ الْحَالِ)⁵.

هذه معظم المعاني التي دلت عليها لفظة "بيئة" في المعاجم العربية القديمة، وقد تكرر ذكرها في المعاجم العربية الحديثة، مع استعراض البعض من هذه المعاجم للتطور الدلالي الذي عرفته اللفظة، لتصبح حمالة معنى اصطلاحي موسع هو أكثر شمولاً من ذاك المعنى اللغوي، سارياً بذلك على مجالات حياتية مختلفة.

¹ - الفراهيدي (عبد الرحمن الخليل بن أحمد): كتاب العين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج 1/ص 170.

² - ابن منظور: لسان العرب، ج 1/ص 544

³ - ابن منظور: اللسان، ج 1/ص 542.

⁴ - الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي هلال، ط 2، سلسلة التراث العربي، مطبعة حكومة الكويت، 1407هـ/ 1987م، ج 1/ص 157.

⁵ - ابن منظور: اللسان، ج 1/ص 544.

4-1 لفظ "البيئة" اصطلاحاً:

تضاربت آراء الدارسين والباحثين وتشعبت بخصوص محاولة إيجاد تعريف اصطلاحى مناسب لمصطلح "بيئة"، ولعل مرد ذلك عائد إلى كون لفظ "بيئة" من المصطلحات التي تطورت دلالاتها اللغوية فاستحالت دلالات اصطلاحية.. فحتى أواسط القرن التاسع عشر كان معنى البيئة يقتصر على المنزل في تعريفه الضيق، لكنه غدا فيما بعد ذا معنى أشمل وأوسع من معناه اللغوي الضيق. ومن ضمن هذه التعريفات الاصطلاحية التي أعطيت للبيئة أقترح ما يلي:

* البيئة (هي المحيط الحيوي الذي يشمل الإنسان والكائنات الحية وما يحويه من مواد وما يحيط بها من هواء وماء وتربة، وما يقيمه الإنسان من منشآت)¹.

* البيئة (هي مجموع الأحوال والظروف الخارجية والتأثيرات الفاعلة في تطور الكائنات الحية وحياتها)².

* البيئة (هي المحيط الذي تعيش فيه الأحياء مؤلفاً من الأرض وغلافها الجوي، وما عليها وما في باطنها)³.

* البيئة (هي الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من ظواهر طبيعية وبشرية ويتأثر بها ويؤثر فيها)⁴.

¹ حافظ صلاح: الوضع البيئي في مصر حماية البيئة من التلوث واجب ديني، جمع وإعداد: سلسلة المنتدى الاقتصادي، القاهرة، 1998، ص 13.

² راجع دبس (محمد محرر): معجم مصطلحات العلوم والتكنولوجيا، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1988، ص 1033؛ والخطيب (محمد شفيق): قاموس العلوم المصور بالتعريفات والتطبيقات، مكتبة لبنان، بيروت، 1991، ص 195.

³ الكيلاني (إبراهيم زيد): حماية البيئة في الإسلام، مجلة دراسات، عدد 3، مجلد 15، 1988، ص 181.

⁴ الفقهي (محمد عبد القادر): البيئة مشاكلها وقضاياها، مكتبة ابن سينا، القاهرة، ص 10.

* البيئة (هي مجموعة النظم الطبيعية والاجتماعية التي تعيش فيها الكائنات الحية والتي تستمد منها حاجاتها المختلفة، وتؤدي فيها أنشطتها)¹.

* البيئة (رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في زمن ومكان ما لتلبية حاجات الإنسان وتطلعاته)².

* البيئة (حيز مكاني يتكون من مكونات حية³ ومكونات غير حية⁴، وهذه المكونات تسمى بالعوامل التي تتفاعل مع بعضها البعض ضمن الأحوال والظروف التي تعيش فيها)⁵.

* البيئة هي (المحيط الذي تعيش فيه الكائنات الحية -ويدعى أيضا بالمحيط الحيوي- الذي يتضمن بمعناه الواسع العوامل الطبيعية والاجتماعية والثقافية والإنسانية التي تؤثر على أفراد وجماعات الكائنات الحية، وتحدد شكلها وعلاقاتها وبقائها)⁶.

وقد أوجز مؤتمر الأمم المتحدة المنعقد بمدينة استوكهولم سنة 1972 وبيليس عام 1978 تعريف البيئة بقوله:

¹- عويس (جمال السيد): الملوثات الكيميائية للبيئة، دار الفجر، مصر، 2000، ص 5.

²- صالح وهبي: الإنسان والبيئة والتلوث البيئي، دار الفكر العربي، دمشق، 2001، ص 20.

³- العوامل الحية تشمل الإطار الواسع للبيئة الحيوية، وتضم إيكولوجيا الإنسان، وإيكولوجيا الحيوان، وإيكولوجيا النبات.

⁴- العوامل غير الحية: وتضم كل العوامل غير الحية التي تؤثر في توافر وتوزيع عالم النبات والحيوان في الطبيعة، مثل عوامل المناخ كالحرارة، والرطوبة، والرياح، والعوامل الفيزيائية: كالجاذبية، والإشعاع، وعوامل الحموضة، والملوحة في التربة.

⁵ . CJ Borrow, developing The Environment (England, Longman Scientific and Technical, 1995 p3.

⁶- غرايبة سامح والفرحان يحيى: المدخل إلى العلوم البيئية، دار الشروق، ط3، عمان، الأردن، 1419 هـ/ 1999 م، ص 13.

* (البيئة هي رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته)¹؛ أو قوله: (إن البيئة هي مجموعة من النظم الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الأخرى، والتي يستمدون منها زادهم، ويؤدون فيها نشاطهم)²، أو قوله معرفا البيئة في مفهومها الواسع الدال على استمرارية التفاعل بين عناصرها المكونة لها، دونما غفلة من العنصر البشري الذي يعتبر واحدا من مكوناتها الرئيسية: (الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته، من غذاء، وكساء، ودواء، ومأوى يمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني البشر)³.

وقد علق بعض الدارسين على التغييرات التي لحقت مفهوم "البيئة" انطلاقا من مجموع التحديدات السابقة وغيرها، كقول الدكتور محمد زمان: (تدرج مفهوم البيئة من اعتبارها هي الأرض وما عليها من جماد ونبات إلى إضافة البيئة الحيوانية ثم العناصر الغازية والضوئية ثم الأنظمة والتوازنات التي تحكم كل هذه العناصر، وأضيف إليها في الأخير المنشآت العمرانية المختلفة التي شيدها الإنسان من مباني وطرق ومصانع وموانئ وغيرها، ثم اعتبارها بيئة صناعية، كونها عنصرا خارجيا طارئا ذا تأثير قوي على البيئة الطبيعية)⁴.

على أن هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك، بتوسيع مفهوم "البيئة" استنادا إلى نمط العلاقة التي تربطها بمستخدميها، محاولا ربطها بمختلف الأنشطة الحيوية التي يمارسها العنصر البشري، فجعل الأم بيئة، والبلد بيئة، والمسجد بيئة،

¹ الكيلاني: حماية البيئة في الإسلام، نقلا عن صباريني: البيئة ومشكلاتها، مجلة دراسات، عدد 3، مجلد 15، 1988، ص 181.

² محمد مرسى: الإسلام والبيئة، ط1، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 1420 هـ/1999م، ص 19.

³ صباريني محمد والحمد رشيد: الإنسان والبيئة، دار الكندي، الأردن، 1994، ص 27.

⁴ زمان محمد: التصور الإسلامي للبيئة - دلالاته وأبعاده - مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، عدد 55، 1424 هـ/2003م، ص ص 359-360.

والمدرسة بيئة، ومكان الاجتماع بيئة، والكون بأسره بيئة.. ولقد تكاثرت مسميات البيئة حتى قيل: بيئة اجتماعية، وبيئة صناعة، وبيئة صحية.. إلخ.¹ يقول هاني سليمان الطعيمات: (هناك بيئة زراعية وبيئة صناعية، وبيئة ثقافية، وبيئة اجتماعية وبيئة سياسية، ويعنون بذلك النشاط البشري المرتبط بهذه المجالات، كما أنهم جعلوا من رحم الأم بالنسبة للجنين بيئة، ومن المدرسة بيئة ومن المدينة بيئة ومن الكرة الأرضية بيئة، بل من الكون كله بيئة)².

المستخلص من هذا كله أن كلمة "بيئة" تدرجت في مفهومها الاصطلاحي من مجرد مفهوم محدود وضيق دال على الطبيعة باعتبارها وسطا ومجالا بما يلزمها من نبات وحيوان وجماد، إلى فضاء أشمل وأوسع خصوصا بعد أن احتضنت عناصر جديدة ذات تأثير مباشر في حياة الإنسان وفي مجموع الحياة البيئية عموما. فقد ضمت البيئة إلى مفهومها المتعارف عليه العناصر الفيزيائية، لتنتقل إلى الأنظمة والتوازنات التي تتحكم في جميع العناصر، لتشمل بعد ذلك كافة المنشآت المشيدة في إطار الأنظمة الاجتماعية التي تدير شؤون المجتمعات البشرية.

فالتعريف الإجرائي الذي يمكن أن نرتضيه للبيئة في الأخير هو اعتبارها ذاك المحيط المادي الذي يحيى فيه الإنسان بما فيه من ماء وهواء وفضاء وتربة وكائنات حية، فضلا عن المنشآت التي ابتكرها الإنسان لإشباع حاجاته. وبالإضافة إلى هذا الإطار المادي للبيئة يمكن تحديدها في معناها العام والواسع بأنها مجمل المؤثرات الثقافية والحضارية والنفسية التي يعيشها الإنسان في محيطه.

يستنتج من مجموع التعريفات السابقة أنها تصب في اتجاهين اثنين: اتجاه يخص البيئة الطبيعية وآخر يخص البيئة الاصطناعية. ف (البيئة الطبيعية هي كل

¹ عبد الله القاسم الوشلي: التوجيه التشريعي الإسلامي في نظافة البيئة وصحتها، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 44، ذو القعدة 1429، بتصرف عن ص 366.

² الطعيمات (هاني سليمان): البيئة وعلاقتها بحقوق الإنسان والمنهج الإسلامي في حمايتها، مؤتم للبحوث والدراسات، مجلد 17، عدد 3، 2002، ص 53.

ما يحيط الإنسان من ظاهرات أو مكونات طبيعية حية وغير حية من خلق الله تعالى، ممثلة في مكونات سطح الأرض: من جبال وسهول ووديان وصخور وتربة، وعناصر المناخ المختلفة من حرارة وضغط ورياح وتساقط أمطار وأحياء برية النشأة، نباتية أو حيوانية برية كانت أو مائية، إضافة إلى موارد المياه العذبة والمالحة.

البيئة الاصطناعية: وهي التي شيدها الإنسان من خلال تفاعله مع بيئته الطبيعية كالمصانع والسيارات وما شيد من منشآت¹.

كما يمكن أن نستخلص من مجموع هذه التحديدات الاصطلاحية للفظ "بيئة" أنها تضم ثلاث منظومات متكاملة وفق ما انتهت إليه استنتاجات الباحثين محمد الصباريني ورشيد الحمد، وهي (المحيط الحيوي "biosphere"، والمحيط المصنوع أو التكنولوجي "Technosphere"، والمحيط الاجتماعي "Sociosphere"، فالأول يشمل بيئة الحياة الأصلية أو الفطرية التي أوجد الله الإنسان فيها، والثاني يتألف من كافة ما أنشأه الإنسان في البيئة الطبيعية باستخدام مكوناتها، من مدارس، ومراكز صناعية، ومشاريع زراعية، وطرق، ومستشفيات. أما الثالث فيشمل المنظومة التي تدير في إطارها الشؤون الحياتية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية للجماعة البشرية)².

ويلحق عدنان بن صادق ضاهر على هذه التعريفات اللغوية والاصطلاحية للفظ بيئة بأنها لم تشر إلا للجانب المادي والمحيط الجغرافي، مهملة بذلك أو متغاضية عن الجانب الروحي والإيماني، وكذا القيمي والسلوكي والأخلاقي المرتبط

¹ - الصمادي (عدنان أحمد): منهج الإسلام في الحفاظ على البيئة من التلوث، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، عدد 51، 1423هـ/2002م، ص ص 301-302.

² - صباريني محمد والحمد رشيد: الإنسان والبيئة، ص 23.

بالإنسان، بوصفه الركن الأساس في حماية البيئة والحرص على توازنها¹. لكنني أرى شخصياً، من خلال استقرار معظم التعريفات التي حددت مفهوم البيئة أنها لا تعدم، في مجموعها، الإشارة إلى تلك اللمسة الإيمانية أو البصمة الروحية التي أنكرها عدنان بن صادق ضاهر بشكل كلي وقطعي من خلال حكمه السابق، إذ إن هناك بعض التحديدات التي يمكن أن نشتم منها تلك النفحة القيمية والسلوكية المرتبطة بالإنسان كتعريف البيئة بأنها (هي المخزون الذي خلقه الله سبحانه وتعالى للإنسان الزاخر بالعناصر التي يحولها الإنسان بجهده إلى موارد نافعة لحياته وثروات للإفادة منها في عيشه وبقائه)².

نستنتج من كل التحديدات السابقة بأن مفهوم البيئة منذ بداياته الأولى لم يستقر على تحديد واحد جامع مانع، فقد ظل يتغير بحسب الاجتهادات التي كانت تنتهي إليها الدراسات البيئية من حين لآخر، والتي كانت تسجل في كل مرة اكتشافات وابتكارات جديدة وضوابط علمية غير مسبقة..

2- مفهوم البيئة في التصور الإسلامي:

لا يختلف اثنان في أن مفهوم البيئة في الإسلام مفهوم واسع وشامل، مصدره إيماني عقدي ما دام مقتنعاً بأن خالق وموجد وفاطر هذه البيئة هو الله سبحانه وتعالى، وأن الإنسان مستخلف فيها وأمين على مكوناتها ومقدراتها، يتبادل معها التأثير والتأثير إن سلبا وإن إيجابا بحسب انقياده لأحكام الله تعالى وتشريعاته.

فلا يخالجن أحد الشك في أن مفهوم البيئة في الإسلام يصر على إبراز ذلك الخيط الناظم الذي يربط بين مكونات البيئة والنظام البيئي وبين النفس البشرية

¹ - عدنان بن صادق ضاهر: أحكام البيئة في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والقانون، الجامعة الإسلامية، غزة، 1430هـ/2009م ص 14 (بتصرف)

² - محمد عمر: حماية الإسلام للبيئة، اللواء الإسلامي، 1230، 2005، ص 6.

التي يراد لها أن تبلغ درجة التزكية والتطهير. ومن الأمور التي يمتاز بها مفهوم البيئة في المنظور الإسلامي، ما يلي¹:

* شمولية مفهوم البيئة: حيث إن البيئة تشمل الكون كله، من مكونات مادية حية وغير حية، مصداقا لقول المولى تبارك وتعالى: ﴿الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارٍ مِنْ نَارٍ (15)﴾².

* ارتباط مكونات البيئة فيما بينها: لقد جاء النص القرآني في أكثر من موطن ليشهد على قوة ومتانة الارتباط بين مختلف مكونات البيئة من خلال تلكم العلاقة السببية المنطقية الجامعة بين عناصرها. يقول الحق سبحانه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (19) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (20)﴾³.

* التوازن البيئي: ويفهم منه أن الله تبارك وتعالى قد خلق هذه البيئة بمقادير معلومة ومكونات مضبوطة، بشكل يمكنها من توفير أسباب حياة ملائمة متوازنة للمخلوق البشري، وكذا باقي الكائنات البشرية التي تقتسم معه الحياة في هذه المعمورة. يقول الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾⁴، ويقول عز من قائل:

¹- راجع هذه الخاصيات في: إيمان قشقوش: موقف الشريعة الإسلامية من موضوع حماية البيئة، الصفحات

14-15-16

²- سورة الرحمن/ من الآية 1 إلى الآية 15.

³- سورة الروم/ الأيتان 19-20.

⁴- سورة الفرقان/ الآية 2.

﴿إِنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾¹. المفهوم من الآيتين الكريمتين أن كل شيء خلقه الله فهو موزون بصفات وأحجام معينة وبمقادير مضبوطة، بشكل يمكن الإنسان من أن يحيى حياة طيبة كريمة متوازنة شريطة ألا تتدخل أيد بشرية مدمرة ومخربة، فتفقد هذا الكون توازنه واستقراره واعتداله. والآية التالية تزيد من تعزيز هذا الطرح، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾².

* امتثال الكون لأمر الله تعالى: بمعنى أن كل ما على الأرض من مكونات بيئية حية وجامدة، عاقلة وغير عاقلة، ممثلة خاضعة لأمر الله تعالى، بدليل أنها تقسم مع الإنسان خاصيتي التسبيح والسجود لله تبارك وتعالى. يقول الحق سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾³، ويقول عز من قائل: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾⁴.

* البيئة كائن حي: أوضحت نصوص قرآنية وحديثية، بأن البيئة كائن حي، له أحاسيس وانطباعات تعكس وترجم حالة الفرح لدى رؤية عباد الله الصالحين، والحزن والبكاء عليهم في حال افتقادهم، لأنهم أَلْفَوْا منهم أعمال الخير والإحسان، يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾⁵. والعكس صحيح بالنسبة للفساقين، إذ إنها لا تكثر لفقدهم أو هلاكهم، لشناعة أعمالهم وسوء صنيعهم، يقول الحق سبحانه:

¹- سورة القمر/ الآية 49.

²- الحجر/19.

³- سورة التغابن/ الآية 1.

⁴- سورة النحل/ الآيتان 48-49.

⁵- سورة الفرقان/ الآية 63.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾¹، في إشارة إلى قوم فرعون الذين عاثوا في الأرض فساداً².

وجاء في تفسير الطبري: (حدثنا أبو كريب قال: ثنا طلق بن غنام، عن زائدة، عن منصور، عن المنهال، عن سعيد بن جبیر قال: أتى ابن عباس رجل، فقال: يا أبا عباس أرايت قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ فهل تبكي السماء والأرض على أحد؟ قال: نعم إنه ليس أحد من الخلائق إلا له باب في السماء منه ينزل رزقه، وفيه يصعد عمله، فإذا مات المؤمن فأغلق بابه من السماء الذي كان يصعد فيه عمله، وينزل منه رزقه، بكى عليه، وإذا فقد مصلاه من الأرض التي كان يصلي فيها، ويذكر الله فيها بكت عليه، وإن قوم فرعون لم يكن لهم في الأرض آثار صالحة، ولم يكن يصعد إلى السماء منهم خير، قال: فلم تبك عليهم السماء والأرض)³.

هذه الآيات الكريمة كلها دليل ناطق وحجة دامغة على أن مفهوم البيئة في الإسلام مفهوم متأصل له خصوصياتها وضوابطه، خصوصيات تربطه بالجانب الإيماني والعقدي والقيمي الذي قد يفتقد في باقي الثقافات الإنسانية الأخرى التي تدعي لنفسها السبق إلى الاهتمام بالشأن البيئي، بل تدعي لنفسها التفرد فيه. وتجب الإشارة في هذا المقام إلى أن كل آية من الآيات التي تم الاستشهاد بها تحمل في طياتها شرحاً وتفصيلاً وتوضيحاً وتزكية لحقيقة هذا الحكم.

¹ - سورة الدخان/ الآية 29.

² - الصعيدي عبد الحكم: البيئة في الفكر الإنساني، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994، ص ص 103-104

³ - الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل القرآن، حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، ج 22/ ص 35.

3-البعد التاريخي للاشتغال بالشأن البيئي في الإسلام :

إن المتأمل في الدراسات والكتابات التي تخص جوانب البيئة وما حوته يخلص إلى ما مؤداها أن الاهتمام بشؤون البيئة وحمايتها والحفاظ عليها مما يمكن أن يلوثها أو يكدر صفوها أو يخل بتوازنها هو من صنيع الغرب واجتهاده، وأنه كان دائما السباق إلى كل مبادرة تخص البيئة وما يتعلق بمقوماتها ومكوناتها...، ناسيا أو متناسيا بأن هذا الغرب نفسه لم يكن في غالب الأحيان حارسا أميناً على هذه البيئة (فهو يلوث أرضها وسماءها وماءها كل يوم بالملوثات على اختلاف أنواعها الكيماوية، والإشعاعية، والصناعية وغيرها، وهو يلقي بنفاياته وفضلاته في محيطاتها وبحارها وأنهارها، وهو يتسبب في القضاء على حيواناتها وطيورها الجميلة، ومزارعها الخضراء، وبساتينها الغناء، يؤثر مصالحه ورغباته في تحقيق الرفاهية والريح المادي والتقدم الصناعي على حسابها، وهذا الإجحاف بحقها ينذر بنتائج كارثية على هذه الأرض وعلى من يقطنها من الأحياء والأشياء)¹.

فليحذر هذا المتأمل في الدراسات والكتابات التي تخص البيئة من مغبة إهماله لذلك البعد الإسلامي في توظيف لفظ "البيئة" ومدلولاتها المختلفة والمتشعبة. فقليلون هم أولئك الذين يقفون عند الدور الريادي للإسلام في حماية البيئة ورعايتها، وما هذا الجهل وذاك التنكر لحضور الإسلام في موضوع البيئة إلا سببا من أسباب غياب البعد التاريخي الإسلامي لمصطلح "بيئة" وكذا مدلولاته عند هؤلاء. لقد حث الإسلام من خلال تشريعاته وأحكامه ونصوصه وآدابه وإرشاداته إلى حماية البيئة ووقايتها والعناية بها والرفق بكل مكوناتها ومحيطاتها، مع التحذير المسبق من مغبة تكدير صفوها وإلحاق الأضرار بها عن طريق الملوثات بمختلف أنواعها وأجناسها، يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾².

¹ - محمد محمد الشلش: رؤية الشريعة الإسلامية ومنهجها في الحفاظ على البيئة، دراسة في الواقع الفلسطيني، بحث أنجز بجامعة القدس المفتوحة، فلسطين، ص153.

² - سورة الأعراف/ الآية 85.

فكما إنه (أي الإسلام) شجع ورغب في كل ما هو مفيد ومُجد للبيئة الإنسانية والطبيعية، وضع كذلك عقوبات على المسيء للبيئة بكل جوانبها؛ فقد سن لأجل ذلك قوانين وأنظمة من شأنها أن تحفظ للبيئة جماليتها ورونقها، بدءاً من أول التاريخ البشري إلى يوم الناس هذا، وما يستقبل من الأزمنة، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فيها نحن نجد القرآن الكريم يوجه ويرشد سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل، عليهما السلام، منذ آلاف السنين إلى الاعتناء ببيت الله الحرام وبنظافته وتطهيره، وكذا طهارة من يتوجه إليه، حساً ومعنى، مصداقاً لقول المولى تبارك وتعالى: ﴿وَعَهْدُنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهَرًا بَيْنِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾¹. (وأن تكون مكة نموذجاً للطهارة الحسية والمعنوية حتى أنه حرم مجرد استقبالها في قضاء الحاجة، بل حرم البصق باتجاهها صيانة لحرمتها)². ولقد تشبع علماء المسلمين بهذا الحس القرآني في ضرورة الاعتناء بالبيئة لما لها من أثر بالغ وواضح في حياة الناس وسلامة صحتهم. فهذا ابن قتيبة الدينوري يرى بأن عدم سكنى العرب في المدائن وانتقالهم إلى البيئة الملائمة وهي الكوفة واتخاذهم لها مقر إقامة، يعود إلى سبب بيئي³. ويذهب الجاحظ إلى أن فساد البيئة لا يؤثر فقط في الجسم، بل يعمل على فساد الطباع، يقول: (لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام)⁴.

لقد حدد الإسلام المنهج والسبيل أو السبل التي يتحتم على الإنسان اتباعها في تعامله مع البيئة، من خلال ضبط قواعد علاقته بها في تعامله مع مكوناتها المادية

¹ - سورة البقرة/ الآية 125.

² - عبد الله قاسم الوشلي: التوجيه التشريعي الإسلامي في نظافة البيئة وصحتها، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، عدد 44، ذو القعدة 1429، ص 368.

³ - ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري): عيون الأخبار، تحقيق منذر محمد سعيد أبو شعر، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، 1429هـ/ 2008م، ج1/ص319.

⁴ - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): كتاب الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط2، شركة مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1385هـ/ 1966م، ج4/ ص70.

منها والمعنوية على حد سواء، حتى يتسنى له الانتفاع بمقدراتها الاقتصادية والاجتماعية، والبيولوجية، والفيزيائية. كيف لا وقد ضبط الإسلام طريقة تعامل الإنسان مع الأرض والماء، والهواء، والحيوان، والنبات.. فما من دقيقة ولا جزئية إلا وقد حدد هذا الدين الحنيف طريقة تعامل الإنسان معها في علاقته مع كل الأشياء المتوافرة في هذا الكون إكراما له، باعتباره خليفة الله في أرضه¹.

غير خفي على كل ذي لب أن الشريعة الإسلامية كان لها دوما السبق في معالجة كل ما فيه صلاح العباد في معاشهم وصحة أجسادهم، وادخار مواردهم، وعاقبة أمرهم في الحال والمآل. ويأتي في طليعة هذه الأمور الشأن البيئي بمدلوله الواسع والدقيق. ويحيى على رأس النصوص التي أولت أهمية كبرى للبيئة في الإسلام، القرآن الكريم الذي خصص مساحة واسعة للحديث عن البيئة بكل مكوناتها ومقدراتها²، يتلوه بعد ذلك في المقام التالي ما ورد في أحاديث رسول الله ﷺ من إشارات وإرشادات هامة تخص حماية البيئة وحفظها، فكتب الفقه والقواعد وما حوته من قضايا البيئة بتبويباتها المختلفة.

1-3 البيئة في القرآن الكريم :

تكلم القرآن الكريم فيما يزيد عن السبعمائة آية كريمة عن البيئة ومكوناتها من أرض، وأشجار، وحدائق، وماء، وأنهار، وبحار، ورياح، وسحاب، وبرق، ورعد، وغلاف جوي، وحيوان وطيور، وحوت... يقول المولى تبارك وتعالى عن الأرض التي هيئها لتكون سكنا لعباده من بني آدم: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾³. ويقول عز

¹ قاسم محمد جابر: التربية البيئية في الإسلام، مجلة أسبوط للدراسات البيئية، جامعة أسبوط، مركز الدراسات والبحوث البيئية، مصر، العدد 31، يناير 2007، ص ص 119-120 (بتصرف شديد).

² عدنان بن صادق ضاهر: أحكام البيئة في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير في الفقه المقارن، كلية الشريعة والقانون في الجامعة الإسلامية، غزة، 1430 هـ/2009م، بتصرف شديد عن ص 8.

³ سورة الذاريات/ الآية 48.

وجل: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾¹ ويقول سبحانه متحدثاً عن خيرات الأرض وما تنبتة من زروع وغيرها: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾². ويقول عز من قائل في شأن البحر وعظمته وما أودعه سبحانه فيه من أرزاق وأقوات: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِنَآكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾³. ويقول تعالى متحدثاً عن العمليات المناخية التي تحدث في الغلاف الجوي للأرض وعن الرياح والبرق والرعد وما ينجم عن ذلك كله من نزول للغيث رحمة للعباد: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَنُفِثُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ - فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾⁴. كما يصور لنا سبحانه عوالم الحيوان والطيور في قوله عز شأنه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ سَيِّئٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾⁵.

2-2 البيئة في الحديث الشريف:

أما عن الأحاديث النبوية التي جاءت متضمنة العناية بالبيئة ورعايتها والحفاظ عليها، وضرورة استثمارها والانتفاع بها مع عدم إهدار خيراتهما، فنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما روي عن عبد الله بن حبشي، قال: قال رسول الله ﷺ:

¹ - سورة الرحمن / الآية 10.

² - سورة الرعد / الآية 4.

³ - سورة النحل / الآية 14.

⁴ - سورة الروم / الآية 48.

⁵ - سورة الأنعام / الآية 38.

⁶ - عدنان بن صادق ضاهر: أحكام البيئة في الفقه الإسلامي، ص ص 8-9 (بتصرف)

((من قطع سدره صوب الله رأسه في النار)) رواه أبو داود¹ وقال: "هذا الحديث مختصر يعني: من قطع سدره في فلاة يستظل بها ابن السبيل والهائم غشما وظلما بغير حق يكون له فيها؛ صوب الله رأسه في النار. كما إنه، صلى الله عليه وسلم، كان يدعو إلى ضرورة الاهتمام بالغرس والزراعة، من ذلك ما جاء في "صحيح مسلم": ((مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَزْرَعْهَا، وَعَجَزَ عَنْهَا، فَلْيَمْنَحْهَا أَخَاهُ الْمُسْلِمَ وَلَا يُؤَاغِرْهَا إِيَّاهُ))².

3-3 البيئة في كتب الفقه والقواعد:

لا يكاد يخلو مصنف من مصنفات الفقه أو القواعد إلا وفيه إشارات ومباحث تخص البيئة وقضاياها، من خلال التبويب لها، كباب المياه وإحياء الموات، وباب الطعنة، وباب الشربة، وباب الصيد.. ونحو ذلك..

كما إن مصنفات الحسبة والنوازل، والفتاوى، وقواعد الفقه لم تعد من الإشارات المتكررة والمتعددة المتعلقة بالتلوث البيئي، والأبنية الفوضوية، والأدخنة والفضلات والمياه القذرة وما سوى ذلك، مما يقع في المدن الإسلامية الكبرى مشرقا ومغربا، لاسيما تلك التي شهدت مستوى حضاريا متطورا؛ ما حدا بأصحاب هذه المصنفات إلى وضع قوانين وتشريعات تبغي ضبط ومعالجة مختلف المشاكل البيئية، ودفع الضرر عنها عبر قواعد فقهية وأصولية، فضلا عن مقاصد الشرع التي جاءت لتحقق مصالح العباد وإتمامها. ولقد أبانت هذه المصنفات عن رؤيا وتصور إسلاميين غير مسبوقين عن البيئة وقضاياها³.

¹- أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني): السنن، كتاب الأدب، باب في قطع السدر، الحديث رقم 5239، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. 1416هـ/ 1996م، ج3/ ص 364.

²- مسلم: الصحيح، كتاب البيوع، باب كراء الأرض، الحديث رقم 91، ج3/ ص 1176.

³- النجار (عبد المجيد عمر): قضايا البيئة من منظور إسلامي، ط3، وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1409 هـ، 1999م، بتصرف عن ص 44.

3-4 البيئة في المؤلفات الإسلامية المستقلة:

لقد صنف علماء المسلمين مؤلفات في علم البيئة وخصائصها من خلال معالجة قضايا طبية وعلمية وأدبية تخص البيئة النباتية والحيوانية.

فمن أوائل الذين ألفوا في علم الحيوان كما هو معلوم العلامة الجاحظ (ت 255 هـ). فقد أثبت من خلال كتابه "الحيوان" مدى التأقلم الحيواني بالبيئة، مشيراً إلى نظرية المكافحة الحيوية باستعمال بعض الحيوانات في القضاء على بعض. كما ألف زكريا بن محمد القزويني (ت 682 هـ) مؤلفين أحدهما بعنوان "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، والآخر "آثار البلاد وأخبار العباد" أثار من خلالهما تأثير البيئة في الحيوان، دارسا العلاقة بين الحيوانات، مثبتا بذلك مسألة التكافل والمشاركة بينها؛ وهي القضية التي أكدها في فترة لاحقة كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى الدميري (ت 808 هـ) في كتابه "حياة الحيوان الكبرى".

على أن أول من وظف مصطلح "بيئة" بمفهومه الاصطلاحي في التراث العربي الإسلامي مسلمة بن أحمد المجريطي (ت 398 هـ) مثبتا تأثيرها في الأحياء من خلال براعته في علم الكيمياء، وذلك في كتابه: "في الطبيعيات وتأثير النشأة والبيئة على الكائنات الحية"، ومتحدثا عن مراتب الهيمنة الحيوانية.

وقد فسر أبو حنيفة الدينوري (ت 282 هـ) علاقة النباتات ببيئتها من خلال مؤلفه "النبات" الذي عمد فيه إلى تصنيف النباتات.

أما عبد الله بن أحمد بن البيطار (ت 646 هـ) فقد درس ووصف النباتات في مختلف البلاد، مما أعانه في تصنيفها بشكل دقيق¹.

¹ - عليان حاتوغ بوران ومحمد حمدان أبو دية: علم البيئة، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن، 1994، الصفحات بتصرف عن الصفحات 14-15-16.

كل هؤلاء وغيرهم من العلماء المسلمين ساهموا في رسم وتهيئة معالم علم البيئة الحديث.

بناء على ما سلف يمكننا الوقوف على البعد التاريخي الإسلامي للانفعال والاهتمام بالشأن البيئي، من خلال دراسة مفاهيمها وخصائصها، مع الوقوف عند الأحكام الشرعية الخاصة بها.

لائحة المصادر والمراجع

المصادر:

- القرآن الكريم

كتب الحديث:

- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي): صحيح البخاري، طبعة جمعية البشري الخيرية للخدمات الإنسانية والتعليمية، كراتشي، باكستان، 1437هـ/2016م.
- أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني): السنن، تحقيق محمد عبد العزيز الخالدي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. 1416هـ/1996م.
- ابن دقيق العيد: إحكام الأحكام، شرح عمدة الأحكام، دار الجيل، 1416هـ/1995م.
- السفاريني (محمد بن أحمد بن سالم): غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، ط2، مؤسسة قرطبة، 1414هـ/1993م.
- الطبراني (أبو القاسم سليمان بن أحمد): المعجم الكبير، حققه وخرج أحاديثه حمدي عبد المجيد السلفي، الناشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1404هـ/1983.
- الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير): جامع البيان عن تأويل القرآن، حققه وخرج أحاديثه محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر، بدون تاريخ.
- مسلم (أبو الحسين بن الحجاج القشيري النيسابوري): صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، دار الحديث، القاهرة، 1412هـ/1991م.
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر): كتاب الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ط2، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1385هـ/1966م.
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري): عيون الأخبار، بيروت، 2003.

المراجع العربية:

- الخياط محمد هيثم: صحة البيئة في ميزان الإسلام، صدر ضمن سلسلة الهدي الصحي للتثقيف الصحي من خلال تعاليم الدين، رقم 7، منظمة الصحة العالمية، المكتب الإقليمي للشرق المتوسط، 1995.
- صباريني محمد والحمد رشيد: الإنسان والبيئة، دار الكندي، الأردن، 1994.
- الصعيدي عبد الحكيم: البيئة في الفكر الإنساني، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994.
- عليان حاتوغ بوران ومحمد حمدان أبو دية: علم البيئة، ط1، دار الشروق، عمان، الأردن، 1994.
- عويس (جمال السيد): الملوثات الكيميائية للبيئة، دار الفجر، مصر، 2000.
- غرابية سامح والفرحان يحيى: المدخل إلى العلوم البيئية، دار الشروق، ط3، عمان، الأردن، 1419 هـ / 1999 م.
- الفقي (محمد عبد القادر): البيئة مشاكلها وقضاياها، مكتبة ابن سينا، القاهرة.
- مرسي محمد: الإسلام والبيئة، ط1، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، الرياض، 1420 هـ / 1999 م.
- النجار (عبد المجيد عمر): قضايا البيئة من منظور إسلامي، ط3، وزارة الوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1409 هـ، 1999 م.
- وهي صالح: الإنسان والبيئة والتلوث البيئي، دار الفكر العربي، دمشق، 2001.

المراجع الأجنبية:

- CJ Borrow, developing The Environment (England, Longman Scientific and Technical, 1995).

المعاجم القديمة:

- الجوهري (إسماعيل بن حماد): الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999.

- الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي هلاي، ط2، سلسلة التراث العربي، مطبعة حكومة الكويت، 1407هـ/ 1987م.
- ابن فارس (أبو الحسين أحمد بن زكريا): معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1411هـ/ 1991.
- الفراهيدي (عبد الرحمن الخليل بن أحمد): كتاب العين، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003.
- ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الأفريقي المصري الأنصاري): لسان العرب، دار الحديث القاهرة، 2002.

المعاجم الحديثة:

- إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1425هـ/ 2004م.
- الخطيب (محمد شفيق): قاموس العلوم المصور بالتعريفات والتطبيقات، مكتبة لبنان، بيروت، 1991.
- دبس (محمد محرر): معجم مصطلحات العلوم والتكنولوجيا، معهد الإنماء العربي، بيروت، 1988.
- الموسوعة الميسرة، ط2، طبعة دار الشعب، مؤسسة فراكلي، 1972.

المجلات:

- - الخضي محمد أحمد ونواف أحمد سمارة: القيم البيئية من منظور إسلامي، مجلة الزرقاء للبحوث والدراسات الإنسانية، المجلد التاسع، العدد الثاني، 2009.
- - زرمان محمد: التصور الإسلامي للبيئة - دلالاته وأبعاده- مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، عدد 55، 1424 هـ/ 2003م.
- - الطعيمات (هاني سليمان): البيئة وعلاقتها بحقوق الإنسان والمنهج الإسلامي في حمايتها،

مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد 17، عدد 3، 2002.

- - قاسم محمد جابر: التربية البيئية في الإسلام، مجلة أسيوط للدراسات البيئية، جامعة أسيوط، مركز الدراسات و البحوث البيئية، مصر، العدد 31، يناير 2007.
- - الكيلاني (إبراهيم زيد): حماية البيئة في الإسلام، مجلة دراسات، عدد 3، مجلد 15، 1988.
- - الوشلي عبد الله القاسم: التوجيه التشريعي الإسلامي في نظافة البيئة وصحتها، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 44، ذو القعدة 1429.
- السلسلات:
- - حافظ صلاح: الوضع البيئي في مصر حماية البيئة من التلوث واجب ديني، جمع وإعداد: سلسلة المنتدى الاقتصادي، القاهرة، 1998.

البحوث الجامعية:

- الشلش محمد محمد: رؤية الشريعة الإسلامية ومنهجها في الحفاظ على البيئة، دراسة في الواقع الفلسطيني، بحث أنجز بجامعة القدس المفتوحة، فلسطين، 2009.
- عدنان بن صادق ضاهر: أحكام البيئة في الفقه الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والقانون، الجامعة الإسلامية، غزة، 1430هـ/2009م
- قشقوش إيمان: موقف الشريعة الإسلامية من موضوع حماية البيئة، أطروحة مقدمة في نطاق الواجبات نيل ماجستير في الآداب، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة حيفا، تموز 2007.

في تعريف الاغتراب

د. فريد أمعضشو

باحث من المغرب



كثيرة هي المفاهيم والقضايا التي استأثرت باهتمام الباحثين في العلوم الإنسانية قديماً وحديثاً، منها - على سبيل التمثيل لا الحصر - مفهوم "الاغتراب" (Aliénation)، الذي تُنَوَّل في مجالات الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس والأدب والفن ونحوها منذ وقت مبكر، في الغرب كما في الشرق.

وقد كان فلاسفة اليونان الأقدمون من السَّابِقين إلى معالجة قضية الاغتراب، ومحاولة تحديد مفهومه؛ إذ كانوا يُريدون بالاغتراب حرمان الإنسان من حقه الطبيعي أو القانوني، وكان أفلاطون - الذي اغترب عن أخلاقيات عصره ومجتمعه، ودعا إلى إقامة جمهورية فاضلة، يحكمها الفلاسفة، حتى يتحقق العدل - يقصد به ابتعاد الإنسان عن عالم المثل، وعيشه في عالم أرضي طارئ بدون إرادته...

ومع انطلاق عصر النهضة في أوروبا، صرنا نلمح الاغتراب بوضوح؛ كما عند روميه ديكرت، الذي دعا إلى العيش وفق رؤية جديدة، تعتمد العلم؛ من خلال شعاره المعروف بـ "الكوجيطو" (Cogito). فالاغتراب، في نظره، إنما هو اغتراب الذات عن نفسها في الأساس. كما أن الاغتراب في الفلسفة الديكارتية يظهر في عدة مجالات، منها¹:

أ- الكوجيطو الديكارتية؛ حيث يتبين اغتراب الأنا عن ذاته، وهو ما يمكن أن يُطلق عليه اسم "الاغتراب الميتافيزيقي" (Aliénation métaphysique).

¹ - حبيب الشاروني: الاغتراب في الذات، مجلة "عالم الفكر"، الكويت، ع.1، مع.10، 1979، ص.70.

ب- الاغتراب الأنطولوجي؛ حيث تزدُّ الحياة الانفعالية إلى آلية الأرواح الحيوانية.

ج- الاغتراب الوجودي؛ حيث تعيش الذات تجربة الانفعال في نطاق الـ "أنا أفكر".

ثم إن الذي يطَّلَع على سيرة ديكارت يكشف - من كثبٍ - أنه كان يؤثرُ حياة الاعتزال والاعتراب، إلى درجة أن بعض الباحثين يصفون حياته بكونها "حياة فيلسوف مغترب". وينتفي العجب إذا علمنا أن ديكارت عاش أكثر حياته خارج بلده فرنسا، وفي عزلة بالغ فيها، إلى حدِّ إخفاء مقرِّ إقامته عن معارفه! وقد طبع هذا كلُّه فلسفة ديكارت العقلانية... وبعد ذلك، سوف نرى الاغتراب، بقوة، في بريطانيا مع طوماس هوبز، الذي كان يرى أن استمرارية الاغتراب بين الفرد والمجتمع رهينٌ بانغلاق الفرد على نفسه، على حين ينتفي ذلك بمجرد انضمام الفرد إلى المجتمع، وتسليمه لنواميسه ومبادئه.

لقد تعمَّق مفهوم الاغتراب في العصر الحديث؛ بسبب تعقُّد العلاقات الاجتماعية، ونُموّ المجتمعات البشرية، وظهور الحركة الإمبريالية بوصفها تتويجاً لتطور الرأسمالية الغربية، التي تقف عقبةً كأداءً تحُول دون تحقيق التطلعات البشرية، وتكبح حرية التفكير والتعبير. وموازةً مع هذا، تناولت الفلسفة الحديثة أطروحة الاغتراب بعُمق وتفصيل، ولمعت فيها أسماء رائدة، كان لأفكارها بالغُ الأثر في هذا المجال. ونخص بالذكر فريدريك هيجل وكارل ماركس.

ومن المعروف أن مصطلح "الاغتراب" لم يصبح مصطلحاً فلسفياً في الغرب إلا مع فشته (1762-1814م)، الذي استخدم الكلمة الألمانية (Entaeussering) بمعنى تخارج الذات عن الموضوع.

ويعتبر بعضُ الباحثين هيجل "أبا الاغتراب"؛ وذلك بالنظر إلى ريادته في هذا المضمار، وإسهامه الواضح في دراسة الاغتراب، ومحاولة معالجته بالطرق التي تتلاءم

وطبيعة فلسفته. لقد رأى هيجل الاغتراب في صميم بنية الحياة الكلية، وعالجه بكيفية مجردة، تنأى عن الواقع الحسي؛ فتبين له أن الاغتراب عن البنية الاجتماعية يترتب عنه اغتراب عن الذات، وهذان الاغترابان يُفْضِيَان إلى الاغتراب عن العقل؛ معنى هذا أن ثمة "اغتراباً كلياً". والسؤال المطروح، ها هنا، هو: كيف يمكن تجاوز الاغتراب؟ يتم ذلك، لدى هيجل، بتنازل الفرد عن ذاته، حتى يتم الالتحام بينه وبين البنية الاجتماعية، وهذا الالتحام يؤدي إلى عودة النشاط الطبيعي إلى العقل.

والاغتراب عند هيجل كان -أيضاً- اغتراباً دينياً طبقاً للتصورات المسيحية عن الخطيئة والسقوط والطرد والجحيم، وهذا المعنى سيتعمق أكثر لدى الهيجليين الشبان؛ من أمثال باور (1792-1860م)، وفيورباخ (1804-1872م)، وشتراوس (1808-1874م).

يرى فيورباخ أن الكشف عن الاغتراب لا يتم إلا من خلال فلسفة الدين. فالاغتراب -أساساً- هو الاغتراب الديني، والاغتراب الديني هو أساس كل اغتراب فلسفي، أو اجتماعي، أو نفسي، أو بدني¹. والواقع أن في فكر فيورباخ وآرائه تهجماً بيتاً على الدين والثوابت المسيحية المقدسة! لذا، فقد اتهم بالإلحاد، وعدّه اللاهوتيون مدمراً للدين إلى الأبد.

وإذا كان هيجل قد تناول الاغتراب بعيداً عن الواقع، فإن ماركس ربطه بالواقع الاقتصادي، وأسبغ عليه طابعاً إمبريقياً وسوسيولوجياً. فالاغتراب، في نظر ماركس، متجلى في حالات اغتراب العامل عن نتاج عمله، حتى ليغدو هذا الإنتاج غريباً ومستقلاً عن مُنتِجه، وذلك راجع إلى طبيعة آلية الاستغلال في المجتمع الرأسمالي، الذي لا يهتم سوى بتحصيل الأرباح، بأي وسيلة كانت. ويرى ماركس أن اللجوء إلى الثورة، ومحاربة القائمين على النظام السائد المستغل، هو السبيل الأقوم إلى تجاوز حالات الاغتراب المعيشة.

¹ - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (حسن حنفي: الاغتراب الديني عند فيورباخ، عالم الفكر، ع. 1، مج. 10، 1979).

وعقب ذلك، اتسعت حدود الاغتراب في كتابات الكثير من رجالات الفلسفة، ولاسيما لدى أولئك الذين ضاقت بهم السُّبُل، ورأوا في المجتمع الرأسمالي خاتمة المجتمعات البشرية، وأنه لا مَهْرَبَ من الإذعان لِعَصَاهُ السحرية. ففي ألمانيا -مثلاً- برز شوبنهاور، الذي أكّد أن الإنسان مغتربٌ بالضرورة في كتابه "العالم كإرادة وامثال"، وأيضاً نيتشه، الممهد لميلاد النازية، الذي ذهب إلى أن الاغتراب يظل قائماً، وإلى أن الإنسان السوبرمان (Superman) هو وَحْدَهُ الذي يستحقُّ العيش.

ومن الواضح أن الاغتراب شكّل في الفلسفة الوجودية أرضاً مَرِيعةً تَزَعِي فيها أقلامُ الوجوديين، الذين يركّزون على الوجودان الذاتي، ويحرصون أشدَّ الحِرْص على حرية الإنسان في مجتمع متميّن، لم يُعَدَّ يَغْنِيهِ إلا الرِّيح السَّريع. ولقد بدأت هذه الفلسفة في النمو مع الدانماركي كيركجارد، الذي رأى أن الفرد مغترب عن ذاته وعمّا حوله، وأن اليأس صفة داخل نَسِيج وجوده. وقد اتضح له أن تجاوز الاغتراب يتم عن طريق الدين. ثم تطورت هذه الفلسفة، واعتنقها فلاسفة عديدون، فانقسمت إلى اتجاهين اثنين؛ أحدهما متديّن، والآخر مُلحد. ولكلٍ منهما نظرته الخاصة إلى الاغتراب. ومهما كان الأمر، فالوجودية تيار لاعتقلائي يرى الاغتراب في "البُعد عن الوجود العميق؛ بحيث لا يكون الإنسان ذاته، وإنما مجرد صِفر على الشِّمال في الوجود الجَمْعِي للجماهير، أو مجرد تُرْس في نظام صناعي"¹. ويضيف الوجوديون أن الإنسان مُدانٌ بالاغتراب، وأنه مهما حاول التملُّص من سَطْوَتِهِ، فإنه سيموت مُغْتَرِباً؛ لأن الحياة نفسَهَا اغتراب². ويظهر الاغتراب - بصورةٍ أجلي - في كتابات ممثِّل "الوجودية الجديدة" .. الإنجليزي كولن ويلسن، الذي اتضح له - بعد تحليل جملة من أعمال الوجوديين السابقين - أن "اللائتِماء" صفة لازمة، تطبّع نفسيات العديد من الكتاب والمفكرين والفنانين...

¹ - عبده بدوي: الغربة المكانية في الشعر العربي، عالم الفكر، ع. 1، مج. 15، 1984، ص 13.

² - فاطمة طحطح: الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ط. 1، 1993، ص 34.

وبمُكْنَتنا الحديث، كذلك، عن الاغتراب عند الفرويدية، التي تركّز على عنصر "اللاشعور". فقد تطرق سيغموند فرويد إلى مسألة الاغتراب لمّا تناول العلاقة بين الفرد والحضارة؛ بحيث رأى أن كل فرد - في الواقع - هو عدوّ للحضارة؛ هذه الحضارة التي صنعها الإنسان دفاعاً عن ذاته إزاء عدوان خارجي، يتمثل بالطبيعة، بيد أنها جاءت على نحوٍ يتعارض وتحقيق أهدافه وطموحاته؛ إذ الحضارة تقوم على كبت الغرائز؛ ولهذا فهي "عصابية" الطابع¹.

بوَدّنا أن نتحدث كثيراً عن الاغتراب في الفلسفة، ولكنّ ضيق المجال لا يسمح بذلك... وتجب الإشارة إلى أن هناك ثلاث ملاحظات رئيسية، لا يمكن أن يغفل عنها المطلّع على كلام الفلاسفة السالف ذكره، وهي كالآتي:

* تناول الفلاسفة - قداماؤهم ومُحدّثوهم - ظاهرة الاغتراب؛ فحاولوا تحديد مفهوما، وتبيان مولداتها المختلفة، وطرح الحلول النظرية والعملية لتجاوزها.

* يتعدّد الاغتراب بتقدّم المجتمعات البشرية وتطورها؛ إذ "الاغتراب يتضخّم ويتشعّب كلما تعقدت المجتمعات البشرية وتطورت"².

* نستطيع القول إن "كل المعاني الفلسفية الحديثة -تقريباً- لمصطلح "الاغتراب" تدور حول محور واحد، وهو الانفصال"³.

وقد انتقل مفهوم الاغتراب من إطار اللاهوت والفلسفة إلى المضامير الإنسانية والعلمية؛ فتشعّبت معانيه، وارتبط أكثر بواقع الإنسان الداخلي والخارجي. وهكذا، فقد كان لعلم الاجتماع أولاً - ثم للأنثروبولوجيا فيما بعد - أثر عميق في مجال دراسة الاغتراب، وبلورة مفاهيمه ونظرياته. ويتفق السوسيولوجيون على أن التغيّر الاجتماعي السريع، والتطور التكنولوجي الهائل، من الأسباب الرئيسة

¹ - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (مراد وهبه: الاغتراب والوعي الكوني، عالم الفكر، ع. 1، مج. 10، 1979).

² - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، عالم الفكر، ع. 2، مج. 15، 1984، ص. 85.

³ - أحمد حماد: الاغتراب في الأدب العربي المعاصر، عالم الفكر، ع. 3، مج. 24، 1996، ص. 38.

التي تقبّع وراء قيام حالات اغترابية كثيرة في المجتمعات الرأسمالية المصنّعة. فالاغتراب، من وجهة نظر علم الاجتماع، ظاهرة عالمية، تكشف النّقاب عن انخلاع الإنسان، وابتعاده عن الواقع المعيش، الذي تحكّمه الممارسات الشاذة والمستبدّة. وفي الوقت نفسه، فإنّ الاغتراب مهمٌّ لفضّح تناقضات المجتمع الغربي، وعلاقته الاستغلالية... وعلى هذا الأساس، فقد استُخدِم "لوصف مجموعة مختلفة من الظواهر، تتضمّن الإحساس بالانفصال وعدم الرضا عن المجتمع، والإحساس بوجود انهيار أخلاقي في المجتمع، وبالعجز عن مواجهة المؤسسات الاجتماعية والطبيعية للإنسانية للمؤسسات البيروقراطية"¹.

أما علماء النفس، فيعتبرون الاغتراب سلوكاً مَرَضِيّاً، يَعمَلُ موقفاً إنسانياً من الذات خاصةً. وهذا المعنى يمتاز، من سائر المعاني، بكونه يَنطوي على شعور الفرد بانفصاله وأنسلاخه عن ذاته. ويُعدُّ ما كتبه إريك فروم، في هذا الشأن، من أهمّ البُحوث دقة وعمقاً. فقد تناول هذا العالم موضوعَ الاغتراب من زاوية "تكوين الشخصية"؛ فرأى أن الاغتراب هو نمطٌ من التجربة، يرى الفرد نفسه فيها كما لو كانت غريبة عنه. فالفرد يصير - إذا جاز هذا التعبير - منفصلاً عن ذاته.²

ولا ريب في أن الاغتراب يحضّر أيضاً في الأدب والفن، ويدخل - كما هو متداول بين كثيرين - في تركيبة كيانات الأدباء والفنانين على اختلاف مستوياتهم العلمية؛ فمن الصواب - حسّهم - أن نقرّ بأن "كل رائد - مهما كان طابعه - يحوي بذورَ اغترابٍ في بُنيانه الداخلي، وأيضاً كل عمل أدبي أو فني... لا بد أن نعثر فيه على جذور للاغتراب منذ أقدم العصور، وحتى الآن، مع التأكيد على أن الاغتراب يميل نحو

¹ - محمد دنون زينو الصانع: اغتراب وغرب، مجلة "آفاق الثقافة والتراث"، الإمارات العربية المتحدة، ع.33، س.9، أبريل 2001، ص ص 60-61.

² - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (قيس النوري: الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً، عالم الفكر، ع.1، مج.10، 1979).

التضخم والتشعب كلما تقدمنا إلى الأمام؛ أي إنه يُمَدّ جذوره أكثر كلما اقتربنا من العصور الحديثة، وخاصة في مجتمعنا المعاصر"¹.

ففي الأدب القديم، نستطيع أن نقرأ الاغتراب في ملحمة هوميروس "الإلياذة والأوديسة"، وفي مسرحيات سوفوكليس، وفي الأدب العبري القديم²... وإذا تقدمنا نحو الأمام، وتوقفنا عند مسرحيات وليام شكسبير (1564-1616م) قليلاً، فإننا نلتَمَس ظاهرة الاغتراب بجلاءٍ، ونتبيّن "أن معظم شخصيات مسرحياته إما هم مغتربون عن الآخرين، أو عن العالم الخارجي، أو عن ذواتهم"³... وفي القرن العشرين، نجد أن الفكرة المحورية في مسرح برتولد بريخت هي مشكلة الاغتراب. ولمركزيتها، فقد جعل بريخت من مقولة الاغتراب تكتيكاً مسرحياً، حاول من خلاله علاج هذه المشكلة، بوصفها مرضاً خطيراً رافق تطور المجتمع الرأسمالي⁴. وقد عبّر المسرح العربي الحديث والمعاصر عن مشكلة الاغتراب؛ من خلال جملة من النصوص لمسرحيين كبار، نذكر منها، هنا، على سبيل التمثيل، مسرحية سليمان الحزامي "مدينة بلا عقول"، التي تكشف عن تسيّد الآلة على مُبدع الآلة، واستحالة الإنسان إلى عَبدٍ للآلة، ومنه سيادة جَوٍّ من الاغتراب في مدينة ذات بُعد أحادي (المادة)⁵...

وصوّرت الرواية - من جهتها - مشكلة الاغتراب. ويمكن أن نمثل لذلك برواية "المسخ" لفرانز كافكا، الذي حاول أن يقدم لنا - من خلالها - صورة شاملة وحيّة عن الاغتراب الذي كان يعيشه إنسان عصره. يقول إبراهيم محمود: "إن رواية 'المسخ'

¹ - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، ص85، بتصرف.

² - للاستزادة فيما يخص جذور الاغتراب في الأدب العبري، يمكن الرجوع إلى (أحمد حماد: الاغتراب في الأدب العبري المعاصر، م.س.).

³ - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، ص86، بتصرف.

⁴ - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (منى سعد أبو ستة: الاغتراب في المسرح المعاصر من خلال مسرح برتولد بريخت، عالم الفكر، ع.1، مج.10، 1979).

⁵ - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (أحمد العشري: الاغتراب التكنولوجي في "مدينة بلا عقول" - دراسة تحليلية مضمونية مقارنة، عالم الفكر، ع.1، مج.25، 1996).

هي رواية الاغتراب... الاغتراب الذي يُفرّزه المجتمع الرأسمالي¹. كما يشكل الاستلاب (أو الاغتراب) "أهمّ سمة تميّز شخصيات فرانز كافكا في رواياته"². ونلاحظ الاغتراب بارزاً في روايات بلزاك، وزولا، وهيجو، وتولستوي، ودوستوفسكي، وغيرهم كثير. كما أنه قد تجذّر في الرواية الواقعية والمعاصرة خاصة، سواء في الغرب أو في الشرق. والثابت أن الرواية العربية قد صوّرت - هي الأخرى - واقع الاغتراب، وحاولت معالجته³. والذي يقرأ، مثلاً، رواية "نهر الجنون" لتوفيق الحكيم لا بدّ من أن يكون قد أدرك أن الرواية تحاول أن تعالج، بطريقتها الخاصة، مشكلة الاغتراب⁴.

ولم تنجُ الفنون الجميلة؛ كالموسيقى والرسم والتصوير، من تأثير مقولة الاغتراب، بل إن الفنان المعاصر يعيش حالة من الاغتراب الشمولي الحاد. وهذا ما صوّرته التيارات الفنية التي ظهرت في الديار الغربية، حينما عكست الواقع المؤبوء، والتجأت إلى خلق دُنيا أخرى من الأوهام والهلوسات.

وليس من النّصفة أن ننكر إسهام الشعر العربي - قديمه وحديثه - في تصوير الاغتراب، بمختلف صُوّره وملامحه؛ فقد عبّر شعراء العربية، منذ الجاهلية إلى يومنا هذا، عن الاغتراب المكاني والنفسي والاجتماعي... ويبرز الاغتراب، بالحاح، في قصائد الشعراء المعاصرين؛ إذ يمثل "ظاهرة عامة في حركة الحداثة في الأدب العربي المعاصر، وما الاختلاف إلاّ في الدرجة، وفي مدى تلاخُم هذا الاغتراب بمحاولات التحديث "التجريب"، وانعكاس كل ذلك - بطريقة مباشرة أو غير مباشرة - في حركة أدبنا الحديث"⁵.

1 - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، ص 121.

2 - مجدي وهبه: معجم مصطلحات الأدب: مكتبة لبنان، بيروت، ط 1974، ص 9، بتصرف.

3 - للاستزادة، يمكن الرجوع إلى (فيصل دراج: الاغتراب في الرواية العربية، مجلة "الأداب"، بيروت، ع. 8/7، س. 49، 2001).

4 - أحمد أبو زيد: الاغتراب، عالم الفكر، ع. 1، مج. 10، 1979، ص 12.

5 - عبد السلام محمد الشاذلي: حول قضايا التغريب والتجريب في الأدب العربي المعاصر، دار الحداثة، بيروت، ط. 1، 1985، ص 72.

إن ظاهرة الاغتراب (أو الغربة) ليست نتاجاً لفرد معين، وليست وليدة هذا العصر بالذات، بل تضرب بجذورها في عمق التاريخ؛ فهي تحضر في أشعار عرب الجاهلية¹، وشعر الفتوح الإسلامية، وقصائد العباسيين؛ كأبي نواس وأبي الطيب المتنبي، وكذا في أشعار الأندلسيين²، وأشعار شعراء العصر الحديث؛ كجبران خليل جبران³... ولم تفت الشعراء المعاصرين؛ كأمل دنقل ومحمود مفلح وحسن الأمrani، فرصة تناول مسألة الاغتراب. وعليه، يمكن أن نؤكد "أن الاغتراب من طبيعة الإنسان، بل يمكن القول - والتوكيد على ذلك - أنه دافع أساسي من دوافعه. وهو يختلف من إنسان لآخر، ومن عصر لآخر؛ وذلك لأنه يتلون بطبيعة صاحبه، وبطبيعة المجتمع، بما فيه من مؤسسات سائدة، وبطبيعة العصر؛ بقيمه وأعرافه ومعارفه"⁴.

ويتخذ الاغتراب ثلاث صور رئيسية، هي:

أ- اغتراب الإنسان عن وطنه وأهله: وهذه غربة عادية نتلمسها في شعر عدد كبير من الشعراء العرب وغير العرب، في القديم والحديث معاً. وتسمى هذه الصورة الاغترابية "الغربة المكانية".

ب- اغتراب الإنسان عن مجتمعه الذي يحيا فيه: وهذا من أعجب أشكال الاغتراب، وأقساها. ويرز، بقوة، في المجتمعات التي تسطو على الأفراد؛ لتسليم فاعليتهم وحرّيتهم وإنسانيتهم.

ج- اغتراب الإنسان عن ذاته: ويتولد عنه شعور حاد بالتوتر، والقلق، وانعدام الثقة، إلخ.

¹ - يُنظر مثلاً كتاب "ظاهرة الاغتراب عند شعراء المعلقات" لمي يوسف خليف.

² - يُنظر مثلاً كتاب "الغربة والحنين في الشعر الأندلسي" لفاطمة طحطح.

³ - يُنظر مثلاً كتاب "الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث" لماهر حسين فهي.

⁴ - إبراهيم محمود: حول الاغتراب الكافكاوي، ص 78.

ومن الأمور الأكيدة أن الاغتراب ظاهرة إنسانية شاملة. ولكنّ الملاحظ أنها أكثر حدّة في المجتمعات الرأسمالية؛ نتيجة لما عرفته من تطور اقتصادي هائل، وتغيّر اجتماعي صارخ، قاد إلى تحكّم الآلة والمادة في الإنسان، الذي أمسى ذا بُعد أحادي؛ كما يقول هُزبرت ماركيز (H. Marcuse). أما عن واقع الاغتراب في المجتمعات العربية، فيقول زكريا إبراهيم: "إن الاغتراب ليس مجرد قطيعة تتم بين الطبيعة والمجتمع، أو مجرد تصدّع يحدث بين التكنية والإنسانية، وكأنما هو وقّف على المجتمعات الصناعية التي بلغ فيها الإنتاج الاقتصادي أعلى مداه، وإنما الاغتراب أيضاً تعبيرٌ عن الحرمان والضيق، خصوصاً حين يجيء المستعمِر؛ فيسرق من الجماعة التي يستعمرها أرضها وحضارتها ولغتها وشخصيتها... ومن هنا، فإن الإنسان العربي، الذي ذاق مرارة الاستعمار، لم يلبث أن وجَد نفسه غائباً عن أرضه وعمله، غريباً في صميم وطنه وفوق تربة أجداده! وهكذا، كان الشعور بالاغتراب - لدى الإنسان العربي المعاصر - بمثابة إحساس أليم بالحرمان المادّي والضيق الروحي، وكأنّ المستعمِر قد سلّبه شخصيته وثقافته، قبل أن يسلبه أرضه وخيرات بلاده"¹. إذاً، فالاغتراب واقعٌ عاشه - ويعيشه - المجتمع العربي، ولم يعد يقتصر على المجتمع الغربي (أوروبا وأمريكا)، الذي بلغت فيه المدنيّة أوجهاً. ويكمن السرّ في الاغتراب الذي يتخبّط فيه المجتمع العربي، وغيره من دول العالم الثالث، في "أنه مجتمع متزعّج من صميم ماضيه، غائبٌ عن حاضره، وإن كان يعمل - بجُهد ومشقّة - في سبيل بناء مستقبله"².

وللاغتراب آثارٌ جمّة، إنّ على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع. فالمجتمع الذي يعيش الاغتراب يسوده جوٌّ من الاضطراب والفوضى، وتراجع فيه المعايير التي تضبط سلوك الأفراد، وتختلّ فيه العلائق الاجتماعية... وأمام هذا، يلجأ كثيرٌ من

¹ - زكريا إبراهيم: معنى "الاغتراب" عند الإنسان العربي المعاصر، مجلة "العربي"، الكويت، ع. 194، يناير 1975، ص ص 153-154.

² - نفسه، ص 154.

أفراد المجتمع إلى إثثار حياة العزلة على الاندماج في النسيج الاجتماعي. وفيما يخص الفرد الذي يعاني الاغتراب، فلا شك في أن صحته النفسية تتدهور وتتأزم، و"يكون عرضة للاضطرابات النفسية، وتضطرب علاقاته مع الآخرين، ويظهر ذلك في عدم تعاطفه مع الناس، ويؤثر الاغتراب في العمل والإنتاج بأنواعه المختلفة؛ فإذا كان الإنسان عاملاً هبط إنتاجه، وإذا كان طالباً فترّ اهتمامه بالدراسة... وتتفاعل هذه الجوانب بعضها مع بعض؛ فيؤدي أحدها إلى الآخر"¹.

ولا يجب أن يفهم من هذا أن الاغتراب ذو طابع سلبي دائماً. بل يغدو - أحياناً - أمراً مهماً لفضح التناقضات الاقتصادية والاجتماعية، وكشف الممارسات السياسية الشاذة والمستبدّة في المجتمع الرأسمالي خصوصاً.

وأمام هذا الوضع المؤزّي، كان لا مناص من البحث عن حلول ناجعة لتجاوز حالة (أو حالات) الاغتراب الذي أخذ في الاستفحال. وقد جاءت الاقتراحات، ها هنا، متفاوتة الأهمية، مُتميزة الطبيعة. فقد رأينا أنفاً أن هيجل يرى في تنازل الفرد عن ذاته لصالح المجتمع السبيل الأنجع لتخطّي واقع الاغتراب وتجاوزه، وأن ماركس يركز على الثورة ومحاربة الملكية الخاصة لتحقيق الغاية نفسها، وأن كيركجارد يزعم أن التمسك بالدين المسيحي هو القمين بتخليص الفرد والمجتمع من برائن الاغتراب الجاثم على صدر الكيان الغربي. أما مُراد وهبه، فيرى أن من شأن الوعي الكوني، المترتب عن الثورة العلمية والتكنولوجية، أن يزيل الاغتراب²، على حين يزعم آخرون أن "الوعي بالاغتراب هو أول مراحل رفع الاغتراب والتغيير"³. وهذا الرأي الوجيه هو الأقرب إلى الصواب في نظرنا.

جماع القول أنه، على الرغم من كثرة ما كُتب عن موضوع الاغتراب - وربما بسبب هذه الكثرة، وتضارب الآراء والأقوال -، فإن مفهوم الاغتراب ما زال يعاني

¹ - محمد ذنون زينو الصائغ: اغتراب وغرب، م.س، ص 64.

² - أنظر هذا الرأي في (مراد وهبة: الاغتراب والوعي الكوني، م.س).

³ - منى سعد أبو ستة: الاغتراب في المسرح المعاصر من خلال مسرح برتولد بريخت، م.س، ص 150.

اللُّبْس والغُمُوض في العلوم الإنسانية. وربّما كان ذلك أمراً طبيعياً؛ إذ من العسير تحديد المفهومات الأساسية تحديداً دقيقاً، وتعريفها تعريفاً جامعاً مانعاً نهائياً؛ كما قال المرحوم محمد عابد الجابري (1935-2010م).

كرونولوجيا أهم المراحل التي مرت منها الببليوغرافيا من العصور القديمة إلى حدود القرن 17م

امحمد الكرام

طالب باحث بسلك الدكتوراه
الكلية المتعددة التخصصات بالناظور
المغرب



يوسف شملال

طالب باحث بسلك الدكتوراه
مختبر التراث الثقافي والتنمية
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة - المغرب

ملخص:

يعود تتبع جذور الببليوغرافيا إلى العصور القديمة، حيث يعتقد أن الفراعنة كانوا أول من حاول إنشاء قوائم جرد ببليوغرافية، كما نقشت أسماء الكتب على جدران معبد حورس في مصر القديمة. في الغرب، كانت المكتبات في الأديرة تحتوي على مجموعات صغيرة من الكتب، وكانت هذه الأديرة تشكل أداة للتعليم وحفظ وإنتاج الكتب، فالحاجة إلى الفهارس كانت محدودة حينها، مقتصرة على قوائم جرد بسيطة بمعلومات مثل العنوان والمؤلف وعدد الصفحات. أما المسلمين، فقد كان لهم تاريخ طويل في تنظيم الببليوغرافيا والوصول إلى المعلومات، حيث ازدادت الحاجة إلى التعرف على المؤلفات مع نمو النهضة الإسلامية في مختلف العلوم والفنون.

كلمات مفتاحية: الببليوغرافيا - قوائم الجرد الببليوغرافي - اللوائح الطينية - الفهارس المصنفة - الببليوغرافيا القومية - فهارس معارض الكتب (المسكتالوج) - الفهرست.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

شملال، يوسف. الكرام، امحمد. (2024، غشت). كرونولوجيا أهم المراحل التي مرت منها الببليوغرافيا: من العصور القديمة إلى حدود القرن 17م. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 50-75.

Abstract:

Tracing the roots of bibliography leads back to ancient times. The pharaohs are believed to be the first to attempt creating bibliographic inventories, as lists of books were inscribed on the walls of the Temple of Horus in ancient Egypt. In the West, monasteries housed small collections of books, serving as centers for education and preserving and producing books. The need for catalogs was limited at the time, restricted to simple inventories with information such as title, author, and number of pages. Muslims, on the other hand, have a long history of organizing bibliography and accessing information. The need to identify works grew with the rise of the Islamic Golden Age across various sciences and arts.

Keywords : Bibliography – Bibliographic Lists - Clay Tablets - Classified indexes - National Bibliography - Book exhibition indexes - The index.

تمهيد

وجدت عدة نقوش ورسومات على الصخور وجدران الكهوف في شتى بقاع العالم تعود للعصور الغابرة في القدم، يحاكي من خلالها الإنسان الذي نقشها نمط حياته البدائية والأفضية التي عاش فيها. تطور الإنسان أدى إلى اختراع الكتابة ليعبر بها عن أفكاره وأحداثه ومعتقداته... بشكل أوضح.

يكاد يجمع الباحثون والدارسون على أن اختراع الكتابة أعظم اكتشاف في تاريخ الإنسانية، لأنها أسهمت في استمرارية تناقل وتطور المعرفة التي توصل إليها الإنسان عن طريق الملاحظة والتجربة إلى الأجيال اللاحقة التي لم يكن لها وجود في تلك العصور، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد سلمان علي: "إن اختراع الكتابة وتطورها من أهم الوسائل التي ابتدعها الإنسان، لنقل حضارته عن طريق تسجيل وإيصال الأفكار. فأصبح التفكير الإنساني عملية جماعية متواصلة ومستمرة في سبيل تطور المعرفة... إذن يمكن القول أن ازدهار الحضارات في العالم القديم اقترن بمعرفة الإنسان للكتابة"¹.

بعد ظهور الكتابة بدأ الإنسان يكتب على وسائل مختلفة كالأحجار وجدران الكهوف والتمثيل... وبما أن هذه الوسائل التي كان يكتب ويدون عليها أفكاره ومعارفه لا يسهل أو يستحيل في أحيان عدة نقلها من مكان إلى آخر، هذا ما جعل من الإنسان يفكر في وسيط قابل للتداول والتناول بين الناس ينقل عليه أفكاره ومعارفه بسهولة ويسر وسلاسة، فلجأ الإنسان إلى اختراع وتصنيع مواد يكتب عليها وأدوات يكتب بها، غالبا ما كانت تلك المواد المصنعة من وحي البيئة التي يعيش فيها.

استغل المصريون القدماء نبات البردي -الذي ينمو بكثرة على ضفاف النيل في هذا الغرض- لصناعة ورق البردي واستغل العراقيون القدماء صلصال بلاد ما بين النهرين في صناعة ألواح أو قوالب الطين. كما صنع الصينيون وغيرهم في آسيا

¹ محمد سلمان علي، البليوغرافيا في الماضي والحاضر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995، ص: 21.

رقائق من نحاس وشرائح من البرنز والرصاص للكتابة عليها. كما استخدم اليونان والرومان ألواحاً من الخشب مغطاة بطبقة من الشمع حتى يتمكن استخدامها عدة مرات عن طريق إذابة الشمع لمحو الكتابة. اتخذ كذلك الإنسان من جلود الحيوان مادة أولية للكتابة عليها، كما كان يحدث في جنوب شرقي آسيا والهند وسيلان. ومن الطريف أن قدماء المصريين كذلك قبل اختراع ورق البردي استخدموا جلود الحيوانات كمادة للكتابة عليها إلا أنها لم تلقى إقبالا كبيرا¹.

اعتمد الإنسان الكتابة على مختلف الوسائط باستعمال أدوات متعددة ومتنوعة لقرون عدة لتدوين أفكاره ومعارفه. مما أسهم في تراكم وتزايد الوسائط التي دون ويدون عليها كتاباته، ما سيجعل الإنسان في حاجة ماسة إلى جمع هذه الوسائط التي كتب ودون عليها معارفه في مكتبات؛ من خلال ما سبق يمكننا طرح فرضية مفادها أن هذه المرحلة لعلها المرحلة الأولى لنشوء الببليوغرافيا.

سنحاول أن نجيب عن هذه الفرضية أو بالأحرى أن نفسر التخمين الأخير الذي ذهبنا إليه من خلال استعراضنا للمحور الأول المعنون: الببليوغرافيا في العصور القديمة. ثم سنتناول في المحور الثاني الببليوغرافيا في العصور الوسطى. أما المحور الثالث المعنون بالببليوغرافيا في التراث العربي الإسلامي، سنقتصر فيه على تناول علم الببليوغرافيا في العصر الوسيط نظرا لما عرفته هذه الفترة من أهمية بارزة ومرحلة انتقالية للتصنيف الببليوغرافي.

¹ شعبان عبد العزيز خليفة، الببليوغرافيا أو علم الكتاب، منشورات الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1997،

ص-ص: 21-30. بتصرف

أولاً. الببليوغرافيا في العصور القديمة :

بعد تطور الكتابة وتنامي استعمالها في شتى الأقطار سيؤدي هذا إلى تزايد الإنتاج المكتوب سنة بعد سنة وهذا ما سيجعل الإنسان في حاجة ماسة إلى تخزين هذا الموروث في أماكن خاصة "ستعرف بالمكتبات لاحقاً"، كما سيواجه الإنسان مشاكل جم عند العودة للبحث عن مؤلف معين، ومن هنا ستظهر فكرة تصنيف المؤلفات من طرف المشرفين على تلك المكتبات أو الذين عملوا فيها لتسهيل العودة إلى تلك المؤلفات من طرفهم أو من طرف مريدي تلك المكتبات.

لكن هذه الفترة ستعرف تعدد وتنوع المؤلفات مما سيجعل من كل مكتبة تأخذ شكلاً بارزاً في التصنيف ومتباين عن نظيرتها، سنحاول أن نشير إلى بعض المكتبات العريقة التي تم اكتشافها والتي تحوي عدة مؤلفات قيمة تحكي عن ماضي الإنسان في تلك المناطق التي وجدت فيها وكذلك قوائم لجرد هذه المؤلفات. وهذا مما سيسمح لنا بالقول أن التنظيم الببليوغرافي للمؤلفات من الأعمال القديمة العهد، التي عرفها الإنسان أو إن صح التعبير يمكن اعتبارها محاولة بدائية للضبط الببليوغرافي لإعداد الفهارس بطرق غير علمية ولا فنية.

نعتها الدكتور محمد سلمان علي "قوائم جرد" ويضيف قائلاً: "رغم أن بعض الاختصاصيين الأجانب ومن ضمنهم نورس يقول بأن الفهارس التي استخدمت في القرن السابع قبل الميلاد تشبه إلى حد كبير تلك التي نستخدمها الآن في القرن العشرين"¹.

سنحاول أن نجرد كرونولوجيا أهم وأبرز الببليوغرافيات -المحاولات الأولى للببليوغرافيا- التي عرفها العصر القديم:

¹ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 22.

1. معبد حورس في مصر القديمة:

يمكن القول بأن الفراعنة هم من كان لهم السبق لمحاولة إنجاز قائمة جرد ببليوغرافي بحيث "نقشت على جدران معبد حورس في مصر القديمة أسماء الكتب المحفوظة في مكتبته"¹. وجود هذا الشاهد في معبد حورس في مصر القديمة، دليل قاطع على قدم تناول المصريين القدامى لموضوع الجرد والتصنيف البليووغرافي، أو بالأحرى معهم ظهرت الإرهاصات الأولى لمحاولات تصنيف وترتيب الكتب.

2. مكتبة أشوربانيبال (العراق):

إن الحفريات التي قامت بالقرب من مدينة نينوى بمملكة أشور القديمة (668-626 ق.م) كشفت عن مجموعة من الألواح الطينية التابعة لمكتبة أشوربانيبال، الذي أعطى عناية خاصة لجمع تراث بابل وأشور في مختلف المجالات المعرفية والثقافية، علاوة على ذلك ضمت تلك المكتبة فهراس من ألواح طينية، شملت معلومات بليووغرافية مثل عنوان العمل وعدد الألواح التي يقع فيها العمل وعدد الأسطر في كل لوح، وموضوعه ورمز تصنيفه أو مكان الكتابة لكن تلك الفهارس تشبه قائمة الرفوف².

3. مكتبة الإسكندرية:

كانت من أشهر المكتبات في تلك الفترة، بناها البطالمة في القرن الثالث قبل الميلاد، والتي اهتمت بجمع التراث الإغريقي وتنظيمه ونشره. وكان معظم الذين تعاقبوا على أمانة المكتبة بليووغرافيين وأشهرهم كاليماخوس الذي أعد فهرساً ضخماً لتلك المكتبة يتألف من 120 مجلداً³.

¹ عبد اللطيف صوفي، مدخل إلى علم البليووغرافيا والأعمال البليووغرافية، دار المريخ للنشر، الرياض، 1995، ص: 19.

² محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 22.

³ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 22.

علق عليها عبد اللطيف الصوفي قائلا: "ما الجداول العظيمة التي وضعها الببليوغرافي الشهير كاليماخوس أمين مكتبة الإسكندرية في العصر اليوناني، إلا دليلا هاما على قدم الببليوغرافيا وارتباطها بالمكتبات، حيث صُنِّفَ فيها مقتنياتها من البرديات والبالغة حوالي 500000 لفافة. وقد وضع هذه الجداول داخل اثني عشر لفافة كبيرة، رتب بعضها ترتيبا زمنيا والبعض الآخر ترتيبا أبجديا تبعا للموضوعات، وقدم لكل مؤلف ترجمة عن حياته، ثم أتبعها بثبت لمؤلفاته. كما بدأ كل باب بذكر عنوانه، واستهلاله، وعدد سطوره. وبهذا أصبح كاليماخوس (310-240 ق.م) أول ببليوغرافي عرفه العالم-اقترن اسمه بأبو الببليوغرافيا رغم أنه كان من أشهر شعراء وأدباء ذلك العصر- وتعتبر مكتبة الإسكندرية أول معهد ببليوغرافي عالمي. لأنها لم تقم بجمع التراث اليوناني فحسب، بل كانت مركزاً دولياً لتراث البحر الأبيض المتوسط، والشرق والهند¹.

4. المكتبات الرومانية:

افتتحت المكتبات العامة والخاصة في العهد الروماني على النهج الإغريقي... لكن على الرغم من التوسع في بناء المكتبات لم تبلغ ما بلغته المكتبات الإغريقية من أهمية. السبب يعود إلى أن المكتبات الرومانية لم ترتبط بمؤسسات تعليمية أو بعلماء بارزين من أصحاب الفكر والفلسفة كما كان الوضع في المكتبات الإغريقية كمكتبة الإسكندرية وغيرها. كما أن المكتبات الرومانية لم تقم بأي دور لتجميع وتحقيق التراث الروماني. إذ كانت تقسم الكتب إلى لاتينية ويونانية وداخل كل قسم تُقسَّم الكتب طبقا للموضوعات، وكان هناك نوعين من الفهارس:

- الفهارس المصنفة: تشبه قائمة الرفوف؛
- القوائم الببليوغرافية: تساعد على البحث بالمؤلفين.

¹ عبد اللطيف صوفي، مرجع سابق، ص-ص: 19-20.

يتضمن كلا النوعين المعلومات الببليوغرافية التالية: عنوان الكتاب أو السطور الأولى منه، عدد السطور في الكتاب ومعلومات ببليوغرافية بالمؤلف.

نافلة القول أن العمل المكتبي عند الرومان تأثر إلى حد كبير بالعمل المكتبي عند الإغريق من حيث الحفظ والتنظيم والفهارس والقوائم الببليوغرافية، مع العلم أن القوائم في كل من المكتبات الإغريقية والرومانية كانت تقوم بوظيفة الجرد¹. أما في القرون الأولى للميلاد أصبحت الحاجة ضرورية إلى قوائم الكتب نتيجة تزايد عدد الكتب في الموضوعات المتنوعة، ففي القرن الثاني الميلادي أعد العالم الطبيب جالين Galen قائمة تحت عنوان: "كتاب عن كتبي" جمع فيها وصفا لكتباته في ترتيب موضوعي². كما نجد في نهاية القرن الرابع الميلادي كتابا تحت عنوان "أشهر الكنيسيين" كتبه القديس جيروم Gerome المتوفي عام 430 م. وقد تضمن ذلك الكتاب حياة وتاريخ مشاهير رجال الدين وألحق في نهاية كل منهم قائمة تشير إلى مؤلفاته³.

ثانيا. الببليوغرافيا الأوروبية في العصور الوسطى:

1. تطورات الببليوغرافيا بأوروبا في العصور الوسطى المبكرة:

أدى سقوط روما في القرن السادس الميلادي إلى تدني العلم والبحث العلمي، وإلى تدمير بعض المكتبات وبعثرت البعض الآخر، وتجدر الإشارة إلى أن الكنيسة في العصور الوسطى لعبت دوراً كبيراً في حياة الشعوب الأوروبية من الناحيتين الثقافية والفكرية، ولمدة عشرة قرون تاليه.

¹ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 23.

² "تعتبر من أوائل الببليوغرافيات التي ظهرت على شكل قائمة تحتوي على مؤلفات مؤلف معين". ليلي عبد الواحد الفرحان، الببليوغرافيا تطورها أنواعها وأساليب إعدادها، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، 1992، ص: 12.

³ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص-ص: 23-24.

كانت المكتبات الغربية عبارة عن مجموعات صغيرة متشابهة من الكتب في الأديرة التي كثر انتشارها في تلك الحقبة، هذه الأديرة كانت تشكل أداة للتعليم، كما كانت وسيلة هامة لحفظ وإنتاج الكتب، ومع هذا فإن الحاجة إلى الفهارس كانت محدودة آنذاك ولم تكن الجهود لتوجه إلا نحو قوائم جرد بسيطة تتضمن بعض المعلومات البيبليوغرافية كعنوان الكتاب - المؤلف - عدد الصفحات - عدد السطور والمصدر؛

سننتطرق على سبيل المثال لا الحصر لقائمتين من القوائم التي وجدت في العصور المبكرة:

- قائمة الكتب التي أهداها "غريغوري" إلى كنيسة سان كليمون، وكانت عبارة عن لوحة رخامية، نقشت عليها بعض الصلوات وأسماء مجموعة من الكتب تتعلق بالكتاب المقدس؛

- أما القائمة الثانية أعدها العالم الكبير "الكوني" لكتب ديربورك، التي اعتبرت فريدة في شكلها، واحتوت أشهر المؤلفين مع أعمالهم.

يمثل الفهرس الذي وضعه "سين ريكسليك" عام 831 م أهمية كبرى حيث يشمل وصف 246 كتاب، رتبت وصف الكتب فيه حسب مواضيعها وترتيبها على الرفوف، وقد قسم العلوم إلى خمسة أقسام:

- الكتاب المقدس؛
- آباء الكنيسة؛
- القواعد؛
- إنتاجات الفلاسفة؛
- المؤرخون والكتب الدينية.

أما فهارس "قوائم" القرنين العاشر والحادي عشر فتتميز عن التي سبقتها. بأنها أكثر تفصيلاً من حيث التصنيف، مثل: القانون - الفيزياء - الكيمياء... الخ يمكن القول بأن فهارس "قوائم" مكتبات الأديرة والكاتدرائيات هي مرحلة الفهارس البدائية أو التجريبية. إذ كانت عبارة عن قوائم فجأة قليلة البيانات دون ترتيب واضح. ثم تطورت فيما بعد إلى قوائم جرد أو قوائم رفوف توضع بالقرب من صناديق "أرفف الكتب" حيث توسعت في المعلومات والترتيب تبعاً لتطور المكتبة وأصبحت المخطوطات ترتب طبقاً لموضوعات واسعة¹.

استمر ترتيب الفهارس (القوائم) على نفس النهج العشوائي. وكان فهرس كنيسة المسيح الذي طبع عام 1170م أول فهرس يستخدم الربط بين الكتب في الخزائن عن طريق الحروف. أما قائمة كاتدرائية (النكولن) التي ترجع إلى 1200م، فقد استخدمت الكلمات الأولى من النص بدلاً من العنوان في بعض الأحيان. لكنها تضيف شيئاً جديداً لم نجده من قبل وهو عمل مقدمة².

القرن الثاني عشر تميز بكلمة معتبرة من القوائم الحصرية تفتقر إلى نظام معين في الترتيب، وكانت عادة تكتب على عمودين من الرق. وكان الأساس في الترتيب هو حسب المواضيع الواسعة. مع ترتيب زمني في الغالب وقله منها ترتب ترتيباً هجائياً بالمؤلف. ولم يكن ذكر المؤلف إلا لتمييز العمل³. وهذا ما يمكن أن نستنتج منه أن هذه المعلومات كانت تساعد العاملين في المكتبات وفقط لأنها قليلة ويكتنفها الغموض.

عرف القرن الثالث عشر ترتيب الكتب كما هي على الرفوف مع العنوان المختصر والكلمات الأولى من النص، وأنجزت بعض الفهارس التي كانت طريقة

¹ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 26.

² نفسه، ص: 33.

³ نفسه، ص: 33.

تصنيف الكتب فيها غريبة ونادرة. فالكتب المجهولة المؤلف كانت ترتب تحت موضوعاتها، أما الكتب المشهورة والمعروف مؤلفيها فكانت ترتب هجائياً بالمؤلفين، هذا الترتيب يمكن اعتباره كمحاولة لإخبار القارئ بما يفده.

كانت تضم قائمة السوربون في باريس سنة 1298 أزيد من 1017 كتاباً لاتينياً وأربعة بالفرنسية والقائمة مقسمة إلى 10 أقسام رئيسية 9 منها مخصصة للأدباء. والباقي لعلم اللاهوت والطب والقانون، داخل كل قسم ترتب المواد هجائياً بالمؤلفين متبوعاً بالعنوان والكلمات الأولى من النص.

تميز القرن الرابع عشر بشيوع الترتيب الموضوعي في الفهارس، لكنها من حيث المضمون تبقى قوائم جرد، إذ كانت تشير إلى وجود الكتب على الرفوف. وكان هذا عبارة عن التصنيف المتبع على الرفوف¹، ظلت الفهارس تمثل لمدة طويلة النوع الوحيد من قوائم الكتب وهي تعتبر من حيث نشأتها وتطورها التاريخي أقدم من الببليوغرافيات بمعناها الذي بدأ يتطور بعد عصر النهضة في أوروبا وانتشار المطبوعات وسرعة تداولها.

أدى اختراع الطباعة إلى إيجاد الببليوغرافيا الحقيقية إذ أنها أدت إلى تضاعف أعداد الكتب بسرعة ومن ثم الحاجة إلى أدلة لهذه الكتب². عندما انتشرت الطباعة، وأنتج المزيد والمزيد من الكتب أصبح الباحثون في حاجة إلى أدوات تعلمهم عن المؤلفين ومطبوعاتهم³.

¹ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 34.

² ليلى عبد الواحد الفرخان، مرجع سابق، ص: 13.

³ رودلف بلوم، الببليوغرافيا بحث في تعريفها ودلالاتها، ترجمة: شعبان عبد العزيز خليفة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1992، ص: 25.

2. تطورات الببليوغرافيا في أوروبا من القرن 15 إلى القرن 17:

أنتجت ببليوغرافيا العصر الأول في وقت مبكر في أوروبا فهي تعود إلى القرن الثاني الميلادي. وربما كانت الببليوغرافيا المسماة *De libris propriis libris* التي جمعها الطبيب والكاتب الروماني جالين حوالي (130-210م) من أولها، ثم ظهرت خلال القرون الثلاثة عشر التالية قوائم ببليوغرافيا بعضها مجرد قوائم حصر مختصرة وبعضها أقرب إلى فهارس المكتبات.

ظهر عمل شامل في قرب نهاية القرن الخامس عشر في حدود المجال مرتبا ترتيبا موضوعيا وله كشاف هجائي بالمؤلفين، وهذا العمل هو *librer de scriptoribus ecclesiastics* "بال1494" من إعداد جوهانز ترثيم "1462_1516" راهب دير سبونهم ثم دير سانت جاكوب في فرزنج وقد سمي جامع هذا العمل الرائد الذي حصر حوالي سبعة آلاف عنوان في مائة وأربعين ورقة مرقمة بأبي الببليوغرافيا¹.

قام كونراد جزنر -وهو فزيائي من زيورخ وباحث في العلوم الطبيعية- قبل منتصف القرن السادس عشر بنشر ببليوغرافية عامة مستفيضة. وتألفت هذه الببليوغرافية من جزأين. تضمن الجزء الأول منها أسماء المؤلفين: اليونان- اللاتين- العبرانيين... في سياق هجائي واحد مع تاريخ الميلاد والوفاة وعناوين أعمالهم ومقتطفات منها وتعليقات عليها. والجزء الثاني أعاد فيه ترتيب نفس الأعمال مع إضافات قليلة ترتيبا مصنفا. وقد عنونة الببليوغرافية في جزئها الأول بعنوان الببليوغرافية العالمية. وفي جزئها الثاني بعنوان ملحق الببليوغرافية العالمية:

- *Bibliotheca universalis sive catalogus omnium scriptarum* (zürich 1545).

¹ لروى هارولد ليندر، نشأة الببليوغرافيا القومية الشاملة الجارية، ترجمة: عبد المنعم محمد موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب. د.ت. ص: 36.

- pandictae sive protitiones universales (zürich 1545)¹.

فيما كان جل الببليوغرافيين يقتصرون على وصف المؤلفين والعناوين فقط، ويقدمون معلومات تجيب عن سؤالين فقط هما: ماذا كتب مؤلف معين؟ وماذا كتب عن موضوع بالذات؟ فإن جنز لأسباب عملية وصفها بالتفصيل في مقدمة عمله وأعطى تفصيلات عن كل عمل أدرجه: أين، متى، من، نشر كل كتاب، التوريق بالكامل (عدد الأوراق + الحجم)، تلك البيانات التي تعتبر الآن من الأساسيات².

عرفت أوروبا في هذه الفترة من التاريخ تقدم ثقافي وفكري سريع، وكان الوقت ناضجا لبدء عصر الببليوغرافيا، بموازات هذا ستظهر في عدة دول أوروبية نماذج نشأة الببليوغرافيا القومية³. التي ستعرف بالجدة، بالخصوص فيما يتعلق بسمة تحيين القوائم الببليوغرافيا سنويا.

أ. الببليوغرافيا القومية الإنجليزية:

العمل الأول الذي يعتبر ببليوغرافيا قومية حقيقية، وإن لم يكن جاريا، ينسب إلى جون ليلاند (1506-1552م)، العالم الأثري وأبو الببليوغرافيا الإنجليزية وهو بعنوان (شروح الكُتَّاب البريطانيين 1546م) *commentarii de scriptoribus britannicus* وقد ظل هذا العمل خلال حياته مخطوطا إلى أن استعمله وغيره من أعماله، جون بل (1495-1563م) راهب أوسرى في تجميع ببليوغرافيته المسماة *can briae, ilustrium majoris britanniae scriptrom, hoc est, angliae, ac scotiae summarium* (1548م) "تعريف موجز بالكُتَّاب البريطانيين بين الرئيسيين أي كتاب إنجلترا وكمبردج واسكتلندا" وقد احتوت هذه الببليوغرافيا على

¹ رودلف بلوم، مرجع سابق، ص: 26.

² رودلف بلوم، مرجع سابق، ص: 26-27.

³ عرّف المكتبي الفرنسي لانجلوا الببليوغرافيات القومية: بأنها سجلات للمكتبات في كافة الموضوعات وتتفق جميعا في صفة عامة وهي أنها نشرت في حدود دولة بعينها.

أسماء المؤلفين البريطانيين وأعمالهم لفترة تزيد عن أربعة عشر قرناً في ترتيب زمني¹. وكانت هذه الببليوغرافية بداية سلسلة لا نهاية لها من الببليوغرافيا الوطنية، والإقليمية والمحلية التي تحصر المؤلفين وأعمالهم في تلك المنطقة².

ب. الببليوغرافيا القومية الفرنسية:

ظهرت أولى نماذج الببليوغرافيا القومية الجارية في فرنسا في تاريخ متأخر قليلاً، وربما كان أولها الببليوغرافيا المسماة "bibliothèque française" (1584م) من إعداد فرانسوا جروديه دي لاكروا دي مين (1552-1592)، لم يصادف هذا العمل إلا القليل من التقدير في حياة واضعه وكان عليه أن يصدره على نفقته الخاصة.

ظهر عمل آخر منافس (1585) بعد عام من إعداد أنطوان دي فريديه (1544-1600)، وصف بأنه فهرس لجميع المؤلفين الذين كتبوا أو ترجموا للفرنسية. ورغم أن ببليوغرافيا فريديه قد نقلت، جزئياً على الأقل، من عمل دي لاكروا دي مين فإنها احتوت قوائم تكمل العمل الأسبق³.

ت. فهارس معارض الكتب الألمانية:

تعتبر أولى الببليوغرافيات القومية الجارية والشاملة نسبياً التي نمت في ألمانيا، وهي عبارة عن فهارس لمعارض كتب فرانكفورت و ليزنج، نشرت لأول مرة في عام 1564م⁴. وبعد هذا بدأت تظهر الببليوغرافيات بأعداد متزايدة، وفي هذه الفترة

¹ لروى هارولد ليندر، مرجع سابق، ص: 37-38.

² رودلف بلوم، مرجع سابق، ص: 27.

³ لروى هارولد ليندر، مرجع سابق، ص: 38.

⁴ لروى هارولد ليندر، مرجع سابق، ص: 39.

بالذات ظهر التحول لدى الناشرين من مجرد طبع إعلان أو ملصق منفرد إلى طبع فهرس¹.

تدعى فهرس الكتب التي كانت تباع في هذه المعارض "Messkataloge"، كانت تصدر في سلسلتين: سلسلة فرانكفورت خلال السنوات (1749/1564م) وسلسلة ليبزج من (1860/1594م)، باستثناء عامي 1566 و 1567م، كانت هذه الفهارس تصدر مرتين في السنة². من أهم ما تميزت به هذه الفهارس أنها أضافت مبدأ الاستمرارية في الصدور، هذا المبدأ لم يظهر بنجاح في أية بيبليوغرافية أخرى حتى ظهور term catalogues في لندن عام 1668م³.

نشر أول فهرس سوق كتب لمعرض فرانكفورت في سنة 1564م، وقد أعده جورج فيلر وهو بائع كتب معروف في أوجسبورج، وقد تضمنت قائمة فيلر كل الكتب التي عرضها للبيع في المعرض بما في ذلك كتب غيره من الناشرين. ويقال أنه أول بائع كتب يستخدم الفهارس في تجارته وكان عنوان فهرسه: "Novorum dibrorum QVos Nundinae"⁴، النجاح العام لفهارس معارض الكتب ذو دلالة هامة. وقد يقال أن طرق بيع الكتب قد تغيرت تغيراً ثورياً بسبب هذه القوائم السريعة التوزيع والتي حلت محل القوائم المنفصلة التي يعدها تجار الكتب⁵.

عرفت ألمانيا البيبليوغرافيات الدورية في النصف الثاني من القرن السادس عشر، فقد تطورت الكتالوجات النصف سنوية المصنفة (Messekatalogue) من مجرد قوائم كتب في معارض فرانكفورت وليبزج الموسمية إلى قوائم بيبليوغرافية

¹ ليلي عبد الواحد الفرخان، مرجع سابق، ص: 13.

² لروى هارولد ليندر، مرجع سابق، ص: 39.

³ ليلي عبد الواحد الفرخان، مرجع سابق، ص: 14.

⁴ لروى هارولد ليندر، مرجع سابق، ص: 39.

⁵ لروى هارولد ليندر، مرجع سابق، ص: 40.

دائمة مستقلة تحصر كل الكتب الجديدة في جميع موضوعات المعرفة من كل الدول¹.

انصب الاهتمام كثيراً على الأعمال الببليوغرافية في القرن 17م فنجد أن فهارس معارض الكتب الألمانية قد توجهت توجهاً قومياً وتولت الدولة مسؤوليتها فيما بعد². لذلك اعتاد كبار الناشرين خلال القرن السابع عشر بالتدريج إصدار الفهارس الخاصة بهم في غالب الأحيان. وفي معظم الأحيان كانوا يقومون بطباعتها في نهاية الكتب التي يقومون بإصدارها. إلا أن تلك القوائم أصبحت غير كافية، وبما أن ألمانيا كانت تمتلك أداة ببليوغرافية ثمينة وهي فهارس معارض ليبزج. ساد الشعور في كل من فرنسا وإنجلترا بضرورة إصدار نشرات دورية تتضمن المؤلفات الحديثة.

بدأ منذ سنة 1648م أحد علماء التأليف "الأب جاكوب سان شارلي" يصدر كل عام، Bibliographia و Bibliographia Gallica Parisiona إذ يستطيع القارئ أن يطلع من خلال تلك القوائم على ما يصدر في باريس وجميع أنحاء فرنسا. تعد تلك النشرة السلف الجديد للببليوغرافيا الفرنسية الحديثة. واستمرت في الظهور بصورة منتظمة حتى سنة 1654م ثم توقفت بعد ذلك لمدة طويلة بدون بديل³.

ظهر في إنجلترا منذ عام 1657م "catalogue of the most books in England" أو ما يسمى نشرة الكتب الأكثر رواجاً في بريطانيا، ثم تلي ذلك نشرات عديدة من هذا النوع⁴. وفي عام 1668م بدأ "جون ستارلي" إصدار ببليوغرافية

¹ رودلف بلوم، مرجع سابق، ص: 27.

² ليلى عبد الواحد الفرخان، مرجع سابق، ص: 15.

³ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 40.

⁴ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 40.

تجارية دورية هي ¹term catalogues. استمرت بالظهور بصورة منتظمة حتى بداية القرن الثامن عشر حيث حلت محلها نشرات أخرى مشابهة².

بدأ في هذه الفترة مصطلح الببليوغرافيا يصل إلى الاستخدام العام مع اصطلاح Library واصطلاح Catalog، وبدأ استخدام أسلوب سرد المؤلفات مع السيرة الذاتية للمؤلفين يقل في هذه الأعمال. وكذلك تزايدت الببليوغرافيات الموضوعية ومن أمثلتها: "Bibliotheca Realis Theologogica; ... Philisophica, "and ... Medica"، وقد صدرت هذه الأعمال الببليوغرافيا الثلاثة في فرانكفورت في السنوات 1679، 1682، 1685م على التوالي وقد تم وضعها من قبل Martin Libenus وتستند هذه الأعمال في تقسيمها على التصنيف المتبع في فهارس معارض الكتب الألمانية³.

يمكن القول أن هذا العلم الجديد الذي نبتت جذوره في القرن السادس عشر في إنجلترا وألمانيا، قد انغرس بمتانة في القرن السابع عشر في هذين البلدين. ثم ظهر في فرنسا، ومد فروعه إلى كل مكان، وهذه العملية حولت البحث في النصوص المطبوعة عن وجهتها الأولى. وحتى ذلك الوقت مارس هذا البحث رجال شغفوا بالتاريخ، فراح ينتقل شيئاً فشيئاً إلى أيدي مفرسين محترفين متخصصين بالكتب. وهكذا جنح نحو الاستقلال، فصار بحثاً ببليوغرافياً متكاملًا وصريحاً⁴.

كما يمكن القول أن المسكتالوج هي أصل وسبب التطور المبكر للببليوغرافيا في ألمانيا وإن كانت غير كاملة كمثيلاتها المعاصرة. فقد كانت من الإنجازات الرئيسية

¹ ليلي عبد الواحد الفرخان، مرجع سابق، ص: 15.

² محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 40.

³ ليلي عبد الواحد الفرخان، مرجع سابق، ص: 16.

⁴ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 40.

في زمانها، والأكثر من ذلك أنها كانت تحمل في ثناياها معظم صفات الببليوغرافيا المعاصرة¹. مما سبق نستخلص أن المسكتالوج:

- كان له دور كبير في تطور علم الببليوغرافيا في الفترة ما بين القرن 14 و16 بأوروبا وبفضلها ظهرت الببليوغرافيات القومية؛
- ساهم المسكتالوج في انتشار القوائم التي تعرف بالكتب التي تعرض في المعارض والأسواق للبيع، وهذا ما أسهم في تزايد وارتفاع الوتيرة في تجارة الكتب مما زاد من حركية طبع ونشر الكتب، وجعل من المسكتالوج تتطور حسب الفصول؛
- لعبت لمدة يسيرة دول الببليوغرافيا الشاملة خاصة في ألمانيا وإنجلترا؛
- رغم ما ذكرناه من مزايا إلا أنه يمكن لنا القول أن القارة الأوروبية كانت متأخرة بكثير عن ما كان قد وصلت إليه أمم سواها في هذا المجال وخاصة في الشق المتجلي في منهجية التصنيف المعتمدة وطرق التقصي عن المعلومات واستعمال وتوظيف الإحالات...

ثالثا. الببليوغرافية في التراث العربي الإسلامي:

للمسلمين تاريخ طويل في مجال الببليوغرافيا وتنظيم الوصول إلى المعلومات، وقد اهتموا بذلك اهتماما فائقا، وقد ازدادت الحاجة إلى التعرف على المؤلفات والمصنفات التي ألفها العلماء في مختلف الفنون مع ازدياد ونمو النهضة الإسلامية في العلوم والآداب والتاريخ وعلوم اللغة والدين.

بدأ الاهتمام بالنشاط الببليوغرافي عند العرب والمسلمين منذ القرون الأولى من تاريخ الدولة الإسلامية وكان لهم شرف السبق في هذا المجال². ويقول

¹ لروى هارولد ليندر، مرجع سابق، ص: 50.

² ليلى عبد الواحد الفرحان، مرجع سابق، ص: 18.

د. محمد سلمان علي: "في الوقت الذي كان فيه الغرب لا يعرف من المكتبات سوى مكتبات الأديرة حتى نهاية القرن الحادي عشر. كان العالم الإسلامي منذ القرن الثامن ميلادي يخص بأنواع مختلفة في المكتبات كمكتبات الخلفاء، ومكتبات الأكاديميات العلمية، ومكتبات المدارس، ومكتبات المساجد والمستشفيات... ويعود ذلك إلى إقبال العرب والمسلمين على العلم وتشجيع الخلفاء والأمراء والولاء للعلماء الدارسين"¹.

يعود كذلك إلى اتساع الحياة العلمية آنذاك وازدياد الإقبال على الكتب ورواج حركة التأليف والترجمة، صحب ذلك كله شيوع استعمال الوراقة وتكاثر الناسخين². هذا ما سيجعل من الطبيعي أن تدعوا غزارة الإنتاج، المؤلفين والعلماء إلى وضع تأليف عن مؤلفات غيرهم. هذا النوع من التأليف هو الذي يسمى في العصر الحديث بالببليوغرافيا³.

يحق لنا القول أن علم الببليوغرافيا لم يعرف في أوروبا بمعناه الواسع إلا في القرن الثامن عشر، بينما عرفه العرب منذ القرن الثامن ميلادي وصنفوا فيه مؤلفاتهم ومخطوطاتهم وإن لم يسموه بتلك التسمية الحديثة. سنحاول أن نتناول فيما يلي باقتضاب أبرز الأعمال الببليوغرافية في التراث العربي الإسلامي.

من الضرورة بمكان الوقوف لنفض الغبار عن المصطلح الذي استعمله العرب والمسلمون للتعبير عن الببليوغرافيا. إذ نجد أن العرب كالاتينيين القدماء قد استعملوا المصطلح اليوناني ببليوغرافيا للتعبير عن هذا العلم، فإذا كان اللاتينيون قد استعملوا مصطلحات لاتينية واستعاروا أخرى يونانية لنعت علم

¹ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 27.

² ليلى عبد الواحد الفرخان، مرجع سابق، ص: 18.

³ أحمد شوقي بنين، دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، الطبعة الثانية، المطبعة الوطنية، مراكش، 2004، ص: 226.

الببليوغرافيا فإن العرب بدورهم استعاروا الكلمة الفارسية "فهرست" للتعبير عن هذا العلم عوض ببليوغرافيا بحكم امتزاجهم وتشبعهم بالثقافة الفارسية¹.

سنتناول فيما يأتي، أبرز الأعمال الببليوغرافية في التراث العربي الإسلامي، وقبل الخوض في اختيار أول عمل ببليوغرافي واجهتنا أراء مختلفة، لزاما علينا أن نشير إلى ما قيل بخصوص من كان السباق لإنجاز عمل ببليوغرافي، فالدكتورة ليلى عبد الواحد الفرحان تنقل عن الدكتور الحلوجي أنه يرى بأن "أقدم عمل ببليوغرافي ينسب إلى جابر بن حيان المتوفي على رأس المائة الثالثة ومعنى ذلك أن علم الببليوغرافيا عند العرب تمتد جذوره إلى أواخر القرن الثاني الهجري أي إلى ما قبل "الفهرست" لابن النديم بما يقرب من قرنين كاملين².

فيما يعتبر "عبد اللطيف صوفي" أن كتاب إحصاء العلوم وترتيبها، من تأليف أبو النصر محمد الفارابي، هو أقدم الكتب العربية التي تُعرّف بالمؤلفات والمؤلفين، إذ يحوي عناوين عدد كبير من الكتب المعروفة حتى عصره مرتبة ترتيبا موضوعيا تحت العلوم والمعارف³.

لكن نكاد نجد إجماع في صفوف الباحثين والدارسين للببليوغرافيا على أن أول عمل ببليوغرافي شامل هو "الفهرست" لابن النديم ثم تليه مجموعة كبيرة من الإنتاجات الببليوغرافية، وبما أننا أطرنا الإشتغال في هذه المقالة عن تطور الببليوغرافيا إلى حدود القرن السابع عشر، تُحتم علينا الضرورة المنهجية الانضباط للفترة الزمنية التي حددناها أنفا، مما سيجعلنا نقتصر على أربعة أسماء للكتب البارزة في مجال الببليوغرافيا عند المسلمين وهي كالآتي:

¹ أحمد شوقي بنين، مرجع سابق، ص: 24.

² ليلى عبد الواحد الفرحان، مرجع سابق، ص: 23.

³ عبد اللطيف صوفي، مرجع سابق، ص: 184.

1. كتاب ابن النديم "الفهرست" 377هـ:

سبقت الإشارة إلى أن كتاب ابن النديم "الفهرست" يعتبر أول بيبليوغرافية شاملة للتراث العربي، ويمكن اعتباره المؤلف الرائد الأول في علم البيبليوغرافيا، كما يمكن أن نطلق عليه أبوا البيبليوغرافيا العربية. إذ يعد هذا الكتاب أهم كتاب بيبليوغرافي عربي قديم، فهو مرجع هام للكتب العربية والمعرّبة، التي سبقت وجود المؤلف أو عاصرته¹. يقول ابن النديم في هذا الصدد: "هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وقلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اختُرِعَ إلى عصرنا هذا وهو سبع وسبعين وثلاثمائة"².

كان لابن النديم السبق في اعتماد التصنيف الذي خص به هذا المؤلف، إذ يعتبر من أرقى التصنيفات التي وجدت في عصره، والتي وجدت لعدة قرون من بعده من حيث شموليته التي عكست تماما شتى مجالات المعرفة التي وجدت آنذاك، مع الإشارة إلى أن الأوروبيين لم يعرفوا التصنيف العشري إلا بعد ابن النديم بتسعة قرون³.

اعتمد المؤلف في تبويب كتابه المنهج الموضوعي، وهو سبق كبير له، كما اعتمد الأمانة والدقة، والتثبت من الأخبار والأحداث التي ينقلها. مما يدل على مدى ما وصل إليه العلماء المسلمون من اعتماد لأسس البحث العلمي في مؤلفاتهم⁴. يصنف د. أبو بكر محمود الهواش فهرست ابن النديم بدقة علمية ويقول: "إذا نظرنا نظرة بيبليوغرافية إلى كتاب (الفهرست) لاستطعنا أن ندخله تحت البيبليوغرافية العامة،

¹ عبد اللطيف صوفي، مرجع سابق، ص: 184.

² أحمد شوقي بنين، مرجع سابق، ص: 244.

³ محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 27.

⁴ عبد اللطيف صوفي، مرجع سابق، ص: 184.

ويعتبر أيضا ليس كتابا ببليوغرافيا فقط، وإنما يدخل تحت نوع آخر من أنواع الببليوغرافيات وهو ما يسمى "Bio bibliography" أي ببليوغرافيات المؤلفين والمصنفين¹. كخلاصة يمكن القول أن كتاب "الفهرست" لابن النديم يتميز بالخصائص التالية:

- يعتبر أول عمل ببليوغرافي علمي شامل؛
- اعتمد عليه اعتماداً كبيراً من طرف الذين ألفوا فيما بعد في هذا المجال؛
- يتميز بقيمته الحضارية الكبرى، لأنه يعبر خير تعبير عن الوضعية التي وصلها الرقي الفكري والحضاري والمستوى الثقافي الرفيع الذي بلغته الحضارة الإسلامية؛
- يعتبر مرجعا ببليوغرافيا لأي دارس أو باحث في الحضارة العربية الإسلامية خاصة وأنه ألف في القرن الرابع الهجري، وهي الفترة التي وصلت فيها الحضارة العربية الإسلامية أوج ازدهارها².

2. كتاب ابن خیر (الفهرست)³:

يعد "الفهرست" لابن خير (1108-1179 م) من المصنفات التي اهتمت برصد التراث العربي الإسلامي في بلاد الأندلس، فهو يشير إلى الكتب التي سمعها من شيوخه، ويقدم سلسلة النقلة بالتواتر إلى زمانه، فيعرف متى ومن نقل إلى الأندلس المؤلفات المكتوبة في المشرق، ويروي ابن خير أسماء الكتب حسب ترتيب العلوم والموضوعات... وقد حرص ابن خير على أن تنسب الكتب إلى أصحابها، وذلك

¹ أبو بكر محمود الهواش، المدخل إلى علم الببليوغرافيا، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2001، ص: 131.

² محمد سلمان علي، مرجع سابق، ص: 27-28.

³ ابن خير: عاش في القرن السادس الهجري. يعود نسبه إلى مدينة إشبيلية في الأندلس. ليس هناك ما يشير إلى أنه اطلع على كتاب الفهرست لابن النديم، وأن التسمية الواحدة لكتابينهما هي من قبيل توارد الخواطر. د. عبد اللطيف صوفي، مرجع سابق، ص: 186.

بالاعتماد على الرواية الدقيقة من أهل الثقة في ذلك المجال. والكتب التي ذكرها ابن خير في كتابه تقدر بما يزيد عن ألف وأربعين كتاباً¹.

يعني الكتاب بالمؤلفات أكثر من المؤلفين، ويذكر أسماء الكتب المرتبة تحت موضوعاتها في معظم الأحيان، كما يحرص على الرواية الدقيقة لأسماء الكتب عن طريق التزام الإسناد بما يقرب من درجة التواتر، الشيء الذي يثقل على القارئ في العصر الحديث، ويعقد سبل البحث فيه².

3. كتاب طاش كبرى زاده "مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم": 948هـ/1542م:

تجدر الإشارة إلى مؤلف الكتاب، عصام الدين أبو الخير أحمد بن مصطفى بن خليل المعروف بطاش كبرى زاده نسبة إلى قرية طاش كبرى التي عاشت فيها أسرته (وهي إحدى قرى أسيا الصغرى)، ولد سنة 901هـ/1495م، وتوفي سنة 968هـ/1561م في مدينة إسطنبول حيث دفن³.

ألف طاش كبرى زاده كتابه "مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم" سنة 948هـ/1541م، أي قبل وفاته بعشرين عاماً. هذا الكتاب موسوعة بليوغرافية مختصرة عن المؤلفين في موضوعات العلوم المعروفة حتى منتصف القرن السادس عشر ميلادي، بلغ عددها في الكتاب 300 علم⁴. رتب المؤلف ترتيباً مصنفاً أي وفقاً لنظام تصنيف المعرفة البشرية السائدة في عصره، وتضمن معلومات بليوغرافية تبين أهم المؤلفات في كل علم من العلوم التي تعرض لها المؤلف⁵.

¹ أبو بكر محمود الهواش، مرجع سابق، ص: 140.

² عبد اللطيف صوفي، مرجع سابق، ص: 186.

³ أبو بكر محمود الهواش، مرجع سابق، ص: 141.

⁴ عبد اللطيف صوفي، مرجع سابق، ص: 186.

⁵ أحمد شوقي بنين، مرجع سابق، ص: 250.

قسم العلوم من العام إلى الخاص ووضح مجال كل علم وبرر التقسيم الذي ورد فيه، ثم ذكر أهم المؤلفات في كل علم من العلوم كما سبقت الإشارة. إذ بدأ بالمؤلفات الأصلية ثم المختصرات والشروح، كما ذكر ترجمة المؤلفين وتعليقات عن الكتب، ومكانتها بين الكتب في نفس الموضوع. كما ركز وفصل في العلوم العربية والإسلامية واستهدف تغطية كافة المؤلفات حتى عصره¹.

يصف أحمد شوقي بنين كتاب مفتاح السعادة: بالمؤلف الببليوغرافي الذي يمثل أرقى وأكمل ما وصل إليه تصنيف العلوم وتقسيمها عند المسلمين والذي يعطينا صورة عن الحياة العقلية لدى المسلمين فيما بعد غزو المغول للعالم الإسلامي وتدميرهم لبغداد².

4. كتاب حاجي خليفة "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون":

مؤلف الكتاب هو مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة وعرف عند العرب بلقب "كاتب جلبي" أي الكاتب الفاضل، مما يدل على مكانته السابقة في عالم التأليف، ولد سنة 1017هـ/1608م وتوفي سنة 1067هـ/1656م.

يعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب الببليوغرافية إن لم يكن أهمها بحكم استخدامه لأهم عناصر الوصف الببليوغرافي. دون فيه زهاء خمسة عشر ألفاً من أسماء الكتب والرسائل العربية والتركية والفارسية وما ينيف عن تسعة آلاف وخمسمائة من أسماء المؤلفين، وتكلم فيه عن نحو ثلاثمائة علم، فذكره لمؤلفات في لغات مختلفة يجعله أول ببليوغرافيا عامة دولية في التراث العربي.

تفوق من الناحية التقنية على كل ما جاء قبله حتى في الغرب، وقد أوضح المؤلف منهجه في التأليف، بقوله: "رتبته على الحروف المعجمية، وراعى في حروف الأسماء إلى الثالث والرابع ترتيباً، فكل ما له اسم من الكتب ذكرته في محله، مع

¹ ليلي عبد الواحد الفرخان، مرجع سابق، ص: 24.

² أحمد شوقي بنين، مرجع سابق، ص: 246.

مصنفه وتاريخه ومتعلقاته، ووصفه تفصيلاً وتبويها، وما ليس بعربي قيدته بأنه تركي أو فارسي أو مترجم، لأن المؤلف لم يكتف بالكتب العربية بل ذكر أيضاً الكتب التركية والفارسية"¹.

كان كشف الظنون أهم مصدر بليوغرافي لمعظم أعمال المستشرقين المتعلقة بالتراث العربي، أكتفي هنا بالإشارة إلى تأثيره في أهم عمل موسوعي بليوغرافي استشراقي هو كتاب المكتبة الشرقية لدربولو D'herbelot, Bibliothèque Oriental في القرن السابع عشر الذي اعتمد في معظم تراجمه وكتبه على الكشف. وأكبر دليل على تأثيره به هو ذكره للمؤلفات باللغات العربية والتركية والفارسية².

يعترف المستشرق الفرنسي جالاند Garland بتفوق الكشف عما سبقه خاصة كتاب Gesner المكتبة الدولية "Bibliotheca Universalis" الذي يعتبر أول بليوغرافيا عامة دولية منذ عام 1600م أحصى فيه مؤلفه العالم السويسري جيسنر الكتب اليونانية واللاتينية والعبرية³.

خاتمة:

بعد عرضنا لكرونولوجيا أهم المراحل التي مرت منها البليوغرافيا من العصور القديمة إلى حدود القرن 17م. يمكننا تسجيل الملاحظات التالية:

- عرف العرب المسلمون البليوغرافيا منذ القرن العاشر الميلادي كما أجمع على ذلك أغلب الباحثين والدارسين؛
- هذا العلم اهتم به المسلمون منذ القدم رغم أنه لم يسمى عندهم يومئذ بالبليوغرافيا واطلقوا عليه اسم الفهرست أو الفهارس؛

¹ عبد اللطيف صوفي، مرجع سابق، ص: 187.

² أحمد شوقي بنين، مرجع سابق، ص: 248.

³ أحمد شوقي بنين، مرجع سابق، ص: 247.

- عرف هذا العلم عند العرب والمسلمين عدة تصنيفات وتفننوا وأتقنوا استعمالها لتسهيل العودة الى تصفح هذه الفهارس؛
- تفوق الحضارة العربية والإسلامية في القرون الوسطى على الغرب في انجاز بليوغرافيا، وهذا التفوق كان في الناحية العلمية والتحليلية وخاصة في جانب الوصف والإسناد والتقصي؛
- اعتماد الدقة في تتبع وتقصي المعلومة المتواترة، وهذا راجع إلى الاستفادة من علم جمع الحديث والتقصي فيه وإسناده؛
- عندما كانت الحضارة الإسلامية تقوم بتصنيف بليوغرافي دقيق بمراعات صحة ودقة المعلومة وتصنيف علمي لا يزال يستعمل في القرن الواحد والعشرين، كانت في المقابل الحضارة الغربية لا تعرف سوى محاولات بدائية في التصنيف والتي تقتصر على ما عرف بالميسكتالوج. إن دل هذا على شيء فإنما يدل على النضج والرقى الفكري والعلمي الذي حظيت به الثقافة والحضارة العربية الإسلامية في يوم من الأيام.

لائحة المصادر والمراجع

- أبو بكر محمود الهواش، المدخل إلى علم الببليوغرافيا، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، 2001.
- أحمد شوقي بنين، دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي، الطبعة الثانية، المطبعة الوطنية، مراكش، 2004.
- رودلف بلوم، الببليوغرافيا بحث في تعريفها ودلالاتها، ترجمة: شعبان عبد العزيز خليفة، الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1992.
- شعبان عبد العزيز خليفة، الببليوغرافيا أو علم الكتاب، منشورات الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1997.
- عبد اللطيف صوفي، مدخل إلى علم الببليوغرافيا والأعمال الببليوغرافية، دار المريخ للنشر، الرياض، 1995.
- لروى هارولد ليندر، نشأة الببليوغرافيا القومية الشاملة الجارية، ترجمة: عبد المنعم محمد موسى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ت.
- ليلى عبد الواحد الفرحان، الببليوغرافيا تطورها أنواعها وأساليب إعدادها، دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، 1992.
- محمد سلمان علي، الببليوغرافيا في الماضي والحاضر، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1995.

منظومة القيم في ظل العولمة الإعلامية

سمية عثمانى

باحثة في اللسانيات

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق
المغرب



ملخص:

إن عالم اليوم مبني على الانفتاح والاعتناق من بوتقة الزمان والمكان، تتقارب فيه المسافات وتتقلص فيه الاختلافات الثقافية واللغوية والفكرية... وكما افتتحت السوق العالمية في ظل العولمة على مصراعها، انفتحت الشعوب والحضارات المختلفة على بعضها البعض... هذا الانفتاح أرحى بظلاله على جميع مشارب الحياة من سياسة، وقيم، وحقوق، واهتمامات بيئية، وفنية، وإعلامية... ولأن لكل خطوة يخطوها الإنسان إيجابياتها وسلبياتها، فإنه من الضروري الوقوف عند تأثير العولمة على مجال الإعلام، هذا ما يسمى بالعولمة الإعلامية التي كانت نتيجة التطور الرقمي والتكنولوجي الذي عرفته البشرية، وكذا انعكاساتها على منظومة القيم الإنسانية والأمن الفكري للشعوب، والحلول المقترحة للتصدي لمدها وعواقبها الوخيمة.

كلمات مفتاحية: العولمة الإعلامية، القيم، الأمن الفكري، الإعلام.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عثمانى، سمية. (2024، غشت). منظومة القيم في ظل العولمة الإعلامية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 91-109.

Abstract:

The contemporary world is characterized by openness and emancipation from the confines of time and space, where distances shrink and cultural, linguistic, and intellectual differences diminish. Just as the global market has opened up under globalization, so too have diverse peoples and civilizations connected with each other. This openness has cast its shadow on all aspects of life, from politics and values to rights, environmental concerns, art, and media. As with every step humans take, there are both positive and negative consequences. Therefore, it is essential to examine the impact of globalization on the field of media, a phenomenon known as media globalization. This paper explores the effects of media globalization, which emerged from the digital and technological advancements experienced by humanity, on the human value system, intellectual security of societies, and proposed solutions to counter its overwhelming tide and detrimental consequences.

Keywords : Media globalization, values, intellectual security, media.

تمهيد:

عرفت المجتمعات قفزات نوعية في مجال استعمال وسائل الاتصال والتواصل الحديثة، هذه الوسائل جعلت العالم قرية صغيرة، يعرف فيها الداني أخبار القاصي، ويتقاسم معه مجريات وتفاصيل الأحداث التي يعيشها في آنها، يتفاعل معها، ويبدي رأيه فيها، بل أكثر من ذلك، قد يسهم في صنعها وابتداعها.

لقد كان من نتائج تزامن الثورة الاتصالية والتكنولوجية مع ظاهرة العولمة، ظهور إعلام منفتح لا تحده المسافات ولا يقيدده اختلاف الثقافات واللغات، هدفه الوحيد هو تشارك الأخبار والمعلومات والنماذج الثقافية للشعوب، والتعريف بالأحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلدان.

إن لهذه العولمة الإعلامية من المزايا بقدر ما لها من السلبيات، ففي الوقت الذي أصبح فيه العالم يحمل هما واحدا يتمثل في العيش المشترك وتقريب وجهات النظر ونبذ العنف والنزاعات والحروب. أصبحت تطفو على السطح ممارسات غريبة وثقافات وليدة عن هذا التقارب الإعلامي، وقيم نمطية تتبناها فئات عريضة من الأفراد رغم انتمائهم إلى ثقافات مختلفة.

هذا التوجه الفكري والثقافي الجديد هو ما سنحاول استجلاءه في هذا المقال الذي يهدف إلى محاولة فهم انعكاسات العولمة الإعلامية على منظومة القيم سواء بشكل إيجابي أم بشكل سلبي، ودورها في ظهور متغيرات في القيم الإنسانية وتشكيل أنساق جديدة تهدد الأمن الفكري للحضارات، مع تقديم بعض الحلول التي يمكن اعتمادها لمواجهة هذا المد الإعلامي المَعُولَم.

- فما هي أهم خصائص العولمة الإعلامية ومختلف تجلياتها؟
- كيف تؤثر العولمة الإعلامية في أنساق القيم؟
- ما هي المخاطر التي تشكلها على الأمن الفكري للحضارات؟

- ما هي الحلول المقترحة للتعامل مع تأثيرات العولمة الإعلامية؟

سنحاول الإجابة عن هذه التساؤلات من خلال محاور مركزة يقارب فيها المحور الأول إيجابيات العولمة الإعلامية وسلبياتها. في الوقت الذي يتعرض فيه المحور الثاني إلى انعكاسات عولمة الإعلام على منظومة القيم وعلى الأمن الفكري للحضارات. وأخيرا بعض الحلول المقترحة للتعامل مع هذا المد الإعلامي العالمي، لكن قبل ذلك وجب التوقف عند الشبكة المفاهيمية المتضمنة في معرض هذا المقال.

مفاهيم أساسية:

قبل الخوض في تحليل علاقة العولمة الإعلامية بمنظومة القيم والأمن الفكري، والنتائج المترتبة عن الإعلام العابر للقارات، نتوقف ابتداء عند المفاهيم الأساسية المشكلة لبنية المقال لتحديد معناها واستجلائها.

أولاً: مفهوم الإعلام

الإعلام هو شكل من أشكال الاتصال الذي عرفتته الحضارات منذ القدم، وهو يهدف إلى الإخبار والبيان والمشاركة بين مختلف شرائح المجتمع. وقد قدمت للإعلام عدة تعاريف من بينها تعريف "أوتجروت" الذي يرى أن الإعلام هو "التعبير الموضوعي لعقلية الجماهير ولروحها وميولها واتجاهاتها في نفس الوقت."¹

كما يعرفه محمد خضر بأنه "عملية يترتب عليها نشر الأخبار والمعلومات الدقيقة التي تركز على الصدق، والصراحة، ومخاطبة عقول الجماهير وعواطفهم السامية، والارتقاء بمستوى الرأي."²

¹ - عبد اللطيف حمزة، الإعلام: تاريخه ومذاهبه، القاهرة: دار الفكر العربي، 1965، ص 23.

² - محمد خضر، مطالعات في الإعلان، مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي، ط 1، 1987، ص 13.

أما منال أبو الحسن فتقدم التعريف التالي للإعلام: "هو نشر الحقائق الثابتة الصحيحة، والأخبار والمعلومات السليمة الصادقة، والأفكار والآراء، والإسهام في تنوير الرأي العام، وتكوين الرأي الصائب لدى الجمهور."¹

استنادا على التعاريف سالفة الذكر، يمكن القول بأن الإعلام من المفترض هو صلة بين مصدر موثوق ينقل الأفكار والأخبار بشكل موضوعي وحيادي، إلى جمهور مهتم بتحصيل هذه المعرفة أو الخبر، والهدف من هذه العملية هو تكوين وعي جمعي إزاء مواضيع معينة، وتحقيق التواصل والتقارب الفكري، وتوجيه الآراء والارتقاء بها، وتحصيل الفائدة أو المتعة.

ثانيا: تعريف العولمة

ظهر هذا المفهوم في أوائل القرن العشرين، وشاع استخدامه فيما بعد تزامنا مع هيمنة الرأسمالية الأمريكية. وهو يأتي في مقابل كلمة: Mondialisation في اللغة الفرنسية، و Globalisation في اللغة الإنجليزية، أما في اللغة العربية، فنجد له عدة مترادفات مثل: الشمولية، والكونية، والكوكبية.

يسوق إسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي تعريفا للعولمة مفاده أنها "مصطلح انتشر في السنوات الأخيرة، فكرته الأساسية ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم سواء المتمثلة في تبادل السلع والخدمات، أو في انتقال رؤوس الأموال، أو في انتشار المعلومات والأفكار وسرعة تدفقها، أو في تأثرهم بقيم وعادات وتقاليده وقواعد غيرها من الأمم... فالعولمة ما هي إلا رسملة العالم، وتتم السيطرة عليه في ظل هيمنة دول المركز وسيادة النظام العالمي الواحد؛ وبالتالي إضعاف القوميات وإضعاف فكرة السيادة الوطنية وصياغة ثقافة عالمية واحدة تضحل إلى جوارها الخصوصيات

¹ - منال أبو الحسن، أساسيات علم الاجتماع الإعلامي النظريات والوظائف والتأثيرات، مصر: دار النشر الجامعية، ط1، 2006، ص 23.

الثقافية، والنمط السائد حاليا هو العولمة الأمريكية بمعنى أمركة العالم وسيادة الإيديولوجيا الأمريكية على غيرها من الإيديولوجيات.¹

نستشف من هذا التعريف أن العولمة تحيل على شمولية وكونية السلع ورؤوس الأموال والثقافات والقيم والأفكار، وبالتالي جعل العالم محكوما بأيديولوجية القوة المهيمنة اقتصاديا، وهي القوة الأمريكية بالدرجة الأولى.

ذهب الجابري في نفس الاتجاه عند تعريفه للعولمة، حيث قال: "هي العمل على تعميم نمط حضاري يخص بلدا بعينه هو الولايات المتحدة الأمريكية بالذات على بلدان العالم أجمع، وهي أيضا أيديولوجيا تعبر بصورة مباشرة عن إرادة الهيمنة على العالم وأمركته، أي محاولة الولايات المتحدة إعادة تشكيل العالم وفق مصالحها الاقتصادية والسياسية."²

تحدث جلال أمين عن العناصر الأساسية في فكرة العولمة وهي "ازدياد العلاقات المتبادلة بين الأمم سواء المتمثلة في تبادل السلع والخدمات أو في انتقال رؤوس الأموال أو في انتشار المعلومات والأفكار أو في تأثر أمة بقيم وعادات غيرها من الأمم."³

نستنتج من خلال هذه التعاريف أن العولمة هي انفتاح الشعوب بعضها على بعض، والسماح بتبادل المصالح الاقتصادية والسياسية بدرجة أولى، والثقافات والأفكار بدرجة ثانية، وهذا الانفتاح ينتج عنه بالضرورة هيمنة قوة على أخرى؛ لأن الغلبة دائما للأقوى اقتصاديا وعسكريا وسياسيا؛ وبالتالي فنحن إزاء سيطرة

1 - اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي. معجم مصطلحات عصر العولمة. (مصطلحات سياسية اقتصادية واجتماعية ونفسية وإعلامية)، قوبسنا: 2024، ص 334-335. (كتاب إلكتروني يحمل قانونا على الرابط: https://archive.org/details/20210716_20210716_2028)

2 - محمد عابد الجابري، "العولمة والهوية الثقافية- عشر أطروحات"، المستقبل العربي، مج 20، ع 228، 1998، ص137.

3 - جلال أمين، العولمة، القاهرة: دار الشروق، ط 1، 2009، ص17.

أمريكية على العالم، وهيمنة نموذجها في مقابل ذوبان وانصهار الحضارات والثقافات الأضعف.

ثالثا: العولمة الإعلامية

يعتبر مجال الإعلام الأرضية الخصبة التي تأسست عليها فكرة العولمة، فتحريز السوق العالمية يسبقه بالضرورة تحرير الأفكار والمعتقدات، وهذا لم يكن ليتأتى لولا الترويج له وغرسه عبر مختلف القنوات والوسائل الإعلامية، الشيء الذي أفرغ الرسالة الإعلامية من هدفها السامي والنبيل في التثقيف ونقل الوقائع الصحيحة ونشر الوعي، وحولها إلى أداة بيد الفئات المسيطرة تستخدمها لصالحها، وتحرك بها عجلات الاقتصاد والسياسة والثقافة... وهو ما يعبر عنه الجابري بقوله إن العولمة الإعلامية هي "العملية التي تقوم من خلالها وسائل الاتصال الحديثة كالأقمار الصناعية والإنترنت بالترويج لثقافة محددة تسعى لفرض قيم وفكر واتجاهات وأذواق استهلاكية محددة".¹ كما يعتبرها بعض المفكرين أنها "عملية تستهدف التسريع المتصاعد والمستمر في قدرات وسائل الإعلام على تجاوز الحدود بين الدول والتأثير في المتلقين الذين ينتمون إلى ثقافات متباينة وذلك بهدف توحيد أسواق العالم ودمجها من ناحية، وتحقيق مكاسب للأطراف المهيمنة على صناعة الإعلام والاتصال من ناحية ثانية وهي الدول الغربية المتطورة بالأساس".²

هكذا نبين من أن العولمة الإعلامية هي عبارة عن إعلام عابر للقارات، يسعى إلى نشر ثقافة وإيديولوجية واحدة، لا تحترم خصوصيات الثقافات المحلية، لأن الثقافة القوية تمحي وتهيمن على الثقافات الصغيرة أو غير المتطورة في مقابل نشر ثقافة وأفكار الحضارات المتطورة تقنيا وتكنولوجيا واقتصاديا... وذلك عبر تجنيد

¹ - رائد أحمد البياتي وعبد الله حسين بطلان. "التأثيرات السلبية للعولمة الإعلامية على الهوية الثقافية للمجتمعات العربية"، مجلة كلية التربية جامعة الإسكندرية، المجلد السابع والعشرون. (ع الرابع، ج الثاني) 2017: ص 306.

² - البياتي وبطلان، م، س: ص 306.

الوسائل الإعلامية المختلفة لخدمة أجناسها. ومن بين هذه الوسائل نجد بالدرجة الأولى شبكة الإنترنت، التي أحدثت ثورة في مجال الاتصالات، حيث استطاعت شبكة الإنترنت أن تحتل مساحة واسعة من اهتمام الدول والأفراد، وحيزا كبيرا من تفكيرهم على امتداد العالم، بل وتغيرت جميع العمليات الإدارية، والخدماتية، والتواصلية، والإعلامية.. لتصبح مرتبطة بهذه الشبكة العنكبوتية. وثانيا نجد البث التلفزيوني الذي غزا بأفكاره وقيمه وتوجهاته جميع البيوت، ليصبح هذا الجهاز جزء لا يتجزأ من حياة الأفراد والجماعات، وصلة الوصل بين الثقافات والشعوب. وهنا لابد من الإشارة إلى هيمنة الشركات الأمريكية على هذا القطاع وسيطرتها على المحتوى المقدم وتوجيه مضامينه سواء في الأخبار والاتصال أو الترفيه وبرامج الأطفال... نظرا لأن كبريات الشركات الإعلامية تعود إليها، ومن بين هذه الشركات نجد: وارنر ميديا Warner Media وديزني Disney ونيوز كوربوريشن News Corporation

مفهوم القيم والأمن الفكري:

تتعدد التعاريف التي أعطيت لمفهوم القيم تبعا للزاوية التي يتم تناول هذا المفهوم من خلالها، نفسية أو اجتماعية أو دينية، ولكنها جميعا تتفق على كون القيم تحيل إلى المعايير التي نحكم بها على الأشياء بالقبول أو الرفض، وهي أيضا كل ما يجعل الشيء مرغوبا في ذاته؛ أي أنه يمتلك قيمة، وهذه القيمة تكتسب من خلال التفاعل مع الثقافة التي نشأ الشخص فيها.

يعرف عبد اللطيف محمد خليل القيم في كتابه "ارتقاء القيم" بأنها "عبارة عن الأحكام التي يصدرها الفرد بالتفضيل أو عدم التفضيل للموضوعات أو الأشياء، وذلك في ضوء تقييمه أو تقديره لهذه الموضوعات أو الأشياء، وتتم هذه العملية من خلال التفاعل بين الفرد بمعارفه وخبراته وبين ممثلي الإطار الحضاري الذي يعيش

فيه، ويكتسب من خلاله هذه الخبرات والمعارف".¹ أما أنتوني غيدنز Anthony Giddens فيحددها بأنها الأفكار المجردة، "تضفي معنى محددا، وتعطي مؤشرات إرشادية لتوجيه تفاعل البشر مع العالم الاجتماعي".²

تجدر الإشارة إلى أن القيم ليست مجموعة من الثوابت التي ترسم معايير لتقييم الأفعال والأقوال والحكم عليها، بل هي متغيرة تتحرك مع الزمن وفق معايير خاصة تواكب حركة التطور، وما يكتسب قيمة الآن لا يعني أبدا أنه سيحتفظ بها مستقبلا. وهو ما يشير إليه المفكر المغربي المهدي المنجرة بقوله "إن القيم تتحرك على سلم زمني مختلف تماما عما نعيشه في حياتنا اليومية".³ وهكذا نفهم أن الإنسان في سبيل الارتقاء إلى الأحسن، له القدرة على تمثيل قيم ومعايير قد تناقض تماما القيم التي درج عليها. وهنا تكمن أهمية التنشئة الاجتماعية ودور باقي المتدخلين فيها من جماعة الأقران والمؤسسات التعليمية والإعلام في توجيه الفرد وتهذيب سلوكياته وبناء نسق من القيم، يجابه به القيم والثقافات الدخيلة فيما يطلق عليه بـ "الأمن الفكري"، والذي يعرف بأنه "صيانة وحماية فكر أبناء المجتمع وثقافتهم وقيمهم وكل شأنهم من أي فكر منحرف، أو دخيل، أو وافد، أو مستورد لا يتفق (انغلاقا أو انفتاحا) مع الثوابت والمنطلقات الرئيسية والأصيلة للمجتمع".⁴ ومن زاوية أخرى يوصف "الأمن الفكري بأنه عيش "الناس في بلدانهم وأوطانهم وبين مجتمعاتهم، آمنين مطمئنين على مكونات أصالتهم، وثقافتهم النوعية، ومنظومتهم

¹ - عبد اللطيف محمد خليل، ارتقاء القيم دراسة نفسية، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، رقم 160، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أبريل 1992، ص 51.

² - أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، تر. فايز الصياغ، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط 1، 2005، ص 82.

³ - المهدي المنجرة، قيمة القيم، الدار البيضاء/بيروت: المركز الثقافي العربي، ط 4، 2008، ص 1.

⁴ - محمد شاكر سعيد وخالد الحرفش، مفاهيم أمنية، الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، ط 1، 2010، ص 15.

الفكرية.¹ ففي غياب الأمن الفكري سيكون "هناك خلل في الأمن في جميع أنواعه؛ لأنه هو الأساس لكل أنواع الأمن الأخرى، وفي تحقيقه مدخل حقيقي للإبداع والتطور، والنمو لحضارة المجتمع وثقافته، ويحقق حماية للمجتمع عامة، وللشباب خاصة، ووقاية لهم مما يرد عليهم من أفكار دخيلة هدامة".²

المحور الأول: سلبيات وإيجابيات العولمة الإعلامية

لقد تعددت الآراء والمواقف حول الآثار التي خلفتها عولمة الإعلام على الفرد والمجتمع، فهناك من يعدد مزاياها وآثارها الإيجابية، وهناك من يرى أن هذا الإعلام الموعولم لم يخدم غير أجندات جهات بعينها، وأنه سلاح مدمر ينضاف إلى باقي الأسلحة التي تمتلكها الدول المتقدمة. وفيما يلي عرض مركز للموقفين معا:

أولاً: إيجابيات عولمة الإعلام

يذهب أصحاب هذا الرأي إلى تعداد مزايا وإيجابيات عولمة الإعلام، حيث يعتبرونه إعلاما تفاعلياً ومفتوحاً يضمن المشاركة الواسعة للجميع، ويقارب المسافات والآراء بين الأفراد على اختلاف أعراقهم وجنسياتهم ولغاتهم ومعتقداتهم، كما أصبح المتلقي الذي كان في السابق وعاء يتشرب كل ما يصله من الإعلام الرسمي الوحيد، أصبح في ظل التطور التقني والشبكة العنكبوتية مشاركاً وفاعلاً ومقرراً في صناعة الأحداث والتعبير عن الرأي وصناعاته وتوجيه الرأي العام محلياً ووطنياً وعالمياً. فنحن "ننتقل دون أن ندرك من عالم سيطرت فيه العزلة الثقافية إلى عالم آخر يسوده التبادل الثقافي، من عالم يتميز بالاستقلالية الثقافية لجماعات معزولة تقليدية إلى عالم آخر هو عالم يسوده تعميم العلاقات المتبادلة والتواصل".³

¹ - السيديس عبد الرحمن، الأمن الفكري وأثر الشريعة الإسلامية في تعزيزه، الرياض: مدار الوطن للنشر، ط1، 2016، ص 29.

² - السيديس، م. س، ص 32.

³ - جيران لكلرك، العولمة الثقافية، الحضارات على المحك، تر. جورج كنورة، بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، 2004، ص 23.

وفيما يلي بعض النقاط الإيجابية التي نتجت عن انفتاح الإعلام العالمي:

- تعرف الشعوب على حياة وثقافة ومستويات تطور الشعوب الأخرى، وما وصلته من تقدم في المجال العلمي أو الاقتصادي أو السياسي مقارنة مع التخلف والامية والفقر الذي تعاني منه بعض الدول؛

- نقل العالم إلى مرحلة جديدة متطورة في الاتصال وتشارك المعلومات دون قيود أو حدود نسبية، حيث أصبح كل فرد مسؤولاً عن إيصال صوته للآخر، وقام بعمل المرسل وصانع المحتوى بعد أن كان متلقياً سلبياً لما تبثه وسائل الإعلام الرسمية؛

- الكشف عن الممارسات التي عرفتها بعض المجتمعات المنعزلة التي عانت من القهر أو التطهير العرقي أو التجويع، وإظهار هذه السلوكيات في سبيل القطع معها، ومد يد المساعدة إلى المتضررين منها؛

- تقوية العلاقات الثقافية والاجتماعية بين الأشخاص من مختلف بقاع العالم، والفضل في ذلك يرجع إلى عولمة الإعلام بدرجة أولى، هذا الانفتاح ملى صورة الغريب أو الدخيل من أذهان الناس، وجعلهم أكثر قدرة على التسامح والتعايش الثقافي وتقبل اختلاف الآخر؛

- مساهمة العولمة الإعلامية في الانفتاح الاقتصادي للدول على بعضها البعض عبر التسويق للمنتجات، وإيجاد أسواق جديدة تحتضن السلع، مما يسهم في تنشيط التبادل التجاري وما يرافقه من الرفع من الإنتاجية والحاجة إلى الأيدي العاملة ومحاربة الفقر والهشاشة.

ثانيا: سلبيات عولمة الإعلام

صحيح أن العولمة الإعلامية لها يد أساسية في الانفتاح الاقتصادي والثقافي للشعوب على بعضها البعض، ولكن ذلك لا يعني أن هذا المكسب تحقق لدى الجميع، وذلك راجع للأسباب التالية:

أولا: الهيمنة الأمريكية على الإعلام الدولي .

ثانيا: سيطرة الشركات العملاقة على الإعلام الدولي .

ثالثا: عولمة الإعلام لا توفر حرية التبادل الثقافي.

رابعا: تقلص دور الدول - وخاصة الدول النامية في شغل فضاءها الإعلامي وحمايته من محاولة الاختراق نظرا لضعف هياكلها التمويلية والفنية.

خامسا: إشكالية التهمة المعلوماتية.¹

يتضح إذن، أن الإعلام أداة بيد الدول الكبرى خصوصا الولايات المتحدة الأمريكية؛ وبالتالي فهي تعمل على توجيهه لخدمة مصالحها السياسية والاقتصادية ولو على حساب الشعوب الأخرى، إذ "تعد صناعة الإعلام وتكنولوجياه في الولايات المتحدة والدول الصناعية الكبرى نشاطا صناعيا جديدا يسمى بصناعة الرأي العام أو تشكيل اتجاهات الجماهير أو صياغة الفكر، وكل ذلك يتم في إطار الترفيه الذي يعد الطابع العام للإعلام في تلك الدول".²

فيما يلي بعض النتائج السلبية للعولمة الإعلامية:

¹ - رضا عبد الواحد أمين، الإعلام والعولمة. دار الفجر للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007، ص 146 - 149.

² - رحيمة الطيب عيساني، مدخل إلى الإعلام والاتصال، المفاهيم الأساسية والوظائف الجديدة في عصر العولمة الإعلامية، الأردن: دار عالم الكتب الحديث ودار جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع، ط 1، 2008، ص 214.

- تقليد الثقافات المستوردة، حيث تؤدي العولمة الإعلامية إلى تشجيع البلدان على تقليد الثقافات الغربية، وذلك عن طريق تلقي المعلومات والتوجيهات من الإعلام؛

- تهديد الازدواجية الثقافية وطمس هوية الشعوب المتخلفة، وتوجيهها والتحكم فيها بسبب احتكار مؤسسات الإعلام، مما يحرمها من حقها في استخدام تكنولوجيا الاتصال لتأكيد هويتها الثقافية، وحضورها كثقافة محلية أصيلة وعريقة؛

- النزاعات الثقافية، فالعولمة الإعلامية يمكن أن تؤدي إلى تفاقم التوترات الثقافية والترويج للعنصرية الثقافية عن طريق التقليل من ثقافات معينة والإعلاء من شأن أخرى. أو المساهمة في اندماج الثقافات بطريقة غير متوازنة، مما ينتج عنه ثقافة وليدة هجينة؛

- تسويق اللهجات العامية على حساب اللغات الوطنية، بل أكثر من ذلك، إضعاف اللغة الأم أو اللغة الوطنية لصالح اللغة الإنجليزية باعتبارها لغة الحضارة المسيطرة اقتصاديا، وسياسيا، وإعلاميا، وعسكريا؛

- قطع الصلة بالتراث الثقافي مقابل تعزيز مفهوم الثقافة الكونية الواحدة والتراث العالمي الموحد؛

- الترويج للثقافة الاستهلاكية وجعل الفرد أداة تجارية مستهلكة غير منتجة، وهو ما أصبحنا نلمسه أكثر وأكثر في الإشهار والإعلانات وما يروج له "المؤثرون" عبر وسائل التواصل الاجتماعي؛

التعقيم على بعض الأخبار المهمة؛ كالتطهير العرقي والمجازر التي عرفتها بعض المناطق، أو التجارب النووية التي تقوم بها الدول الغربية على أرض غير أرضها؛
- تنميط الذوق وتكريس نوع معين من الثقافة تتسم بالسطحية والإثارة؛

فقدان السيطرة على تدفق الأخبار والمعلومات عبرة وسائل التكنولوجيا الحديثة.

وهكذا يمكن القول أن الوعي بالآثار المترتبة عن وسائل الإعلام، جعل من هذا القطاع صناعة أساسية تدخل ضمن أولويات الدول المتقدمة، تحركه وفق سياساتها وأهوائها، وتخدم به أجنداتها وخططها، "فآلة الاعلام لا تقل أهمية وخطورة عن الآلة الحربية، في أهدافها الإستراتيجية، ولكنها قد تكون إحدى أدوات الاستراتيجيات العسكرية".¹

ثانيا: منظومة القيم والأمن الفكري في ظل عولمة الإعلام

يحوز مجال القيم والأمن الفكري اهتمامات الأمم بدرجة كبرى، لأنه يمس حياتها ومعتقداتها واستقرارها وأمنها، كما يمس خصائصها الدينية، والتاريخية، والقومية، والسياسية، خاصة في ظل عولمة الإعلام، وانتقال الإنسان من مرحلة الثقافة المحلية والوطنية إلى مرحلة الثقافة العالمية، فبعد أن كانت الناشئة تتشرب قيمها ومعارفها وثقافتها من قنوات شرعية تقليدية كالأسرة والمدرسة والإعلام الوطني، أصبحت تنهلها من شبكة إعلامية ووسائل رقمية عالمية تنشر ثقافتها الغربية في قوالب تسلب الألباب، وتهدم في طريقها كل القيم المحلية والوطنية في مقابل نشر قيم وثقافة نمطية عالمية، بمعنى أن العولمة الإعلامية ما هي إلا عنف رمزي تمارسه الدول المهيمنة اقتصاديا وسياسيا على باقي الدول الأخرى، وما يرافقه من قهر للثقافات الأصيلة وتغييرات في السلوكات والقيم والتوجهات، "حيث إن لوسائل الإعلام تأثيرا كبيرا على المعرفة الاجتماعية والسلوك، وبالتالي على ترتيب القيم والاتجاهات والأفعال المرتبطة بها".²

¹ - عبد الرزاق محمد الدليبي، مدخل إلى وسائل الإعلام الجديد، عمان: دار المسيرة، ط 1، 2012، ص 215.

² - الدليبي، م. س، ص 204.

وهكذا نجد أن العولمة الإعلامية تعمل على:

- تهديد السلام العالمي: حيث يؤدي الانفتاح المتزايد بين الثقافات إلى دخولها في صراعات عالمية، كما يسهم في هيمنة قيم الحضارات القوية والمهيمنة اقتصاديا وعسكريا على ثقافات وقيم الشعوب النامية. وهو ما يعبر عنه صمويل هنتنغتون Samuel Huntington بشكل صريح في كتابه صراع الحضارات بقوله إنه "في هذا العالم الجديد لن تكون الصراعات المهمة والملحة والخطيرة بين الطبقات الاجتماعية، أو بين الغني والفقير أو بين جماعات أخرى محددة اقتصاديا، الصراعات ستكون بين شعوب تنتمي إلى كيانات ثقافية مختلفة".¹

- تكريس قيم دخيلة تتجلى في العنف والانحلال الأخلاقي والجنس وإشاعة الفاحشة والإباحية والمثلية ضد جميع القيم الدينية ومقومات الأخلاق الإنسانية، وخاصة لدى فئة المراهقين والشباب؛

- إحداث شرخ قيمي وفكري بين الأجيال نتيجة تبني قيم وأفكار دخيلة على المجتمع، الشيء الذي يتسبب في تباعد الرؤى والصراع بين الأجيال السابقة واللاحقة التي لا تتشارك نفس وجهات النظر، ونفس الميول والمعتقدات، وبالتالي تهديد التماسك الاجتماعي للشعوب. وهو ما يؤكد عبد الرزاق الدليبي بقوله أن "تماسك المجتمع مبني على وحدة قيمه وانتشارها وتوافقها، وبدونها يعم الصراع والتناقض".²

تصوير القيم الغربية باعتبارها المعيار الذي توزن به باقي القيم الإنسانية، ولذا يسعى الأفراد وخاصة فئة الشباب والمراهقين إلى تقليدها تحت شعار التمدن والتحضر والخروج من المعتاد؛

¹ - صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات، إعادة صنع النظام العالمي، تر. طلعت الشايب، بغداد: دار سطور

الجديدة، ط 2، 1999، ص 46.

² - الدليبي، م. س، ص 207.

- الشعور بالاغتراب والعزلة الاجتماعية والتمرد على القيم، حيث أصبحت موجة الاغتراب وحالات فقدان الإحساس بسبب عوالة الثقافة والفكر تنمو وتتقوى في ظل تسارع نمو الفردانية في المجتمع المعاصر. وهو ما يعبر عنه خالد منصور بقوله: "لقد أصبح شبابنا يعيش حالة من العزلة والاغتراب والقنوط واليأس من عالمي المعاش، فلم يعد قادرا على التفكير والتخطيط في المستقبل، وإنما هدفه مرتبط بعالم خيالي ومثالي صورته له وسائل الإعلام والاتصال في مخياله، مما يؤدي به إلى الانعزال عن هذا المجتمع أو التمرد على قيمه وقوانينه".¹

بعد استعراض بعض الآثار التي تحدثها العوالة الإعلامية في البنى الاجتماعية والقيمية والثقافية للشعوب، نتوقف عند الحلول التي يمكن من خلالها تفادي كل ما يمكن أن يمس تماسكها الاجتماعي وأمنها الفكري، والعمل على تعزيز القيم الإيجابية، والحد من الآثار غير المرغوب فيها، والتي قد تكون سببا في ضياع واستغراب أجيال كاملة.

فيما يلي بعض الحلول والأفكار التي يمكن اعتمادها لمواجهة المد الإعلامي المعولم:

الحل الأول: التوظيف الأمثل للعوالة الإعلامية

يتأسس هذا الحل على فكرة مفادها أن سياسة المنع تؤول دائما إلى الفشل، وأن الثقافة لا تتطور بانغلاقها على ذاتها، وإنما بالتبادل الحر مع الثقافات الأخرى والتلاقح الثقافي على أساس الاحترام المتبادل، وبالتالي وجب إتاحة المجال أمام انفتاح الشعوب على بعضها البعض، وتعلم كيفية مواجهة القيم والأفكار التي لا تتناسب مع خلفيتها وطبيعتها وكل ما يهدد تماسكها الاجتماعي.

¹ - خالد منصور، تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة واغتراب الشباب، العين: دار الكتاب الجامعي، ط1، 2016، ص 135.

الحل الثاني: التصدي للعولمة الإعلامية

هذا الحل ينطلق من فكرة أن إفساح المجال أمام العولمة الإعلامية بحمولتها الثقافية والرمزية والفكرية، يعني فتح الباب على مصراعيه لتبني ثقافات غريبة أو هجينة والتطبيع معها، وهي قطعاً لا تتماشى مع النمط السائد محلياً، وهو ما سيؤدي إلى تصادمات وصراعات داخل البنى التي يتشكل منها المجتمع، كما وسيتسبب هذا الغزو في اضمحلال الثقافة المحلية وسيادة الثقافات الدخيلة، وخاصة في المجتمعات غير المتحضرة، أو النامية التي تحتفي بكل ما هو أجنبي ودخيل. وهو ما يشير إليه عبد الرزاق الدليمي بقوله: "ينبغي على تلك الشعوب وضع خطط واستراتيجيات للتصدي لهذا السلاح البارد والخطير الذي يجعل من التأثير على الرأي العام بشكل سلبي، وسيلة وغاية لتحقيق انتصاره عليه، فلا بد أن تقوم دول المواجهة باعتماد الخطط والاستراتيجيات الإعلامية للتخفيف من حجم تلك الأخطار المحدقة والمتربصة بها".¹

الحل الثالث: التوسط والاعتدال

هو حل ينبني على فكرة مفادها الاعتدال في التعامل مع الإعلام العالمي باعتبار أنه يعود بالعديد من المزايا على المجتمعات مثلما قد يؤثر عليها سلباً، فعولمة الإعلام سلاح ذو حدين، ولا بد من نشر الوعي بين أفراد المجتمع الواحد لتوجيه الإعلام في الاتجاه الصحيح، وتسخيره لخدمة قضاياه ومصالحه والدفاع عن قيمه الوطنية، في هذا الصدد يقول القرضاوي: "العولمة يبدو أنها قدر مفروض علينا، والهرب من ضغطها وحصارها غير ممكن، فلا بد لنا أن نقف منها موقف الانتقاء، وأن نتعاون على تجنب سلبياتها، لتطوير أنفسنا وإمكاناتنا، وتجنيد طاقاتنا ومواجهتها مجتمعين لا منفردين. فيد الله مع الجماعة".²

¹ - الدليمي، م. س، ص 216.

² - يوسف القرضاوي، المسلمون والعولمة، ص3. كتاب إلكتروني تم تحميله من موقع القرضاوي على الرابط:

ختاماً:

لا بد من الإشارة إلى أن أي تقدم وراقي في اتجاه المستقبل تستتبعه تغيرات كبيرة إن لم نقل تغيرات جذرية في حياة الإنسان ومصيره، وما العولمة الإعلامية إلا واحدة من مظاهر وأشكال تطور الإنسان، وانتقاله إلى مرحلة تواصلية عالمية، تساهم بدورها في تغيير الأفكار والرؤى والقيم و تشكيل أنماط سلوكية جديدة ومواقف واتجاهات هي وليدة التعرض المستمر لوسائل الإعلام، وليس هناك من سبيل لتعزيز السلوكات الجيدة والقيم الوطنية ورفض الدخيل منها مما لا يتناسب مع توجهات الشعوب إلا بالوعي بها، وتحسيس الأفراد والجماعات بالآثار المحتملة على هذه التقنيات الحديثة ودعم الإنتاج الثقافي المحلي والتسويق للقيم الأساسية للمجتمع.

لائحة المصادر والمراجع

كتب:

- حمزة، عبد اللطيف. الإعلام: تاريخه ومذاهبه. القاهرة: دار الفكر العربي، 1965.
- خضر، محمد. مطالعات في الإعلان. مكة المكرمة: مكتبة الطالب الجامعي. ط 1، 1987.
- أبو الحسن، منال. أساسيات علم الاجتماع الإعلامي النظريات والوظائف والتأثيرات. مصر: دار النشر الجامعية. ط 1، 2006.
- أمين، جلال. العولمة. القاهرة: دار الشروق. ط 1. 2009.
- خليل، عبد اللطيف محمد. ارتقاء القيم دراسة نفسية. الكويت. سلسلة عالم المعرفة. رقم 160. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أبريل 1992.
- غيدنز، أنتوني. علم الاجتماع. تر. فايز الصياغ. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ط 4، 2005.
- المنجرة، المهدي. قيمة القيم. الدار البيضاء/بيروت: المركز الثقافي العربي. ط 4، 2008.
- شاكر، محمد سعيد، الحرفش خالد. مفاهيم أمنية. الرياض: جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية. ط 1، 2010.
- السديس، عبد الرحمن. الأمن الفكري وأثر الشريعة الإسلامية في تعزيزه. الرياض: مدار الوطن للنشر. ط 1، 2016.
- لكلرك، جيرار. العولمة الثقافية. الحضارات على المحك. تر. جورج كتورة. بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة. ط 1، 2004.
- أمين، رضا عبد الواحد. الإعلام والعولمة. دار الفجر للنشر والتوزيع. القاهرة. ط 1، 2007.
- عيساني، رحيمة الطيب. مدخل إلى الإعلام والاتصال. المفاهيم الأساسية والوظائف الجديدة في عصر العولمة الإعلامية. الأردن: دار عالم الكتب الحديث ودار جدارا للكتاب

العالمي للنشر والتوزيع. ط 1، 2008.

- الدليمي، عبد الرزاق محمد. مدخل إلى وسائل الإعلام الجديد. عمان: دار المسيرة. ط 1، 2012.
- هنتنغتون، صامويل. صدام الحضارات. إعادة صنع النظام العالمي. تر. طلعت الشايب. بغداد: دار سطور الجديدة. ط 2، 1999.
- منصور، خالد. تكنولوجيا الإعلام والاتصال الحديثة واغتراب الشباب. العين: دار الكتاب الجامعي. ط 1، 2016.

مقالات:

- الجابري، محمد عابد. "العولمة والهوية الثقافية- عشر أطروحات." المستقبل العربي. مج 20. ع 228. 1998.
- البياتي، رائد أحمد، وبطلان عبد الله حسين. "التأثيرات السلبية للعولمة الإعلامية على الهوية الثقافية للمجتمعات العربية." مجلة كلية التربية جامعة الاسكندرية. المجلد السابع والعشرون. (ع الرابع، ج الثاني) 2017.

كتب إلكترونية:

- عبد الكافي، اسماعيل عبد الفتاح. معجم مصطلحات عصر العولمة. (مصطلحات سياسية اقتصادية واجتماعية ونفسية وإعلامية)، قويسنا: 2024. (كتاب إلكتروني يحمل قانونيا على الرابط: https://archive.org/details/20210716_20210716_2028).
- - القرضاوي، يوسف. المسلمون والعولمة. كتاب إلكتروني تم تحميله من موقع القرضاوي على الرابط:

<https://www.al-qaradawi.net/sites/default/files/pdf/28917-almoslimon-waelawlama.pdf>.

التسويق العصبي:

استراتيجية جديدة لتوجيه سلوك المستهلك

د. عبدالرحيم سالم

أستاذ التعليم العالي

أستاذ محاضر بالمدرسة الوطنية للتجارة والتسيير بفاس
المغرب

ملخص:

يعد علم التسويق العصبي من أحدث استراتيجيات التسويق الداعية إلى دراسة دماغ المستهلك، ومحاولة السيطرة عليه؛ لمعرفة ليس فقط بما يشعر به، أو يفكر فيه، أثناء عرض المنتج أمامه، بل والتنبؤ أيضا بقراراته الشرائية، وتحديد ميولاته وتفضيلاته المستقبلية. ويرى خبراء التسويق أن التسويق العصبي يمثل حلا ناجعا أمام الشركات العظمى؛ لتطوير علامتها التجارية، وإيصال ما ترغب فيه إلى المستهلك، لاسيما أن النتائج التي تحققت استراتيجيات التسويق التقليدية اليوم تبدو ضعيفة، ولا ترقى إلى المطلوب خصوصا عند مقارنتها بحجم النفقات المرصودة، ومستوى التطلعات المعقودة عليها.

كلمات مفتاحية: التسويق العصبي، دماغ المستهلك، العلامة التجارية، استراتيجيات التسويق.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

سالم، عبدالرحيم. (2024، غشت). التسويق العصبي: استراتيجية جديدة لتوجيه سلوك المستهلك. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 110-136.

Abstract:

Neuromarketing science is one of the latest marketing strategies that calls for studying the consumer's brain and trying to control it. To know not only what he feels or thinks while displaying the product in front of him, but also to predict his purchasing decisions and determine his future tendencies and preferences. Marketing experts believe that Neuromarketing represents an effective solution for large companies. To develop its brand and deliver what it desires to the consumer, especially since the results achieved by traditional marketing strategies today appear weak and do not meet what is required, especially when compared to the volume of expenses allocated and the level of aspirations placed on them.

Keywords : Neuromarketing, Consumer Brain, brand, Marketing Strategies.

تقديم

لطالما شكل سلوك المستهلك لغزا بالنسبة للمنتجين والمسوقين ووكلاء شركات الإعلانات خاصة، وذلك بسبب عجزهم عن فهم حقيقة هذا السلوك البشري المعقد الذي ظل ولسنوات طوال غامضا يصعب التكهّن به، أ ومعرفة دوافعه، أو حتى رسم حدوده. ولعل من التساؤلات التي أثارت حفيظة هؤلاء المتدخلين في العملية التسويقية ما يرتبط بكيفية اتخاذ المستهلك لقرار الشراء، وعلاقته بالسلعة أو المنتج أو الخدمة. ونورد من هذه التساؤلات ما يلي:

ما الذي يجعل المستهلك ينجذب إلى المنتج الفلاني؟ وما الذي يدفعه إلى تفضيل علامة تجارية ما، ووضعها على رأس قائمة اختياراته؟ هل فعل الشراء هو فعل إرادي، كما يظهر لنا، أم أنه محكوم بأنشطة عصبية هي التي توجه ردود أفعالنا السلوكية؟ كيف تساهم الخلايا العصبية في تعزيز الولاء للعلامة التجارية؟ وبمعنى آخر: هل نشترى الأشياء بعواطفنا أم أننا نحتكم إلى عقولنا؟ وما المناطق التي يستثيرها الدماغ عند اتخاذها لقرار الشراء؟

مبتعدا عن طرق التسويق التقليدية التي تدرس حالة السوق باللجوء إلى سؤال المستهلك عندما يكون في وعيه التام، يحاول التسويق العصبي أن يكشف عن رغبات الزبون وميولاته وتفضيلاته، باعتماد استراتيجية جديدة خارجة عن المألوف؛ وهي استراتيجية تنتقل من مخاطبة حواس المستهلك إلى محاولة السيطرة على دماغه باستثمار أجهزة الطب الحديث، فمن منظور علماء الأعصاب أن معظم السلوكات التي تصدر عن البشر هي سلوكات غير واعية تنبثق من دهايز العقل الباطن، وسلوك المستهلك ليس بمعزل عن ذلك، إذ يخضع هو الآخر لسلطة هذا العقل. وعلى وجه التحديد، إنه يستجيب للتأثير الذي تمارسه السلعة على مناطق معينة من الدماغ، فكلما كانت السلعة أو العلامة التجارية مسجلة سلفا في الدماغ، زاد نشاط الخلايا العصبية المسؤولة عن فعل الشراء.

تعريف التسويق العصبي

يعد التسويق العصبي فرعاً من فروع علم التسويق القائم على مخرجات البحث العلمي، وبالأخص ما انتهى إليه علم النفس وعلم الأعصاب وعلوم أخرى مجاورة مرتبطة بالتسويق، والملاحظ أنه رغم صلة علم التسويق الوثيقة بهذه العلوم فإن هدفه الأساس يظل هو التوصل إلى معرفة ما يجول في عقل المستهلك، بغية تحديد العوامل التي تتحكم في آليات الاختيار لديه، وتجعله يميل إلى انتقاء هذا المنتج دون غيره، أو اتخاذ هذا القرار دون سواه.

يعرف التسويق العصبي بأنه نهج تسويقي يسعى إلى السيطرة على دماغ المستهلك لمعرفة ليس فقط بما يفكر، أو يشعر به لحظة الانتشاء أو الرضا الوظيفي، بل التوصل أيضاً إلى معرفة ماذا ينوي أن يفعله في المستقبل.¹ لقد أضحى بمقدور التسويق العصبي أن ينفذ مباشرة إلى أذهان المستهلكين، بفضل استعمال تكنولوجيات تصوير الدماغ، والتي تقوم بقياس الإشارات العصبية الصادرة عن أجزاء معينة من الدماغ، كما تقيس لنا أيضاً تلك التفاعلات الفيسيولوجية المصاحبة والمتعلقة بحركة العينين، ودرجة حرارة الجسم، ومعدل ضربات القلب، واتساع بؤبؤ العين وغيرها. هذا كله من دون أن يعير أدنى اهتمام إلى المشاركة المعرفية- الواعية التي يبديها هؤلاء الأفراد. ويحرص التسويق العصبي على تزويد المعلنين بوسيلة أفضل لملاحظة الاستجابات العصبية للمستهلكين وفهمها على نحو أمثل، ومن ثم، معرفة ما الذي يحفز قراراتهم الشرائية.²

على هذا النحو نستطيع القول إن التسويق العصبي لم يعد يثق في الاستجابة الواعية التي يدلي بها العملاء عند استجوابهم، لأنه على قناعة تامة بأن هذه

¹ - هلال، محمد عبد الغني حسن. 2012 "التسويق العصبي واللعب في العقول" الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة. ص: 08

² - Nguyen, Tu Anh. 2021 « Fundamentals of Neuromarketing An Interdisciplinary Field That Changes How Marketers Understand Consumers » SeAMK. School of Business and Culture. Thesis. p: 19

الاستجابة غالبا ما تأتي بنتائج غير مرضية، فقد يلجأ العميل أو المستهلك عند استفساره عن رآيه بخصوص منتج أو خدمة ما، إما إلى المجاملة أو المخاتلة؛ وذلك لإخراج نفسه من وضعية الاستجواب التي قد تشكل بالنسبة له نوعا من الإحراج، أو يجد فيها فرصة للتباهي وربما تمرير المغالطات. ومن أجل تفادي ذلك كله، يتجه التسويق العصبي مباشرة إلى دماغ المستهلك لمعرفة ردود أفعاله الحقيقية عند رؤية المنتج، أو استشعاره، أو تذوقه، أو حتى القراءة عنه، مستثمرا في ذلك بطبيعة الحال ما توفره التكنولوجيات الحديثة من إمكانات هائلة لرصد مختلف أعضاء الجسم، والكشف عن حقيقة ما تخفيه المشاعر الباطنية. لقد توصل الباحثون في ميدان التسويق إلى أن الاستجابة التي يدلي بها مسبقا المستجوبون عند رؤية الإعلان، تكون غير دقيقة عند مقارنتها مباشرة بتلك العمليات الذهنية التي يتم تنشيطها داخل الدماغ طوال فترة المقابلة، وخصوصا ما يتعلق منها بعمليتي التذكر والإدراك.¹

ينهض التسويق العصبي على مسلمة أن جزءا كبيرا من السلوك البشري، بما في ذلك سلوك المستهلك، يكون مدفوعا بعمليات غير واعية تقع في الدماغ، وهي عمليات من الصعب قياسها باستخدام تقنيات التسويق التقليدية مثل استطلاعات الرأي أو مجموعات التركيز (Focus groups). وفي المقابل، فإن التقنيات التي يعتمد عليها التسويق العصبي تسمح للباحثين بقياس استجابة الدماغ تجاه محفزات التسويق، بل وتمكنهم من الحصول على نظرة ثاقبة عن تلك العمليات.² ومن المتوقع أن تساعد هذه التقنيات الحديثة على تعزيز تأثير الإعلانات التجارية على عقول شرائح واسعة من الناس، والأكثر من ذلك أنها ستمد المعلنين بمعلومات هائلة حول رغبات المستهلك ونواياهم المضمرة.

¹ - Ramachandran, K, K. 2021 « Neuro Marketing- Exploring the Brain of the Consumer: A Review » Review of International Geographical Education. (RIGEO), 11(7), 1034-1049. Doi: 10.48047/rigeo.11.07.98. P: 1035.

² - Misra, Lipsa. 2023 « Neuromarketing-Insights Into Consumer Behavior » IUJ Journal of Management. P: 145

ويرى البعض أن التسويق العصبي مشتق من علم الاقتصاد العصبي (Neuroeconomics)، وهو علم يؤلف بين عناصر علم الأعصاب والاقتصاد وعلم النفس، لاختبار الدور الذي يقوم به الدماغ أثناء إقدامه على اتخاذ خيارات تتعلق بالتسويق، وكيفية تحليل المكاسب والمخاطر المرتبطة بفعل الشراء. ووفقا للمجلة الدولية لعلم النفس الفسيولوجي فإن التسويق العصبي هو "تطبيق تقنيات علم الأعصاب لتحليل وفهم السلوكيات البشرية ذات الصلة بمجال التسويق والمبادلات التسويقية"¹.

يدرس التسويق العصبي، والذي يعرف أحيانا بعلم أعصاب المستهلك (Consumer Neuroscience) الدماغ للتنبؤ بسلوك المستهلك وقراره الشرائي، وربما التلاعب به أيضا. إذ يقوم بقياس الإشارات الفيسيولوجية والعصبية للمستهلك، من أجل الحصول على معرفة دقيقة بخصوص دوافعه وتفضيلاته وقراراته، وهو ما يساهم في إنشاء إعلانات خلاقية، من شأنها أن تساعد على الرفع من قيمة المنتج، والتحكم في الأسعار، بالإضافة إلى دوره في مجالات أخرى تتعلق بالتسويق. وتعد تقنية مسح الدماغ التي تقيس لنا النشاط العصبي، والتتبع الفيسيولوجي الذي يقيس حركة العينين، وغيرهما من أكثر تقنيات القياس شيوعا.²

التسويق العصبي إذن هو استراتيجية تسويقية تتصل بالجانب اللاواعي والعاطفي عند العميل، تهدف إلى خلق رابطة قوية بين العميل والمنتج، وهو مجال متعدد التخصصات يجمع بين علم الأعصاب، وعلم النفس، وعلم التسويق. ويظل

¹ - Katarzyna Wrona, M, Sc. 2014 « Neuromarketing- its Role in Building of Brand, Intoduction of Products Innovation, and advertising messages » Institue of aviation. Poland. Minib, Vol 11, Issue 1. Marketing of Scientific and resreach Organisation. PP : 4-5

² - Harrell, Eben. 2019 « Neuromarketing : what you need to know » Harvard Business Review Digital Article. Retrieved from website : <https://hbsp.harvard.edu/product/R1907A-PDF-ENG>

الحجر الأساس في التسويق العصبي هو تقييم ردود الأفعال الذهنية والعاطفية للمستهلك بالاستناد إلى تقنيات التسويق المختلفة.¹

إن هذه الاستراتيجية الفريدة وربما الجريئة التي يتعامل بها علم التسويق العصبي مع العميل أو الزبون، خلفت في الواقع ردود أفعال متباينة تراوحت بين المبارك لها والناقم عليها، وإذا كان بعض المراقبين يعتبرونها بمثابة الكأس المقدسة لبحوث التكنولوجيا والتي ستميط اللثام أخيرا عن ذلك الغموض المتعلق بأسرار اختيار المستهلك وبطبيعة السلوك في الدماغ، فإنها عند البعض الآخر تمثل أساس الشر الذي سيمنح المسوقين والمعلنين في نهاية المطاف سيطرة مطلقة على عقولنا وأموالنا.²

آليات اتخاذ قرار الشراء في الدماغ

لكي نتمكن من فهم الطريقة التي يقوم خلالها العقل البشري باتخاذ قرار الشراء لا مناص من سبر مكونات الجهاز العصبي في المقام الأول، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالاستعانة بعلم التشريح (Anatomy) كونه العلم الذي يعنى بدراسة أعضاء الجسد وتركيبها ومواقعها، وارتباطاتها الداخلية. ويعتقد علماء التشريح أن دماغ الإنسان يمثل البنية الأكثر تعقيدا في التاريخ البشري، وليس غريبا إذن أن تكون دراسته بطريقة نسقية (Systematic) مهمة محيرة للعقل في حد ذاته، لا سيما عندما نعلم أنه يحوي ما يناهز مائة مليار من الأعصاب (أو الخلايا العصبية) التي تتربط فيما بينها بأعداد هائلة من الروابط المتبادلة والمحتملة.³

¹ - Solomon, Pravin Raj. 2018 « Neuromarketing: Applications, Challenges and Promises » Biomedical of Scientific Technical Research.India. P : 9136

² - Genco, Stephen J , Pohlmann,, Andrew P, Steidl, Peter. 2013 « Neuromarketing For Dummies » Published by : John Wiley & Sons Canada Ltd., Mississauga, Ont. P : 07

³ - Zurawicki, Leon. 2010 « Neuromarketing: Exploring the Brain of the Consumer » Springer, Heidelberg Dordrecht London. P : 03

قبل أن نجيب عن التساؤل المرتبط بكيفية اتخاذ الدماغ لقرار الشراء، دعني أولاً اطرح عليك السؤال الآتي: هل تعلم أننا نتوفر على ثلاثة أدمغة أو عقول؟ بمعنى آخر، هل خطر ببالك يوماً أن دماغ الإنسان ينقسم إلى ثلاثة أجزاء، وليس إلى جزأين (فص أيمن وفص أيسر) كما اعتدنا سماعه؟

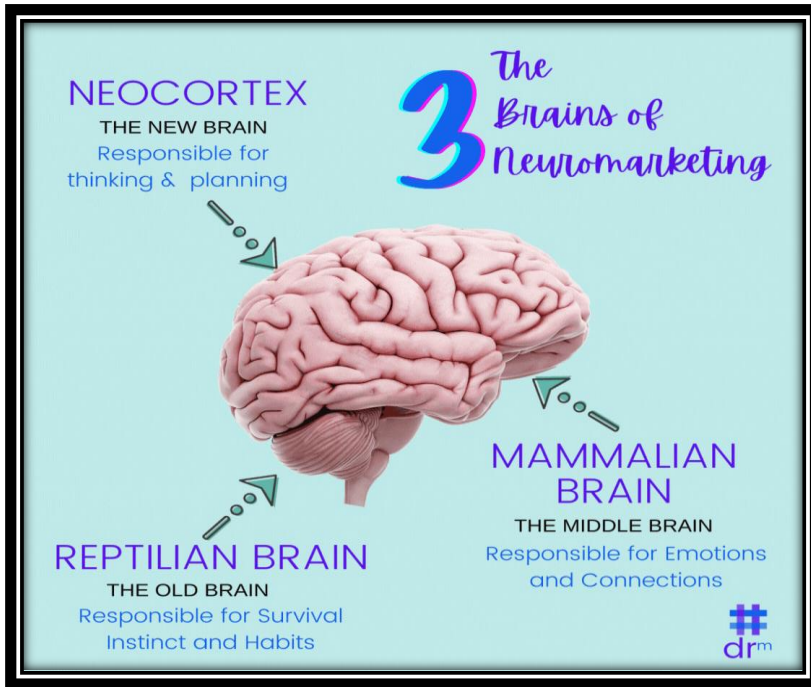
ظهرت نظرية الأدمغة الثلاث في الستينيات من القرن الماضي على يد الطبيب الأمريكي وعالم الأعصاب بول ماكلين "Paul Mclean"، وهي تستند إلى فرضية مفادها أن دماغ الإنسان لا يتكون من طبقة واحدة، وإنما من ثلاث طبقات أو أجزاء متباينة، تشكلت على نحو تدريجي عبر عدة مراحل.¹ ومع أن أغلبية علماء الأعصاب المعاصرين ينتقدون نظرية الأدمغة الثلاث، حيث يرون أنها لا تشرح بدقة كيفية عمل الدماغ في الحياة اليومية أو أثناء التعرض للضغط،² غير أن ما يعطي لها قيمة في نظرنا ويجعلها تلقى صدى في وقتنا الراهن، هو أن التقسيم الذي يقترحه ماكلين ينسجم والآراء التي توصل إليها العديد من الباحثين في علم النفس الحديث، وذلك بتأكيدهم أن الدماغ البشري يتكون من ثلاثة أجزاء واضحة: منها جزء قديم، ومنها جزء جديد. بالإضافة إلى الجزء الأوسط. ولعل من المفارقات أيضاً أن هذه الأجزاء أو الطبقات بالرغم من أنها تعمل كأعضاء منفصلة، ولها خلايا بنوية ووظيفية منفصلة، إلا أنها تتواصل فيما بينها، وكل عضو مقيد بمهمة محددة ينجزها.³ ويمكن أن نوضح أنواع هذه الأدمغة وخصائصها فيما يلي:

¹ - بغول زهير وآخرون. 2017 "الدافعية والسلوك بين نظرية التدرج الهرمي لأبراهام ماسلو ونظرية العقل الثلاثي لبول ماكلين" مجلة أبحاث نفسية وتربوية، العدد 10- جوان 2017. ص: 14.

² - Steffen Patrick, Hedges Dawson and Matheson Rebekka. 2022 « The Brain is Adaptive not Triune : How to Brain Responds to Threats, Challenge, and Change. Frontiers in Psychiatry Review. Volume 13, Article 802606. P : 01

³ - Renvoisé, Patrick and Morin, Christophe. 2005 « Neuromarketing : is there a buy buttin in the brain ? how selling to the old brain will bring you instant Success » p : 08

-الدماغ العقلاني: يتموقع هذا الجزء من الدماغ على مستوى طبقة القشرة المخية الحديثة المعروفة باسم (Neocortex) والتي تمثل الجزء الخارجي من الدماغ، ويطلق علماء النفس على هذا الجزء اسم (New Brain) أي الدماغ الجديد. وهو مسؤول عن عمليات التفكير العميق ومعالجة المعلومات والاستنتاج. وقد وجد علماء الأعصاب بأن الدماغ العقلاني بعد أن يطلع بهذه العمليات الذهنية، يلجأ مباشرة إلى مشاركتها مع الجزأين الآخرين. (أنظر الرسم 1).



رسم توضيحي 1: مكونات الدماغ من وجهة نظر علم التسويق العصبي

وتشير بعض الدراسات إلى أن الدماغ العقلاني يساهم بقوة في عملية إقناع العميل باتخاذ قرار الشراء، أو العزوف عنه، ولهذا وجب على مندوبي المبيعات، إن هم أرادوا النجاح في بيع منتج أو تسويق خدمة، تعطيل رقابة هذا الجزء أو تشتيت انتباهه على الأقل بطريقة ما، حتى يتمكن الجزءان الآخران من الدماغ من السيطرة على الوضع. وتعد استراتيجية سرد القصص والحكايات وإثارة الذاكرة من أنجع

التقنيات التي تصرف العميل عن التفكير المعقلن والتركيز على أشياء أخرى خارجة عن سلطة العقل. لكن وبالرغم من أهمية هذا الجزء من الدماغ ينبغي ألا نركز اهتمامنا عليه بالكامل، لأن الدماغ العقلاني لا يتخذ القرار النهائي، بل إنه يعمل بكل بساطة على معالجة المعلومات التي يتلقاها، ثم يحيلها على الدماغ القديم، والذي له السلطة العليا.¹

-الدماغ العاطفي أو الانفعالي: ويسمى أيضا بدماغ الثدييات (Mammalian Brain)، ويقع هذا الجزء في وسط الدماغ (Middle Brain) وبالضبط ضمن منطقة الجهاز الحوفي (Limbic System)، وهو يتولى مهمة توجيه المشاعر والأحاسيس التي تتحكم فيها أو تلك التي تنتابنا خلال فترات زمنية معينة مثل مشاعر: الشهوة والغضب والإعجاب والحب والخوف، والإحباط، والحسد، والغيرة. وعلى غرار الجزء السابق من الدماغ يظل هذا الجزء غير معني باتخاذ القرارات، إنه يعبر فقط عن ردود أفعاله العاطفية تجاه ما يرد عليه من مدخلات، ثم يحيل تلك العواطف إلى مركز القيادة على مستوى الدماغ القديم.

-الدماغ البدائي: يطلق عليه كذلك اسم دماغ الزواحف (Reptilian Brain) ويعد أقدم جزء في الدماغ (Old brain)، وفي هذا المكان تصدر جميع القرارات في نهاية المطاف. ومن الملاحظ أن دور الدماغ البدائي يكمن في أنه يستثمر المعلومات التي جمعها من الجزأين الآخرين، ويستخدمها لصياغة القرار الذي يراه الأفضل.

ويشير هذا الاسم في الواقع إلى حقيقة أن جميع الكائنات الحية تتوفر على هذا الجزء من الدماغ، والذي يقع في المنتصف مباشرة فوق العمود الفقري (راجع الرسم التوضيحي 1)، ويوصف بأنه الجزء الأكثر بدائية، ولهذا الوصف معنى لأنه

¹ - Font, Lluís. 2016 « Neuromarketing: 3 Brain Theory Applied to Sales and Marketing » Retrieved from website: <https://www.linkedin.com/pulse/neuromarketing-3-brain-theory-applied-sales-marketing-lluis-font/>

يرتبط بغريزة البقاء. هذا مع العلم على أن دماغ الزواحف لا ينحصر دوره في وظيفة صراع البقاء على قيد الحياة، لأنه مسؤول كذلك عن الكثير من الوظائف العضوية مثل تنظيم عملية التكاثر، والدورة الدموية، والتنفس والنوم، وانقباض العضلات، والاستجابة للتحفيز الخارجي. وبالمجمل فهذا الدماغ لا يجعلنا أكثر من مجرد حيوانات تكافح للعيش وتستجيب لأي منير.¹

يذكر (Gerald Zaltman) الأستاذ بكلية هارفارد للأعمال ضمن كتابه الأخير والمعنون بـ "كيف يفكر المستهلكون: رؤى أساسية في عقل السوق" "How Customers Think: Essential Insights into the Mind of the Market" أن 95 % من عملية الإدراك عند الإنسان، وهذا ينسحب على عملية اتخاذ قرار الشرار، تتم في العقل الباطن أو العقل اللاواعي، ومهمة المسوقين تكمن في فهم السلوكيات والمواقف التي لا يدركها العملاء أنفسهم.² ونفهم من هذا أن العواطف هي ما يحرك سلوك الشراء وعملية اتخاذ القرار بشكل عام. فالعاطفة تتحكم في الكثير من الأحيان في سلطة العقل، صحيح أن الجزء القديم من الدماغ والمسعى بدماغ الزواحف هو من يملك سلطة القرار العليا، ولكنه قد لا يحكم إلا بما يمد به دماغ الثدييات والمعروف بطبيعته الانفعالية، وخصوصا عندما يتم التحايل على الدماغ العقلاني، وتشتيت انتباهه بكثرة المغريات. بحيث يتحول هذا الجزء من الدماغ إلى مجرد وسيلة للمصادقة على حالة عاطفية معينة، وربما محاولة إيجاد تفسير معقول لها، وهذا ما تؤكده المقولة الشهيرة (Human beings make decisions in a emotional manner and then justify them rationally) والتي تفيد أن الإنسان يتخذ قراراته بطريقة عاطفية، ثم يحرص

¹ - Ibid.

²- Zaltman, Gerald. 2003. « The Subconscious Mind of the Consumer (And How To Reach It) » Harvard Business Review, Interview by Manda Mahoney. Jan 13th ;
<https://hbswk.hbs.edu/item/the-subconscious-mind-of-the-consumer-and-how-to-reach-it>

على تبريرها بعقلانية.¹ وسرعان ما صارت هذه العبارة شعارا رائجا في مجال التسويق بعدما أثبت العلماء بأن الناس يشترون بالعاطفة ويبررون بالمنطق (People buy on emotion and Justify with Logic)، مما يفيد بأن القرار النهائي هو بيد الدماغ القديم، ولكن سلطته مستمدة من الدماغ العاطفي.

وما دام أن قرارات الشراء تصدر دون وعي؛ فقد توصلت الأبحاث المعاصرة إلى أنها ليست قرارات عشوائية أو ارتجالية، بل إنها تقوم على نظام معالجة عقلي وتجريبي دقيق، ومن مميزات هذا النظام أنه قادر على معالجة الملايين من المعلومات بكل سلاسة ويسر، وهو ما يعجز عنه العقل الواعي بسبب محدودية ذاكرته والتي بالكاد تسعفه لكي يعالج ما بين 3 إلى 4 معلومات جديدة في المرة الواحدة.² ويقضي هذا النظام بنقل القرارات غير الواعية والمتعلقة بفعل الشراء إلى العقل الواعي عن طريق العاطفة، ومن ثم يعمل العقل الواعي على إضفاء صبغة عقلانية عليها، بحيث يفسر لنا تلك الإشارات العاطفية التي تصل إليه تفسيرا منطقيا. ومن الواضح أن العاطفة هي التي تقود عملية اتخاذ القرار، إنها على الأرجح تسهل هذه العملية وتسرع من وتيرتها في الآن ذاته، كما أنها تقلل من تعقيد هذه المهمة، وتخفف من تلك الصراعات المحتملة التي قد تنتج عن وجود بعض الخيارات المتشابهة.³

سخر علماء التسويق العصبي جهودهم للعثور على ما يسمى استعاريا بزر الشراء (purchasing Button)، والمقصود به تلك الإشارات العصبية الصادرة عن مناطق معينة من الدماغ، والتي تنشط ضمن مستوى معين بفعل التأثير الذي تحدثه السلعة أو العلامة التجارية المعروضة على مرأى المستهلك أو سمعه. ويعد

¹ - Renvoisé, Patrick and Morin, Christophe. 2005 « Neuromarketing : is there a buy buttin in the brain ? how selling to the old brain will bring you instant Success » p : 10

² - Cowan, Nelson. 2001 « The magical number 4 in short-term memory: A reconsideration of mental storage capacity ». Behavioral and Brain Sciences. P : 87-185

³ - Martinez-Selva el al. 2006. « Brain mechanisms involved in decision making » Article in Revista Neurologia, 2006, (7) : p : 411

اكتشاف هذا الزر بمثابة ثورة نوعية في مجال التسويق، لأنه سيمكن الشركات الكبرى من فهم سلوك الزبون وتفضيلاته ورغباته الحقيقية. ومن ثم، مساعدتها على قراءة أفكار المستهلك، وبناء استراتيجيات تسويقية قادرة على التحايل على الزبون، ودفعه لشراء أشياء لم يكن ليشتريها بطريقة أخرى.

لقد استطاعت التجارب التي أنجزت لحد الساعة على عينة من المتطوعين، بالاعتماد على أجهزة الرنين المغناطيسي الوظيفي، تقديم إجابات شافية عن المراحل التي يمر بها الدماغ البشري قبل أن يصدر قراره النهائي حول فعل الشراء. إذ لاحظ علماء التسويق بأن "بعض العلامات التجارية تحرك مراكز الإثارة والحماس في المخ، ولكنها لا تكفي لجعل صاحبه يهرع إلى الشراء، بينما هناك سلع أخرى تشعل مناطق الحسم في الدماغ. وعندما تضيء هذه المناطق، فإن الشخص يكون قد تخطى مرحلة المداولة إلى القناعة التامة بحاجته إلى السلعة".¹ ومن هنا أدرك هؤلاء العلماء سر الخلايا العصبية المسؤولة عن قرار الشراء، بينما ظل هدفهم الأسى تعزيز ولاء الزبون إلى علامات تجارية بعينها، وتقوية روابط الانتماء لديه، والتفكير في صياغة إعلانات تجارية جديدة كفيلة بدغدغة مناطق الإثارة لديه.

ربما تكون المراحل السابقة حاسمة من منظور الإشارات العصبية التي يبعثها الدماغ، ولكن من المؤكد أن هناك عوامل أخرى خارجية تؤثر بدورها في القوة الشرائية للمستهلك ومنها على سبيل المثال لا الحصر، محدودية ميزانية الشراء. فمهما بلغ إعجاب العميل بالمنتج وقناعاته به، فإنه من غير المنطقي أن يغامر باقتنائه إذا افترضنا بأن السعر يتعدى قدرته الشرائية. وفي هذا السياق يمكن أن نتحدث عن حالة من الضمور تلحق تلك الخلايا العصبية التي كانت نشطة في مرحلة معينة، ولكن الإشارات الصادرة عنها بدأت في الانطفاء التدريجي بمجرد أن ظهر "بأن ثمن هذه السلعة المرغوبة عال أو أكثر من قدرة المشتري. وهنا تتدخل المناطق العليا في

¹ - هلال، محمد عبد الغني حسن. 2012 "التسويق العصبي واللعب في العقل" الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة. ص: 59

الدماغ لتفكر وتستخدم الخبرة المسبقة في اتخاذ القرار. فنشاط هذه المنطقة مرتبط بعملية الموازنة بين حسابات الربح والخسارة التي تثور عادة قبل اتخاذ قرار الشراء.. وهكذا صار بمقدور العلماء توقع ما إذا كان الشخص موضع الدراسة سيقدم فعلا على شراء السلعة المعروضة أمامه أم لا. إذ إنه متى ما بدأت مناطق المخ المرتبطة بعمليات الموازنة بين الربح والخسارة في زيادة نشاطها، فيعني ذلك أن الشخص سيقدم على الشراء، أما لو تم رصد سيطرة لمناطق قشرة الدماغ التي تنشط عند الإحساس بأن ثمن السلعة أعلى من فائدها، فإن المتسوق غالبا لن يشتري".¹

قرار الشراء وسلطة العقل الباطن

بالرغم من أن العقل الباطن يحاول أن ينأى عن كل ما يثير إدراكنا أو اهتمام عقلنا الواعي، إلا أنه لا ينجح في مسعاه فقد ثبت بأن العديد من الأنشطة أو القضايا التي تشغل بالنا يتم معالجتها بشكل لا واع، حيث يقوم العقل الباطن بنوع من الإشعار بها أو الإسقاط لها عن طريق الحدس، أو التذكر المفاجئ، أو عبر أحلام اليقظة. ألم يحدث مرة أن أجهدت نفسك من أجل إيجاد حل لمشكل ما ولكن دون جدوى، وفجأة يأتيك الإلهام في لحظة من الاسترخاء، أو عندما تتوقف كلياً عن التفكير في الموضوع. فما لا تدركه حينئذ هو أنه في الوقت الذي وصلت بك فيه الأمور إلى النفق المسدود وعجزت عن العثور على الحل، كان عقلك الباطن لا يزال يشغل على المشكل طوال تلك الفترة، ولم يستسلم أبداً، وبمجرد أن عثر على الحل المناسب ألهمك إياه إن العقل الباطن يسخر طاقته سرا لصالح عقلنا الواعي وهو يدرب نفسه على التعامل مع العديد من النشاطات العقلية، إذ يعمل على تقييمها ومعالجتها

¹ - فقيه، أشرف. 2007 "التسويق العصبي فن مخاطبة مخ المستهلك" مجلة القافلة الإلكترونية، المملكة العربية السعودية.

واتخاذ بعض الإجراءات النهائية بخصوصها، كأن يقوم مثلا بتخزينها في الذاكرة البعيدة المدى، أو بإسقاطها في وعينا بطريقة أو بأخرى.¹

ويكمن الفرق بين العقل الواعي والعقل الباطن في كون العقل الباطن لا يملك القدرة على أن يصدر حكما من تلقاء نفسه، لأنه لا يستطيع إدراك أي شيء لوحده، لا يستطيع العقل الباطن أن يرى، أو يسمع، أو يلمس، أو يتذوق، أو يشم. يتعامل العقل الباطن بناء على المعرفة العميقة التي تم تجميعها بشكل واع تماما في الذاكرة بمختلف أنواعها (الذاكرة المعلوماتية، والثقافية، والعاطفية)، وبالمجمل إنه لا يتعامل سوى مع الذكريات التي تخزنها تلك المشاعر.²

قد يقول قائل إن العقل الباطن على هذا النحو ساذج أو طفولي، ولكنه في حقيقة الأمر ذكي جدا، ويستمد ذكائه من كثرة التجارب التي خاضها أو بمعنى آخر من خبرة السنين الطوال، فقد أفنى هذا العقل حياته في التعلم، سواء التعلم من نجاحاتنا أو من إخفاقاتنا، إذ تطور العقل الباطن بفعل عامل التجربة، وأصبح بمقدوره اتخاذ القرارات التي يراها مناسبة لنا.³ ولأنه يشغل في معظم الأوقات، فلا ضير في أن نضع ثقتنا فيه ونأمن له، لأننا الثقة فيه تعني الثقة في الحدس أو ما اعتاد البعض على تسميته بالحاسة السادسة أو علم الفراسة عند العرب. على اعتبار أن لهذه الحاسة القدرة على الشعور بالحالة الداخلية للجسم، وتأويل مختلف الإشارات الصادرة عنها، ولا سيما تلك المرتبطة بالأعصاب. يعرف الحدس بأنه القدرة على فهم الأمور غريزيا دون الحاجة إلى تفكير واع، ولذلك فعند الاطمئنان لحدسنا نفهم جيدا أي المنتجات سنقوم بشرائها، حتى ولو لم يكن هناك سبب عقلائي لذلك،

¹ - Kumar Das, Krishanu. 2018 « Consciousness and its relation with subconscious mind : The Mystery probed. Department of Medicine, Asansol, India. P : 09

² - Ibid.

³ - Kahneman, Daniel. 2011 « Thinking Fast and Slow » New York: Farrar, Straus and Giroux. P : 109-255

ولو أن السبب في كوننا نعرف الشيء الذي سنقوم بشرائه، يتمثل في أننا وضعنا مؤشرات وجدانية، تكمن في عقلنا اللاواعي وتحتمل التفعيل الخفي.¹

تقنيات التسويق العصبي وأدواته

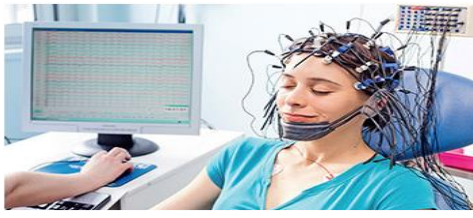
استفاد خبراء التسويق العصبي خلال السنوات الأخيرة من التطور الهائل الذي عرفته الأجهزة التكنولوجية في المجال الطبي، لإجراء اختبارات تجريبية على عينات من المشاركين على اختلاف أعمارهم، والغاية من ذلك قياس ردود أفعالهم الذهنية والفسولوجية عند عرض منتج أمامهم أو الاستعلام عنه بطريقة أو بأخرى. ونظرا لشيوع هذه الأدوات أو التقنيات، فإننا سنكتفي فيما يلي بتقديم أكثرها تداولاً.

أ. تقنية تخطيط كهرباء الدماغ (EEG)

تعد تقنية تخطيط كهرباء الدماغ تقنية قديمة نوعاً ما، بيد أنها ما تزال تعتبر وسيلة فعالة لقياس نشاط الدماغ. وتسمى الخلايا المسؤولة عن الأساس البيولوجي لردود أفعالنا المعرفية بالخلايا العصبية، ويمتلك الإنسان أكثر من 100 مليار خلية عصبونية، ناهيك عن تريليونات من الوصلات المتشابكة فيما بينها والتي تمثل مركز الدوائر العصبية. ويلاحظ أنه في ظل وجود مثير ما كالإشهار مثلاً تضيء هذه الخلايا وتنتج تياراً كهربائياً ضعيفاً يأخذ في الارتفاع متخذاً أشكالاً وترددات مختلفة هي ما نسميها بالموجات الدماغية. يكون لها علاقة بمختلف حالات الإثارة أو التحفيز.

ويتم استخدام هذه التقنية في مجال التسويق عن طريق وضع أقطاب كهربائية على فروة رأس الشخص الخاضع للتجربة، وعادة ما يكون ذلك باستعمال خوذة أو رباط، مما يتيح إمكانية تسجيل الموجات الدماغية على فترات زمنية صغيرة جداً (انظر الرسم 2 أسفله). ويمكن لبعض نطاقات تخطيط كهرباء الدماغ الحديثة

¹ - هيث، روبرت. 2017 "إغواء العقل الباطن سيكولوجية التأثير العاطفي في الدعاية والإعلان" ترجمة محمد عثمان، الناشر مؤسسة هندواي، المملكة المتحدة. ص: 206



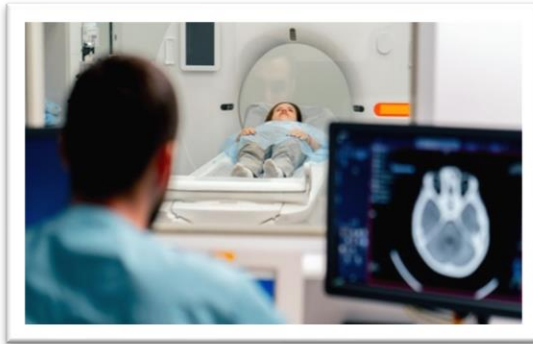
رسم توضيحي 2: تقنية تخطيط كهرباء الدماغ

أن تسجل ما يقارب 10.000 مرة في الثانية الواحدة. ويعد هذا المعطى مفيدا للغاية بالنظر إلى السرعة الهائلة التي تستقبل بها حواسنا المعلومات والأفكار.¹

ونستطيع استخدام تخطيط كهرباء الدماغ (EEG) لاختبار فعالية الشعارات (Logos) والرموز والإعلانات المختلفة، لقياس مدى تأثيرها في نشاط الدماغ والحالة العاطفية، كما يمكن توظيفها لقياس استجابة الدماغ تجاه بعض المثيرات التي تأتينا من العالم الافتراضي مثل: مواقع الويب ووسائل التواصل الاجتماعي، أو منصات التجارة الإلكترونية، بهدف تحسين تصاميمها وتسهيل استخدامها.²

ب. تقنية التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي (fMRI)

تعتمد هذه التقنية من حيث المبدأ على نفس عناصر التقنية السابقة، أي



رسم توضيحي 3: تقنية التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي

التصوير المقطعي لاستجابة الدماغ أثناء التعرض لمحفزات خارجية، وجدير بالذكر أن نشير إلى أن جهاز التصوير بالرنين المغناطيسي (MRI) يستخدم موجات كهرومغناطيسية قوية؛ للحصول على صور تشريحية

¹ - Morlin, Christophe. 2011 « Neuromarketing : the New Science of Consumer Behavior » Symposium : Consumer Culture in Global Perspective, Springer Science Business Media. P : 133

² - Faster, Capital. 2024 « Neuromarketing: How to Use Neuroscience to understand and Influence Your Customers with E marketing Strategy » » Retrieved from website : <https://fastercapital.com/content/Neuromarketing--How-to-Use-Neuroscience-to-Understand-and-Influence-Your-Customers-with-E-marketing-Strategy.html>

يمكن التمييز فيها بين أنواع الأنسجة المختلفة، وتحديد أماكنها بدقة عالية، بل والتعرف على حالتها الصحية.¹

وعن الكيفية التي تشتغل بها هذه التقنية تفيد المعلومات الصادرة عن مراكز الدراسات العصبية أن الخبراء يعتمدون إلى عرض مجموعة من الإعلانات التسويقية، سواء أكانت صورا ثابتة أم متحركة، أو أشرطة دعائية، أمام الشخص المستهدف. وبالموازاة مع ذلك يتم مراقبة ردود فعله العقلية وتصويرها، عن طريق أجهزة الرنين المغناطيسي الوظيفي (fMRI)، والتي تعمل على تتبع وقياس الهيموغلوبين الغني بالأكسجين في الدماغ من جانب، ثم قياس الهيموغلوبين الخالي منه تماما من جانب آخر. إذ يتمكن الباحثون في هذا المجال من الحصول على صور دقيقة وآنية لاتجاه سريان الدم، وأماكن الخلايا العصبية التي تنشط خلال هذه العملية.² (انظر الرسم 3).

ويشيع استخدام تقنية (fMRI) في التسويق العصبي لفهم كيفية استجابة الدماغ أمام محفزات مثل: تغليف المنتجات، والإعلانات، والتسعير، وهي تقيس كذلك ترميز الذاكرة (Memory encoding)، والإدراك الحسي، والضغط العاطفي، والرغبة والثقة، والولاء للعلامة التجارية، أو تفضيل علامة تجارية بعينها والتعلق بها، إضافة إلى إمكانية استخدامها لاختبار المنتجات والحملات الإعلانية الجديدة وتطويرها، وتحديد اللحظات الحاسمة في الإعلان أو الفيديو، ومعرفة مدى ملائمة تصميم غلاف المنتج والأسعار، وإعادة نشر العلامة التجارية، وكذا التنبؤ بالخيارات المتاحة، وتحديد الاحتياجات، والاختبار الحسي، والدعم الجماهيري.³

¹ - هلال، محمد عبد الغني حسن. 2012 "التسويق العصبي واللعب في العقول" الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة. ص: 20

² - المرجع السابق، الصفحة، 24

³ - Misra, Lipsa. 2023 « Neuromarketing-Insights Into Consumer Behavior » IUJ Journal of Management. P : 152

ت. تقنية تتبع حركة العينين

تستخدم في هذه التقنية كاميرا صغيرة جدا تعمل بالأشعة تحت الحمراء، وتقوم هذه الكاميرا بتسجيل حركة العينين وحجم البؤبؤ، واتجاه النظر أو موقع الحدة بدقة متناهية. والغرض من توظيف هذه التقنية هو فهم أنواع العملاء، ومعرفة ما الذي يثير انتباههم عندما يجدون أنفسهم عرضة لمثير ما، وبشكل أدق



رسم توضيحي 4: تقنية تتبع حركة العينين أثناء التصفح

عند دخول هؤلاء العملاء لمتجر تجاري من أجل التصفح أو الاستعلام عن العروض التفضيلية.

ويتم تثبيت هذه الكاميرا بعدة طرق، إما بتركيبها في نظارات يضعها الزبون بحيث تسمح بتتبع حركة عينيه، أو بتثبيتها في جهاز

ثابت يقوم هو الآخر برصد العين، وغالبا ما يوضع هذه الجهاز في الجزء السفلي من شاشة العرض.¹ ومن شأن اعتماد علماء التسويق العصبي على هذه التقنية أن تزودهم بمعلومات كافية عن المنتجات التي تستفز نظر الزبناء، والأماكن التي تثير انتباههم أكثر، ومدة الانتباه، وطبيعة الاستجابة التي تتكون عندهم عند رؤيتها. (انظر الرسم الموازي).

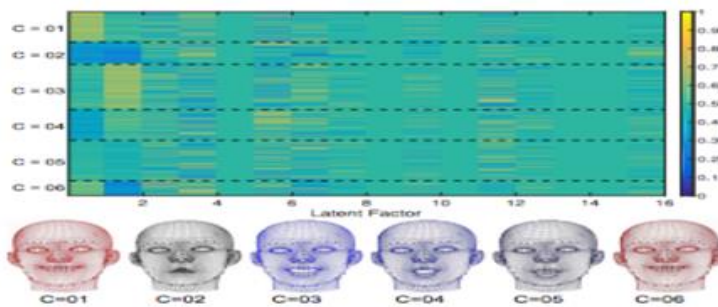
ث. تقنية ترميز تعابير الوجه

تهدف هذه التقنية إلى تحليل ملامح الوجه بالاستناد إلى نظام معلوماتي دقيق؛ يعمل على ترميز عضلات الوجه ثم يقوم بفك ترميزها، لمعرفة كيف يشعر العميل

¹ - Marques Martinez, Sandra. 2021 « Neuromarketing and Sensory Marketing : Are we owners of our purchasing decisions ? » Programa Internacional del Grado en Administración y Dirección de Empresas. UPNA, España. P : 24

لحظة قراءته لإعلان تجاري ما أو عند زيارته لموقع ويب أو أثناء شرائه لهاتف ذكي مثلاً. وبحسب الأبحاث فإن كارل هرمان (Carl Herman) هو أول من طوّر نظاماً لتشفير تعابير الوجه، وكان ذلك في أواخر الستينيات، وقد رُوّج لهذا النظام في أوائل السبعينيات كل من بول إكمان (Paul Ekman) وولاس فريزن (Wallace Friesen)، حيث قاما بالتركيز على دراسة التغيرات التي تطرأ على جوانب مختلفة من عضلات الوجه، وذلك لتحديد طبيعة الاستجابة العاطفية التي تنتج عنها.

ويرتكز النظام المقترح على مبدأ تصنيف عضلات الوجه في حالة انشراحه وانقباضه إلى وحدات تشغيل (action units) ذات ترميز خاص، حيث تعبر كل وحدة عن درجة حدوث نشاط في عضلة من عضلات الوجه أو أكثر. فعلى سبيل المثال تكشف الوحدة صفر (AU 0) عن تعبير محايد للوجه، بينما تشير الوحدة (AU 1) إلى أن العميل قد حرك الجزء الداخلي من حاجبيه، ويمكن أن يتوافق التعبير الواحد مع عدة وحدات تشغيل. بينما تقاس شدة التعبير بمقياس تصاعدي معدل الكثافة الأدنى فيه هو A وأما أقصاه فيرمز له بالحرف E، وهكذا يمكن أن يشير الرمز C1 إلى أن الزبون قد رفع الجزء الداخلي من حاجبيه بشكل واضح، ولكن دون أن يبلغ حد التقطيب.¹



رسم توضيحي 5: تقنية ترميز تعابير الوجه

¹ - Idstats, Team . 2020 « Getting to Know Neuromarketing: Facial Coding » Retrieved from Idstats website : <https://idstats.co/blog-1/getting-to-know-neuromarketing-facial-coding>

سبق لشركة Disney أن طبقت هذه التقنية في مسرح يتسع ل 400 مقعد مزود بأربع كاميرات تعمل بالأشعة تحت الحمراء، تقوم بتصوير الجمهور خلال 150 عرضاً سينمائياً يشمل على تسعة أفلام رئيسية ومنها: the Jungle book, « Big Hero 6, Star Wars, the Force Awaken, Zootopia » وأسفرت هذه التجربة عن تحصيل 16 مليون علامة وجهية تعود ل 3179 فرداً من الجمهور الذين تم وصل تعابيرهم بالشبكة العصبية.¹ وبفضل المعلومات المدرجة اليوم في مجال الذكاء الاصطناعي تستطيع الشركة التنبؤ، وخلال العشر دقائق الأولى من العرض، بردود أفعال الجمهور تجاه المشاهد المؤثرة في الفيلم، بالاستناد إلى تعابير وجوههم فقط. ويعتبر ذلك مؤشراً قوياً لتقييم مدى نجاح أفلامها الأخيرة في إثارة الجمهور عاطفياً، كما أنه يعزز قدرة الشركة على سرد الحكايات، ويرفع من جودة أفلامها الروائية.

ج. تقنية الاستجابة الجلدية

تستخدم هذه التقنية عادة في الأبحاث الطبية كنوع من العلاج المعروف باسم الارتجاع البيولوجي (Biofeedback therapy)، وتقيس استجابة الجلد الغلغانية (Galvanic Skin Response) أو ما يصطلح عليه كذلك بالموصل الجلدي التغيرات الكهربائية التي تحدث على مستوى الجلد نتيجة نشاط الغدد العرقية (Sweat Gland) في أصابع اليد أو في راحتها. إذ من المعروف أن الجلد يميل إلى أن يصبح موصلًا فعالاً للشحنات الكهربائية، بمجرد تعرضه لضغط قوي أو فوق المعتاد، مثل الذي ينتج عن الإثارة السيكلوجية، ذلك أن جسم الإنسان يتفاعل بشكل لا إرادي عند تعاطيه لمثيرات داخلية أو خارجية مثل: الصوت، والضوء، ودرجة الحرارة، والعواطف، والكلمات، والوجوه. ويلاحظ أنه مع تغير مستوى الإثارة السيكلوجية لدى الفرد تتغير استجابته لا إرادياً بحسب نوع الإثارة التي يواجهها (إيجابية، سلبية،

¹ - Gianluca, Mezzofiore. 2017 « Disney is using facial recognition to predict how you'll react to movies » Retrieved from mashable website: <https://mashable.com/article/disney-facial-recognition-prediction-movies>

محايدة)، فعلى سبيل المثال، يتعرق الناس بشدة عند الشعور بالحر، أو عند الحماس الزائد، أو الضغط العاطفي، كما يتسع بؤبؤ العين كلما دخل المرء إلى غرفة مظلمة، أو عند رؤيته لشخص ينجذب له.¹



رسم توضيحي 6: تقنية استجابة الجلد الغلفانية.

ونظرا للأهمية التي تحظى بها هذه التقنية في وقتنا الحاضر، لم يعد استخدامها مرتبنا بالاطمئنان على الحالة الصحية أو النفسية للمريض، وذلك بعدما شاع استخدامها في ميادين أخرى لا علاقة لها بالجانب الطبي كالاستخبارات، حيث يوظف المحققون تقنية الاستجابة الجلدية ضمن جهاز الكشف عن الكذب.² للتأكد من صحة المعلومات التي يدلي بها المتهم، فقد بات في حكم المؤكد أن العديد من المشاعر الإنسانية وعلى غرار: السعادة، والهلع، والغضب، والاهتمام، والتوتر، هي مشاعر تخلق منبهات نستطيع تسجيلها انطلاقا من اليد، فالاستجابة العصبية التي ترتبط بالإثارة اليدوية قابلة للقياس والاستفادة منها.³ في مجالات عديدة، ومنها مجال التسويق.

¹- Dorwart, Laura. 2023 « what is the Galvanic Skin Response (GSR) ? » Retrieved from verywell health website : <https://www.verywellhealth.com/galvanic-skin-response-6373883>

²- Narayanan, Surya and Raj, Praveen.2020 « Neuromarketing : The Science of Consumer Behavior » Indian Institute of Management Kozhikode, 04th International Conference on Marketing, Technology-Society. P: 03

³- Solomon, Pravin Raj. 2018 « Neuromarketing : Applications, Challenges and Promises » Biomedical journal of Scientific & Technical Research. Volume 12- Issue2. India. P : 9140

ومع أن خبراء التسويق العصبي يعتبرون أن دراسة سلوك المستهلك، بالاستناد إلى المعلومات التي تزودنا بها الاستجابة الجلدية وحدها مسألة ممكنة، إلا أنهم لا يثقون في قدرة هذه الاستجابة على التنبؤ بردود أفعاله العاطفية. وبسبب ذلك فإنهم يفضلون أن يتم استخدام هذه التقنية بجوار أدوات أو تقنيات آخر مثل تلك المتعلقة برصد حركة العينين، إذ يمكن لاختبار (GSR) أن يدعم في الكثير من الأحيان تقنية ترميز العين ما دام أن "تتبع مسار العين في حد ذاته لا يفيد بالضرورة في معرفة السبب الذي يجعل المستجوبين ينظرون على نحو معين، وضمن هذا الإطار يمكن لـ (GSR) أن تتدخل من خلا تقديم قراءات آنية ومستمرة لنشاط الجلد، وربط حالات الإثارة بالنتائج التي تسفر عنها عملية تعقب حركة العين. لأن القيام بذلك سيساعد على تقديم تفسير علمي للنتائج، وليس مجرد التخمين.¹

اختبارات التسويق العصبي

في عام 1975 قامت شركة بيبسي للمشروبات الغازية بدعوة العديد من المشاركين لإجراء اختبار أطلق عليه آنذاك اختبار التذوق الأعمى (Blind taste) وهو اختبار عشوائي يقوم على أساس مفاضلة المشاركين بين كل من مشروب بيبسي وكوكا كولا، دون معرفة اسم العلامة التجارية. ولم يكن مفاجئاً حينئذ أن يختار الناس بيبسي، بعدما اعترفوا بأن مذاق بيبسي هو الألد. والجدير بالإشارة أن هذه التجربة لم تتوقف عند هذا الحد، ففي عام 2003 أعاد Read Montague وهو عالم أعصاب طرح السؤال الآتي: إذا كان الناس يفضلون حقا بيبسي على كوكا كولا، فلماذا لا تهيمن مشروبات بيبسي على السوق؟²

¹ - Explorer Research. «How the Smart Watch Trend Observes Consumer Behaviour» Galvanic Skin Response. Retrieved from: <https://explorerresearch.com/gsr-market-research/>

² - NeuroSensum. 2018 «The Pepsi Challenge: How Neuroscience Discovered the Hidden Truth». Retrieved from:

<https://medium.com/@neurosensum/the-pepsi-challenge-how-neuroscience-discovered-the-hidden-truth-e5da7997f046>



وعلى أمل الإجابة عن هذا التساؤل، أجرى مونتاج تحدي البيبسي من جديد، وقد قام هذه المرة بإيصال الأشخاص الخاضعين للاختبار بجهاز التصوير بالرنين المغناطيسي بغية تتبع نشاط الدماغ. وبالموازاة مع ذلك، طلب منهم تذوق مشروب معين دون إخبارهم بنوع العلامة التجارية التي ينتمي إليها. وفي البداية صرح حوالي نصف المشاركين بأنهم يفضلون مذاق البيبسي، ولكن ما أن تم إطلاعهم بحقيقة عينات كوكا كولا، تراجع هؤلاء عن موقفهم السابق؛ حيث قالوا بأنهم يفضلون طعم مشروب كوكا، وتحولت التفضيلات إلى 3 مقابل 1 لصالح كوكا كولا. ليس هذا فقط، حيث لوحظ أن هناك زيادة واضحة في نشاط قشرة الفص الجبهي، وهو الجزء من الدماغ المتحكم في التفكير العميق، هذا بالإضافة إلى وجود نشاط بارز على مستوى الحُصَيْن (بنية تشريحية في الدماغ) يتعلق بالذاكرة.¹

وخلص مونتاج إلى أن دماغ الأشخاص الذين تعرضوا للاختبار كان يقوم باستدعاء وتذكر صور وأفكار لإعلانات تجارية سابقة، وبأن الأفكار والمشاعر المرتبطة بالعلامات التجارية تطفئ على الجودة الحقيقية للمنتج. وفي سنة 2004، نشر مونتاج النتائج المتوصل إليها، وهو الأمر الذي شكل عاملاً أساسياً في خروج علم التسويق العصبي من الظل إلى العلن. وقدمت هذه الدراسة دليلاً علمياً على قدرة تقنيات التسويق العصبي على التنبؤ بسلوك المستهلك، وذلك بعدما تبين جلياً كيف أن الدماغ البشري يستجيب لتأثير العلامات التجارية والإشهارات بشكل عام "وكلما

¹ - MarketingSchools. 2020 « Neuromarketing Explore the Strategy of Neuromarketing ». Retrieved from : <https://www.marketing-schools.org/types-of-marketing/neuromarketing/#section-0>

كانت العلامة التجارية مسجلة بالدماغ، كلما زاد هذا النشاط تأثرا بالإشهار... إن العلامة الأكثر تسجيل لدى المستهلك، تقوم بتنشيط الجزء الأيسر من الدماغ بعد الثانية الأولى من المشاهدة، ثم تقوم بتنشيط الجزء الأيمن بعد لحظات من ذلك".¹

خاتمة

لا مرأ في أن التسويق العصبي سيفتح آفاقا كبرى أمام الشركات الضخمة لفرض هيمنتها على الأسواق التجارية، ومحاصرة الزبناء في مختلف نقط البيع والشراء، فبفضل التقنيات والأدوات المتطورة التي يعتمد عليها هذا العلم لم يعد فعل الشراء يمثل إشكالا أو لغزا محيرا على نحو ما كان عليه سابقا. هناك مناطق معينة في الدماغ هي المسؤولة عن قرار الشراء، ويكفي أن نقوم بدغدغة أحاسيس المستهلك وإثارة انتباهه؛ لتحفيز هذه المناطق وجعلها تتجاوب إيجابا مع الإعلانات التجارية التي ما فتئت تحكم قبضتها عليه في مختلف وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة.

¹ - خري، عبدالناصر. 2014 "التسويق العصبي. التوجه الجديد في علم التسويق". مجلة العلوم التجارية،

الجزائر، ص: 24

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- بغول زهير وآخران. 2017 "الدافعية والسلوك بين نظرية التدرج الهرمي لأبراهام ماسلو ونظرية العقل الثلاثي لبول ماكلين" مجلة أبحاث نفسية وتربوية، العدد 10- جوان 2017. ص: 14.
- خري، عبدالناصر. 2014 "التسويق العصبي. التوجه الجديد في علم التسويق" مجلة العلوم التجارية، الجزائر، ص: 24.
- فقيه، أشرف. 2007 "التسويق العصبي فن مخاطبة مخ المستهلك" مجلة القافلة الإلكترونية، المملكة العربية السعودية.
- هلال، محمد عبدالغني حسن. 2012 "التسويق العصبي واللعب في العقول" الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة. ص: 08.
- هيث، روبرت. 2017 "إغواء العقل الباطن سيكولوجية التأثير العاطفي في الدعاية والإعلان" ترجمة محمد عثمان، الناشر مؤسسة هنداي، المملكة المتحدة. ص: 206.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Cowan, Nelson. 2001 « The magical number 4 in short-term memory: A reconsideration of mental storage capacity ». Behavioral and Brain Sciences. P : 87-185
- Dorwart, Laura. 2023 « what is the Galvanic Skin Response (GSR) ? » Retrieved from verywell health website : <https://www.verywellhealth.com/galvanic-skin-response-6373883>
- Explorer Research. « How the Smart Watch Trend Observes Consumer Behaviour » Galvanic Skin Response. Retrieved from : <https://explorerresearch.com/gsr-market-research/>
- Faster, Capital. 2024 « Neuromarketing: How to Use Neuroscience to understand and Influence Your Customers with E marketing Strategy » Retrieved from website : <https://fastercapital.com/content/Neuromarketing--How-to-Use-Neuroscience-to-Understand-and-Influence-Your-Customers-with-E-marketing-Strategy.html>

- Font, Lluís. 2016 « Neuromarketing: 3 Brain Theory Applied to Sales and Marketing » Retrieved from website : <https://www.linkedin.com/pulse/neuromarketing-3-brain-theory-applied-sales-marketing-lluis-font/>.
- Genco, Stephen J , Pohlmann,, Andrew P, Steidl, Peter. 2013 « Neuromarketing For Dummies » Published by : John Wiley & Sons Canada Ltd., Mississauga, Ont. P : 07
- Gianluca, Mezzofiore. 2017 « Disney is using facial recognition to predict how you'll react to movies » Retrieved from mashable website : <https://mashable.com/article/disney-facial-recognition-prediction-movies>
- Harrell, Eben. 2019 « Neuromarketing : what you need to know » Harvard Business Review Digital Article. Retrieved from website : <https://hbsp.harvard.edu/product/R1907A-PDF-ENG>
- Idstats, Team . 2020 « Getting to Know Neuromarketing: Facial Coding » » Retrieved from Idstats website : <https://idstats.co/blog-1/getting-to-know-neuromarketing-facial-coding>
- Kahneman, Daniel. 2011 « Thinking Fast and Slow » New York: Farrar, Straus and Giroux. P : 109-255.
- Katarzyna Wrona, M, Sc. 2014 « Neuromarketing- its Role in Building of Brand, Intoduction of Products Innovation, and advertising messages » Institue of aviation. Poland. Minib, Vol 11, Issue 1. Marketing of Scientific and resreach Organisation. PP : 4-5
- Kumar Das, Krishanu. 2018 « Consciousness and its relation with subconscious mind : The Mystery probed. Department of Medicine, Asansol, India. P : 09.
- MarketingSchools. 2020 « Neuromarketing Explore the Strategy of Neuromarketing » Retrieved from :<https://www.marketing-schools.org/types-of-marketing/neuromarketing/#section-0>
- Marques Martinez, Sandra. 2021 « Neuromarketing and Sensory Marketing: Are we owners of our purchasing decisions ? » Programa Internacional del Grado en Administración y Dirección de Empresas. UPNA, Espania. P : 24
- Martinez-Selva el al. 2006. « Brain mechanisms involved in decision making » Article in Revista Neurologia, 2006, (7) : p : 411
- Misra, Lipsa. 2023 « Neuromarketing-Insights Into Consumer Behavior » IUJ Journal of Management. Pp : 145-152

- Morlin, Christophe. 2011 « Neuromarketing: the New Science of Consumer Behavior » Symposium : Consumer Culture in Global Perspective, Springer Science Business Media. P: 133.
- Narayanan, Surya and Raj, Praveen.2020 « Neuromarketing : The Science of Consumer Behavior » Indian Institute of Management Kozhikode, 04th International Conference on Marketing, Technology-Society. P : 03
- NeuroSensum. 2018 « The Pepsi Challenge: How Neuroscience Discovered the Hidden Truth » Retrieved from : <https://medium.com/@neurosensum/the-pepsi-challenge-how-neuroscience-discovered-the-hidden-truth-e5da7997f046>
- Nguyen, Tu Anh. 2021 « Fundamentals of Neuromarketing An Interdisciplinary Field That Changes How Marketers Understand Consumers » SeAMK. School of Business and Culture.Thesis. p : 19
- Ramachandran, K, K. 2021 « Neuro Marketing- Exploring the Brain of the Consumer: A Review » Review of International Geographical Education. (RIGEO), 11(7), 1034-1049. Doi: 10.48047/rigeo.11.07.98. P : 1035.
- Renvoisé, Patrick and Morin, Christophe.2005 « Neuromarketing : is there a buy button in the brain ? how selling to the old brain will bring you instant Success » pp : 08-10
- Solomon, Pravin Raj. 2018 « Neuromarketing : Applications, Challenges and Promises » Biomedical journal of Scientific & Technical Research. Volume 12- Issue2. India. PP : 9136-9140
- Steffen Patrick, Hedges Dawson and Matheson Rebekka. 2022 « The Brain is Adaptive not Triune : How the Brain Responds to Threats, Challenge, and Change. Frontiers in Psychiatry Review. Volume 13, Article 802606. P : 01
- Zaltman, Gerald. 2003. « The Subconscious Mind of the Consumer (And How To Reach It) » Harvard Business Review, Interview by Manda Mahoney. Jan 13th ;<https://hbswk.hbs.edu/item/the-subconscious-mind-of-the-consumer-and-how-to-reach-it>
- Zurawicki, Leon. 2010 « Neuromarketing: Exploring the Brain of the Consumer » Springer, Heidelberg Dordrecht London. P : 03

الحركة الاحتجاجية بالمغرب بين واقع التجربة الميدانية والعالم الافتراضي (دراسة حالة المحتجين لحدث 20 فبراير 2022 حول ارتفاع أسعار المنتجات الغذائية)

خريصي عبد الحكيم

باحث في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان - مراكش
المغرب



ملخص:

تتميز الحركة الاحتجاجية بالمدينة باعتبارها عالما واقعيًا وتجربة ميدانية تختلف عن باقي وسائل الاحتجاج الأخرى المتجسدة في فضاء التواصل الاجتماعي، والحركة الاحتجاجية بما هي ظاهرة اجتماعية تسعى إلى المطالبة بالتغيير الاجتماعي والتعبير عن الآراء بحرية داخل الفضاء العام والخاص، كالمطالبة بخفض أثمان الأسعار التي عرفت ارتفاعًا محولًا في جميع المنتجات الغذائية وغيرها من الأشياء الأخرى التي أثرت بشكل كبير على المجتمع.

ومن هنا، فالاحتجاج داخل فضاء المدينة لم يعد كما كان له حضورًا قويًا كما كان بالأمس، ولعل هذا يرجع إلى خلق آلية أخرى للتعبير والاحتجاج ألا وهي فضاء التواصل الاجتماعي بجميع أصنافه ومن بينه (العالم الافتراضي) الذي يعد فضاء خاصًا وملكا للإنسان يحتج فيه كما يشاء، كل هذا بفضل العولمة التي أفرزت لنا مجموعة من الآليات التواصلية سواء الرقمية وغيرها، ما يجعل منا ملامسة الأهداف التي كانت وراء هذه الحركة الاحتجاجية وكيف انتقلت من الفضاء العام إلى الفضاء الخاص فضاء التواصل الاجتماعي، ثم معرفة مطالب المحتجين ولماذا خرجوا للشارع.

كلمات مفتاحية: الحركة الاحتجاجية، المجال، المدينة، التغيير الاجتماعي، التواصل الاجتماعي، المجال العام، المجال الخاص.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

خريصي، عبد الحكيم. (2024، غشت). الحركة الاحتجاجية بالمغرب بين واقع التجربة الميدانية والعالم الافتراضي (دراسة حالة المحتجين لحدث 20 فبراير 2022 حول ارتفاع أسعار المنتجات الغذائية). مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 137-165.

Abstract:

The protest movement in the city is characterized as a realistic world and a field experience that differs from other means of protest manifested in social media spaces. As a social phenomenon, the protest movement seeks to demand social change and express opinions freely within public and private spaces, such as demanding the lowering of prices, which have seen a significant increase in all food products and other items that have greatly impacted society. Therefore, protests within the city space are no longer as strongly present as they were in the past. This may be due to the creation of another mechanism for expression and protest, namely social media in all its forms, including the "virtual world," which is a private space owned by individuals where they can protest as they wish. This is all thanks to globalization, which has provided us with a range of communicative tools, both digital and otherwise, allowing us to touch upon the objectives behind this protest movement and understand how it transitioned from the public space to the private space of social media, as well as to know the demands of the protesters and why they took to the streets.

Keywords : Protest movement, field, city, social change and social communication, The public Domain, The private domain.

تقديم

تتسم "الحركة الاحتجاجية بالمغرب بطابع الاختلاف عن الحركات الاحتجاجية الأخرى في دوال العالم"¹ حيث كانت انطلاقا من أجل المطالبة بالعدالة الاجتماعية والمجالية وتحقيق العيش الكريم للأسر، وهذه الاحتجاجات هي وليدة الصدفة ولم تأت فجأة وإنما أتت لمجموعة من التغيرات التي تطرأ اليوم على المجتمع وتكون عاكسة له من طرف الدولة أو المؤسسات الحكومية، هذا ما يجعل من الحركة الاحتجاجية بالأمس تختلف كل الاختلاف عن اليوم (العصر المعاصر)، كان قبل التعبير عن الرأي العام في الشارع أي في المدينة لكن مع ظهور العولمة بجميع وسائلها آنذاك انتقل الاحتجاج من الجانب الميداني الذي يتجسد في مجال المدينة وشوارعها إلى مواقع التواصل الاجتماعي التي سهلت طريقة الاحتجاج بطرق سلمية وعقلانية. ومن هنا أصبحت وسائل التواصل الاجتماعي في تنافس مع تجسيد الاحتجاج في المدينة، هذا العالم الافتراضي أو موقع التواصل الاجتماعي أنتج لنا مجموعة من الأشخاص يعبرون عن آرائهم في فضائهم الخاص وهذا الفضاء فيه كل الخصوصيات، لأن البعض غير قادر للخروج للشارع العام مخافة من مجموعة من الأشياء يفضلون الفضاء الافتراضي.

وتجدر الإشارة بأن الهدف الرئيس من هذه الحركات الاحتجاجية هو المطالبة بالتغيير الاجتماعي أي المطالبة بأشياء بسيطة، (كالحق في العيش الكريم، تحسين الوضع الاجتماعي، الصحة والتعليم، المطالبة بتخفيض أسعار المواد الغذائية...) كل هذه المطالب تبقى مشروطة باللحظة الراهنة، وهذه الدراسة هدفها هو التعرف على أثر هذه الحركة الاحتجاجية، ومدى نجاحها، ثم التعرف على أهم المطالب التي تريدها هذه الحركة، بالإضافة إلى معرفة هل هدف هذه الاحتجاجات هو التغيير

¹ مشارك في البحث يبلغ من العمر 45 سنة، عازب، المستوى الدراسي السادس ابتدائي، عامل يومي بديار المهجر، ألمانيا.

الاجتماعي، أم هناك شيء آخر والهدف الأساس من ذلك التعرف على كيفية انتقال هذه الحركة الاحتجاجية من الميدان (أرض الواقع) إلى العالم الافتراضي وغيره.

لقد تم الاعتماد على المنهج الوصفي في مقالي هذا لوصف الحركة الاحتجاجية بالمغرب من خلال نموذج حدث يوم 20 فبراير 2022، الذي جسد فيه جل المجتمع المغربي احتجاجهم المشروع، وهذا بطبيعة الحال يعتمد على تقنية كيفية؛ تقنية المقابلة لمجموعة من المحتجين الذين شاركوا في هذا اليوم من الاحتجاج بالمغرب والذين اعتبروا هذا اليوم بالنسبة لهم إحياء لحركة 20 فبراير.

وفي هذا الإطار ننتقل من ثلاث افتراضات أساسية كالآتي:

الفرضية الأولى: يمكن اعتبار فضاء المدينة هو فضاء للحركة الاحتجاجية للتعبير عن الرأي العام والمطالبة بخفض أسعار المنتوجات الغذائية التي عرفت صعودا مهولا ثم الاحتجاج ضد القرارات التي لا تخدم الصالح العام.

الفرضية الثانية: نفترض أن الحركة الاحتجاجية هدفها الأول هو المطالبة بالتغير الاجتماعي، وتحسين الوضع المعيشي التي آلت إليه الظروف في يومنا هذا.

الفرضية الثالثة: ساهم فضاء التواصل الاجتماعي بشكل كبير في انتقال الحركات الاحتجاجية من فضاء المدينة إلى الفضاء الافتراضي الذي سهل مأمورية الاحتجاج والتعبير عن الآراء بكل حرية.

وبناء على ذلك نتساءل: ما المدينة؟ وما الحركة الاحتجاجية؟ وما علاقتهما بالتواصل الاجتماعي؟ وهل فضاء المدينة هو الفضاء الأنسب للحركات الاحتجاجية؟ وما المطالب التي تطالب بها هذه الحركة الاحتجاجية؟ وكيف انتقلت الحركة الاحتجاجية من الاحتجاج في فضاء المدينة إلى فضاء وسائل التواصل الاجتماعي؟

أولاً: المدينة كمفهوم وكفضاء للحركة الاحتجاجية

1- المجال والمدينة

يتميز مجال المدينة بكونه المجال المفتوح العام الذي يختلف عن المجال القروي مجال القرية (المغلق)، ولهذا ارتأينا أن نطل الضوء على فضاء المدينة باعتباره (فضاء اجتماعي، إداري، سياسي وقانوني-حقوقي، واقتصادي) فالمدينة لها خصائص ومميزات تتميز بها من حيث التحضر والبنيات التحتية وشوارعها التي تعتبر مجالا مفتوحا للحركة الاحتجاجية. "والمجال بصفة عامة يحيل على أنه (جزء) من عالم الخطاب الذي تنطبق عليه فكرة، علاقة، وظيفة، ملكة، وفي علم النفس يسمى (مجال الإرادة)، مجمل الأفعال والأعمال المتوقفة على هذه الإرادة، وأن المجال ليس شيئا، وليس إحساسا، ولكنه نتاج ذهني."¹ والمجال يختلف من مكان لآخر حيث نظرة السوسوسولوجي لفضاء المدينة تختلف عن الجغرافي وعن التاريخي وعن الأديب، فمجال المدينة يستحضر كتصور ذهني، أي استحضار ماذا يقع في المدينة من احتجاجات وغيرها، هل بالفعل هذه المدينة هي فضاء مفتوح أم مغلق؟ بالفعل فضاء المدينة فضاء عام لكل الناس، وأن فضاء المدينة قبل أن يكون مجال للسكن، فهو مجال معاش، تحدث فيه مجموعة من الصراعات، إنه مجال للتفاوض، ومجال أيضا للتسوية.

ولهذا سوف نتطرق إلى بعض النظريات التي حاولت أن تدرس المدينة بواقعها الاجتماعي.

¹ أندري لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، الطبعة الثانية، باريس: منشورات عويدان بيروت، 2001، ص، 298. للمزيد من التفاصيل انظر: خريصي عبد الحكيم، المجال والنوع بواحة تافيلالت: دراسة حالة زيز الأوسط والأدنى، عن الزهرة الخليشي وياسين يسني، دراسات النوع الاجتماعي بالمغرب: نحو براديفم تقاطعي في التفكير والكتابة. تطوان: منشورات جنوب شمال، 2021، ص، 101.

● نظرية ماكس فيبر ودراسته النموذج المثالي للمدينة

إن هاته الدراسة لماكس فيبر (M. WEBER) (1864-1920) ستدخل علاقة السوسيولوجيا بالمدينة طورا آخر، إذ ستتحول من موضوع عرضي في سياق دعم تحليل معين عن تطور المجتمع، إلى موضوع يحظى بمؤلف كامل ومستقل أسماه "المدينة"¹، ورغم كون هذا الكتاب يؤرخ لبداية الاهتمام السوسيولوجي الفعلي بالمدينة، فإن مساهمته النوعية هذه تندرج في إطار السوسيولوجيا التاريخية، وربما لم تمهل الظروف أو (الموت) هذا العالم ليترك لنا مؤلفا سوسيولوجيا متكاملا عن المدينة الحديثة.

وضع فيبر في هذا الصدد عدة تصنيفات للمدن وبالأخص المدن الحديثة. "كأرنهم (Arnhem) مدينة "الملاكين"، أو ويسبادن (Wiesbaden) مدينة المتقاعدين، أو دوسلدورف (Dusseldorf) مدينة البنكيين، أو مدن الإنتاج الصناعي ك: إيسن (Essen) وبوخوم (Bochoum)، أو أخيرا مدنا حديثة تماما، وهي التي يسميها "المدن الحواضر"، حيث إن تحليل ماكس فيبر في هذا النص يقف عمليا عند نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر"²، وفي هذه الدراسة ركز ماكس فيبر على مرتكزين أساسيين هما "العقلنة والشرعنة"³، والعقلنة كما يفهما "هي نتيجة من

¹ من الجدير بالذكر هنا أن جل مؤلفات ماكس فيبر قد نشرت بعد وفاته، ونص "المدينة" أيضا، حيث تم نشره سنة 1921 أي عاما بعد وفاته وذلك في المجلة التي كان يديرها والتي كان عنوانها بالألمانية هو: "Archiv für Sozialwissenschaft und Sozialpolitik" ثم سيدرج ضمن كتاب "الاقتصاد والمجتمع" فيما بعد وذلك بعناية من ماريان فيبر (Marianne Weber)، في عبد الرحمان المالكي، مدرسة شيغاغو ونشأة سوسيولوجيا التحضر والهجرة، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، 2016، ص، 23.

² Julien Freund. Préface de la traduction française. De la ville de Max Weber. Ed. Aubier Montaigne. Paris. 1982.P.8.

³ يقول ج، هابرماس بهذا الصدد: "إن ماكس فيبر قد ترك نفسه ينتقاد في أبحاثه التاريخية السوسيولوجية من طرف فكرة كانت قاسية بالنسبة لبنائه الفكري ولكل نظريته: إنها فكرة امتداد العقلنة إلى كل مجالات المجتمع، ذكر في:

نتائج التخصص العلمي والتمايز التقني الخاص بالحضارة الغربية. أنها تكمن في تنظيم الحياة من خلال تقسيم وتنسيق مختلف الأنشطة، وذلك بناء على دراسة دقيقة للعلاقات بين الناس، وبين أدواتهم ووسطهم بغية بلوغ أكبر قدر من الفعالية والمردودية.¹

يتطرق ماكس فيبر في دراسته للمدينة بين العقلنة والسلطة، بل أنه غالبا ما يتناول السلطة من منظور العقلنة. وأن السلطة في نظره لا ترتبط بما هو اقتصادي كما ذهب ماركس، لكن يمكن أن تقوم على أسس ثقافية معيارية، حيث ميز هنا بين السلطة التقليدية التي تركز على الإيمان بالسلطة وإعادة انتاجها انطلاقا من قداسة التقليد، ثم السلطة الشرعية البيروقراطية، القائمة على نظام شرعي بيروقراطي، أي المنبثق من العقلنة الغائية التي تحدد أنسب الوسائل لبلوغ أنسب الأهداف، ثم أخيرا السلطة الكاريزمية القائمة على الاعتقاد في القدرات الخارقة لفرد معين وهذا النوع من السلطة هو الأكثر ثورية في نظر فيبر لأنه يساعد على تحقيق غايات كثيرة في مدة زمنية قصيرة.

لقد أعطى فيبر عدة تعاريف وتصنيفات تكميلية للمدينة من وجهة نظر السوسيولوجيا التي تتجلى في «المدينة ككيان اقتصادي، كيان سياسي، ثم كيان إداري/قانوني» وهذه التفصيلات نقوم بتوضيحها كالاتي²:

المدينة كيان اقتصادي: حيث إن المدينة هي تجمع سكاني تجاري، لأن الوظيفة الأولى للمدينة وظيفة اقتصادية، إنها أولا وقبل كل شيء سوق دائم، يقول ماكس فيبر "لا يمكننا الحديث عن المدينة بالمعنى الاقتصادي، إلا في المكان الذي

عن عبد الرحمان المالكي، مدرسة شيغاغو، مرجع Jean Rémy & Liliane Voyé. La ville et l'urbanisation. p.211 سابق، ص، 25.

¹ المرجع نفسه، ص، 26.

² Max Weber. **La ville**. Traduit de l'Allemand par Philippe Fritsch. Ed Aubier Montaigne. Paris. 1982. P.17.18.

يستطيع فيه السكان المقيمون تلبية الجزء الهام من حاجتهم اليومية من السوق المحلي، وذلك من خلال المنتوجات التي يصنعها السكان المحليون أو سكان الضواحي المباشرة، أو المنتوجات التي اقتنوها ليعيدوا بيعها في السوق¹. ويمكن التميز داخل الكيان الاقتصادي بين نمطين اقتصاديين هما: مدينة الاستهلاك ومدينة الإنتاج. حيث يمكن القول بأن مدينة الاستهلاك مدينة الموظفين، أو الملاكين، ومدينة الإنتاج إما تكون مدينة صناعية وإما مدينة تجارية.

المدينة كيان سياسي: يميز هنا فيبر بين نمطين: المدينة الأميرية *Ville princière*، والمدينة الحصن *La ville forteresse* وهنا يعتبر أن العامل الاقتصادي نفس العامل السياسي، لأن مختلف الأنشطة الاقتصادية غالبا ما تكون في خدمة البلاط الاميري، أو الحصن العسكري.

المدينة كيان اداري/قانوني: إن المدينة إلى جانب الدور الاقتصادي والسياسي فهي مركز إداري، حيث يتواجد ممثلو الحكم المركزي، الذي يقنن مختلف الوظائف الأمنية والاقتصادية والسياسية والتشريعية، وهنا فالمدينة في حاجة إلى مختلف الأنشطة الاقتصادية وأن تتوفر فيها الخصائص التالية: "1- أسوار حامية، 2- سوق دائم، 3- محكمة خاصة وقانون خاص، 4- أشكال مناسبة من الجمعيات والشركات، 5- استقلال ذاتي ولو بشكل نسبي، وتكوين سلطة ذاتية (تسيير ذاتي) أي إدارة تشرف عليها سلطات عمومية تسيير بمساهمة المواطنين المنتخبين."²

• نظرية الحركة الاجتماعية الجديدة

تعتبر هذه النظرية من النظريات الحديثة المفسرة للحركات الاجتماعية، وهذه النظرية تهتم أكثر بتطوير الهوية الجماعية، بدل اهتمامها بالأيدولوجيات القائمة، كما تميل إلى البروز من صفوف الطبقة المتوسطة، بدلا من الطبقة

¹ IBID. P. 19.

² IBID.P.37.

العامة¹". وقد تم تأصيل هذه النظرية في أوروبا لتبرير مجموعة من الحركات الجديدة التي عرفتها في الستينات والسبعينات من القرن الماضي، كما أنها تطورت مع فريق ألان تورين *Alain Touraine* بفرنسا، وميلوسي *Alberto Mellucci* بإيطاليا، وكلوس أوف بألمانيا، وكريسي بسويسرا، وغيرهم².

تحدث ألان تورين عالم الاجتماع عن خصائص ومميزات الحركات الاحتجاجية حيث قال لابد من تحديد المبادئ التي تقوم عليها هذه الحركات والتي اعتبرها مبادئ وجودية³. وتؤسس الحركات الاحتجاجية في نظر "ألان تورين" على ثلاثة مبادئ رئيسية والتي تتجلى في مبدأ الهوية (من هو الفاعل؟)، ومبدأ التعارض (من هو الخصم؟)، ومبدأ الشمولية (من أجل ماذا أذاع؟)، والذي يعد تلازما وارتباطا بعضها البعض شرطا أساسيا تستند عليه كل حركة اجتماعية⁴.

ويمكن الحديث عن هذه المبادئ كما يلي:

- مبدأ الهوية: لا يمكن أن تنتظم الحركة الاحتجاجية حسب تورين إلا إذا كان هذا التحديد واعيا وذلك انطلاقا من قدرة الفاعل على تعيين مرجعيته التنظيمية أو المؤسساتية والتي تتيح للحركة إمكانية الإجابة عن أسئلة الهوية والانتماء الكفيلة بتحديد الجماعة المطالبة.

- مبدأ التعارض: يقتضي هذا المبدأ ضرورة تحديد الخصم باعتباره مكونا ينبثق عن صراع بين قوى متعارضة على مستوى التوجهات أو المصالح تبعاً، لهذا

¹ أسماء الاسماعيلي، الحركات الاحتجاجية بالمغرب، الجذور والسياق والمآل، مسالك الفكر والسياسة والاقتصاد، العدد، 2018، ص، 113.51، 52.

² Neveu E eic. *Sociologie des Mouvement sociaux*. Edition la découverte repers. 207. 3ème édition. Paris. 2002. P66.

³ G. Rocher. *Introduction à la sociologie générale*. Tome 3. Le changement social. Editions. HMMH. Montréal. 1968. P.148.

⁴ A. Tourine. *Sociologie de l'action*. Essai sur la société industrielle. Editions. Seuil. Paris. 1965. P.155. 156.

اعتبر "تورين" أن الفاعل يمكن أن يجسد خصمه في قوة اجتماعية معينة أو توجهات عامة للحياة الاجتماعية والتي تسعى هذا الأخير إلى إعادة النظر فيها¹. إن أي حركة لا يمكن تنظيمها دون تسمية خصمها مثل: الحركة النسائية التي ليست لها حركة مضادة، ولكن خصمها هو الايديولوجيا الفحوليه. وأن الحركة الأمازيغية التي خصمها العرب وهو الاتجاه الذي يوجد داخل الحضارة العربية الذي يرمي إلى امتصاص كل الثقافات الأخرى وتهميشها.

- مبدأ الكلية (الشمولية): يقصد "ألان تورين" هنا بأن الحركة الاجتماعية مكونة من وعي جمعي وبصيغة جمعية وشمولية لا أقلية وفردية من أجل النجاح في التأثير على الرأي العام من أجل الحصول على الحقوق والمطالب². إن هذا "المبدأ يحدد جميع الحركات الاحتجاجية، فالحركة العمالية مثلا لا تراهن وجودها بالرأسمال التي تعارضها بل بقيام مجتمع صناعي غير احتكاري وغير رأسمالي، وهذا هو مبدأ الحركة العمالية، لأن كل حركة تنشأ من خلال فرز خصمها ومن خلال مشروع كذلك أي مجتمع"³.

2- حول مفهوم المدينة والحركة الاحتجاجية:

تحمل المدينة في طياتها مفاهيم عديدة تختلف من شخص إلى آخر فعالم الاجتماع ينظر إليها على أنها فضاء للانفتاح وفضاء أيضا لخلق علاقات اجتماعية، وللحركات الاحتجاجية، وهذا يدل على أن هناك مفهومان أساسيين يعتبران كمدخل لفهم وقراءة واقع الحركة الاحتجاجية بالمغرب.

¹ هناء شريكي، الشباب ومظاهر الاحتجاج بالمجتمع المغربي، تجربة 20 فبراير نموذجاً، قضايا معاصرة العدد الثاني، السنة 2017، ص، 197، 198.

² ألان تورين، براديفما جديدة لفهم عالم اليوم، المجلس الأعلى للثقافة، ترجمة أدوار مغيت، القاهرة: المشروع القومي للترجمة، 1997، ص، 29.

³ المرجع نفسه، ص. 29، 30.

أ. في مفهوم المدينة:

إن مفهوم المدينة مفهوم شاسع ومختلف عن المفاهيم الأخرى فالمدينة من الناحية السوسيولوجيا تختلف عن مفاهيم العلوم الاجتماعية، "و حين تسأل شكسبير (Shakespeare) عن المدينة بلسان سايسينوس فيلاتوس *What is the city but the people* ماهي المدينة؟ إنها الناس وهذا يعني أن سموها وانحطاطها مستمدان من ساكنيها وقيمهم"¹. أما لا مبارد Lampard فقد اعتبرها مكانا يتباين فيه الناس والفعاليات والإدارات الاجتماعية وتتميز عن الريف بشكل متدرج من الانعكاسات الاجتماعية، فأكد الجانب المادي للمدينة (Lampard. 1963.p809²)، ويبدو أن (أوروسو Aurousseau) قد جعل قلب الانسان يخفق ولها بالمدينة لأنها تمثل كيانه بعد أن اتخذها مكانا يعيش فيه.³

يعتقد "كاستلز أن المدينة في مفهومها ليست مجرد موقع متميز في منطقة حضرية ما، بل هي، في واقع الأمر، جزء لا يتجزأ من عملية "الاستهلاك الجماعي"، وهو من المكونات الجوهرية الرأسمالية الصناعية وليست المدارس، وخدمات النقل والمواصلات، ومرافق الترفيه إلا وسائل يقوم من خلالها الناس باستهلاك منتجات الصناعة الحديثة بصورة جماعية، كما أن نظم الضريبة بمختلف أشكالها وتؤثر في القرارات التي يتخذها الناس في ما يتصل بمعاملات الإقامة والسكن والاستثمار في مجال بيع العقارات وشرائها.⁴ وتمارس الشركات الكبرى والبنوك وشركات التأمين

¹ حميد فارس شكري، المقاومة الثقافية في البيئة الحضرية، دراسة تحليلية في تحولات الهوية العمرانية، بيروت: دار البيروني للنشر والتوزيع، 2013، ص، 7.

² المرجع نفسه، ص، 7.

حميد، المرجع نفسه، ص، 7، 8.

أنتوني غيدنز، علم الاجتماع، ترجمة وتقديم فايز الصباغ، الطبعة الرابعة، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2005، ص، 602.

نفوذا كبيرا على هذه العملية، لأنها هي التي تقوم بالتمويل، وتقديم رؤوس الأموال اللازمة لمشروعات البناء الضخمة.

ب. في مفهوم الحركة الاحتجاجية:

ورد في اللغة وبالأخص "تكملة المعاجم العربية، أن احتج يقصد بها تعلل بحجة أو على حجة، اعتذر بعذر وتظاهر بأن له عذرا، احتج في فعله على أن تعلل به، أي أتى به كحجة.¹" أما في معجم الوسيط تعني كلمة احتج عليه: أقام الحجة، وعارضه مستنكرا فعله.²

وتعرف الحركة الاحتجاجية بأنها "أشكال متنوعة من الاعتراض تستخدم أدوات يبتكرها المحتجون عن الرفض أو لمقاومة الضغوط الواقعة عليهم أو الالتفاف حولها، وهي أشكال منتشرة في كافة الفئات الاجتماعية وخاصة الواقعة منها تحت الضغوط الاجتماعية والسياسية وقد تتخذ أشكالا هادئة أو غير منظمة."³ وعليه يمكن استنتاج أربعة عناصر في تكوين الحركة الاحتجاجية، وهي: "فعل الاعتراض (الاحتجاج)، المعارض (فئة مجتمعية أو تنظيم)، والمعارض عليه (فئة مجتمعية أو سلطة)، موضوع الاعتراض (سياسي، اجتماعي، ثقافي)."⁴

كما ساهم مجموعة من علماء الاجتماع في وضع مفهوم دقيق للحركات الاحتجاجية، ومنهم "تشارليز تيلي" الذي حدد مفهوم الحركات الاحتجاجية على أنها سلسلة من الأداء المتواصل والمعارضات والحملات التي يقوم بها الأشخاص العاديين

¹ دوزي رينهارت، تكملة المعاجم العربية، الجزء الثالث، حرف الحاء، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي، الطبعة الأولى، العراق: منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية، دار الرشيد للنشر، 1981، ص، 59.

² المعجم الوسيط، إصدارات مجمع اللغة العربية، الطبعة الرابعة، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2004، ص، 156.

³ ربيع وهبة وآخرون، الحركات الاحتجاجية بين السياسي والاجتماعي في الوطن العربي (مصر، المغرب، لبنان، البحرين)، الطبعة الأولى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011، ص، 31.

⁴ المرجع نفسه، ص، 31، 32.

المشاركة في السياسة، وعبرة عن عمل جماعي يهدف إلى تأسيس نظام جديد للحياة.¹

أما "تير نير كيكيان *Turner kikkian*" يرى أن الحركة الاحتجاجية هي عبارة عن مجموعة من الأفعال الجماعية التي تتمايز عن الأنشطة التنظيمية والمؤسسية وفي المقابل يرى "فرنسوا شازل *François chazel* الحركة الاحتجاجية على أنها نسق اجتماعي وسياسي واقتصادي أفضى إلى فشل في ميكانيزمات التناول المؤسسي للصراعات.²

3- الاحتجاج والتجربة الميدانية:

يعتبر الاحتجاج من أفضل سبل ووسائل الحركات الاحتجاجية في فضاء المدينة العام، فضاء القرارات والإدارات حيث إن أغلب المسؤولين هم مستقرون في المدن التي تعتبر مجالا حضريا، والفضاء العام الذي نحن بصددده: لم يعد يحظى بالاهتمام الكافي في *l'espace Publique* بشكل عام، إلا مع ظهور العلوم الاجتماعية والفلسفية والسوسيولوجيا بالتحديد، يقول هابرماس في هذا الإطار "إن موضوع الفضاء العمومي هو الجمهور، باعتباره حامل رأي عام ذي وظيفة نقدية"³، وهنا جاء البحث لكشف طبيعة عمل هذا الفضاء بوصفه وسيط، الذي يربط الدولة بالمجتمع المدني. ويقول هابرماس في تعريف آخر للفضاء العمومي: "يمكن أن يفهم المجال العمومي البرجوازي، أولا وقبل كل شيء، باعتباره مجالا لمجموعة من الناس الخاصين المجتمعين في شكل جمهور، وهؤلاء الناس يطالبون بهذا المجال المقنن والمنظم من طرف السلطة، ولكنهم يطالبون به مباشرة ضد السلطة نفسها، لكي يتمكنوا من مناقشتها حول القواعد العامة للتبادل، وحول ميدان تبادل البضائع

¹ Boudon Raymond. Et autre. *Dictionnaire de la sociologie*. Impression. Bassiere. France. 2005. P. 159.

² توفيق عبد الصادق، حركة 20 فبراير الاحتجاجية في المغرب، مكامن الخل وإمكان النهوض، مجلة المستقبل العربي، العدد 426، 2014، ص، 73.74

³ Jürgen Habermas. *L'espace public*. Paris. Payot. 2006. P.10.

والعمل الاجتماعي، وهو ميدان يبقى خاضعا بشكل أساسي، ولكن أهميته أصبحت ذات طبيعة عمومية¹.

تعد الحركة الاحتجاجية داخل المدينة وخارجها من اهتمام الباحث السوسيولوجي، الذي ينظر إلى "الاحتجاج كحق مشروع"² وعلى الجميع أن يحتج من أجل المطالبة بحقه أو المطالبة بتحقيق عدالة اجتماعية وعيش كريم، ثم المطالبة بتخفيض أسعار المنتوجات الغذائية التي عرفت ارتفاعا مهولا في المغرب، في وقت ووضوح لا يتلاءم مع الوضعية التي يعيشها المجتمع المغربي اليوم، من فقر، بطالة، تهميش، سكن غير لائق... وصرح أحد المشاركين بأن الاحتجاج في المدينة يكون أقرب لمركز القرار، بمعنى المجال الحضري هو الأجدار بشكل مباشر، ولماذا لا يكون الاحتجاج في العالم القروي؟

هنا بطبيعة الحال أن القرية لا توجد فيها مراكز قرار وأن أغلب المحتجين ينحدرون من العالم القروي، زد على ذلك أن من يحتجون داخل المدينة فهم يحملون هموم الانسان القروي، في حين أن المحتجين الذين ينحدرون من أماكن مختلفة، فمنهم من يندرج تحت إطار أحزاب أو جمعيات، ومنهم من لا ينتمي لأي حزب سياسي أو أي شيء أيديولوجي، وهذه الفئة غلبتها يكون هدفها هو المصلحة العامة، أي مصلحة الجميع فوق كل شيء كما قال أحد المشاركين في البحث، حيث نجد أن هناك من شارك في الاحتجاج الذي كان مبرمج يوم 20 فبراير 2022 والخروج للشارع من أجل إيصال صوته إلى لجنة القرارات والمسؤولين، أما بالنسبة للعلاقة

¹ IBID. P.30.

- Habermas Jurgen(1988). *L'espace public. Archéologie de la publicité comme dimension Constitutive de la société bourgeoise*. Traduit par Marc De Launay. Paris. Payot. 1993).

- نشير إلى أنه أعيد طبع الكتاب للمرة السابعة عشر بتقديم مطول لهابرماس في 1992، في الترجمة الفرنسية يستخدم المترجم: *Sphère Public* و *espace Public* وقد قمنا بنقل المفهومين بنفس الدلالة الفضاء العمومي)،

كما أن هناك من يستخدم مجال عام أو عمومي/ ميدان عام أو عمومي/ حيز عام أو عمومي.

² مشارك في البحث، يبلغ من العمر 35 سنة، حاصل على الاجازة، عامل يومي، متزوج وله (3 أبناء).

بين الاحتجاج في الواقع والتواصل الاجتماعي فهناك علاقة وطيدة والاحتجاج في العالمين يكمل بعضهما البعض، ويبقى التساؤل مطروح حول فاعلية الاحتجاج في وسائل التواصل الاجتماعي وهل يمكن اعتباره بديلا للحركة الاحتجاجية الميدانية؟

بالفعل لا: كما يقول أحد المحتجين بأن الواقع الافتراضي لا يؤثر، أما الاحتجاج بشكل مباشرة في المجال العام تكون له رسالة هادفة وبشكل مباشر، ومثال على ذلك كما قال أحد المشاركين "لا تؤثر علي رسالة إن أتني في الهاتف، لكن في الواقع إن لاحظت الرسالة تكون واضحة ولها معنى آخر" ولهذا فالبعض يفضل النزول للميدان للاحتجاج والتصدي لأي قرار لا يخدم الصالح العام.

وعند محاورة أحد المحتجين حول الانتماء الحزبي فقد عبر قائلا: (أن هدفهم هو مصالحهم الفردية، لذلك الاشتغال في مجال الحرية أفضل وأحسن بكثير وبدون قيد)، فالمحتجين بصفة عامة لا يثقون في المسؤولين وقرارتهم التي لا تخدم المجتمع.

ونستنتج مما سبق، أن المحتجين فقدوا الثقة في المسؤولين... وأن من قال بأن الأوضاع التي نعيشها اليوم على أفضل حال فهذا كذب كما جاء على لسان المشاركين في الاحتجاج، وعند مساءلة المحتجين عن ردود فعل المسؤولين، فيجيبك بأنهم يستعملون الأذان الصماء لتمرير أي مخطط أو قرار، وهل يتم اشراك المجتمع المدني في اتخاذ هذه القرارات؟

فإجابته كانت بالنفي، فالمجتمع المدني يبقى حبرا على ورق، وأنت في الشارع كمحتج عن الوضع ورافع للافتات وشعارات، والمسؤولين أمامكم يضعون الأذان الصماء ولا يأبهون لهذا الاحتجاج ما هو رد فعلكم؟ ردنا هو الصمود حتى يتحقق الهدف الذي أتينا من أجله، وإن لم يكن هناك أي حل نبقى في الشارع. وهنا تبدأ مرحلة العراك بين الأمن والحركة الاحتجاجية، لأن في حالة عدم إفراغ الشارع العام يكون تدخل الأمن بالضرب والقوة والعنف، وهنا يتم البحث عن أشياء قانونية لتفريق التهم للحركة الاحتجاجية بأنهم اخترقوا مجموعة من القوانين، ثم في الأخير

أشار أحد المحتجين إلى وجود مسألة خطيرة، وهي تغليب الاعلام الرأي العام من طرف المنابر الاعلامية غير النزيهة.

إن الاحتجاج داخل المدينة في مجال عام أو خاص فهو حق مشروع، كما جاء في: ("دستور 2011 من الفصل 29)"¹ بأن حرية الاجتماع والتجمع والتظاهر السلمي وتأسيس الجمعيات والانتماء النقابي والسياسي مضمونة ويحدد القانون شروط ممارسة هذه الحريات، ثم حق الاضراب مضمون ويحدد قانون تنظيمي شروط وكيفية تنظيمه. ومادامت أي حركة احتجاجية نزلت إلى الشارع من أجل المطالبة بحقوقها وبطرق سلمية ولم يتم المساس بأي ملك خاص أو عام فلا يجب على الأمن التدخل بتاتا، ويستوجب على المسؤولين الحوار والتواصل مع المحتجين من أجل إعطاء حل مناسب يرضيهم، ويرضي المجتمع المدني.

ثانيا: الحركة الاحتجاجية والمطالبة بالتغير الاجتماعي

1- في مفهوم التغير الاجتماعي

من الصعب "تعريف التغير الاجتماعي أو تحديده كمفهوم، لأن كل شيء في حياتنا كما نعلم عرضة للتغيير المستمر على الدوام،"² فكل يوم في حياتنا يوم جديد، وكل لحظة تمثل حدثا مستجدا في العمر، وعلى حد تعبير الفيلسوف اليوناني هيرقليطيس، "فإن المرء لا يستحم في النهر الواحد مرتين، لأن النهر يتغير بجريان الماء فيه مثلما يتغير الشخص فور إحساسه أو ملامسته لماء النهر، ورغم دقة هذه الملاحظة وصدقها الواقعي، فإننا نميل في العادة غالبا إلى طابع الثبات والديمومة ولو لفترات محددة على أنفسنا وعلى ما حولنا، ورفع ما يحدث من وجوه التغير، سواء

¹ ظهير شريف رقم 1.11.91 صادر في 27 شعبان 1432 (29 يوليوز 2011)، متعلق بتنفيذ نص الدستور، الجريدة الرسمية، عدد 5964 مكرر 28 شعبان 1432 (30 يوليوز 2011)، الرباط، المطبعة الرسمية.

² أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصباغ، الطبعة الرابعة، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005، ص، 104.

أكانت طفيفة أم كبيرة، فإننا نظل نعتقد أن للنهر شكلا ثابتا، وأن للإنسان ولشخصيته ملامح تبقى على حالها من دون تغير"¹.

2- النظرية الماركسية والتغير الاجتماعي

اهتم مجموعة من علماء الاجتماع بمختلف توجهاتهم الفكرية ومدراسهم النظرية بهذا المفهوم، واهتموا كذلك بالأسباب التي تساهم في إحداث التغير في المجتمعات. حيث يعتبر "فيرشليد *Fairchild*"²، "أن التغير الاجتماعي هو "أي تغير يعتري العمليات الاجتماعية أو النظم الاجتماعية، أو التكوينات الاجتماعية، وقد يكون التغير تقدما أو تأخرا ثابتا أو مؤقتا، مخطط أو غير مخطط، موجه أو غير موجه مفيدا أو ضارا".

أما عز الدين الخطابي في كتابه: ديناميات العلاقة بين التقليد والتحديث، يعتبر التغير الاجتماعي بأنه تبدل على مستوى البنية الاجتماعية، ناتج عن الفاعلية التاريخية لبعض المجموعات الاجتماعية، وهو تحول قابل للملاحظة على مدى زمني معين، بحيث يطال بشكل مستمر، البنية الاجتماعية أو وظائف التنظيم الاجتماعي لجماعة محددة، كما أنه يساهم في تغير مجرى تاريخ هاته الأخيرة³، ويرى أن التغيرات التي تعرفها المجتمعات تختلف اختلافا كبيرا بحسب الشروط المحددة لها وبحسب مصادرها، هل هي خارجية أو داخلية.

تتميز النظرية الماركسية عن النظريات الأخرى نظرا لكونها من النظريات السوسيولوجيا التي تناولت موضوع التغير الاجتماعي وأعطت الأهمية للعامل الاقتصادي الذي يلعب دورا أساسيا في هذا التغير، إذ ركزت على المادية التاريخية

¹ المرجع نفسه، ص، 105.

² عمر فادية الجولاني، التغير الاجتماعي، مدخل النظرية الوظيفية لتحليل التغير، مصر: مطبعة الانتصار، إسكندرية، 1993، ص، 13.

³ عز الدين الخطابي، دينامية العلاقة بين التقليد والتحديث، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2015، ص، 45.

للكشف عن القوانين العامة للحياة الانسانية من جهة والتداخل والتفاعل في الأنشطة الاجتماعية من جهة أخرى.

"إن الأسلوب الانتاجي للحياة المادية يشترط تفاعل الحياة الاجتماعية، والفكرية والسياسية بصورة عامة فليس إدراك الناس هو الذي يعين معيشتهم بل معيشتهم الاجتماعية هي التي تعين إدراكهم"¹، بمعنى أن الوعي الاجتماعي ليس مسؤولاً عن تحديد الحالة الاجتماعية للأفراد، بل وضعيتهم الاقتصادية هي التي تحدد وعيمهم، وبالتالي فإن هذه النظرية الماركسية طرحت علاقة قوية بين الحياة المادية والوعي الاجتماعي، على اعتبارها في علاقة ديناميكية.

لقد ابتعد "كارل ماركس² Karl Marx"، عن التأمّلات الفلسفية في تحليله الواقع الانساني، واستعمل المنهج العلمي ليضعه في محل الاشكالات الميتافيزيقية، إلا أن هناك من المفكرين من نسب كارل ماركس إلى الفلسفة التي لم تكن معتمدة لديه في تحليل الواقع الاجتماعي والاقتصادي للمجتمعات وهذا ما يؤكد أن مقولات ماركس هي في الأساس مقولات اجتماعية واقتصادية.

تعد وجهة نظرة ماركس المتعلقة بالتحول الاجتماعي والتي لا تتحدد بدرجة وعي الناس وإنما بتحليل العلاقات الاقتصادية وأن تغير الأساس الاقتصادي يحدث انقلاباً عاماً في البناء الفوقي للمجتمعات، وأن أي تشكيلة اجتماعية لا تختفي قبل أن تتطور جميع القوى المنتجة التي تفسح لها ما يكفي من المجال ولا تظهر علاقات إنتاج جديدة قبل أن تتضح شروط وجودها المادي في قلب المجتمع القديم، فأساليب الانتاج، الأسلوب الأسوي (القديم) والاقطاعي والبورجوازي (الحديث) مرسومة بخطوط كبرى يمكن اعتبارها بمثابة قوانين متصلة بالتشكيلة

¹ كارل ماركس، انجلز فريدريك، مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي، مختارات الجزء الثاني، موسكو: دار التقدم، بدون تاريخ النشر، ص، 8.

² أحمد القصير، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية البنوية، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 2012، ص، ص، 77، 78.

الاجتماعية.¹ إن المادية التاريخية هي عبارة عن منهج دياكتيكي يتمثل في فهم صيرورة الحياة الاجتماعية انطلاقاً من أنها متحركة ومتحولة، نتاج التفاعل مع الطبيعة بأبعادها المختلفة والتي لها دور في نتاج منتجات الدماغ الانساني.

يتضح من خلال كل هذا، أن العالم بكل مكوناته في حالة دائمة من الحركة والتطور، وهذه الحركة نتجت عن تغيرات على جميع المنتوجات الاجتماعية والسياسية والفكرية والاقتصادية، ولا يمكن تصور عالم جامد لا يتحرك فمن خاصيته التطور والتغير.

إن المجتمعات تطورات عبر مراحل أساسية، المرحلة الوحشية أولاً والمرحلة البربرية ثانياً ثم مرحلة الحضارة ثالثاً، كما بين ذلك "لويس مورغان" في كتابه المجتمع القديم، وشرح هذا التصنيف فريدريك انجلز على النحو التالي:²

المرحلة الوحشية: هي الفترة التي كان يسود فيها تملك المنتوجات الطبيعية الجاهزة للاستعمال، أما الأشياء التي ينتجها الانسان فقد كانت بالدرجة الأولى عبارة عن أدوات بسيطة تساعد على هذا التملك.

المرحلة البربرية: هي الفترة التي امتازت بإنتاج المنتوجات الطبيعية بفضل النشاط البشري.

المرحلة الحضارية: هي الفترة التي تعلم فيها الانسان تحويل المنتوجات الطبيعية، إلى منتوجات جديدة صناعة تحويلية، وفي فترة التصنيع بمعناه الصحيح وكذا الفن بمعناه الواسع.

تتميز الحياة الاجتماعية من وجهة نظر الماركسية، بماهي إلا شكل من أشكال حركة المادة التي تحتوي على مصادر التطور المجسد في المجتمع المقسم إلى طبقات

¹ ماركس، انجلز، مساهمة في نقد...المرجع سابق، ص، 8، 9.

² فريدريك انجلز، أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ترجمة يوسف أديب شيش، سوريا: دار التكوين للتأليف والنشر، دمشق، 2011، ص، 37، 38.

متصارعة¹، ويكمن هذا الصراع الطبقي في عدم توافق القوى الانتاجية مع علاقات الانتاج، فمثلا: العلاقات البرجوازية للإنتاج تتسم بطابع التعادي في العمليات الاجتماعية للإنتاج، والتعادي هنا ليس بمعنى تعاد بين الأفراد، وإنما هو تعاد ينشأ عن الظروف الاجتماعية للحياة وفي الوقت نفسه الذي تتطور فيه القوى الانتاجية داخل المجتمع البرجوازي، يخلق هذا التطور ظروف مادية لحل ذلك التعادي².

3- الحركة الاحتجاجية والمطالبة بالتغيير

تعتبر حركة 20 فبراير "حركة احتجاجية ظهرت بالمغرب سنة 2011 (في سياق الربيع العربي) واتخذت من تاريخ انطلاقها (يوم 20 فبراير) اسما لها، ونظريا هي غير منتمية سياسيا لفصيل بعينه، بل حركة احتجاجية طالبت بتحقيق مجموعة من المطالب الاصلاحية (سياسية، اجتماعية، اقتصادية...) وانخرطت فيها فعاليات عديدة من تنظيمات حزبية ونقابية ودينية وثقافية ومجتمع مدني...وقد رد عليها النظام من خلال خطاب 9 مارس الذي أسس لدستور فاتح يوليوز 2011، والذي اعتبر مدخلا للإصلاحات المفترض تنزيلها للاستجابة لمطالب هذه الحركة³. ولهذا فسياق "حركة 20 فبراير تزامن مع الربيع العربي خصوصا الثورات التي عمت الدول العربية انطلاقا من تونس قبل أن تشمل باقي الدول، فالمغرب إذن لم يكن بمعزل عن مجريات الأحداث المحيطة، وقد تبنت الاحتجاج فيه حركة 20 فبراير التي قادت الحراك الاجتماعي، وضمت هذه الحركة مختلف أطياف الانتماءات السياسية والثقافية والاجتماعية والفكرية والنقابية، التي اتفقت جميعا على مطلب الاصلاح

¹ محمد أحمد الزغي، التغيير الاجتماعي بين علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي، الطبعة الرابعة، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر، 1991، ص، 99.100.

² أحمد القصير، منهجية علم الاجتماع، المرجع السابق، ص، 81.

³ عبد العزيز غوردو، الحكامة الجيدة في النظام الدستوري المغربي، الطبعة الأولى، لندن: الناشر، أي - كتب، شركة بريطانية مسجلة في إنجلترا برقم 7513024، 2015، ص، 114.

السياسي، وبالذات الدستوري، وإن اختلفت حدة ودرجة المطالب من طيف إلى آخر.¹

يتميز حدث 20 فبراير 2022 المتزامن مع حركة 20 فبراير التي كانت سائدة من قبل وعرفت فترة ركود ويظن البعض أن هذا اليوم هو احياء لهذه الحركة وبعثها من جديد من أجل المطالبة بالتغيير الاجتماعي، وحينما يتم الحديث مع المشاركين في البحث ماذا يمثل لك هذا اليوم (20 فبراير)؟ بالنسبة لي إنه يوم مميز ومناسب ومن خلاله يتم تجسيد حضوري من أجل المطالبة بأبسط الحقوق، مثل الحق في الاحتجاج من أجل خفض أسعار المنتوجات الغذائية وغيرها... ومحاربة الفقر الذي أدى الى تدني مجموعة من الأسر وفي تقديري هذه المطالب بسيطة ومن حق أي شعب أن يطالب بها ويعبر عن رأيه في الشارع العام.

والاحتجاج اليوم هو ضدا على كل القرارات التي اعتبرها المشاركون في البحث (مجحفة في حق المجتمع)، لأن غلاء المعيشة والركود الذي عرفه المجال السوسيوا-اقتصادي بسبب الارتفاع المهول الذي لا يتوقف يوما بعد يوم، فبالنسبة لي أن الغلاء على مستوى المواد الغذائية وغيرها، زاد من حدة تفاقم الوضع الاجتماعي مثل: (الفقر، البطالة، التهميش..) هو ما جعل منا الخروج للاحتجاج في فضاء المدينة، وهذا الاحتجاج ليس اعتباطيا، بل مدروس ومبرمج من طرف الحركة الاحتجاجية لأن ظهور وتراكم العديد من الأشياء مثل: العمل يوم والنوم لمدة أسبوع والعمل ب 80 درهم أصبحت لا تسد رمق حاجيات الأسرة، حيث أدلى محتج بكلمة "راه تقهرنا بزاف أو ملنا هاذ البلاد"² واليوم نحن هنا من أجل المطالبة بتغيير الوضع السوسيوا-اقتصادي وإعادة رد الاعتبار للمواطن المغربي فالاحتجاج الجماعي يستمد منه المحتج قوته، بالإضافة إلى ذلك تحسين الوضع الاجتماعي وتوفير فرص للشغل

¹ المرجع نفسه، ص، ص، 113، 114.

² مشارك في البحث، عامل يومي يبلغ من العمر 38 سنة، حاصل على شهادة الاجازة في اللغة الفرنسية، متزوج وله طفلين.

وتحسين الداخر الفردي. والتغير لم يأت فجأة وإنما أتى لمجموعة من التحولات التي تقع في المجتمع، وأن التغير يتطلب من الحركة الاحتجاجية أن تكون لها ثلاثة مبادئ تحدث عنها آلان تورين، مبدأ الهوية ومبدأ التعارض ثم مبدأ الكلية.

يمكن القول، بأن "الحركة الاحتجاجية اليوم تمر بأربعة مراحل أساسية كما قال المحتج عن الوضع سواء من أجل المطالبة بالتغير الاجتماعي أو المطالبة بخفض الأسعار التي عرفت صعودا مهولا لم نكن نراه بالأمس".¹

المرحلة الأولى: تسمى بزمن التحضيرات التي جرت في العالم الافتراضي واتسمت بوضوح فكرة التغير المنشود الذي يفترض أن يقود إلى تحقيق الهدف المنشود، وتنطلق هذه المرحلة الأولى من الشباب والمثقفين، من بينهم أساتذة، والطبقات البروليتاريا الواعية بما يحدث، ويكون منحدرين من الطبقات الوسطى ومنفتحين على ثقافة العالم الخارجي، والحاملين لبعض القيام أو من سبق أن كان لهم علاقة شخصية أو عائلية بالمجتمع المدني أو بتيارات من أحزاب.. إلخ.

المرحلة الثانية: تسمى بمرحلة الخروج إلى العالم الواقعي (الميدان)، والاتصال المباشر بالإعلام والصحافة والجمعيات الحقوقية، ويكون هذا التظاهر إما في مدينة مشهورة أو أمام البرلمان، فالاحتجاج يختلف على حسب نوعية المحتجين، فالأساتذة لهم مكانهم الخاص مثلا أمام الأكاديميات كما للفلاحين والمعتلين أماكنهم الخاصة، لكن اليوم الهدف الذي نسعى وراءه فهو هدف جماعي وليس خاص لفرد واحد أو جماعة محددة من الناس، باستثناء (الطبقة البورجوازية) وفي هذه اللحظة يتم تحديد الزمكان في مجال عام واحد، كمجال المدينة للتظاهر والاحتجاج لتحقيق التغير الاجتماعي من ذلك.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة الحراك في الشارع ويكون في هذه المرحلة حمل لفتات تدعو إلى التغير وبعض التماثيل التي تدل مثلا على الغلاء المعيشي الذي

¹ مشارك في البحث، مساعد اجتماعي، يبلغ من العمر 40 سنة، حاصل على الماستر في علم الاجتماع، أعزاب.

نعيشه اليوم، سواء من بطالة، تهميش، الفقر، والخنق على الحرية العامة، ورفض كل أشكال الاحتجاجات من طرف الدولة بمؤسستها المخزنية.

المرحلة الرابعة: مرحلة تشكيل تنسيقيات المدن التي تتحول إلى مفاوضات

سياسية بين التيارات، وهنا إن لم يتم التوصل إلى الحل، يبدأ العراك في الشارع العام، وهو إبعاد الحركة الاحتجاجية من طرف الأمن بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة المتجسدة في: (الضرب، الاعتقالات، المطاردات) والمحتجين المستهدفين الأوائل من ذلك هم رؤساء التسيير ما يسمى بالطريقة العامية (رأس الحربة)، أضف لذلك المتبعات بقضايا ملفقة بمجموعة من التهم، والهدف من استحضار الأمن هو إفراغ الشارع العام خوفا من الفضح السياسي تجاه جمعيات وحقوقيين مثل (الجمعيات العالمية).

ويمكن القول بأن الحركة الاحتجاجية تجعل الشارع مسرحا لها ومسرحا لعملياتها التغيرية وتحقيق الهدف المنشود لا غير.

ثالثا: فضاء التواصل الاجتماعي وآليات الاحتجاج من المجال العام إلى المجال الخاص

1- التواصل الاجتماعي كمفهوم

للتطرق إلى مفهوم التواصل الاجتماعي فهذا المفهوم ينقسم إلى قسمين: مفهوم التواصل ومفهوم التواصل الاجتماعي.

مفهوم التواصل: أصبح التواصل رهانا أساسيا في المجتمعات المعاصرة وخاصة في عوالم الاقتصاد والسياسة.

يعتبر «التواصل تطور تكنولوجيات الإعلام والتواصل الجديدة، واحد من بين أكثر الظواهر أهمية في المجتمعات المعاصرة، ذلك أن تقنيات التواصل تغير في بعض

الأحيان التفاعلات بين الفاعلين الاجتماعيين"¹، بل إن جزءا كبيرا من النشاط السياسي والاقتصادي اليوم، يقوم على استراتيجيات التواصل: مثل تغطية الأحداث، فرض إشكالية اجتماعية معينة داخل النقاش العمومي...إلخ. والتواصل هو ذلك الميكانيزم الذي بواسطته تتواصل العلاقات الانسانية وتتفاعل فيما بينهما.

ومفهوم التواصل الاجتماعي: يمكن القول بأنه لا يوجد مفهوم محدد لكلمة *social media* أو التواصل الاجتماعي، حيث بدأ استخدام هذا المفهوم ليعبر عن نوع جديد من التواصل وهنا يتم تحديد دقيق للتواصل الاجتماعي فيما يخص القضية التي نحن بصدد مناقشتها، حيث تناولت الكتب الغربية تعريف التواصل الاجتماعي من خلال التحدث عن المواقع الأكثر استخداما مثل (الفيسبوك، تويتر) في حين تجاهلت بعض المواقع والتي يشيع استخدامها في مناطق بالعالم دون الاخرى مثل *orkut* أو حتى موقع الرسائل النصية *arxit* والمستخدمة بكثرة في جنوب افريقيا².

يعتبر مفهوم التواصل الاجتماعي³ عبارة عن تطبيقات تكنولوجية إلكترونية قائمة على نظم الجيل الثاني للويب لتحقيق التواصل والتفاعل بين مختلف الأفراد المنتشرين حول العالم بالمراسلات المكتوبة والمسموعة والمرئية مع تحقيق الاتصال الفوري بما يحقق أكبر فائدة لتجميع الشعوب في موقع التواصل عن بعد.

¹ فريدريك لوبرون، قاموس السوسيولوجيا 250 كلمة من أجل فهم وممارسة علم الاجتماع، ترجمة زكرياء الابراهيم، مراجعة وتقديم خديجة الزاهي، الطبعة الأولى، مراكش: فضاء أدام للنشر والتوزيع، 2017، ص، 68.

² رافي غوبتا، هيو بروكس، وسائل التواصل الاجتماعي وتأثيرها على المجتمع، ترجمة عبد الفتاح عاصم سيد، الناشر المجموعة العربية للتدريب والنشر، 2017، ص، 55

³ المرجع نفسه، ص، 56، 55.

2- التواصل الاجتماعي وآليات الاحتجاج في الفضاء الخاص

يعد اليوم موقع التواصل الاجتماعي من الآليات الاحتجاجية الجديدة التي يراهن عليها المجتمع والحركة الاحتجاجية بشكل أخص، حيث أصبح موقع التواصل الاجتماعي يعرف مرونة واضحة عند الشباب والكبار والمتقنين وغيرهم حيث أضحى الفضاء الافتراضي فضاء تعبيريا وحرًا بالنسبة للحركة الاحتجاجية، بل أصبح الفضاء (العالم الافتراضي) الرقمي مجالا بديلا، وتطورات الحاجة عند المجتمع.

لقد تحول موقع التواصل الاجتماعي (العالم الافتراضي) إلى موقع احتجاج لدى الحركة الاحتجاجية فمن خلاله يستطيعون أن يعبروا عن آرائهم المختلفة حول موضوع أو ظاهرة معينة ليتطور ذلك إلى أن أصبحوا يستعملونه للتعبير عن رفضهم لمختلف السياسات التي تمس الندرة المعيشية والمهنية للمواطن، مما طرح السؤال، لماذا الاحتجاج في وسائل التواصل الاجتماعي؟ فالاحتجاج في هذا الفضاء مسألة طبيعية فتحت للعديد من الناس غير قادرين على التعبير عن آرائهم في الواقع يتم التعبير عنها في عالمهم الخاص، عن طريق كتابة تدوينة على صفحته الفيسبوكية، وهذا العالم أصبح متصل بمجموعة من الناس الذين يروان التدوينات، ومن خلاله أيضا يتم تمهيد المرحلة الأولى للاحتجاج، فالاحتجاج في الواقع يكون معلنا عنه في الفضاء الافتراضي الذي من خلاله يتم تحديد الزمن والمكان العام للاحتجاج الذي يتجلى في المدينة، أيضا ساهم بشكل كبير في نقل الأحداث والصور والفيديوهات لتصبح علنية، وتصبح لدى المجتمع نظرة شمولية حول الحركة الاحتجاجية ولماذا الاحتجاج، إذن هل الاحتجاج في العالم الافتراضي بديلا للاحتجاج في العالم الواقعي؟ بالفعل لا فعالم الواقع ملموس والاحتجاج فيه يكون مسموع من طرف المسؤولين، أما العالم الافتراضي لحظي، وفي المستقبل ربما يكون العالم الافتراضي مكانا للاحتجاج والمدينة تصبح فارغة من الاحتجاج. لأننا اليوم في زمن الرقمنة التي سيطرت بشكل كبير على المجتمع. ومن خلال العودة إلى سيرونة الاحتجاج سابقا كان ينطلق وينظم في المركز وكان موقعه الرئيسي هو الشارع العام لأن جل المحتجين كانوا

يرمجون خوض احتجاجاتهم في الأقطاب الاقتصادية أو الادارية بالمغرب بمعنى الدار البيضاء، الرباط، مراكش، فاس، وبعدا ذلك انتقل الاحتجاج من التقليدي الذي كان يتمثل في الادارة والاقتصاد ولم يعد حكرا عليها بل أصبح يشمل جمعيات جهات المغرب، ولاسيما بعد سنة 2011 أضحى العالم الافتراضي هو مسرح العملية الاحتجاجية ومختبر للتحضير والتصميم للاحتجاج الواقعي حيث يبني افتراضيا ويمسح واقعيا.

إن العالم الافتراضي من خلال آلياته التفاعلية مكن الحركة الاحتجاجية من ولوج ديمقراطية تداولية يكون فيها التداول مفتوحا ومتنوعا ومتعددا، فالجميع نخبة والجميع مثقف والجميع يمكن أن يحتج ويناقش ويدلي برأيه... وهذا الفضاء سيصبح وعاء للحركة الاحتجاجية فيما بعد فالحركة الاحتجاجية وقبل أن يصل المحتجون إلى مكان الاحتجاج يأخذون سلفيات وينشرون على المباشر ويعلنون عن مطالبهم وعن شعاراتهم، نحن متوجهون إلى مكان الاحتجاج ونطالب بكذا وكذا... وإبان الاحتجاج يتم تقاسم الصور والفيديوهات على أساس أن ما يهم ليس الاحتجاج في صيغته الواقعي بل الاحتجاج في صيغته الافتراضية والذي يمكن من تأريخ لحظة الاحتجاج وانتشاره وتأثيره لأكثر عدد من المشاهدين والمتابعين.

إن الاحتجاج الافتراضي أصبح أكثر فاعلية من الاحتجاج الواقعي وتمكن كذلك هذا الفضاء الافتراضي من خلق نوع من المعارضة التي ستصبح معارضة فيسبوكية افتراضية من خارج المؤسسات.

خلاصة

يتضح من خلال دراستي هذه، أن مجال مدينة مكناس هو الفضاء العام للاحتجاج الذي اتفق عليه جميع المحتجين لما له من دور فعال على اعتبار أن هذا الفضاء هو ملتقى جميع الأجناس والأشخاص من كل مكان. وهو ما أعطى الأهمية التي احتلها الحركة الاحتجاجية في مجال حمريّة بمكناس وأعطى المساحة الزمكانية

التي تفاعلت على مسرحها في الشوارع والميادين. لقد جاء موضوع الدراسة المتمحور حول الحركة الاحتجاجية بالمغرب، حول الغلاء المعيشي الذي يعيشه المجتمع اليوم وأخص بالذكر حدث 20 فبراير 2022، المتزامن مع حركة 20 فبراير التي كانت سائدة قبلا، ويعتبر هذا الحدث هو إحياء لهذه الحركة التي يظنها البعض أنها حركة كانت ولم تعد.

إذا كانت الحركة الاحتجاجية تطالب بخفض الأسعار في جميع المنتوجات الغذائية وغيرها كالمحروقات التي شهدت صعودا سريعا لم تكن نتوقعه في زمننا المعاصر، فمن هنا يعتبر فضاء المدينة هو المسرح الفعلي لتحقيق المطالب الاجتماعية والتصدي للقرارات التي اتخذتها الحكومة، قرارات عاكسة للمواطنين والصالح العام، في حين أن الحركة الاحتجاجية لا تكتفي بذلك بل رفعت أيضا شعارات المطالبة بالتغيير الاجتماعي وتحسين الوضع المعيشي والخروج من مأزق الأزمة الخانقة التي أدت إلى ظهور ظواهر اجتماعية مثل: الفقر، البطالة، التهميش، علاوة على ذلك ظهور الجرائم والنهب والانتحارات في صفوف أفراد المجتمع، هذه الظواهر ليست جديدة لكن تفاقمت حدتها بسبب الأزمة المعيشية الخانقة. ولهذا يجب إعادة النظر في هذه المسألة الخطيرة التي باتت تهدد المجتمع اليوم.

إذا كان فضاء التواصل الاجتماعي له دور كبير وأساسي في تسهيل عملية الاحتجاج سواء في الفضاء العام (المدينة) أو الفضاء الخاص (العالم الافتراضي) من أجل التعبير بكل حرية، فإن هذا الفضاء لا يمكنه أن يعتبر بديلا للاحتجاج في العالم الواقعي، على الرغم من أننا اليوم في زمن الرقمنة، فداخل هذا الفضاء أشياء إيجابية وأخرى سلبية فالأولى توحى بأن الفضاء الافتراضي فتح فرصا عديدة لنشر الصور والفيديوهات والتعريف بمكان الاحتجاج، أما من الناحية الثانية يتجلى في الإعلام المغلوط الذي يغطي على بعض الأحداث المهمة ويساهم في خلق تشويش على الحركة الاحتجاجية، ونشر احتجاجات مغلوطة بمجموعة من الصور والتعليق التي تكون عاكسة لمصالح الحركة الاحتجاجية والرأي العام.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- أحمد القصير، منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية البنيوية، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 2012.
- أسماء الاسماعيل، الحركات الاحتجاجية بالمغرب، الجذور والسياق والمأل، مسالك الفكر والسياسة والاقتصاد، العدد، 2018.
- ألان تورين، براديفما جديدة لفهم عالم اليوم، المجلس الأعلى للثقافة، ترجمة أدوار مغيت، القاهرة: المشروع القومي للترجمة، 1997،
- أنتوني غدنز، علم الاجتماع، ترجمة فايز الصباغ، الطبعة الرابعة، لبنان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2005.
- توفيق عبد الصادق، حركة 20 فبراير الاحتجاجية في المغرب، مكامن الخلل وإمكان النهوض، مجلة المستقبل العربي، العدد 426، 2014.
- حميد فارس شكري، المقاومة الثقافية في البيئة الحضرية، دراسة تحليلية في تحولات الهوية العمرانية، بيروت: دار البيروني للنشر والتوزيع، 2013.
- دوزي رينهارت، تكملة المعاجم العربية، الجزء الثالث، حرف الحاء، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمد سليم النعيمي، الطبعة الأولى، العراق: منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية، دار الرشيد للنشر، 1981.
- ربيع وهبة وآخرون، الحركات الاحتجاجية بين السياسي والاجتماعي في الوطن العربي (مصر، المغرب، لبنان، البحرين)، الطبعة الاولى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2011.
- عبد الحكيم خريصي، المجال والنوع بواحة تافيلالت، دراسة حالة زيز الأوسط والأدنى، في الزهرة الخمليشي وياسين يسني، دراسة النوع الاجتماعي بالمغرب، نحو براديفم تقاطعي

- في التفكير والكتابة، تطوان: منشورات شمال جنوب، 2021.
- عز الدين الخطابي، دينامية العلاقة بين التقليد والتحديث، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 2015.
 - عمر فادية الجولاني، التغير الاجتماعي، مدخل النظرية الوظيفية لتحليل التغير، مصر: مطبعة الانتصار، إسكندرية، 1993.
 - فريدريك انجلز، أصل الأسرة والملكية الخاصة والدولة، ترجمة يوسف أديب شيش، سوريا: دار التكوين للتأليف والنشر، دمشق، 2011.
 - فريدريك لوبرون، قاموس السوسيولوجي 250 كلمة من أجل فهم وممارسة علم الاجتماع، ترجمة زكرياء الابراهيم، مراجعة وتقديم خديجة الزاهي، الطبعة الأولى، مراكش: فضاء أدام للنشر والتوزيع، 2017.
 - كارل ماركس، انجلز فريدريك، مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي، مختارات الجزء الثاني، موسكو: دار التقدم، بدون تاريخ النشر.
 - محمد أحمد الزغبى، التغير الاجتماعي بين علم الاجتماع البرجوازي وعلم الاجتماع الاشتراكي، الطبعة الرابعة، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسة والنشر، 1991.
 - المعجم الوسيط، إصدارات مجمع اللغة العربية، الطبعة الرابعة، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2004.
 - هناء شريكي، الشباب ومظاهر الاحتجاج بالمجتمع المغربي، تجربة 20 فبراير نموذجا، قضايا معاصرة العدد الثاني، السنة 2017.

المراجع باللغة الأجنبية:

- A. Tourine. Sociologie de la la action. Essai sur la société industrielle. Editions. Seuil. Paris.1965.P..155.156.
- Boudon Raymond. Et autre. Dictionnaire de la sociologie. Impression. Bassiere. France.2005. P. 159.

- G. Rocher. Introduction à la sociologie général. Tome 3. Le changement social. Editions. HMH. Montréal. 1968.P.148.
- Julien Freund. Préface de la traduction française. De la ville de Max Weber. Ed. Aubier Montaigne. Paris. 1982.P.8.
- Jürgen Habermas. L'espace public. Paris. Payot. 2006. P.10..
- _Habermas Jurgen(1988). L'espace public. Archéologie de la publicité comme dimension Constitutive de la société bourgeoise. Traduit par Marc De Launay. Paris. Payot.1993).
- Max Weber. La ville. Traduit de l'Allemand par Philippe Fritsch. Ed Aubier Montaigne. Paris. 1982.
- Neveu E ic. Sociologie des Mouvement sociaux. Edition la découverte repers.. 207. 3éme édition. Paris.2002.P66.

إشكاليات تدبير الزمن التشريعي للقوانين

محمد بن ادريس العلمي

طالِب باحث في سلك الدكتوراه

القانون الدستوري والعلوم السياسية

كلية العلوم القانونية والاقتصادية، طنجة - المغرب



ملخص:

يعالج هذا البحث بعض السبلات الناتجة عن التدبير الخاطئ للزمن التشريعي في إنتاج القوانين سواء أثناء إيداعها أو خلال مراحلها المسطرية من لحظة الإعداد إلى غاية التنفيذ والإصدار. وقد وقفنا على بعض هذه الإشكاليات، حصرناها في قانون المالية، وبالضبط في جزئية إيداعه، وكذلك تأثير نظام الثنائية المجلسية على التدبير الجيد للزمن البرلماني. وركزنا ضمن هذا البحث أيضاً على منطق الاستعجال الذي يعترض بعض القوانين بمبرر الضرورة والاستثناء، ومثلنا لها ببعض الأمثلة الدالة في هذا السياق.

كلمات مفتاحية: الزمن التشريعي، التشريع، القانون...

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

العلمي، محمد بن ادريس. (2024، غشت). إشكاليات تدبير الزمن التشريعي للقوانين. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 166-177.

Abstract:

This research addresses some of the drawbacks resulting from improper management of legislative timing in law production, whether during its deposit or throughout its procedural stages from preparation to enactment and issuance. We have only touched upon some of these issues, focusing specifically on financial legislation, particularly in its deposit phase, and also the impact of bicameralism on the effective management of parliamentary time. Additionally, this study has also focused on the logic of urgency that hinders some laws under the pretext of necessity and exceptionality, exemplifying this with relevant examples in this context.

Keywords : Legislative timing, legislation, law...

مقدمة

يشكل الزمن محوراً يوطر العملية التشريعية، إذ يتدخل في جميع مراحل المسطرة التي يمر منها إنتاج القانون، ويتحكم في كل التفاصيل المسطرية. وقد نص عليه المشرع الدستوري، وضمنه في مختلف السياقات التشريعية، إذ لا يمكن تصور نظام قانوني دون تدخل للزمن فيه، فهو لصيق بكل مراحلها، ملزماً للمشرع أن يراعيه ويضبطه وينفذه، لأنه جزء لا يتجزأ من صناعة التشريع.

ويرتبط الزمن بالعمل البرلماني سواء تعلق الأمر بالتشريع أو بالرقابة، وقد نص المشرع في الدستور تمثيلاً على أزمنة محددة لصدور القوانين التنظيمية، وأزمنة مضبوطة متعلقة بمسطرة إيداع القوانين العادية، وكذا الحضور الزمني الدقيق فيما يتعلق بمشروع قانون المالية. ونفس الأمر على المستوى الرقابي ووظيفة مجلسي البرلمان في هذا السياق، كما فصلت في ذلك الأنظمة الداخلية لمجلس النواب والمستشارين.

لكن، يشوب هذا الزمن عدة تدخلات، إما تقوضه، أو تتسعف عليه، أو تهمله... ويرجع ذلك إلى جملة أسباب، سنشير إلى بعضها ضمن هذا البحث. على أن هذه الورقة لن تتوسع في تتبع تفاصيل الأزمنة التشريعية المذكورة كلها، إنما ستركز على ما تعلق بالزمن البرلماني خصوصاً ما ارتبط بإيداع قانون المالية، أو التأثير الذي يفرضه نظام الثنائية المجلسية في تأخير القوانين عن صدورها، وبطئه في المسطرة والإنجاز، كما سنقف على إشكالية الاستعجال في إصدار بعض المراسيم والقوانين الواقعة تحت ضغط حالة الضرورة، والمسائل المرتبطة بذلك.

1- التأخر في إيداع مشروع قانون المالية

إن من أبرز الإشكالات المتعلقة بزمن وتوقيت إيداع مشروع قانون المالية من طرف الحكومة على أنظار البرلمان، أنه لا يترتب عليه أيّ جزاء، ويجد البرلمان نفسه في هذا السياق ووسط هذا التأخير، في دوامة من الضغط الزمني لا تسمح له فيه أن

يستفيد من المدة المخصصة له لمناقشة تفاصيل هذا المشروع كاملاً، فيضطر البرلمان مع تأخر الحكومة في إحالة مشروع قانون المالية عليه إلى المسارعة في مُدارسة المشروع والالتزام بالمدة الزمنية المحددة رغم عدم كفايتها.

وإنَّ التزام الحكومة ومجلسي البرلمان بالأجال الدستورية لإخراج قانون المالية إلى الوجود، مرده إلى تجنب الصراعات السياسية فيما بينهما، حيثُ إنَّ التأخير في إيداع مشروع قانون المالية قد ينتج عنه إخضاع أعضاء مجلسي البرلمان لشروط عمل أكثر تعقيداً، عندما يُضاف إلى الإعاقة التقنية، ومظهر الخطورة في هذا الصدد المتجلي في تحول العمل التشريعي الذي ينجر للتصويت على مشروع قانون المالية إلى ما يشبه سباقاً محموماً ضدَّ الزمن، وهو الأمر الذي يصعبُ عملية التعديل وتعميق القراءة والنظر في كل التفاصيل، مما يؤدي إلى عدم تلاؤمه مع الظروف التي يجري وفقها دراسة قانون المالية من الناحية الزمنية⁽¹⁾.

ومن الواجب ضمن هذا الخلل الحاصل، أن يتم فرضُ جزاءٍ على الحكومة في حال تأخرها في عدم إيداع مشروع قانون المالية لدى مكتب مجلس النواب في الأجل المحدد قانوناً، حيث أنه في المقابل إذا لم يصوت البرلمان على هذا المشروع، فإنَّ الحكومة تفرضُ جزاءً غير مباشر بفتح اعتمادات مالية لازمة لتسيير المرافق العمومية، وإنَّ كان فتحُ هذا الاعتماد لا يمكنُ تسميته جزاءً بالمعنى المتعارف عليه، إذ إنَّ موقع الحكومة والبرلمان مختلفين، ولا يمكنُ الدخول في انتظارية وهمية تعطلُ مصالح الناس، خصوصاً وأنَّ هذه الاعتمادات لا تقرر مشاريع، وإنما هي مرتبطة بمصاريفَ عادية متعلقة بالتسيير ودوران العجلة الاقتصادية للمجتمع. ورغم ذلك، لا يمكنُ التماهي مع هذا التأخر بدعوى اختلاف طبيعة التدخل بين كل من الحكومة والبرلمان، إذ إنَّ الالتزام كما هو منصوصٌ عليه من طرفِ المشرع ملزمٌ لكلا الطرفين.

(1) نور الدين أشحشاح، الرقابة على دستورية القوانين في المغرب -دراسة مقارنة-، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم القانونية والاقتصادية، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية 2000-2001، ص: 502.

أما بخصوص قانون التصفية، فإنَّ عملية إيداع مشروعه يعدُّ محكماً من الناحية الزمنية، حيث إنَّ الحكومة تكون ملزمة بإيداعه بالأسبقية لدى مكتب مجلس النواب، ولا يمكنُ لها أن تتجاوز في ذلك الأجل المحدد لها بموجب المادة 65 من القانون التنظيمي رقم 130.13 الخاص بقانون المالية. ومن ثم، فإنَّ الحضور القوي للزمن في المسطرة الخاصة بهذا النوع من القوانين، يشكل في حد ذاته آلية لإلزام الحكومة زمنياً في علاقتها مع البرلمان من جهة، ومن جهة أخرى لتفادي تراكم هذه القوانين وما سينتج عنه من آثار قد تجعلُ البرلمان والحكومة في مأزق قانوني وسياسي تجاه الرأي العام، وأمام المجلس الأعلى للحسابات الذي يلعب أدواراً رئيسية في هذا المجال⁽¹⁾.

ورغم إمكانية التزام الحكومة بالجانب المتعلق بالأجل الدستوري للإيداع، إلا أنَّ ذلك لا يمكنه منع عدم الالتزام والاستهتار الذي يمكنُ أن تقوم به الحكومة ومجلسي البرلمان في شأن دراسته والتصويت عليه، بالإضافة إلى ظاهرة تأخر نشره في الجريدة الرسمية⁽²⁾.

ويمكنُ القول، إنَّ المدخل لفهم عدم التوازن في الالتزام بالمسؤولية بشأن قانون المالية في إيداعه، يرجعُ بالأساس إلى غياب التوازن بين السُلطتين التشريعية والتنفيذية، وكذلك بعض الاعتبارات السياسية على الوجه الخصوص والمتدخلة في عملية التشريع، بالإضافة إلى الإمكانيات المتاحة للحكومة على حساب البرلمان بشأن الإعداد، والمعلومات والكفاءات التقنية والبشرية.

(1) إسماعيل منصوري، تأثير الزمن البرلماني على الأداء التشريعي والرقابي، منشورات مركز الأبحاث في إنتاج القواعد القانونية، الرباط، 2021، ص: 41.

(2) أحمد بوز، البرلمان المغربي: البنية والوظائف-دراسة في القانون البرلماني المغربي-، المجلة المغربية للعلوم السياسية والاجتماعية، 2016، ص: 109.

2- الثنائية المجلسية عائقٌ أمام تدييرزمي جيد

ومن الإشكاليات الأخرى المتعلقة بطبيعة تديير الزمن البرلماني، والمؤثرة على العمل التشريعي وإجراءاته المسطرية، ما ارتبط بأمر الثنائية المجلسية والتي تفرضُ خضوعاً لقاعدة التداول بينَ المجلسين، حيثُ تواجه المؤسسة البرلمانية تحدياً حقيقياً يكشفُ عن طبيعة حسن تديير الزمن البرلماني المخصص لتداول النصوص التشريعية فيما بين المجلسين، وذلك في ظل اعتماد نظام الغرفتين والدورتين في المغرب.

إنَّ مشكلة الثنائية المجلسية، وإن كانت مفيدة للديمقراطية "التشريعية"، وتمكنُ من إعطاء الوقت الكافي، والتأني في قراءة جميع الحثيات، لأجل تجسيد الشرط الأمثل لإنتاج القواعد القانونية، تطرُح بعض الإشكاليات المتمثلة في البطء الذي يلف إنتاج القوانين، من خلال تكرار نفس المراحل، من دراسة لمشاريع ومقترحات القوانين أمام كلا المجلسين، مما ينتج عنه أو قد ينتج عنه إدخال تعديلات مكررة إلى حين الاتفاق حول حل وسط بينهما.

ويغلبُ أنصار نظام الغرفتين هذا البطء، بما يقتضيه الحذر من ضرورة إعادة تقليب النظر والتريث قبل إصدار القوانين، ذلك أن القانون المصوت عليه من طرف مجلس واحد، يمكنُ أن يكونَ صادراً عن انفعال جماعي، أو تصويت فجائي⁽¹⁾، مما يؤثر على الغرض من وضع القوانين والهدف منها، خصوصاً وأنها تتعلقُ بأحوال الناس وشؤونهم.

إنَّ استقراراً سريعاً لمعدل الزمن التشريعي المتعلق بدراسة النصوص القانونية، بينَ مجلسي النواب والمستشارين، يعطي إشارةً تفيدُ بأنَّ المجلس الذي تودع فيه النصوص أول مرة، وفي الغالب يكون مجلس النواب ما لم يقض

(1) عبد الرحمن القادري، المؤسسات الدستورية والقانون الدستوري، ج1، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص: 306.

التخصص بالإحالة على مجلس المستشارين، كان أمد الدراسة في مجلس النواب طويلاً مقارنةً مع الإحالة على المجلس الثاني.

كذلك، نجد أن نظام الدورتين، بما يعكسه من تنظيم زمني للإنتاج التشريعي، ورغم تأثيره البسيط في العملية التشريعية، إلا أنه يمكن أن يفرض على هذا النظام نوع عرقلة تقضي بختام الدورة التشريعية العادية في ظروف قد لا تكون ملائمة وقانون يجري الاشتغال عليه على سبيل المثال، وفي آخر مراحله، مع العلم بأن اللجان البرلمانية الدائمة تواصل عملها وإن ختمت الدورات التشريعية بمرسوم. وهذه الإمكانية في ختم دورات مجلس البرلمان العادية من قبل الحكومة بمقتضى مرسوم -إن استمرت أربعة أشهر على الأقل أو تجاوزتها-، قد تسمح لها بعرقلة عمل تشريعي في آخر مرحلة من مراحله داخل مجلسي البرلمان إن كانت لا ترغب فيه، خاصة إذا تعلق الأمر بمقترحات قوانين ذات أصل برلماني⁽¹⁾. ورغم ذلك، فإنه إذا كان هناك مشروع أو مقترح قانون لا يحتمل انتظار انعقاد الدورة الموالية، فإن اللجوء إلى فكرة الدورات الاستثنائية يبقى وارداً خصوصاً في حالات الضرورة. وإن إعطاء الحكومة حق دعوة البرلمان إلى الاجتماع في دورات غير عادية، يمكن تفسيره كذلك بأنه مظهر من مظاهر عقلنة عمل البرلمان التي أخذ بها المشرع الدستوري المغربي، والتي ترمي إلى تقليص حرية البرلمان في مجال ممارسته لعمله، حتى لا تؤدي تلك الحرية إلى عدم الاستقرار الحكومي⁽²⁾.

إن عملية التشريع يمكن لها أن تكون أكثر مرونة بالشروط وبضوابط تحفظ جودة إنتاج القانون، إذا تم الاكتفاء بمسطرة واحدة ضمن مجلس واحد وتحت تخصص محدد ومحصور، فإذا كانت بعض القوانين تُعرض فقط على مجلس المستشارين، فالحق له أن يواكب المسطرة التشريعية، ويصوت على القانون دون

(1) إسماعيل منصوري، مرجع سابق، ص: 93.

(2) محمد ولد سيد أب، الوظيفة التشريعية في دول المغرب العربي، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم القانونية والاقتصادية، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية: 1998-1999، ص: 575.

إحالاته على مجلس النواب، وهكذا الشأن مع القوانين المحالة على هذا الأخير- مجلس النواب-، كما يمكن الاشتراك في المناقشة إذا كان الأمر يتعلق بقانون المالية أو ما جرى مثله، وإن كنا نميل إلى حذف مجلس المستشارين والعودة إلى نظام المجلس الواحد، خصوصاً وأنّ الحصيلة البرلمانية خلال الولايتين التاسعة والعاشرية، تظهر فقراً واضحاً في نتاج مجلس المستشارين مقارنة بمجلس النواب، وهذا الأخير نفسه إذا ما قارناه بنتاج الحكومة على مستوى الاقتراح والإنجاز فنتائجه ضعيفة لا تتجاوز نسبتها خمسة بالمئة من مجموع عدد القوانين المنجزة. فالثنائية المجلسية إذلاً، تعد إشكالاً، ما دامت وظيفة مجلس المستشارين تبقى غير ذي أهمية، مع ما منحه المشرع لمجلس النواب، بخصوص وضع القوانين، وحسم الخلافات، والتصويت، والجلسات المشتركة...

3- ضغط القوانين المستعجلة

من آفات التشريع، التسارع في إنجاز القوانين، والعجلة في إخراجها، مما يؤثر على جودة العمل التشريعي، وحيث إنّ البطء المبالغ فيه غير محمود في مساطر العملية التشريعية، فإنّ السرعة التي تطال إنجاز بعض المقررات التشريعية غير محموددة العواقب أيضاً من منطلق جودتها، والثغرات التي يمكن أن تتسرب إليها، وكذا طبيعة الظروف المستعجلة التي قد تكتنفها، مما تتسبب في جملة من الثغرات القانونية، قد لا تستدرك إلا بعد مدة طويلة، وقد رأينا هذا في عدد من القوانين التشريعية التي صيغت في ظروف معينة لا تقبل التأجيل، لكنها تسببت في مشاكل لم تكن لتخطر على بال المشرع آنذاك، وهو يستعجل بإخراجها إلى حيز الوجود.

نعلم أنّ إنجاز النصوص التشريعية، يتطلب في بعض المرات سلوك وتيرة أسرع بعيداً عن القواعد الجاري بها العمل عند دراسة هذه النصوص، وهذا الخروج عن المسار الطبيعي يختلف حسب الظروف التي لا تسمح باستغراق حيز كبير من الزمن عند دراسة تلك النصوص، وتختلف أسبابها أيضاً من نص لآخر. ونعلم يقيناً أن مسطرة الاستثناء التي تلبس بالسرعة كثيراً ما يتولد عنها مشاكل وكوارث قانونية

تسير عكس الهدف الذي استحدث من أجله ذلك القانون، فيضيغ بذلك أهم شرط كان الهدف منه تفادي كل الأعطاب الممكنة؛ هو البطء والتأني في إنتاج القواعد القانونية.

وحرئ بالمشرع في هذا الصدد، أن يستبدل رغبته في التشريع بسد الفراغ التشريعي لمجال معين، بضبطه للقيمة الموضوعية والشكلية للنص حتى يؤتي أكله، وهنا يأتي دوره -المشرع-، المتمثل في الأطر التابعة لجهاز الأمانة العامة للحكومة، أو العاملة في مجلسي البرلمان، حيث يكون الضبط اللغوي والفني والتدقيق في التوافق التشريعات وانسجامها مع المظلة الدستورية والسياسة العامة للدولة⁽¹⁾، مطلباً ملحاً لتفادي كل الثغرات الممكنة أثناء الممارسة العملية للقانون الجديد.

في السياق المقارن، حدد دستور الجمهورية الفرنسية الخامسة 1958 الحالات التي يمكن فيها للبرلمان والحكومة اللجوء إلى حالة الاستعجال، إلا أنه تم توسيع هذه الحالات بشكل تدريجي لدوافع سياسية، وقد استعملت حكومة Jospin الاستعجال وتسريع المسطرة التشريعية ما بين 1997 و2002 في 40 في المئة من مشاريع قوانينها، أما حكومتا Villepin و Raffarin، فقد التجأت إلى ذلك ما بين 2002 و2007 بنسبة 38 في المئة. وقد أكد مجلس الدولة الفرنسي مرارا على أنه في غالب الأحيان لا يكون هناك تبرير لهذا التسرع، مما قد يؤثر سلباً على جودة القوانين، فاحترام الزمن البرلماني هو شرط لجودة القانون. ومن جهة أخرى، فقد رسخ رئيس الجمعية الوطنية Accoyer قاعدة ترمي إلى استثناء النصوص القانونية التي تمس الحريات العامة والهجرة والأمن الداخلي من تسريع المسطرة التشريعية⁽²⁾.

إن مسألة تسريع وتيرة العمل التشريعي، يمكن أن تستهدف القوانين التنظيمية كما يمكن أن تسري أيضاً على القوانين العادية، وقد يرجع أمر ذلك

(1) إسماعيل منصوري، مرجع سابق، ص: 139.

(2) Jean-Félix de bujadoux, le nouveau parlement : la révision du 23 juillet 2008, op.cit. p :16-17.

للإمكانيات التي تتيحها بعض المشاريع خصوصاً التي لها ارتباط مجتمعي، فتناقش على مستويات مختلفة، من شأن ذلك أن يساعد في تجويد النص وحسن صياغته، وإن أتت مسطرته بشكل مستعجل. وإذا كانت بعض القوانين الخاصة يمكن أن يجري تسريع العمل عليها، بالنظر إلى ارتباط تطبيقها بحدوث وقائع محددة، فإنه لا يمكن بتاتاً أن يتم تطبيق نفس الأمر على النصوص التي لها ارتباط ملزم بالحياة اليومية لأفراد المجتمع، إلا إذا سلكت ما سبقت الإشارة إليه⁽¹⁾.

ومن الأمثلة الواضحة لتسريع وتيرة العمل التشريعي، ما يتعلق بالتفويض التشريعي، حيث يمكن للحكومة باتفاق مع اللجان البرلمانية، إنتاج نصوص قانونية من اختصاص السلطة التشريعية الممثلة في البرلمان، في ظرف زمني قصير، خصوصاً إذا كانت الظروف ضاغطة، ولا يُحتمل أي تأخير بشأن ذلك. وحالة الضرورة هذه يمكن أن تكون خاضعة لرقابة البرلمان، ويمكن ألا تكون كذلك، خصوصاً إذا كانت الحكومة تتوفر على أغلبية برلمانية تستطيع من خلالها تمرير ما شاءت من القوانين بهذه الوتيرة الاستعجالية من العمل التشريعي.

وبالعودة إلى تقارير اللجان الدائمة، يتضح أن دراسة مشاريع قوانين المصادق بموجبها على مراسيم بقوانين، تعتبر بمثابة عملية تقييم مدى فعالية هذه الأخيرة ومدى احترام الحكومة لمضامينها، بالرغم من كون المناسبة يتم تنظيمها أصلاً لدراسة مشروع قانون وليس لدراسة مشروع مرسوم بقانون، إلى جانب ذلك، فإن المثال الحي لهدر الزمن البرلماني المرتبط بهذا النوع من القواعد القانونية، يتجلى في تأخير المصادقة على المراسيم بقوانين، بالرغم من كون الفصل 81 من الدستور قد أكد على ضرورة "عرضها بقصد المصادقة عليها من طرف البرلمان، خلال دورته العادية الموالية". ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى مشروع قانون رقم 20.17 الذي

(1) إسماعيل منصوري، مرجع سابق، ص: 141.

يقضي بالمصادقة على المرسوم بقانون رقم 2.16.814، المتعلق بإخضاع العاملين بالمديرية العامة للوقاية المدنية لقواعد الانضباط العسكري.

أما مشروع قانون رقم 23.20 الذي يقضي بالمصادقة على المرسوم بقانون رقم 2.20.292 المتعلق بسن أحكام خاصة بحالة الطوارئ الصحية وإجراءات الإعلان عنها، فقد عَقِدَتْ بشأنه اللجنة الدائمة المختصة اجتماعاً واحداً استغرق ثلاثين دقيقة، حيث تمت إحالته على مجلس النواب بتاريخ 20 أبريل 2020، ليتم إحالته بعد ذلك مباشرة على اللجنة الدائمة في نفس اليوم، ثم التصويت عليه في الجلسة العامة بتاريخ 30 أبريل 2020.

إنَّ تسريع وتيرة العمل التشريعي إذًا، تختلفُ من نص إلى آخر، ومن أبرز تجليات هذه السرعة، ما ارتبط بالتفويض التشريعي كما سبقت الإشارة آنفاً عبر مراسيم قوانين التي لم يمنح لها المشرع الدستوري سوى ستة أيام لكي تتم عملية الدراسة والتصويت عليها باللجنتين المختصةين، لكننا نجد أن عملية إعداد القوانين التي تقضي بالمصادقة عليها، قد تعرف تأخراً في بعض الحالات، وهو ما يتعارضُ مع النص الدستوري⁽¹⁾.

خاتمة

إنَّ التدبير الأمثل للزمن التشريعي، يدخل في صميم بناء القاعدة القانونية وإنتاج القوانين، ولا يمكنُ تحقيق التوازن بين السلطتين التشريعية والتنفيذية إلا بضبط ميزان الزمن، وذلك بتنفيذ الالتزامات الزمنية التي نصَّ عليها المشرع.

وعليه، فإنَّ النتائج التي يمكنُ استنتاجها ضمن محاور هذا البحث تلخصُ فيما يلي:

(1) إسماعيل منصوري، مرجع سابق، ص: 147.

- فرضُ جزاءات على الحكومة في حال تأخرتُ عن إيداع قانون المالية في الوقت المناسب المنصوص عليه دستورياً؛
- تقاسم الإمكانيات وتخويلها لفائدة البرلمان لأجل المواكبة، والقدرة على استغلال الوقت أثناء مناقشة قانون المالية، دون إضاعة للزمن في غياب المعطيات، والمعلومات والإمكانات التقنية والبشرية؛
- إيجاد حلولٍ مشتركة تقلص من الهدر الزمني التي تستنزفه المسطرة التشريعية، بتميز القوانين عن بعضها بحسب التخصص، وذلك اكتفاءً بمناقشة المجلس المعني وتخويل مجلس المستشارين لإمكانية التصويت والمصادقة على القوانين المحالة عليه وجوباً؛
- تأطير حالة الضرورة، وتقوية مدخلات الرقابة البرلمانية على القوانين ذات الطابع الاستعجالي لتفادي أي ضرر لاحق أثناء التنزيل.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- أحمد بوز، البرلمان المغربي: البنية والوظائف -دراسة في القانون البرلماني المغربي-، المجلة المغربية للعلوم السياسية والاجتماعية، 2016.
- إسماعيل منصوري، تأثير الزمن البرلماني على الأداء التشريعي والرقابي، منشورات مركز الأبحاث في إنتاج القواعد القانونية، الرباط، 2021.
- عبد الرحمن القادري، المؤسسات الدستورية والقانون الدستوري، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985.
- محمد ولد سيد أب، الوظيفة التشريعية في دول المغرب العربي، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم القانونية والاقتصادية، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية: 1999-1998.
- نور الدين أشحشاح، الرقابة على دستورية القوانين في المغرب -دراسة مقارنة-، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم القانونية والاقتصادية، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية 2000-2001.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Jean-Félix de bujadoux, le nouveau parlement : la révision du 23 juillet 2008.

سبل انتعاق الأسرى المسيحيين بالمغرب خلال القرن 18م

سكينة الريفي

طالبة باحثة في سلك الدكتوراه

مختبر: تاريخ، لغات، تراث وعمارة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة - المغرب



ملخص:

يعتبر المغرب بحكم موقعه الاستراتيجي، من البلدان التي عرفت مسار تاريخيا، سمح له بأن يكون محط تنافس وأطراف أوروبية مختلفة، تجلت خصوصا في العصر الحديث وما رافقه من صراعات قامت على السواحل المتوسطية، والتي طرحت مجموعة من القضايا من قبيل الجهاد البحري والقرصنة، فكان لعمليات الاستيلاء على سفن العدو نتائج مهمة تمثلت أساسا في الغنائم المادية والبشرية، والتي شكلت بدورها مواضيع تهم المغرب في علاقته بأوروبا، فطرحت مسألة الأسرى ضمن هذه العلاقات، وشكل موضوع افتكاك الأسرى محور مراسلات عديدة ومبادلات سفارية مختلفة، وضمن هذا السياق يعالج هذا المقال الموسوم بـ "سبل انتعاق الأسرى المسيحيين بالمغرب خلال القرن 18م" الطرق التي تم من خلالها انتعاق الأسرى المسيحيين بمغرب القرن 18م، وتتميز في هذا الشأن بين الطرق الشرعية المتمثلة أساسا في الافتداء والمبادلة بواسطة المفاوضات الدبلوماسية، وبين الطرق الغير شرعية من قبيل محاولات الفرار الفردية التي اعتمدها مجموعة من الأسرى المسيحيين، ومنهم من دونها في مذكراته الخاصة برحلة الأسر.

كلمات مفتاحية: الأسرى المسيحيين، القرن الثامن عشر، تاريخ المغرب.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الريفي، سكينة. (2024، غشت). سبل انتعاق الأسرى المسيحيين بالمغرب خلال القرن 18م. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 178-193.

Abstract:

Morocco, due to its strategic location, has experienced a historical trajectory that has made it a focal point of European competition and ambitions, particularly in the modern era. This period was marked by conflicts along the Mediterranean coasts, raising issues such as maritime jihad and piracy. The capture of enemy ships had significant consequences, primarily in terms of material and human spoils, which in turn influenced Morocco's relations with Europe. The issue of prisoners emerged within these relations, and the matter of their ransom became a central theme in numerous correspondences and diplomatic exchanges. In this context, the present article titled "Methods of Liberation of Christian Captives in Morocco during the 18th Century" examines the various ways in which Christian captives were liberated in 18th-century Morocco. This study distinguishes between legitimate methods, primarily involving ransom and exchange through diplomatic negotiations, and illegitimate methods, such as individual escape attempts documented by some Christian captives in their captivity memoirs.

Keywords : Christian captives, 18th century, Moroccan history.

مقدمة

تحكمت مجموعة من العوامل في رسم سمات تاريخ المغرب الحديث في علاقته بأوروبا، ولعل من بين هذه العوامل موضوع الأسرى مع ما يطرحه من إشكاليات، إما على صعيد الكتابات والدراسات التي تناولت ملف الأسرى، أو على مستوى الموضوع في حد ذاته، والذي يستدعي من الباحث استحضار عناصر أخرى على رأسها القرصنة والجهاد البحري، كعوامل تحكمت في العلاقات المغربية -الأوروبية، وهي قضايا لا يمكن على كل حال دراستها بمعزل عن بعضها، كما لا يمكن تبنيها بشكل فضفاض، لكننا ارتأينا أن نركز في هذه الورقة العلمية على إشكالية رئيسية وهي التي تندرج تحت عنوان " سبل اعتناق الأسرى المسيحيين بالمغرب خلال القرن 18م" حيث حاولنا من خلالها إبراز بعض العناصر التي يمكن اعتبارها وسائل ساهمت أو أدت إلى تحرر عدد مهم من الأسرى المسيحيين وعودتهم إلى أوطانهم، لكن الإشكالية التي ينبني عليها مقالنا هذا وإن كانت تركز على الجوانب التي شكلت محط مفاوضات في ملف الأسرى وتحريرهم، إلا أنها حاولت أن تلامس جانبا آخر من العناصر التي تحرر بسببها بعض الأسرى الآخرين ونخص بالذكر هنا تلك المبادرات الفردية التي قام بها الأسرى في شاكلة محاولات الفرار و التخطيط لها .

وتتجلى أهمية هذا الموضوع في كونه يسلط الضوء على جانب من جوانب العلاقات المغربية الخارجية خلال القرن 18م، ثم طبيعة القضايا التي كان يتم التداول فيها خلال ذات المرحلة.

ومن أجل بناء هذا المقال العلمي وفق منطق تاريخي منظم، وللإجابة إلى إشكاليته الرئيسية ارتأينا أن نقسم الموضوع إلى محورين رئيسيين:

- المحور الأول: تناولنا فيه سياق تواجد أسرى مسيحيين بالمغرب خلال القرن 18؛
- المحور الثاني: وميزنا من خلاله بين السبل الشرعية وغير الشرعية لاعتناق الأسرى المسيحيين بالمغرب.

المحور الأول: سياق تواجد أسرى مسيحيين بالمغرب خلال القرن 18

إن في حديثنا عن سياق تواجد أسرى مسيحيين بالمغرب خلال القرن 18م لا بد أن نستحضر أولا الأوضاع الداخلية للمغرب خلال هذا القرن، ثم علاقاته الخارجية، وكذا المناخ العام الذي ميز المنطقة المتوسطية، والذي كان فيه المغرب حلقة تدور بين الضعف والقوة.

فرغم وجود فترات كانت فيها الدولة على قدر من الاستقرار خاصة خلال فترة السلطان محمد بن عبد الله وقبله المولى إسماعيل منذ 1672م والذي كان عليه " أن يتولى مهام توطيد المكتسبات و[تشديد] أركان السلطة الفتية¹، بالإضافة إلى مواجهة الثورات الداخلية وتمرّد الزوايا واسترجاع الثغور المحتلة، إلا أن هذا القرن رافقته العديد من الأزمات، فبعد وفاة السلطان إسماعيل اضطربت الأوضاع الداخلية للمغرب بشكل واضح فتمخض عن ذلك دخول البلاد في دوامة من الحروب الأهلية على امتداد 30 سنة من 1727 إلى 1757، اهتز خلالها الحكم المركزي حيث " تحول [الجيش] من أداة لحماية الرعية وضبطها إلى آلة دمار وتفكيك وإضعاف للسلطة التي أصبحت في يد العبيد يعملون فيها وبها ما يريدون"²، و إذا كانت فترة السلطان محمد بن عبد الله عرفت نوعا من الاستقرار السياسي والأمن الداخلي، فقد كان لابد من توحيد الدولة في ظل الصراع والتمزق الذي ميز أواخر حياة المولى محمد بن عبد الله واستمر بعد وفاته وتجادب الحكم بين أبنائه³، ولحق ذلك مشاكل أخرى منها ما ارتبط بالرعايا في علاقاتهم بالسلطة ومنها ما هو مرتبط بالنخبة من الأعيان، ومنها ما تعلق بالبلاط نفسه، ونقصد هنا تلك الفتن والتمردات التي أضحت ميزة القرن التي لا

¹- تاريخ المغرب تحيين وتركيب. إشراف وتقديم: محمد القبلي، منشورات م م ب ت م، الرباط 2011، صص 405-406.

² عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، ط. 2. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012، ص 284

³ - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ. 3 أجزاء، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 2، 1994، ج 3، ص121.

تفارق سلطانا في ولايته، فكان تديرها تحديا حقيقيا أمام هؤلاء السلاطين، ناهيك عن إكراهات أخرى مرتبطة بالكوارث الطبيعية التي وثقتها مجموعة من المجماعات والأوبئة، ثم المشاكل الاقتصادية المتمثلة أساسا في تحديات تنظيم التجارة بشكل يحفظ المصالح التجارية المغربية، التي باتت مهددة أمام تزايد الضغط الأوروبي نتيجة مجموعة من المعاهدات اللامتكافئة وفتح أسواق المغرب أمام أوروبا.

ويمكن اعتبار مسألة الأسر ضمن المجال المتوسطي، استمرار لمسلسل الصراعات التي شهدها هذا المجال في الفترات التي سبقت القرن 18م، والتي تفسرها الرغبة في السيطرة من جانب كل أطرافه، لكن مع غياب هذه السيطرة الواضحة للقوى المتوسطة خلال القرن 18، يبقى التعبير المناسب للوضع ما تصفه الكتابات بـ"فترة الاحرب والاسلم".

فقد كان المغرب إذن خلال القرن الثامن عشر أمام تحدي تدبير علاقاته الخارجية بالشكل الذي يضمن سيادته وسلطته على حدوده وهو الأمر الذي دفع بالسلطان سليمان إلى الاحتراز، بالإضافة إلى التحديات الداخلية التي ارتبطت بالاضطراب السياسي، والتراجع الاقتصادي. وطلية الفترات اللاحقة سيصبح المغرب حاضرا أكثر ضمن الاطماع الأوروبية.

ومن حيث سياق تواجد الأسرى المسيحيين بمغرب القرن 18م في علاقته بالخارج فإن أهم ما ميز العلاقات المغربية الأوروبية خلال القرن 18، هو ذلك التجاذب السياسي الدولي الذي تجسد عبر مجموعة من القضايا التي نجملها أساسا في مسألة الثغور المحتلة، ثم قضايا القرصنة والجهاد البحري، هذه القضايا رافقتها عناصر أخرى ارتبطت بموضوع الأسرى، باعتباره نتاج للسياق الدولي الذي تميز به القرن 18م، وقد تشكلت هذه الملفات في شكل علاقات سياسية وديبلوماسية وتجارية كبرى.

أفرز هذا الوضع إذن وقوع مجموعة من الأفراد تحت الأسر سواء في هذا الجانب أو الجانب الآخر، وطرحت مسألة الأسرى بوصفها أهم غنائم الأنشطة البحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مثلما أفرز صنفا من المؤلفات الذاتية التي حاول هؤلاء الأسرى من خلالها إيصال صورة عن أوضاعهم وكل ما يتعلق بظروف أسرهم وعيشهم في ظله.

المحور الثاني: السبل الشرعية وغير الشرعية لانعتاق الأسرى المسيحيين بالمغرب

أولا: السبل الشرعية لانعتاق الأسرى المسيحيين

تعتبر مسألة افتكاك أو افتداء الأسرى الأوربيين من أكثر المعاملات التي تم التداول في شأنها داخل إطار العلاقات المغربية الخارجية خلال القرن 18م، فهي من جهة تعبر عن طبيعة العلاقات المغربية مع دول أوربا، ومن جهة أخرى تؤكد دور التدخل الدبلوماسي في افتكاك عدد مهم من الأسرى المسيحيين. إلا أن عمليات الافتكاك كانت تتم عبر عدة أوجه، وحسب ما تستدعيه الضرورة السياسية.

وتسجل الكتابات أنه وفي البحر الأبيض المتوسط في العصور الحديثة، كانت هناك طرق متنوعة للهروب من العبودية سواء بالنسبة للأسرى المسيحيين أو المسلمين أيضا ويمكن أن نجملها في:

1. **التحول الديني:** كان التحول إلى المسيحية وسيلة شائعة لتحسين الظروف والحصول على إمكانية التحرر. على الرغم من أن التحول لم يمنح الحرية القانونية بشكل تلقائي، إلا أنه كان يؤدي غالبًا إلى معاملة أفضل، بما في ذلك تحسين ظروف المعيشة ودعم مادي معين. عادةً ما كان التحول يتطلب اعتماد اسم مسيحي جديد واندماج في ثقافة المجتمع المضيف. في بعض الحالات، أدى هذا إلى التحرر بواسطة الدولة أو من قبل مالك خاص.

2. **الهروب:** كان الفرار وسيلة أخرى للبحث عن الحرية، ولكنها كانت تأتي مع مخاطر كبيرة، بما في ذلك تهديد القبض والعقوبة.

3. الفدية أو شراء الحرية: كانت هذه الطريقة تتضمن دفع المال لتحرير النفس أو التفاوض على الإفراج من خلال السفراء أو الوسطاء. في بعض المدن في البحر الأبيض المتوسط، مثل لشبونة، كانت الفدية الذاتية ممارسة معروفة، على الرغم من أن القدرة على تحمل تكاليف الفدية كانت تختلف بين العبيد.

4. عدم القدرة على العمل: كان العبيد من الأسرى الذين أصبحوا غير قادرين على العمل بسبب الشيخوخة أو المرض يُفْرَج عنهم أحياناً، لأنهم لم يعودوا قادرين على المساهمة في عمل مالكيهم. على سبيل المثال، كان يُعاد بعض العبيد الأكبر سناً أو المعوقين إلى بلدانهم الأصلية، مثل تونس أو الجزائر، على أمل أن يتمكنوا من الحصول على فدية آخرين.¹

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الطرق توفر سبلاً للحرية المحتملة، كانت فعالية وتوافر كل منها تختلف بشكل كبير حسب السياق القانوني والاجتماعي.

لكن الملاحظ أن عمليات افتداء الأسرى بالمغرب كانت تتم وفق شروط خصوصية، كما كانت تخضع هي الأخرى إلى المجهودات الجبارة التي قام بها السلاطين المغاربة خلال القرن 18م في سبيل افتكاك الأسرى المسلمين عموماً، بحيث شكلت هذه النقطة وسيلة لانعتاق عدد مهم من الأسرى المسحيين، منذ عهد السلطان إسماعيل، الذي سخر مجموعة من السفراء للقيام بهذه المهمة، و لحقه في هذا الاختيار من تولوا الحكم بعده، ودليل ذلك ما يذكره ابن زيدان حيث يقول: "أما علائقه [أي السلطان إسماعيل] مع لويس الرابع عشر ملك فرنسا فهي مشهورة معروفة، كم جرت بينهما من مراسلات في شؤون مختلفة كمبادلة الاسارى وقضايا

¹ - The Palgrave Handbook of Global Slavery throughout History, The Palgrave Handbook of Global Slavery throughout History; Edited by Damian A. Pargas · Juliane Schiel; Part 3. Early Modern Societies (1500–1800 C.E.) p230.pp 235 -243

القراصين البحرية وعقد المعاهدات السياسية والتجارية. وكم مثى بينهما في ذلك من سفراء ومندوبين"¹.

ولعل عمليات افتكاك الأسرى بصورها المختلفة قد امتدت طيلة القرن 18، حسب حاجات السلاطين المغاربة من الدول التي تعاملوا معها في ملف الأسرى، ومن أمثلة ذلك السلطان عبد الله بن إسماعيل، حيث يورد ابن زيدان رسالة له إلى لويس الخامس عشر ملك فرنسا يقول فيها: "إلى صاحب كلمة الفرنسيين لويز كينيز، السلام على من اتبع الهدى، وصلتنا براءتك مع صاحبك اندريس على شأن الفدية والصلح. فإذا أحببتم الفدية فادفعوا لنا البارود ونعطوكم النصارى. وإذا لم تدفعوا لنا البارود مالنا معكم كلام ولا سلام."² ونستشف من ذلك طبيعة الفدية التي اقترح هذا السلطان، والمتمثلة في البارود. وقد كانت عمليات الافتداء تتم عن طريق المال أيضا، وفي هذا الصدد يقول ابن زيدان: "وأخذوا منهم أحد عشر قارباً واقتنص أكثرهم ووجهوا بهم للسلطان إلى مراكش، فبقوا هناك إلى أن جاءت رسل فرنسا بهداياهم يطلبون الصلح والفداء، وكانت هذه الدولة من ذي قبل تطلب إحكام الصلات بينها وبين المملكة المغربية، فأجابهم لذلك وعقد مع لويس الخامس عشر معاهدة سنة ثمانين ومئة وألف بواسطة سفيره بمراكش الكونت دي برنيون وسفير المترجم الرئيس أبي الحسن علي مرسيل الرباطي، الذي وُجِّه لفرنسا لاقتضاء مال فداء الأسارى الذين أخذوا بالعرائش، وتقرير الصلح المشار إليه وجلب المواد الحربية."³

ونسوق مثالا آخر على ذلك من خلال ما جاء في البستان حيث يقول: "وفي ربيع الأول من عام خمسة وستين ومائة وألف [1751م]، قدم باشدور الاسبنيول بمائة

¹ - عبد الرحمن بن زيدان، العلاقات السياسية للدولة العلوية، تقديم وتعليق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية - الرباط 1999، م س، ص 49.

² - نفسه، ص 58.

³ - العلاقات، م س، ص 65.

ألف ريال دورو، وما يناسبها من الحرير والملف والكتان، وغير ذلك، بقصد فكاك أسرى جنسه، وقدم معه أهل تطوان بهدية فيها ثلاثون ألف مثقال، فقبض [السلطان عبد الله] المال وقال للباشدور: "حتى يأتي أسرى المسلمين". وأعطى للعبيد من ذلك المال ريالتين للواحد ولنسائهم كذلك، وكانوا ألفين ومائتين.¹

وفي سياق حديثه عن هجوم الفرنسيين على ثغر العرائش 1179هـ/1766م يقول ابن زيدان: "وأخذوا منهم أحد عشر قارباً واقتنص أكثرهم ووجهوا بهم للسلطان إلى مراكش. فبقوا هناك إلى أن جاءت رسل فرانساً يهداياهم يطلبون الصلح والفداء. وكانت هذه الدولة من ذي قبل تطلب إحكام الصلات بينها وبين المملكة المغربية، فأجابهم لذلك وعقد مع لويس الخامس عشر معاهدة سنة ثمانين ومئة وألف بواسطة سفيره بمراكش الكونت دي برنيون [والسفير] أبي الحسن علي مرسيل الرباطي، الذي وجه لفرنسا لاقتضاء مال فداء الأسارى الذين أخذوا بالعرائش، وتقرير الصلح المشار إليه وجلب المواد الحربية".²

وفي نفس الإطار يقول الكنسوسي: "وإذا انحازوا للشطرين رماهم المسلمون بالرصاص إلى أن استأصلوهم وخالطوهم في الفلائك عموماً، وكانت خمسة عشرة فلوكة، فيها ألف من العسكر أخذوا بين جريح وأسير وقتيل، وكل من قبض أسيراً توجه به للسلطان فأعطاهم وكساهم وبقي النصارى في الأسر إلى أن توسط الاصبنيول في فدائهم بأموال كثيرة بعد صلحه، وفي هذا العام توجه السلطان للعرائش بقصد ترميمها واستصلاحها فبنى الصقائل والأبراج بها"³، ويؤكد ذلك

¹ - الزباني، أبو القاسم، البستان الطريف، في دولة أولاد مولاي الشريف. ق 1، (من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)، ط1، دراسة وتحقيق: رشيد الزاوية، م د ب ع، الريصاني (الراشيدية)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، ص 327.

² - العلانق، م س، ص 65.

³ - أبي عبد الله محمد بن أحمد الكنسوسي، الجيش العرمم الخماسي في دولة أولاد مولانا على السجلماسي. جزآن (ج1)، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، (د.ت.)، م س، ص 226.

الزياني بقوله: "وكانوا خمسة عشر فلوكة، فيها ألف من العسكر أخذوا بين قتيل وجريح وأسير، واختطفهم القبائل، وكل من أخذ أسيرا، توجه به للسلطان، فأعطاهم وكساهم وأقام النصراني في أسر السلطان، إلى أن توسط في فدائهم طاغية الإسبنيول بعد صلحه ففداهم بأموال معتبرة.¹" و حول قيمة الفدية يقول الرباطي: "وفي اليوم الخامس عشر من المحرم عام واحد وثمانين ومائة [1768م] وألف أطلق السلطان مائة وثمانين من النصراني قبض في فداء كل واحد منهم سبعمائة مثقال، بعضهم قبض بالعرائش وبهم قبض من السفن بالبحر."²

ولا يمكن إغفال الجانب الدبلوماسي ودوره الحقيقي في تحرير عدد من الأسرى سواء المسلمين عامة بالديار المسيحية أو المسيحيين بالمغرب، ودليل ذلك البعثات الدبلوماسية المستمرة خاصة على عهد السلطانين محمد بن عبد الله والمولى سليمان، وهذا لا يعني غياب التواصل السياسي من قبل بين السلطان إسماعيل والبلدان الأوروبية، فقد كان المغرب في فترة حكمه مهاب الجانب، وسعت مجموعة من الدول إلى ربط الصلات الدبلوماسية معه، وأرسل هو الآخر مجموعة من السفراء مثل ابن حدو والحاج تميم والغساني وغيرهم، وبالرجوع إلى عهد السلطان محمد نور ما يسجله ابن زيدان، حيث يقدم جزءا من رسالة السلطان محمد بن عبد الله لملك فرنسا لويس الخامس عشر 1181هـ/1768م يقول فيها: "سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فقد ورد على حضرتنا العلية بالله باشادورك كونط دبرنيون المفوض له من قبلك في فداء أساراكم وطلب الصلح والمهادنة من جانبنا العلي بالله. وقد أجبناه لفكالك الأسارى وأسلمناهم إليه، وأنعمنا عليه بالإجابة للصلح ووقع العقد فيه معه بحكم النيابة والتفويض منك إليه في ذلك على شروط

¹ - البستان، م س، ص 398.

² - الرباطي، محمد الضعيف، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة). تحقيق وتقديم وتعليق: أحمد العماري، ط 1، دار الماثورات، الرباط - أكادال، 1986، م س، ص 174.

مرسومة في غير هذا. كما أنعمنا عليه بسراح أسارى آخرين من جنسك، غنمهم أحد قراصنتنا المظفرة المؤيدة بالله.¹

وقد اعتمد السلطان محمد بن عبد الله على صيغة المبادلة رأساً برأس بين الأسرى المغاربة والأسرى الأوربيين يقول ابن زيدان في هذا الشأن: "وفي سنة واحد وتسعين ومائة وألف [1778م] أرسل السلطان سفارة أخرى للويس السادس عشر برئاسة القائد الطاهر فنيش، كبير الطبجية، صحبة جماعة من الفرنسيين غرق مركبهم بالصحراء أقصى المغرب، ووجه معه هدية، وكلفه بمفاوضة الحكومة الفرنسية في جعل معاهدات، أراد السلطان مفاوضة الدول في عقدها. مضمناً أن يقع افتداء الأسرى من الجانبين فوراً رأساً برأس، وإن لم يكن رأس مقابل من إحدى الجهات فيكون الفداء مقرراً قانوناً بمائة ريال، دون فرق بين غني وغيره وقوي وضعفه، ويسرح الهرم صاحب السبعين والمرأة حالا دون فداء، حسبما جاء بالظهير السلطاني الذي توجه به فنيش."²

ونضيف إلى هذا النشاط السفاري في عملية افتكاك الأسرى، أنشطة الفريالية من أجل تحرير وسلامة الأسرى، حيث ساهم الفريالية الفرانسييسكان بصفة كبيرة جداً في سلام وحرية الأسرى النصاري، فكانوا السبب في حرية الآلاف منهم مستخدمين نفوذهم مع سلاطين المغرب وملوك إسبانيا. كما كانوا يحاولون كسب حرية الأسرى النصاري، من طرف سلاطين المغرب بصيغة هدايا موهوبة لإسبانيا، في مقابل إفلات الأسرى المسلمون الذين هم بأيديهم في البلاد الأخرى. وقد أشرنا سابقاً إلى ظهيرين شريفيين يتحدثان عن توسط الفريالية الفرانسييسكان السلطان لدى مولاي إسماعيل، كما أنه هو نفسه وجه مكتوباً إلى ملك إسبانيا

¹ - العلائق، م س، ص 66.

² - العلائق، م س، صص 68-69.

20 مارس 1716 يطلب منه حرية الأسرى المسلمون بتوسط من الفريالية
الفرنسيسكان مقابل تحريره الأسرى النصارى.¹

ثانيا: السبل غير الشرعية (محاولات الفرار: الأسير طوماس بيلو أنموذجا)

تعتبر محاولات الفرار الفردية أو الجماعية من الأفكار التي راودت الأسرى
المسيحيين بالمغرب خلال القرن 18م، وعملوا على تحقيقها في ظل فشل محاولات
الانعتاق الأخرى، أو رغبة منهم في تقليص مدة الأسر، بغض النظر عن ظروف وحالة
أسرهم، ذلك لأن الرغبة في العودة إلى الوطن الأم، وضمان الحرية في التصرف
والتدين هو أمر طبيعي ومشترك بين فئات الأسرى، ومن خلال تتبعنا لمذكرات بعض
الأسرى الذين تحرروا بهذه الطريقة، يمكن أن محاولات الفرار هذه كانت مسبقة
بتخطيط قبلي محكم، ولكن السؤال هنا هل كان يفلح هؤلاء الأسرى في الفرار ؟

في هذا الصدد نستحضر الأسير الإنجليزي بيلو²، الذي كان محظوظا إلى حد
كبير باقترابه الشديد من السلطة، وبالتالي حظي بمعاملة خاصة ومميزة، الأمر الذي
سمح له بأخذ هامش من التخطيط في محاولات فراره.

بالنسبة للأسير بيلو وبالرغم من كل الامتيازات التي حظي بها من طرف
السلطة المغربية، بالإضافة إلى اندماجه واستقراره الأسري داخل الحياة الاجتماعية
في المغرب، إلا أن فكرة الفرار راودته وقرر تنفيذها، وهو أمر طبيعي كما سبق الذكر،
وكانت الأسباب التي شجعت بيلو على الفرار فيما يلي:

1) جلوسه بدون عمل مدة من الزمن، وبالتالي تفرغه للتخطيط للفرار
وتنفيذه أيضا لأنه ضمن عدم استدعائه للخدمة العسكرية لمدة، حيث يقول: "

¹ - سيميون سيسلاو ستشيرا، السلاطين وخدام الكنيسة الفرنسيين في المغرب: علاقة السلطان والعمل
الديني الإنساني لخدام الكنيسة الفرنسيين، ترجمة: حسن شمالل، ط1، ليتوغراف- طنجة، 2015، م س،
ص 91.

² - هو الأسير الإنجليزي طوماس بيلو الذي أسر صبيبا رفقة عمه في سواحل سلا، على متن سفينة كانت متجهة
إلى جنوة وذلك سنة 1716، حيث كان عمره لا يتجاوز الثانية عشرة، وظل في الأسر إلى غاية 1739م

عندما تلقيت اثنتا عشرة قطعة ذهبية من السلطان كنت أعلم أنني سأبقى لمدة بدون عمل كمحارب. هنا بدأت فكرة الفرار تراودني".¹

(2) تواصله مع مجموعة من المسيحيين، ممن أخبروه بتجارب فرار ناجحة. حيث يقول: "فكرت في طريقة وقررت الذهاب أولاً لسلامة وفي حالة لم أستطع الذهاب من هناك، سأواصل حتى الجديدة كي أدخل الحصن البرتغالي لأنني كنت أعرف العديد من المسيحيين، نجحوا في الهروب بنفس الطريقة. ما كان بالإمكان أن يحصل معي أيضاً، للأسف، لو لم أستعجل الشقاء، لم أجد زورقا في سلام وذهبت للجديدة خلال أربعة أيام".²

(3) إمامه بالمناطق المغربية ومسالكتها حيث يقول: "كنت أقوم برحلي بدون أية عراقيل إلى أن وجدت نفسي ذات ليلة على بعد أقل من ثلاثة مئة متر عن جدران القصر".³

كما سبقت الإشارة فإن بيلو منذ بدايات أسره كان قد كسب ثقة الأسرة الحاكمة بشكل كبير، ثم إن لهذه الثقة ان مكنته من امتيازات دون غيره، وهذا الهامش الكبير من الحرية كان له دور في عزم بيلو على محاولة الفرار سواء في المرة الأولى أو في المرة الثانية ثم مرة ثالثة منا سنرى، والتي تشير بأنها كانت ناجحة خاصة وأنها تمت في مرحلة فوضى واضطراب داخلي للمغرب.

ويقول بيلو هنا: "قررت مرة أخرى استغلال هذه الفرصة كي أفر، فرغم أنني نجوت من الموت بمعجزة في أزموور، فقد كنت بعيداً عن التخلي عن مشروعي لدرجة أنني كنت الآن مصمماً بشدة على المجازفة بدلاً من العودة إلى الجيش. خصوصاً أنني كنت أتواجد في مكان مناسب وأن الفوضى العارمة التي كانت تسود في البلاد ستسهل

¹ - Magali MORSY, La Relation de Thomas Pellow, une lecture Du Maroc au 18e siècle, éd Recherche sur les Civilisations, Paris, 1983 ; p 142.

² - Magali MORSY ; op cit 142

³ - Magali MORSY; op cit; p 142- 143- 144

تنفيذ مخطط¹ ، بمعنى أن الوضعية الداخلية للمغرب بعد وفاة السلطان إسماعيل كانت من العوامل التي ياعدت هذا الأسير على الفرار. وعموما بالنسبة لأسير قضى أزيد من ثلاثة وعشرين سنة في المغرب، وعسكري يحظى بثقة السلطة والسكان المغربية، ويعرف تفاصيل وضعية المغرب الجغرافية ثم السياسية التي كانت مضطربة آنذاك، كل ذلك سهل مأمورية تنفيذ مخطط الفرار.

في الأخير نتساءل هنا عن موقف السلطة المغربية من مثل هذه المحاولات بداية، ومدى نجاعة نظام المراقبة الخاص بالأسرى، والضمانات التي كان من المفترض اعتبارها لتفادي هذه المحاولات. وعموما يكفي استحضار الوضع العام للمغرب بعد وفاة السلطان إسماعيل والفوضى التي أمت بالبلاد آنذاك، لنخلص إلى أن الأسرى بدورهم استعلوا هذه الظروف من أجل الفرار في ظل التفكك، خاصة وأن الرغبة في العودة إلى البلد الأم ظل ملازما لهؤلاء الأسرى بدون استثناء مهما علا شأنهم داخل المغرب.

خاتمة:

نخلص أخيرا إلى أن التفاوض حول الأسرى هو في حد ذاته مظهر من مظاهر العلاقات الدبلوماسية التي تجمع المغرب بباقي الدول التي ينتمي إليها الأسرى. ونؤكد من جهة أخرى على أهمية ملف الأسرى ضمن العلاقات المغربية الخارجية خلال القرن 18م، كما نستشف أن عمليات تحرير الأسرى استندت إلى مجموعة من الشروط التي تحدد على أساسها ظروف الافتكاك والتي تحدد أيضا طبيعة المقابل الذي يستدعيه تحرير الأسرى، وقد يكون هذا المقابل إما مالا، أو تبادل الأسرى رأسا

¹ - هذه الشهادة تؤكد أن تلك الظروف السياسية التي عاشها المغرب بعد وفاة السلطان إسماعيل سيكون لها تأثير على وضع الأسرى، كما أن هذه الظروف التي سهلت على بيلو مهمة الفرار والعودة إلى بلده الأصل.

(أنظر 144-146 :pp ;op cit ;MORSY Magali)

برأس، أو عبارة عن مقابل مادي ملموس كحاجيات المغرب من الموارد التي تتوفر عليها الدول الأوروبية المطالبة بتحرير أسراها.

كما نخلص من ناحية أخرى إلى أن محاولة الفرار تظل أمرا واردا في ذهنية الأسير مهما بلغ من الراحة والرفاه، إلا أن التفكير في فشل المحاولة وفقدان هذه الامتيازات هو ما كان يخيف هؤلاء الأسرى، وهذا بيلو اعتبره "مجازفة"، ومن جانب آخر فتفكير بيلو في الفرار يكشف عن حقيقة وجود عمليات فرار منها ما نجح فيها ومنها ما فشل لأنها "محاولات عشوائية" في نظره. وهو الأمر الذي يقودنا مرة أخرى إلى الانفتاح على موضوع آخر وهو مدى نجاعة الجهاز الأمني وجهاز المراقبة بالتحديد خلال القرن 18م.

لائحة المصادر والمراجع

المصادر:

- عبد الرحمن بن زيدان، العلاقات السياسية للدولة العلوية، تقديم وتعليق: عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية – الرباط 1999.
- الزياتي، أبو القاسم، البستان الطريف، في دولة أولاد مولاي الشريف. ق 1، (من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)، ط 1، دراسة وتحقيق: رشيد الزاوية، م د ب ع، الريصاني (الراشيدية)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992.
- الكنسوسي، أبي عبد الله محمد بن أحمد، الجيش العرمرم الخماسي في دولة أولاد مولانا على السجلماي. جزآن (ج1)، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد بن يوسف الكنسوسي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، (د.ت.).
- الرباطي، محمد الضعيف، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة). تحقيق وتقديم وتعليق: أحمد العماري، ط 1، دار المأثورات، الرباط – أكادال، 1986.
- سيميون سيسلاو ستشيرا، السلاطين وخدام الكنيسة الفرنسيين في المغرب: علاقة السلطان والعمل الديني الإنساني لخدام الكنيسة الفرنسيين، ترجمة: حسن شمالل، ط 1، ليتوغراف- طنجة، 2015.
- MORSY Magali, **La Relation de Thomas Pellow**, une lecture Du Maroc au 18e siècle, éd Recherche sur les Civilisations, Paris, 1983.

المراجع:

- تاريخ المغرب تحيين وتركيب. إشراف وتقديم: محمد القبلي، منشورات م م ب ت م، الرباط 2011، صص 405-406.
- حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ. 3 أجزاء، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط 2، 1994، ج 3.

- عبد المجيد القدوري، المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر (مسألة التجاوز)، ط.2. المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 2012، ص 284
- The Palgrave Handbook of Global Slavery throughout History, **The Palgrave Handbook of Global Slavery throughout History**; Edited by Damian A. Pargas · Juliane Schiel; Part 3. Early Modern Societies (1500–1800 C.E.) .

طقس تأغلا عند البدو الرحل الأمازيغ بوادي نون بالجنوب المغربي

الرمز والدلالة

أحمد بلّاج

باحث بسلك الدكتوراه
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن زهر، أكادير - المغرب



ملخص:

يروم هذا المقال إلى تسليط الأضواء على بعض المعتقدات والطقوس المرتبطة بطقس استنزال المطر لدى البدو الرحل الأمازيغ بوادي نون بالجنوب المغربي، وذلك بدء بوصف المراحل العملية التي يمر منها هذا الطقس مع محاولة تحليل الرموز والدلالات التي تكتنفها النصوص المرافقة له، كما يتتبع المقال الوظائف الأساسية والغاية من هذا الطقس انطلاقاً من السيرة والمراحل الوضعية التي يمر منها الطقس والأشياء المعتمد والمرتكز عليها من لبن المشرفين عليه، معتمدين على المنهج الوصفي والأنثروبولوجي إضافة إلى المقابلة والمشاركة من خلال الزيارات الميدانية.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بلّاج، أحمد. (2024، غشت). طقس تأغلا عند البدو الرحل الأمازيغ بوادي نون بالجنوب المغربي: الرمز والدلالة. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 194-209.

Abstract:

This article aims to shed light on some beliefs and rituals associated with the rain ritual among the nomadic Amazigh tribes in ouad noun Valley in southern Morocco. It begins by describing the practical stages through which this ritual passes, while attempting to analyze the symbols and meanings surrounding the accompanying texts. The article traces the main functions and purpose of this ritual, starting from the preparation and the stages and situations it goes through, as well as the objects relied upon and utilized by those in charge. The approach is based on a descriptive and anthropological method, in addition to interviews and participation through field visits.

مقدمة

عرف مجتمع البدو الرحل الأمازيغ بوادي نون بالجنوب المغربي كباقي المجتمعات عادات وتقاليد ومعتقدات وأساطير وطقوس كثيرة ومتنوعة فريدة وخاصة بهم، ترافقهم في المناسبات والحفلات وفي حياتهم الاجتماعية والثقافية. وتعتبر هذه المعتقدات والطقوس من بين الظواهر القوية التي تحقق وجود واستمرار هذا المجتمع البدوي، كما يمكن اعتبارها وعاء أنثروبولوجي لبنيته الذهنية وشخصيته الثقافية والهوياتية.

واختيارنا لهذا المحور كموضوع لهذه المقالة، يكشف بحق عن رغبتنا في الاسهام في تعميق البحث في الموروث الثقافي للشخصية البدوية الوادونية الأمازيغية بالجنوب المغربي على اعتبار أن ثقافتها تعتبر من أهم الروافد الغنية والغزيرة للثقافة الأمازيغية المغربية بصفة عامة. محاولا الإجابة على الأسئلة الآتية: ماذا نقصد بطقس "تاغلا" وكيف تمر مراحلها؟ وما الوظيفة والغاية الأساسية منه؟

على غرار باقي القبائل الأمازيغية بشمال إفريقيا¹ كان لبدو الرحل الأمازيغ بمنطقة باني ووادي نون بالجنوب المغربي طقوس ومعتقدات كثيرة وتليدة موزعة على مدار السنة، تعود أصولها وتاريخها إلى فترات ما قبل التاريخ. من بين هذه المعتقدات والطقوس نستحضر طقس الاستمطار² أو الاستسقاء التي تختلف تسمياته حسب كل منطقة بشمال أفريقية. منها مثلا "تيسليت ن وُنْزار" أي عروس

¹ ينظر كتاب: Mots et Choses Berbères لمؤلفه الإثنوغرافي المستنزع Emile LAOUST يبقى هذا الباحث من

أبرز الدارسين والواصفين لأدق تفاصيل طقس الاستمطار بشمال إفريقيا.

² طقس عريق يتعلق بالاستمطار في شمال أفريقيا، يعرف هذا الطقس في المغرب بتسميات عديدة مثل تاغنجا، وغنجا، بلغنجا، (عروس المطر/تاسليت ن وُنْزار)، وفي الجزائر يسمونه بوغنجة. أما تونس فيسمونه أم طنقو، وفي ليبيا أم قطمبو.

المطر، "تيسلست ن إگنا" بمعنى عروس السماء، "بلغنجا، تلغنجا"، كلها تسميات تتشابه وتتكامل في نسق رمزي ثقافي ميثي موحد¹.

عند البدو الرحل الأمازيغ بالمجال المذكور يسمونه اسمين اثنين الأول هو "تلغنجا" واللفظ هذا أمازيغي مركب من كلمتين، الأولى هي "تُلْ" وقد جاءت هذه الكلمة على صيغة فعل الأمر في اللغة الأمازيغية وتعني لُفَّ أو غَلَّف في اللغة العربية، والثانية هي "ءَاغُنْجَا" وقد جاءت على صيغة الاسم وتعني المغرفة، ليصبح المعنى المقصود هو تلفيف أو تغليف مغرفة تقليدية مصنوع من الخشب يستعملونه الرحل لإعداد وتحريك الطعام. يتم تلفيفها وتغليفها على شكل عروس، "حينما تبدأ علامات الجفاف يأخذ الصبيان والنساء العجائز هذه الملعقة الخشبية ويزينونها كدمية ويتجولون بها"²، كما تقوم الفتيات بتزينها بمجوهرات فضية وأشياء أخرى والباسها لباس العروس. لكن الاسم الثاني المعروف والسائد قديما هو طقس "تَغْلَا"³ بمعنى النعجة الصغيرة، وهو طقس أنثروبولوجي بامتياز، ذو أصل أمازيغي تمتد جذوره لما قبل الإسلام ويعد من أعرق الطقوس الاستسقاءية الهادفة إلى استمطار السماء عند مجتمع الدراسة. هنا يمكن أن نطرح سؤالاً مفاده ما علاقة النعجة بالطقس المذكور وما دوره في الحياة البدوية لدى الرحل؟ وما دلالاتها الرمزية في ثقافتهم؟ وما طبيعة المرددات التي تردد فيها؟

إن طقس "تَاغْلَا" في ثقافة البدو الرحل، هو طقس أنثروبولوجي بامتياز، حامل لدلالات ورموز كثيرة تترجم مدى تعلق الرحل بثقافة أجدادهم القديمة التي تحمل

¹ محمد أوسوس، دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة. الرباط 2007، ص 7.

² إدمون دوطي، السحر والدين في شمال إفريقيا، ترجمة فريد الزاهي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي الطبعة الثالثة، 2019، ص 320.

³ تحدث الباحث والدارس Emile LAOUST في كتابه Mots et Choses Berbères عن جل أنواع الطقوس المتعلقة بطقس الاستمطار عند الأمازيغ بشمال إفريقيا لكن أغفل الحديث عن هذا الطقس عند البدو الرحل الأمازيغ بمجال الدراسة.

الكثير من التعابير والعديد من الطقوس والرموز الملفوفة بالغموض والإبهام التي تحتاج إلى دراسات سوسيوأنثروبولوجية أو سيميائية قصد استنباط معانيها ودلالاتها الثقافية والاجتماعية والدينية والعقائدية وغيرها.

هذه الطقوس والمعتقدات القديمة التي تنتقل من جد إلى جد يمكن اعتبارها منفذا من المنافذ الأساسية التي تحيلنا على عقلية الشعوب ومدخلا مهما من أجل اقتحام وفهم فضائاتها الفكرية وممارستها العقائدية والطقوسية الباطنية والظاهرة، فهي تترجم مستويات التفكير الشعبي وحركته داخل فضاءات روحية ومادية خاصة¹. كما أن هذه المعتقدات والطقوس "تساهم في خلق الكثير من القنوات الترويحية والتخفيفية للعديد من التراكمات الانفعالية والاجتماعية، المتحكمة في تفاعلات أفراد المجتمع أو القبيلة، بواسطة محددين أساسيين هما العرف والدين، هذا الأخير ظل لصيقا ومرافقا لمفهوم المعتقد المتعدد الخصائص والأدوار داخل المجموعات البشرية"².

يتم ممارسة هذا الطقس عند بدو الرحل وادي نون حينما تكون أراضي الانتجاع والمحاصيل الزراعية ومياه الآبار والوديان مهددة بالجفاف والقحولة بسبب غياب التساقطات المطرية ويكون البحث عن الماء المحفز الرئيسي الذي يدفعهم إلى المزيد من التنقل الدوري والترحال المتكرر من أجل البحث عن الماء والكلاء، وتستغرق هذه العملية أياما أو شهورا عديدة يقطعون فيها مسافات طويلة ومتعبة، ويمكن أن تسبب هذه التنقلات في إشكالات عويصة وخطيرة على حياتهم وعلى حياة ماشيتهم وأطفالهم وشيوخهم. كما يمكن مثلا أن تصيبهم أمراض كثيرة ومختلفة قد

¹ محمد سعدي، من أجل تحديد الإطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية: ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة نموذجا، د. ط. مطبوعات مركز الأبحاث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر 1995، ص: 6.

² Catherine PONT-HUMBERT, Dictionnaire des symboles, des rites et des croyances, éditions Jean-Claude, Lattés, 1995, PP : 14-15.

تؤدي في بعض الأحيان إلى موت نسب عالية من الماشية بمختلف أنواعها، وانقراض عدد مهم من الحيوانات وبالتالي يسود الجوع والقحط وتزداد الأمراض المزمنة التي قد تصيب كذلك الرجال والنساء وغالبا ما تؤدي بموت صغارهم أو شيوخهم الذين لا يتحملون قساوة الجوع والأمراض الفتاكة والخطيرة.

مادام حياة البدو الرحل قائمة على الماء والغيث، فإننا نجدهم مرتبطين شديد الارتباط بهذه المادة الحيوية التي بدونها لا تستمر تنقلاتهم وترحالهم، وبالتالي فإن طقس "تَاغْلًا" مرتبط أساسا بطلب الغيث، ونظرا للمكانة الفريدة التي يشغلها الماء في حياتهم، فقد ارتبط وجود البدو الرحل ارتباطا وثيقا بهذه المادة الحيوية، حيث نجد أغلبهم ينشئون تجمعاتهم ويقيمون خيامهم قريبا من الوديان والآبار ومنابع المياه والعيون التي تعتبر إحدى أهم الموارد الأساسية التي يحتاجها البدو للبقاء والبقاء على قيد الحياة في بيئتهم القاحلة، "فالماء إكسير الحياة في الصحراء"¹، لذلك فلا غرابة إذا وجدنا الرحل يهتمون بإشكالية الماء أكثر من اهتمامهم بمسألة الطعام².

تبتدئ مراحل عمليات طقوس "تَاغْلًا" في موكب تشارك فيه النساء والفتيات، ويسمى هذا الموكب بـ "إِسْتْ تَغْلًا"، وهي كلمة أمازيغية مركبة من لفظين إثنين الأول هو "إِسْتْ" وتعني أداة نسبة في اللغة الأمازيغية والثانية هي "تَاغْلًا" وتعني النعجة الصغيرة، ليكون المعنى المقصود هنا هو نساء النعجة.

قبل أن ينطلق هذا الموكب تتقدم احدهن بحمل نعجة صغيرة على ظهرها بالطريقة التي يُحمل بها الطفل على ظهر أمه، حيث يُغطى رأس النعجة تحت إبط

¹ Robert Montagne : *La civilisation du désert – nomades d’orient et d’Afrique*. Op cit. P : 267.

² ابراهيم الحيسن، الأطعمة والأشربة في الصحراء، مطبعة النجاح الجديدة (CTP)-الدار البيضاء، ط، الأولى 2014، ص ص 198-199.

الفتاة كي لا يُسمح لها برؤية ما بحولها مع تزيين وجهها بالكحل، ويشترط أن تكون ذات وجه أبيض، ويسمونها "تَاغْلَا تَامَانَارْت" بمعنى النعجة البيضاء.

هكذا ينطلق الموكب في اتجاه الخيام، يقمن بالطواف بها من خيمة إلى أخرى ويرددن نص شعري بصوت مرتفع وبلحن شجي ومؤثر يسمى "تَاغْلَا"، يستقبلهن ربات الخيام بالرش بالماء وإعطائهم شيئاً من القمح والسكر والشاي والتمر والزيت وغيرها من المواد الغذائية التي يستعملونها الرحل في حياتهم البدوية. وبعد ذلك يقع الاتفاق بين النسوة والفتيات بإعداد وجبة الكسكس في حفلة صغيرة تسمى "تَابْرُكْنَا" في مكان ما بجوار الخيام، إما في خيمة معينة أو بضريح ما إن كان موجوداً بقرب الخيام أو تحت شجرة معينة قريبة من التجمع السكاني، وتتخلل هذا الحفلة أهازيج وأغاني متنوعة. وقبل أن تقام هذه الحفلة، توضع النساء جميع التبرعات التي تم الحصول عليها على إيزار واسع عادة ما يكون مصنوعاً من صوف النعاج أو وبر النوق ويسمى "تَاَحَايْكُتْ"، حيث توضع تلك النعجة الصغيرة على ذلك القمح المجموع وينتظرون ماذا سيحصل. وفي هذه اللحظة تستحضر النسوة اعتقادين:

الأول: هو في حالة ما تبولت النعجة على القمح الذي تم جمعه، فذلك ينذر بفأل خير، بمعنى فال اقتراب هطول المطر، وبالتالي تفرح النسوة ويستمررن في تكرار زغاريد عديدة. أما إن حدث عكس ذلك فهو الاعتقاد الثاني، الذي يقول في حال حدث ابتعاد النعجة عن القمح المجموع، فذلك يدل على فال شؤم ينذر باستمرار القحط والجفاف على القبيلة والماشية والمجتمع البدوي ككل.

وفي الجزائر نجد نفس الطقس لكن بتغيرات قليلة عند "قبيلة بني شگران، حيث تتجول مجموعة من النساء ببقرة سوداء وهن يغنين، فإذا تبولت البقرة خلال الجولة أو بعدها مباشرة يكون ذلك دلالة على هطول المطر الوشيك"¹. ومن جهة أخرى، نجد هذا الطقس، قد كان يحتفى به بتوظيف فتاة حقيقية جميلة بمناطق

¹ إدمون دوطي، السحر والدين في شمال إفريقيا، ترجمة فريد الزاهي، مرجع سابق، ص 320.

"ايساكن" من خلال إقامة طقس احتفالي حقيقي، يشارك فيه الجميع في مرحلة أقدم تاريخيا من الأول، والتي يصعب تسجيل تاريخها الذي ظهرت فيه¹.

وقد تمكنا عبر تقنية الملاحظة بالمشاركة والمجموعات البؤرية المستجوبة والزيارات الميدانية، الحصول على بعض الأغاني والأهازيج القديمة التي يتم ترديدها في هذا الطقس رغم صعوبة العثور عليها، لأن مثل هذه الأشعار شبيهة بقطع صغيرة من أحجار نيزيكية متناثرة يصعب الحصول عليها لأنها حبيسة في عمق صدور الجدات وهن لا يستحضرنها إلا في ظروفها ومناسباتها الخاصة. والنص الذي حصلنا عليه هو الآتي:

تعريب:

وَا تَغْلَا ءَالْ وُدْمْ نَمْ سَ زَيَّ	↔	يا نعمة فتية وجهك إلى الله
وَالِيَّ إِسْكَانْ ءَاذْ ءَاغْدْ إِغْيَتْ	↔	يا مغيث أغثنا
وَاتَغْلَا ذْ إِزِيْمَرْ مُوْنِيْنْ	↔	يا نعمة فتية وكبش مرافقين
مُوْنِيْنْ غْ إِمُولَا زَكْرَاوْنِيْنْ	↔	مرافقين في ظلال خضراء
تَنَّا بَاغْ تَغْلِيْ ذْ وُْمَالُوْ	↔	نادت بصوتها متسلقة الظلال
تَنَا تَرَا تِيْكَنَا زَكْرَاوْنِيْنْ	↔	أشارت بأنها أرادات فجاجا خضراء
تَنَّا تَرَا إِيمَغِيْ زَكْرَاوْنِيْنْ	↔	أشارت بأنها أرادات نباتا خضراء
وَا تِيْتَرِيْتْ زُرْمُدْ إِوَامَانْ	↔	يا نجمة أطلقي الماء
ءَاَزَامْتِيْ تَاكَرَا ذْ إِئِيْفِيْفْ	↔	ناولني قبعًا ومحكونا
ءَاَنَّاغُوْمْ تِيْنْكَاضْ نْ وَاْمَانْ	↔	لنسقي غطاسات من الماء
زُرَّاكْنْ ءَاغْ وَاْمَانْ نْ تَانُوْتُ	↔	ماء البئر أصبح مرا

¹ Emile LAOUST, Mots et Choses Berbères, Société Marocaine D'éditions-Collection Calques-Rabat - 1983, p : 246-250.

- زُرَاكُنْ ءَاغُ وُزْ يَادْ مَيْمَنِي ← أصبح مرا ولم يعد حلوا
- زُرَاكُنْ ءَاغُ گَانِ وَاكْ ءَالِيْلِي ← أصبح مرا وهو لنا دفلی
- فُوغْدْ ءَامُومُوْ إِيْمُرْزُگِي ← انشق يا فرح من لب المارة
- وَا يَاتْبِيْرْ ءَايَاسْمَامَائِي ← يا حمام له أنين
- ءَا بُو تَدَاكَالِيْنْ غَمَانِيْنْ ← ذو رجلين مخضبين بالحناء
- إِيْفُوْ لِحَالْ ءَارُوْنْتُ تَرَامِيْنْ ← أظل الصباح ووضعت النوق
- تِيْگَايَزِيْنْ كُوْلُوْ مُلُوْنِيْنْ ← صغيرات لها كلها بيضاء
- رَبِّي سَنْ وَاْمَانْ نْ وُنْزَارِي ← ربِّ هب لنا من لدنك أمطارا
- ءَاوْزْ گُوْتْنْ وُلَاْ دُرْسَنِي ← ليس بالكثرة ولا بالقليل
- مَيْمَنِيْنْ يَآغْ قَادْ إِمُوْلَا¹ ← ولذة تطفئ عطش السهول

انطلاقا من العنوان وتسمية الطقس "تاغلا" التي تعني النعجة الفتية، يتبين طغيان معجم وألفاظ ذات صبغة ودلالة بدوية. وتجدر الإشارة إلى أنه يمكن أن تختلف طبيعة المعجم أو اللهجة المستخدمة في طقس الاستمطار من مجتمع إلى آخر، لكن طقس "تاغلا" عند البدو الرحل يشمل معجم فريد خاص بهم ومرتبطة بثقافتهم وحياتهم والبيئة التي يتحركون فيها بشكل عام.

إذا نظرنا مثلا في المعجم والألفاظ الموظفة في النص أعلاه، كلها توحى على معجم مرتبط بثقافة الرحل (إِمُوْلَاْ زُكْرَاوْنِيْنْ/ تِيْگَايَزِيْنْ/ زُكْرَاوْنِيْنْ/ ءَارُوْنْتُ تَرَامِيْنْ/ إِنْكَاسْ نْ وَاْمَانْ)، مفردات بسيطة ومفهومة تدخل ضمن معجم وحقل دلالي لصيق بدهنية البدو الرحل وبالحقل الطبيعي الذي يرتبطون به والذي تربطهم علاقة قداسة المشحونة برموز ثقافية بدوية التي تتلخص التصورات الرمزية لمجتمع

¹ مقابلة شفوية مع فاطمة ميروش، 67 سنة، دوار أكماض، جماعة تغجيجت، يوم 05 فبراير 2023.

الدراسة الدالة على نمط الثقافة السائدة واسقاطاتها على مكونات الطبيعة، الماء نموذجاً الذي يعد مصدر حياة وجود ترحال البدو الرحل وتنقلاتهم المتكررة.

حتى من الناحية الفنية نجد توظيف أساليب بلاغة متميزة، حيث نجد مثلاً السجع (مونين/زگزاونين/تيرامين/ملُونين)، بجانب السجع نجد أسلوب النداء والوصف حاضر بقوة إضافة إلى الكناية (تيتريت) التي تحيل على إله السماء. أما طريقة القراءة المرتبطة بهذه الأشعار، فهي مؤثرة جداً وتتميز بلحن بطيء وثقيل، ويتم تكرار كل سطر مرتين، ويتضح الأئين والألم واضحاً انطلاقاً من حرفي النون والميم التي تتكرر في آخر كل سطر.

ويتجلى هذا الأئين في رأينا إلى إشكالية الجفاف الذي يسبب في شح المياه وانعدامها وبالتالي ستكون البيئة قاسية وجافة وبالتالي يسود الحزن في نفسية المرأة البدوية والحنين العميق إلى الماء، ويبدو هذا الطرح جلياً في المغزى العام للأشعار التي حصلنا عليها. إذ أن البدو الرحل يؤمنون إيماناً قطعياً بوجود خالق رحيم، وما يؤكد ذلك أكثر هو السطر الأول من النص أعلاه. ويكمن الهدف من ترديد هذه المرددات أساساً في جلب الأمطار والبركة للأرض والمراعي والمحاصيل الزراعية، وعودة الحياة للبيئة والوديان والآبار والجبال. وأغلب المرددات الموجودة والمشهورة لهذا الطقس يتراوح مضمونها بين التوجه إلى إله السماء وطلب الماء والرحمة منه.

يكشف لنا هذا النص كذلك العديد من الرموز الغنية بدلالات ثقافية بدوية لمجتمع الدراسة التي تغري بالدراسات والتحليل والتمحيص، "فكل شكل طقوسي أو رواية أسطورية، تبقى على العموم حاملة للعديد من الأحداث الرمزية، المتعاقبة والمتصلة بشكل دلالي بالرموز، التي تحتوي على بنيات دلالية تكرارية لرموز نشأة الكون والضامنة لاستمرار رموزها وهي ضد الزمن وضد الموت"¹. وبالتالي يدخل هذا

¹ جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا رمزها أساطيرها أنساقها، ترجمة: الصمد مصباح، المؤسسة للدراسات والنشر والتوزيع، ط.2، 1993، ص: 337، 338 و 342.

الطقس ضمن لائحة المعتقدات الأمازيغية القديمة "التي تعتبر بمثابة وعاء أنثروبولوجي زاخر بالطقوس والدلالات والرموز، المستبطنة في مجموع السلوكات والطقوس والأفعال، التي يتم إعادة إنتاجها منذ القدم وإلى يومنا هذا"¹. كما يضم العديد من الأشكال الترميزية الموضوعية التي تحمل في جوهرها الكثير من الدلالات والرموز الكاشفة عن المعتقدات والعقائد التي كان الإنسان البدوي يؤمن بها قديما. وبالتالي يمكن اعتبار طقس تاغلا سلسلة من الدلالات الثقافية والعقائدية المترابطة والعلامات الدالة على مجموعة من العناصر السوسيوأنثروبولوجية التي تلخص العديد من القضايا المختلفة والعمليات المنظمة التي تتشكل وفق أفعال وأصوات محددة وخاصة بإيماءات وطقوس وموضوعات متسرسة ومتتابعة ينتج من خلالها العديد من الرموز الدالة على نسق ثقافي وظواهر ثقافية قابلة لتأويل وفهم الواقع العام الذي يعيشه مجتمع البدو الرحل وإدراك قيمهم الدينية والعقائدية والثقافية.

ونشير في هذا المقام إلى أن هناك تفاوتات كبيرة بين المرددات الخاصة بهذا الطقس بحسب العادات والتقاليد الثقافية لكل منطقة أو قبيلة، كما تختلف طرق أدائه من قبيلة إلى أخرى. لكن مع ذلك كلها تعبر عن رغبة الإنسان عموما والبدو الرحل خاصة في جلب الأمطار والغيت حينما يحصل الجفاف والقحط، وذلك من أجل تحقيق الحاجيات الرعوية والزراعية والمائية للمجتمع وللقبيلة بصفة عامة.

هذا الطقس يدخل ضمن لائحة الطقوس الأسطورية المعروفة عند الأمازيغ، وقد أتينا بهذا النص الأسطوري ليفند ما ذهب إليه المستمزع الفرنسي هنري باصي الذي أطلق أحكامه المسبقة السلبية في حق الشعوب الأمازيغية يتهمهم فيها بعدم توفرهم على أساطير مبررا رأيه بقصورهم في الخيال والعجز في الإبداع حيث صرح في كتابه "*essai sur la littérature des berbères*": "إن الأمازيغ، ومع كل ما لديهم من

¹ حنان حمودا، الماء وصناعة المقدس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية - الرباط، ط 1، 2021. ص: 95.

عناصر بناء الأساطير، إلا أنهم لم يتعدوا أساسيات البناء، وتركوا الحجارة مبعثرة، إذ ينقصهم المهندس المعماري الذي لا غنى عنه، وهو الخيال المبدع"¹.

وفي مقابل هذا الطقس نجد طقوس أخرى يمارسها الشباب والأطفال، حيث نجد صغار البدو الرحل بدورهم يمارسون طقس يسمى "بَرْيَانُو" وهذا الاسم أو هذه التسمية من الممكن حسب اعتقادنا أن تكون كلمة عبرية أو طقس يهودي²، وذلك بحكم تواجد اليهود بالمجال المدروس "ولعل أقدم وثيقة معروفة عن استقرار اليهود بالجنوب المغربي هي التي تم العثور عليها بسوس، على جبال الأطلس الصغير في قرية إفران، وهي عبارة عن شاهد قبر اليهودي يوسف بن ميمون"³. وبما أن تواجد اليهود بمنطقة وادي نون منذ قرون وارد، فإنهم سينفتحون على الرحل خصوصا في مجال التجارة "عبر فترات تاريخية طويلة، وذلك من خلال المسالك والطرق التجارية التي كانت تمر بها، وكذا المواد والسلع المنقولة من وإلى المنطقة"⁴، وبالتالي سيكون لهذا التواجد وهذا الانفتاح تأثيرا ضمنيا أو واضحا على عادات وطقوس البدو الرحل الأمازيغ الذين يتحركون بعدة مناطق في وادي نون وباني.

أما لفظ "بَرْيَانُو" فهو عنوان نص شعري يردده الأطفال أثناء انطلاقهم في موكب كبير إلى الخيام لجمع الصدقات والعطايا من نساء الخيام، وهو طقس يمارسه شباب أقل من ثمانية عشرة سنة، يبدأ الموكب سيره نهارا في اتجاه الخيام،

¹ Henri Basset, *essai sur la littérature des berbères*, op sit, P : 304.

² بريانو: حاولنا الوقوف على إيجاد تفسير لغوي لهذه الكلمة في المعجم الأمازيغي لكن لم نصاف أي مرجع تناول موضوع هذا الطقس، ما وجدناه هو كلمة أخرى شبيهة لها وهي "البورييم"، وهو طقس يهودي يصاف عيد عاشوراء عند المسلمين. ينظر: كتاب يهود وادي نون: أصول... جذور... وأدوار، تنسيق عبد الهادي المدن، ص: 243.

³ J. Goulven, *Origine des Israélites du Maroc*, Hespéris, 1927, tome I, P : 325.

⁴ محمد الصافي، وادي نون خلال القرن 19م مساهمة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي من خلال وثائق محلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط. 1، 2016. ص "198.

ويجمع كل أطفال "المُحصَر"¹، ينطلقون من خيمة إلى خيمة بشكل جماعي مرددين نص شعري بطريقة جماعية وبصوت مرتفع، ويطوفون على جميع الأسر المشكلة لتجمع السكني "لمحصَر"، وغالبا ما يتم رشهم بالماء بعدما يأخذون التبرعات من ربات الخيام، وقد ساعدنا التحري الميداني الحصول على بقايا هذا النص من بعض الرواة الدين ساعدونا في توثيق ما تجود به ذاكرتهم من تقاليد ومعتقدات، وقد جاء النص الذي سجلناه على الشكل الآتي:

بُرَيَانُو صَاحَانُو ← بريانو فائدتي منه
 تَانْغُولْتُ إِنْوَاءَ تِيخْشَتْ إِنْو ← خبزتي وقطعة لحم لي
 إِلَّا كَرَا نَغْدُ وَرُزْ إِلِّي ← هل يوجد شيء من هذا أو لا؟
 إِلَّا لُخِيرْ إِفَاتْ رَزِّي ← يوجد الخير وما أكثره
 ءَاوَاعِلَا مَاتِن يَاكَانْ فُرِّي لِّلّٰه ← لو وجد من سينفقه في سبيل الله
 سُبْحَانَاهُ سُبْحَانَاهُ ← سبحانه سبحانه
 ءَامَانْ ءَامَانْ ءُونَزَارْ ← ماء، ماء المطر
 ءَاتْنِيدْ ءَاوِينْتْ تِيْغُونَاتِيْن ← تأتي به الفجاج
 وَوَلَا تَالَاتِيْن ← والمسيلات
 سِنْ وَاسِيْفْ لُجْبَارْ ← إلى واد الرخاء والخلاص
 جُبْرَاتَانْغْ سُرْسْ ءَارَزِّي ← كن لنا دليلا إليه يا رب
 صِيْفِدَاتَاغْ ءَا لُجْوَادْ ← أجيّبونا يا أجياد
 فُودُمْ نْ رَسُوْلُ اللّٰه ← على وجه رسول الله
 صِيْفِدَاتَاغْ ءَايْصِيْفِدْ رَزِّي ← أجيّبونا بدل الله
 لَاهُوَالْ نُونْ سِنْ لُخِيرْ ← أهوالكم بالخير

¹ المحصر: يقصد به التجمع السكني.

إذا قرأنا النص أعلاه قراءة أولية، يتبين لنا ورود معجمين مختلفين، الأول مرتبط بالحقل الديني، والثاني مرتبط بالحقل الطبيعي. وإذا تعمقنا النظر في ثناياه نلمس منها نوع من الاتساق الدقيق بين مكوناته، والغاية من هذا التناسق في الألفاظ والمضمون هو التأثير في نفسية المتلقي/ربات الخيام، قصد الحصول على صدقات وهبات كثيرة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية نجد الجانب الإيقاعي للنص الذي يحافظ على الإيقاع الصوتي وتكرار حروف الأئين، وتبقى طريقة الأداء الوسيلة الأخيرة في نجاح برنامج الموكب.

بعدما ينتهي الأطفال من عملية جمع العطايا والصدقات، والطواف على جميع الخيام، يقومون بحفلة صغيرة في خيمة معينة أو في مكان ما بقرب من الخيام، حيث يجتمع الشباب والأطفال، وتقوم النساء بإعداد وجبة الكسكس. وعادة ما يكون المكان الذي سيقمن فيه بطهي وجبة الحفلة مكانا مقدسا، وغالبا ما يكون إما شجرة أو ضريح أو بجانب صخرة كبيرة.

بناء على ما سبق، يعد طقس "تاغلا" وطقس "بريانو" من المعتقدات والطقوس الثقافية الأمازيغية القديمة جدا الغنية بالعديد من الرموز والدلالات السيميائية، يصعب تحديد تاريخها وبدايتها بمجال الدراسة، وقد "لاحظ أغلب الدارسين والباحثين مثل إميل لاووست، بورديو، إدمون دوطي وغيرهم الدين اشتغلوا وبحثوا في عمق رموز هذه الطقوس، أن أكبر الدلالات الرمزية التي تم إنتاجها في هذا السياق، هو رمز الخصوبة، فنزول ماء المطر على الأرض يعقب عنه الإخصاب مباشرة، وهو الرمز المستوحى من عملية السقي التي يقوم بها المطر لإرواء المحاصيل والمراعي التي لو لا الماء لما كان لها وجود"¹.

أما موكب الطقوسيين فهو يحمل دلالات رمزية كثيرة، تظهر عليها نُظم التآخي وآلية تيويزي القيمة الأخلاقية التي عرف بها الإنسان الأمازيغي البدوي منذ القدم،

¹ حنان حمودا، الماء وصناعة المقدس، مرجع سابق، ص:96.

وذلك من خلال العطايا والصدقات التي تقدمها نساء الخيام للأطفال ونساء النعجة موكب الطقس قصد إعداد وليمة جماعية ختامية، وهي "تابركنا" التي تقام بجوار الخيام، يتقاسمها المشاركون مع باقي أفراد التجمع السكاني.

واستنادا إلى ما سبق يمكن القول إن طقس تاغلا هو طقس أنثروبولوجي يتضمن الكثير من الرموز والدلالات والعلامات المركبة التي تلخص نمط الفكر العقائدي للشخصية البدوية الأمازيغية بمنطقة وادي نون بالجنوب المغربي قديما، وتعتبر هذه الدراسة المتواضعة بمثابة استفزازا للباحثين قصد تعميق البحث والدراسة في ثنايا هذه الطقوس والمعتقدات، لأنها فعلا تستحق التمهيد والتنقيب والتحليل بشكل دقيق وأدق.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- إبراهيم الحيسن، الأطعمة والأشربة في الصحراء، مطبعة النجاح الجديدة (CTP)-الدار البيضاء، ط، الأولى 2014.
- إدمون دوطي، السحر والدين في شمال إفريقيا، ترجمة فريد الزاهي، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي الطبعة الثالثة، 2019.
- جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا رمزها أساطيرها أنساقها، ترجمة: الصمد مصباح، المؤسسة للدراسات والنشر والتوزيع، ط.2، 1993، ص: 337. 338 و 342.
- حنان حمودا، الماء وصناعة المقدس، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة الأمنية- الرباط، ط 1، 2021، ص: 95.
- محمد الصافي، وادي نون خلال القرن 19م مساهمة في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي من خلال وثائق محلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط. 1، 2016
- محمد أوسوس، دراسات في الفكر الميثي الأمازيغي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة. الرباط 2007.
- محمد سعيدي، من أجل تحديد الإطار المعرفي والاجتماعي للمعتقدات والخرافات الشعبية: ظاهرة زيارة الأولياء والأضرحة نموذجا، د. ط. مطبوعات مركز الأبحاث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، الجزائر 1995.

المراجع باللغة الأجنبية

- Catherine PONT-HUMBERT, Dictionnaire des symboles, des rites et des croyances, éditions Jean-Claude, Lattés, 1995.

- Emile LAOUST, Mots et Choses Berbères, Société Marocaine D'éditions-Collection Calques-Rabat – 1983.
- Henri Basset, essai sur la littérature des berbères.
- J. Goulven, Origine des Israélites du Maroc, Hespéris, 1927, tome I.
- Robert Montagne : La civilisation du désert – nomades d'orient et d'Afrique.

المصادر الشفوية

- مقابلة شفوية مع فاطمة ميروش، 67 سنة، دوار أكماض، جماعة تغجيجت، يوم 05 فبراير 2023.

الحبُّ لا يُقهر.. الحبُّ صانع مُعْجزات!

الحبُّ في شعر محمود درويش

خديجة الكبوري

طالبة باحثة بسلك الدكتوراه
تكوين الدكتوراه: آداب وفنون متوسطة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط - المغرب



مقدمة

سيبقى الحب دائما قادرا على تفسير ما يعجز الواقع عن تفسيره، مُضْغِفا الإثارة والإقناع على حوادث غامضة الأسباب، أو تحتاج إلى عناصر تشويق، تجعلها أكثر درامية وتقبلا. ويمكننا أن نذكر بعض الوقائع التاريخية التي قام فيها الحب بدور حاسم، وأنزل الستار على الجزء الأخير من القصة. فمثلا، في صراع امرئ القيس مع بني أسد من أجل استعادة مُلك أبيه، يرحل إلى قيصر، يطلب نصرته؛ فيحب ابنة القيصر. أما النابغة الذبياني، فإنه يهوى المتجردة؛ زوجة الملك النعمان، حتى يصفها وصفا جريئا في قصيدة تتلى على مسمعي زوجها. أما الشاعر طرفة بن العبد، فقد كان ينادم عمرو بن هند، فأشرفت أخته ذات يوم، فرأى طرفة ظلها في الجام الذي في يده، فقال في ذلك شعرا، أحق عليه ابن هند؛ فدبر مقتله. وهكذا إلى ما لا نهاية.. إنها قصص تجمع بين الممكن والمستحيل. فالشاعر العربي القديم تلقائي في علاقته بالمرأة، يحترم الأعراف القبلية، لكنه يستجيب للصبوة كلما سنحت له الفرصة.

وقد استقى محمود درويش من الشاعر العربي القديم، في لحظة من زمنه، هذه المغامرة، ليخرج من رؤيته الضيقة إلى عالم شعري كوني، متأملا في ذاته، ومهمتها بلغته، وجعل مساحة بينه وبين حبه الأزل؛ حبه للوطن، لا للانفصال عنه، وإنما

للحصول على استقلالية، واقتحام فضاء المغامرة. وهذا أعطى حداثة خاصة متفردة، تقتضي أن نجاح التجربة الشعرية يحتاج إلى المغامرة، وإعادة إنتاج لغة شعرية جديدة، منفتحة على ما هو كوني، بدل الانحصار في موضوع بات يُرهق قلب الشاعر.

وإذا عدنا إلى المرحلة الشعرية الأولى لمحمود درويش، نجد أنه لم يتحدث عن المرأة من حيث كينونتها الأنثوية، حتى لدى حديثه عن "ريتا" الفتاة اليهودية التي أحبها، والتي اتخذ من حبها رمزا للعلاقة الإنسانية، بعيدا عن العدائية¹، لكن محمود درويش، في المرحلة الأخيرة، استطاع أن ينظر إلى المرأة/ الأنثى، وهذا ما أشار إليه بقوله: "جميل أن تكون المرأة وعاء للوجود كله، ولكن يجب أن تكون لها شخصيتها كامرأة"².

وسنحاول، في هذا المقال، الغوص في ثنايا ديوان "سرير الغريبة" لمحمود درويش، الذي جسد بحق تيمة الحب، بوصفه منعّقا للتحرر، وقيمة إنسانية وجودية خالصة للذات؛ فبقدر ما منح لقب "شاعر الوطن" لمحمود درويش الكثير، أخذ منه الكثير أيضا، وطالما امتاز بالقدرة على خلق الدهشة أمام القارئ في كل مرحلة من مراحل الكتابة لديه، وفي كل مرحلة كان يغير أدواته الشعرية، لكن أعماله الأخيرة، التي تمثل آخر تلك المراحل، تبين مدى وعيه بالقضايا الكونية والوجودية، وهو "موقف يكشف عن تغير الذائقة الشعرية لدى الشاعر، وعن مطالبة القارئ ضمنا بتغيير أدوات القراءة، وإبدال زوايا النظر إلى الشعر ووظيفته؛ من أجل بناء وشائج وعلاقات مغايرة بين الشاعر وقارئه، تنبني على التحرر في الكتابة الشعرية،

¹ - صفاء عبد الفتاح محمد المهداوي، أنا في شعر محمود درويش: دراسة سوسيو ثقافية في دواوينه من (1995-2008م)، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2013، ص 258.

² - محمود درويش، حوار مع الشاعر محمود درويش، أجراه عبده وازن، في: كتاب "محمود درويش الغريب يقع على نفسه"، ص 150.

والحرية في التلقي والتأويل"¹. وهذا ما جسده ديوان "سريير الغريبة"، الذي طرح فيه محمود درويش كل الأسلحة الأيديولوجية جانبا، ليجعله ديوانا كاملا للحب، وللحُب فقط.

1- الحب في "سريير الغريبة":

سعى محمود درويش إلى أن يحرر المرأة من أبعادها الرمزية، ليعرّف الحب، في ديوان "سريير الغريبة"، بأنه تلك العلاقة التي تجمعها بالمرأة، والتي تقدم نفسها على النحو الآتي:

لا، لستُ شمساً ولا قمراً

أنا امرأة، لا أقلّ ولا أكثر

(...)

فُيعجّبني أن أُحبّ كما أنا

(...)

لكنني لستُ أرضاً².

هنا، يتضح جليا أن المرأة قد تخلصت من الترميز، الذي طالما أرهقها؛ فأضحت امرأة تعيش واقعها، وكان من البديهي "أن يكتب قصيدة حب خاصة لامرأة من بنات آدم وحواء، وأن تكون حبيبته هذه من لحم ودم وليست مجازا عن فلسطين أو الأرض أو القضية"³.

¹ - سفيان الماجدي، اللغة في شعرية محمود درويش، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط.1، 2017، ص 57.

² - محمود درويش، سريير الغريبة، دار الناشر، فلسطين، ط.1، 2014، ص ص 60-61.

³ - صبيح حديدي، ماذا يفعل العاشق من دون منفى؟. ضمن: محمود درويش المختلف الحقيقي (جماعة من المؤلفين)، دار الشرق، عمان، 1999، ص 47.

يعود محمود درويش ليحرر المرأة من الترميز والنمذجة، ويُعيد تشكيلها في إطار العلاقة الإنسانية. يقول:

لك أنت التي تقرئين

الجريدة في الهو..

أنت المصابة بالإنفلونزا

أقول: خُذي كأس بابونج ساخن، وخُذي حبي "أسبرين"

لمهدأ فيك حليبُ إنا،

ونعرف ما الزمنُ الآن

في مُلتقى الرافدين¹.

2- السمات الجسدية والجمالية للمرأة:

تمد المرأة ظلالها وتنشرها على مجموع قصائد ديوان "سرير الغريبة"، وذلك من خلال سماتها الجسدية والجمالية، ويتضح حضورها عندما يخاطبها قائلًا:

فابتسعي يُزهر اللوزُ أكثرَ

بين فراشات غمازَتَيْنِ².

ويضيف:

لولاك لولا الرذاذُ الذي يتلألأ في نمش

الضوء ما بين نهديك، لانحرفت لُغتي

¹ - محمود درويش، سرير الغريبة، ص ص 54-55.

² - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 10.

عن أنوثتها¹.

وعلى الرغم من وجود نبرة فقدان في هذه الأسطر الشعرية، فإنها تحيل على حبيبة مرغوبٍ فيها من قبل الشاعر. يقول، وهو يخاطبها:

دُبُوسُ شعرك يكسر

سيفي وتُرسي

وزرٌ قميصك يحمل في ضوئه

لفظة السرِّ للطير².

فهنا يفصح الشاعر عن رغبته تجاه حبيبته؛ من خلال الغمازتين، ودبوس الشعر، وزر القميص.. التي تعد تفاصيل منها.

ويعلن الشاعر، أيضا، بلفظ صريح، عن حبه لحبيبته عندما يقول:

فأضئُ عثمتي ودمي بنبيذك

واسكن، معي، جسدي³.

ويضيف قائلا:

أضْمُك، بيضاء سمراء، حتى التلاشي

أبعثرُ ليلك، ثم أملكُ كُلَّك...

لا شيء فيك يزيدُ وينقصُ عن

جسدي⁴.

¹- محمود درويش، سرير الغريبة، ص 41.

²- نفسه، ص 45.

³- نفسه، ص 83.

⁴- نفسه، ص 104.

فهذه المقاطع مفعمة بالحركة؛ حيث يذكر فيها الشاعر جسد الحبيبة مقتونا بحركة الرغبة؛ تلك الرغبة العميقة، التي تهئ مجالها، وتستلذ بالنبيذ والعناق حتى التلاشي.

ويزيد اعترافا بعاطفة الحب نحو حبيبته؛ فيقول:

ها هنا، تحت عَيْنَيْنِ لَوْزِيَّتَيْنِ

نطيرُ معاً تَوَأمَيْنِ

وَنُرجى ماضينا المشترك¹.

فهنا، استعمل الشاعر تركيب "عينين لوزيتين"، باعتباره وحدة وصفية، جعل فيها الشاعر العينين؛ عينين المرأة، وسيلة للإفصاح عن علاقته بالزمن المفتقد. إن الوصف هنا علل عاطفة الحب، وجعلها وسيلة لاسترجاع الماضي. ومثل هذا التركيب يحضر بكثافة في ديوان "سرير الغريبة". يقول محمود درويش:

أنت الرشيقَة في المَهْوِ

ذاتِ اليدينِ الحَرِيرِيَّتَيْنِ

وخاصرة المَهْوِ².

إذ يفصح الوصف هنا، أيضا، عن عاطفة حبٍّ، تتجاوز مجرد الانفعال إلى الرغبة نحو حبيبة الشاعر. وفي موضع آخر، يظهر الشاعر محترقا بعذاب الحب لحبيبته. يقول:

¹ - نفسه، ص 140.

² - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 53.

فاحترق، لا لتعرف نفسك، لكن

لِتُسْعِلَ لَيْلَ بُيْتِنَةٍ...¹.

ويدور الحديث بين الشاعر وحبيبته في شكل استجواب، يشكل الاستفهام أساساً له. يقول:

ماذا سنفعلُ بالحُبِّ؟ قُلْتُ

ونحن ندسُّ ملابسنا في الحقائق:

نأخذُه مَعَنَا، أَمْ نُعَلِّقُه في الخزانة؟

قُلْتُ: لِيَذْهَبَ إلى حيثُ شاءَ

فقد شَبَّ عن طَوْقنا، وانتشر².

وفي موضعٍ آخر، يظهر الشاعر، وهو يعيش قسوة الانتظار، متشبثاً بأمل ضعيف، يسافر على جناح الحنين إلى حبيبته؛ فيضمها على عجل، ويعيش اللقاء المنتظر:

أَضْمُكُ حتى أعود إلى عذمي

زائراً زائلاً. لا حياة ولا

موت في ما أُحِسُّ به

طائراً عابراً ما وراء الطبيعة

حين أضمُّكُ...³.

¹ - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 118.

² - نفسه، ص 101.

³ - نفسه، ص 100.

وعلى الرغم من الشوق وعذاب البعاد، يحث الشاعر الذات المترقبة على التريث وعدم الاستعجال؛ لأن الحب قيد، والعذاب جماله. ثم يدعو الشاعر تلك الذات لتُهيّجوا هادئا ورومانسيا لائقا؛ فيتعرض إلى أدق تفاصيل اللقاء، مؤكدا ضرورة التعامل المنتظرة برفق ولين؛ مما يخلق جوا شاعريا، تتجه فيه إحياءات الكلمة إلى رقة وهدوء، يتحول معهما الحديث إلى همس شاعري ناعم، يشبه لحن الناي وعزف الكمان.. إنها الموسيقى التي تغذي الروح، وترتفع بالذات عن عالم المحسوسات والواقع إلى السماء والأعالي؛ حيث لا قيود ولا أرق. يقول:

تحدّث إليها كما يتحدّث نائي

إلى وترٍ خائفٍ في الكمان

كأنكما شاهدانِ على ما يعدُّ غدُّ لكما

وانتظرها¹.

إذ تغرق الذات، رفقة الحبيبة المنتظرة، في وحدة التأمل. ويبقى الانتظار مؤجّجا لنار الشوق إلى الغد المأمول. يقول:

ولمغ لها ليلها خاتماً خاتماً

وانتظرها

إلى أن يقول لكَّ اللّيلُ:

لم يبقَ غيركما في الوجودِ

فخذها، برِّقِ، إلى موتك المشتى

وانتظرها!...².

¹- محمود درويش، سرير الغريبة، ص 125.

²- نفسه، ص 126.

وهكذا، يتحول الليل إلى فضاء سكون وهدوء داخل الذات؛ فيخلو العالم إلا من وجود المحبّين، ومن شوق شغوف إلى الانتقال بالموت إلى حيث لا ينتهي الانتظار، ولا عذابات الحب الجميلة بين شاعر عاشق وامرأة، تعلّم من حبها محمود درويش فن الحب في أصدق معانيه.

3- التناصّ مع كتب الحب:

في ديوان "سرير الغريبة" يتخذ محمود درويش من كتاب الكاماسوطرا عنوانا لقصيدة له، ومنطلقا يتعلم منه دروسا في الحب، و"هو يمثل فن الحب الهندي، وقد كتبت مقطوعاته في القرن الخامس بعد الميلاد"¹، ليختصره متن القصيدة في معاني الانتظار، وألم الحب وعذاباته، والشوق الأبدي الذي لا ينتهي، ولا تنطفئ ناره. يقول في قصيدته تلك:

بكأس الشراب المرصّع باللازورد

انتظرها..

على بركة الماء حول المساء وزهر الكُؤونيا

انتظرها..

بصبر الحصان المعَدِّ لمنحدرات الجبال

انتظرها..

بذوق الأمير الرفيع البديع

انتظرها.²

¹ - عبده وازن، محمود درويش الغريب يقع على نفسه، رياض الريس، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 2006، ص 43.

² - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 123.

بحيث يتسرب الانتظار إلى متن القصيدة في سكون، يترافق والارتواء من خمرة الوقت، المرصّع كأُسُها بالأحجار الكريمة؛ مما يفسر قيمة الوقت عند المنتظر، الذي يحاول أن يظهر قويا شغوفاً، يترقب حبيبته.

ويستحضر محمود درويش، أيضاً، كتاب "طوق الحمامة في الألفة والألاف" لابن حزم الأندلسي، وهو "رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه وما يقع فيه وله... وكأنه يهدف إلى تسمية المصادر، التي لا بُد منها لقراءة معجزات الحب الإنساني"¹. ويتجلى الحب، بأبهى صوره، في ديوان "سرير الغريبة"، من خلال عَنُونَة محمود درويش قصيدة من قصائد الديوان بـ"طوق الحمامة الدمشقي"، ليشكل بؤرة إشعاعات إيحائية لا حدود لها؛ فـ"الحمامة، وهي مُطَوَّقة بقيّد، مماثلة لقلب العاشق الولهان، الذي يسقط صريعاً أمام سلطة الحبيب"². ثم إنه لم يستحضر العنوان فقط، بل استحضر مبدأ تقسيم الكتاب إلى أبواب؛ فابن حزم قسم كتابه اثنين وثلاثين قسماً عن الحب وعوارضه، وأطلق اسماً خاصاً على كل باب. أما محمود درويش، فقد قسم قصيدته إلى اثنتين وعشرين مقطوعة، مستخدماً في ذلك الحروف الهجائية؛ بحيث بدأ بالألف، وأنهى بالكاف. يقول درويش:

أ.

فِي دِمَشْقَ،

تَطِيرُ الْحَمَامَاتُ

خَلْفَ سِيَاحِ الْحَرِيرِ

اِثْنَتَيْنِ..

¹ - عبده وازن، محمود درويش الغريب يقع على نفسه، ص 43.

² - نعمان بوقرة، قراءة سيميائية في رسالة "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي، الملتقى الدولي الأول (السيمياء والنص الأدبي)، الذي نظّمه قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة/ الجزائر، في نونبر 2000، ص 33.

اَثْنَتَيْنِ...¹.

إن هذه القصيدة هي بمثابة رسالة في الحب، يبدو فيها الشاعرُ وهو في حالة الوجد، مسكون بدمشق التي جعل منها مدينة الحب الأبدي، إضافة إلى صورة طيران الحمام، التي تحمل دلالة السلام في تعالقه وربطه بين قلوب المحبين مثنى مثنى؛ فالحمام لا يطير منفرداً، والحب يستحيل إذا اختل شرط التشارك فيه.

ويواصل الشاعر وصف دمشق؛ فيقول:

في دمشق:

ينامُ غزالٌ

إلى جانب امرأةٍ

في سرير الندى

فتخلَعُ فُستاتَهَا

وَتُغَطِّي بِهِ بَرْدَى².

فالغزال، هنا، رمزٌ إلى الحب المتناهي غير المشروط. ويستمر محمود درويش في هيامه المحموم بدمشق؛ حيث يحلو السمر حين تداعب مخيلته أحلام وردية في حضان زهر اللوز:

في دمشق:

أُسَامِرُ حُلِيِّ الخفيفَ

على زهرة اللوزِ يضحكُ³.

¹ - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 127.

² - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 136.

³ - نفسه، ص 139.

4- التناسع مع أبطال الحب:

لقد وجد محمود درويش في قصة "قيس وليلى" جواً من الألفة؛ ليجسد
الحب بطولية واستماتة في سبيل المحبوبة، يتجاوز الزمان والمكان. لذا، ألقيناه
يستحضر بيتا شعريا لقيس بن الملوّح، هو¹:

صغيرين نرعى الهم يا ليت أنّنا
إلى اليوم لم نكبر ولم تكبر الهم
حيث يقول:

عمّا قليل نعود إلى غدينا، خَلَفْنَا،
حيثُ كُنَّا هناك صغيرين في أوّل الحب،
نلعب قصة روميو وجوليت
كي نتعلّم مُعْجَمَ شكسبير².

ويضيف:

فَكُنْ أَنْتَ قَيْسَ الحنين،
إذا شئتَ. أمّا أنا
فَيُعْجِبُنِي أَنْ أُحَبَّ كما أنا
لا صُورَةً
مُلَوَّنة في الجريدة، أو فكرةً
مُلَحَّنة في القصيدة بين الأيائل...

¹ - قيس بن الملوّح، ديوانه، رواية أبي بكر الوالبي، تحقيق يسرى عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1،

1999م، ص28.

² - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 12.

أسمع صرخة ليلى البعيدة
من غرفة النوم: لا تركيني
سجينة قافية في ليالي القبائل
لا تركيني لهم خبرا...¹

فهُنا إشارة إلى حكاية قيس، الذي مُنع عن ليلى، فأصيب بالجنون. أما امرأة محمود درويش، فتستنجد به، وتلتمس منه ألا يتركها، ولا تبقى سجينة الشعر مثل ليلى.

كما وجد درويش في قصة "قيس وليلى" كذلك الحب العذري، الذي يسمو فوق كل مدنس، رغم أن حب قيس لليلى كان متّشحا بالعذاب، كما قصة روميو وجوليت؛ حيث انتهت قصة حبهما بالموت.

ويستحضر الشاعر حكاية الحب العذري بين جميل بن معمر وبثينة، في محاولة منه لرصد حالة حب خالدة، يعيشها رفقة محبوبته. يقول:

كَبُرْنَا، أنا وجميلُ بُثَيْنَةَ، كلُّ
على حِدَةٍ، في زمانين مختلفَيْنِ..
هُوَ الْوَقْتُ يفعل ما تفعل الشمسُ
والريحُ يَصُقُّلُنَا ثم يقتلُنَا حينما
يحمل العقلُ عاطفةَ القلبِ،
أو يبلُغُ الْعَقْلُ حُكْمَتَهُ².

¹ - نفسه، ص ص 60-61.

² - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 114.

وعلى إثر ذلك، يسأله عن معنى الحب:

هل تشرحُ الحبَّ لي، يا جميلُ،

لأخفظه فكرةً فكرةً؟¹.

إنه حب وجودي "في مستوى الكون، لا في مستوى الزواج. وتبدو فيه بثينة صورة أو رمزا للأنثى الكونية الخالقة"²؛ بحيث تحولت الأنثى إلى أيقونة وجودية بلغة شعرية، تكشف عن أنها أصل الوجود. و"إذا كانت بثينة، بالنسبة إلى جميل، هي الأنثى الكونية، أو هي الوجود كله، فإن حبها يصبح قوة خفية تحوّل العالم، أو يصبح - كما يعبر هو - سحرا.

هي السحر، إلا أن السحر رقية وإني لا أُلقي لها الدهر راقيا وفي السحر ينقلب نظام العالم ونظام العقل معا، ويصبح المُحال ممكنا، وغير المعقول معقولا"³. وقد استحضّر محمود درويش نصوص جميل بن معمر، التي كانت تقبع في بيئة أموية، ليجعلها تغبّر الأزمنة، وتتدفق فيها دماء الحياة من جديد؛ فيتجدد معها معنى الحب، متحدّيا طقوس البيئة القديمة، ليرسم آفاقا لانهائية، ويكتسب دلالات مفتوحة على كل التأويلات، يستفيد منها محمود درويش، الذي يستغلها بدوره في كتابته الجديدة. فالشاعر هنا يُسقط تجربته على تجربة شخصية تراثية، وجد فيها من نفسه الكثير؛ فرغم التباعد الزمني بين جميل ومحمود درويش، إلا أنهما عاشا نفس الحال. ويدعم هذا الالتحام بالآخر قوله:

¹ - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 117.

² - أدونيس، الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، الجزء الأول: الأصول، دار الساق، ط. 10، 2011، ص 284.

³ - أدونيس، الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، الجزء الأول: الأصول، دار الساق، ط. 10، 2011، ص 278.

وجدت قناعاً؛ فأعجبني أن
أكون أنا آخري. كنت دون
الثلاثين، أحسب أن حدود
الوجود هي الكلمات. وكنت
مريضاً بليلي كأني فتى شعّ
في دمه الملح¹.

إن الشاعر يبعث العشاق الموتى من رمادهم، وينطلق من حالة الحب العظيم
بين العشاق في الزمن الغابر، ومن الفراق الذي كان يفصل بين الحبيبين بمرارته،
ليُسقط التجربة نفسها عليه، وعلى حبيبته. يقول:

هو الحب، يا صاحبي، موتنا المنتقى
عابر يتزوج من عابر مطلقاً...
لا نهاية لي، لا بداية لي.
لا بثينة لي أو أنا لبثينة..
هذا هو الحب، يا صاحبي².

ففي الحب حياة وموت؛ حياة في وصل الحبيب، وموت في عذاب الفراق، ولكنّ
الحب يبقى قدراً على الجميع؛ فهذا هو الشاعر يسائل جَميلاً:

¹ - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 119.

² - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 116.

هل خلقت لها، يا جميل،

وتبقى لها؟¹؛

فيُجيبه قائلاً:

أمرت وعلمت. لا شأن لي²

(...)

فما أنا إلا كما خلقتني بثينة³.

إنه حوار محمود درويش مع جميل بثينة، محاولةً لنسف دالّ الزمن والرواية التاريخية، وفق رؤية محمود درويش، لتصبح بثينة جميل هي حبيبة محمود درويش:

هل هممت بها، يا جميل على عكس

ما قال عنك الرواة، وهمّت بك؟

تزوجتها. وهزنا السماء؛ فسالت

حليتنا على خبرنا، كلما جئتها فتحت

جسدي زهرة زهرة...⁴.

إنها متاهة الحب، التي وضعت محمود درويش مع المحبين عبر الزمن في حيرة؛

ولذلك يؤكد جميل:

أعرف الناس بالحب أكثرهم حيرة،

فاحترق، لا لتعرف نفسك، لكن

¹ - محمود درويش، سرير الغربية، ص 117.

² - نفسه.

³ - نفسه.

⁴ - نفسه، ص 116.

لتشعل ليل بئينة...¹

إن الحب لا يخضع لمنطق، ولا يحتاج إلى شرح، ولكن أساسه التضحية؛ فرغم كون الحب نارا تكوي المحب، إلا أن العذاب يبقى سر تأجج هذا الحب، ويبعث على التمسك بالحبيب أكثر. ولذلك، يعلن الشاعر الموت من أجل الحب، ويصرح على لسان قيس:

(...) أنا من أولئك،

ممن يموتون حين يحبون.²

ويمضي الشاعر مُستفسراً من أبطال الحب إن كان العناء في الحب، والبعد عن المحبوبة، قد أنسيهما الحبيبة، ليعرف إن كان المنفى سيُنسيه حبيبته، ويألف غيرها، لكنه يستشفّ الجواب الأخير من المحبين؛ إذ يقول:

أعلى من الليل، طار جميل

وكسر عكازيته. ومال على أذني

هامسا: إن رأيت بئينة في امرأة

غيرها، فاجعل الموت، يا صاحبي،

صاحباً.³

(...)

إن لم تكن هي

موجودة جسداً، فلها صورة الروح

¹ - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 118.

² - نفسه، ص 122.

³ - نفسه، ص 118.

في كل شيء¹.

فالحبيبة لا مثيلَ لها في عيني حبيبها، وحبيبة الشاعر امرأة مختلفة، سواء أكانت قريبة أم بعيدة عنه؛ فهي موجودة في زاوية ما من زوايا القلب إلى الأبد.

5- استحضار شاعري الحب "يانيس ريتسوس" و"بول إيلوار":

يقول محمود درويش:

أرى في عروق الرّخام حليبَ الكلام
الإباحي، يجري ويصُرخ بالشُّعراء:
اكتبوني؛ كما قال ريتسوس. أين
اختفيت، وأخفيت منفاي عن رغبتني؟
لا أرى صورتني في المرايا، ولا صورة
امرأة من نساء أثينا تُديرُ تدابيرها
العاطفية مثلي هنا².

بحيث لا يستدعي درويش، في هذه الأسطر الشعرية، ريتسوس الشاعر اليوناني.. الشاعر الإيروتيكي ليحاوره، بل ليدعم به موقفا أو أمرا، يتقاسمه وإياه.. إنه المنفى بوصفه تجربة إنسانية مريرة، تتلاشى فيها الملامح، وتضطرب فيها المشاعر الإنسانية، ويفقد المنفي فيها طعم الحياة. ويضيف محمود درويش:

اعتني ببديك لكي تحملاك يداك
هما سيداك؛ كما قال إيلوار.. فاذهب

¹ - محمود درويش، سرير الغريبة، ص 119.

² - نفسه، ص 68.

أريدك أو لا أريدك¹.

ولم يكن استدعاء محمود درويش الشاعر الفرنسي بول إيلوار؛ شاعر الحب، عبثاً، بل تم ذلك لخصائص تجمعهما معاً؛ كالانتماء السياسي إلى الحزب الشيوعي، والنظرة الحداثية المتمردة على نمطية القصيدة التقليدية؛ فاليد رمزٌ للعمل والإنتاج والإبداع، وفي الموروث الثقافي تأتي بدلالات الكرم وغيرها من المعاني المرتبطة بالمخيال الشعبي للمجتمعات الإنسانية؛ فالعناية باليد، في دلالاتها الرمزية، تعني العناية بالوسيلة التي بها تتحقق الأفعال، وتُنجز الأفكار.

6- السونيت تجديدٌ موسيقي للتغني بالحب:

استحضر محمود درويش السونيت، وهو شكل فني لقصيدة شعرية تكون صغيرة، لها نظام خاص، تُكتب أو تُنظم وفقه، عُرف عند الشعراء الأوربيين في فترة من فترات عصر النهضة، والموضوع الرئيس لها هو الحب. وقد كتب شكسبير سونيتات أيضاً، بوصفها تجربة حقيقية، كان فيها مكابداً لآلم عشق غريب، جعله ينظم هذه القصائد، ويشحنها بالرموز والإيحاءات، لعل المتلقي يدرك المزيد من غوامض المتعة في أبياته المذهلة. وهذا يتطابق مع سونيتات محمود درويش؛ إذ إنه لم يكتبها إلا بعد وصوله مرحلة الاكتمال والنضج الفني في تجربته الشعرية، وارتداده إلى حالة الحب².

يضم ديوان "سرير الغريبة" ست سونيتات، سُمي محمود درويش كل قصيدة منها بـ "سوناتا"، مضيفاً إليها أرقاما رومانية. يقول في إحداها:

"سوناتا [V]:

أمسك مسَّ الكمان الوحيد ضواحي المكان البعيد

¹ - محمود درويش، الأعمال الشعرية الكاملة، ديوان "سرير الغريبة"، المجلد الثاني، ص 79.

² - وليم شكسبير، السونيتات، ترجمة وتقديم: جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط 1، 1983، ص 10.

على مهلٍ يطلبُ النهرُ حصّته من رذاذ المطر.
ويدنو، رويداً رويداً، غدّ عابرٌ في القصيد
فأحمل أرضَ البعيد، وتحملني في طريق السفر.
على فرسٍ من خصالك، تنسجُ روجي
سماءَ طبيعِيّة من ظلالك شرنقةً شرنقه.
أنا ابن فعالك في الأرض، وابنُ جروحي
وقد أشعلت وحدها جُلنارَ بساتينك المغلّقه.
من الياسمين يسيل دمُ الليل أبيض. عطركِ
ضعفي، وسرُّك يتبعني مثل لدغة أفعى. وشَعْرُكِ
خيمةٌ ريحٍ خريفية اللون. أمشي أنا والكلامُ
إلى آخر الكلمات التي قالها بدويٌّ لزوجي حمام
أجسُّكِ جسَّ الكمان حريزَ الزمان البعيد،
وينبت حولي وحولك عُشبُ مكانٍ قديم-جديد¹.

لقد جاءت القصيدة بدون عنوان، ولكنها تحمل رقما واسما للشكل الفني الذي تنتمي إليه. وكذلك سونيتات شكسبير؛ لا تحمل عناوين، وإنما تحمل أرقاما، وهي - في موضوعها - تتحدث عن طبيعة العلاقة بين الشاعر والمرأة والقصيدة. وتتكون هذه السونيتة السابقة من ثلاثة مقاطع رباعية، وتنتهي بدوبيت، وظف فيها محمود درويش نظاما إيقاعيا متشابكا:

¹ - محمود درويش، سرير الغريبة، ص ص 71-72.

الرباعية الأولى: د-ر-د-ر

الرباعية الثانية: ح-ق-ح-ق

الرباعية الثالثة: ك-ك-م-م

المثنوي: د-د.

إن المخطط الإيقاعي للقصيدة - حسب نظام التقفية - جاء على هذا النحو:

المقطع الأول: أ-ب-أ-ب

المقطع الثاني: ج-د-ج-د

المقطع الثالث: ه-و-ه-و

الأخير: أ-أ.

ولم تكن السونيتات الست، في مجملها، منضبطة لذلك النسق الإيقاعي؛ حيث تحتفظ بعدد الأسطر والمقاطع كما في السونيتة الغربية، بل إنما تلتزم بنظام تقفية محدد.

إن سونيتات محمود درويش، التي كتبها وأوردها في "سرير الغربية"، على الشكل الغربي، تبين بعض ملامح شعره في مراحلها الأخيرة، التي تعكس حرصه الدائم على التجديد، وقد تفوق في تجريب هذا الشكل الشعري أكثر من سابقه.

خاتمة:

من البديهي أن يحب محمود درويش امرأة من لحم ودم، وأن يكتب لها شعر الحب. وإنَّ اختياره للحب لم يكن عشوائياً؛ فالحب هو حلٌّ لكل المعارك التي عاشها. وقد استطاع محمود درويش، في "سرير الغريبة"، أن يصور المرأة الحلم، التي آمن بها، ورأى فيها الحب النقي، الذي جعله يبني في قصيدته عوالم متجددة، بعيداً عن كل انتماء عرقي أو ديني، مُعلننا انطلاق سَفَره الوجودي؛ تَوْقاً إلى ولادة جديدة، وبحُثا عن لحظات بَوْحٍ يعلن فيها عن حَبّه الكوني. واستطاع، أيضاً، أن يجسّد حقيقة الشاعر المَحِبِّ للحرية، والمؤمن بقيمة الحب. إذاً، فـ"سرير الغريبة" يعبق بشذى الحب، ليتحول خطاب القصيدة إلى فضاء عائم في الحب وعذاباته.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- أدونيس، الثابت والمتحول: بحث في الإبداع والإتياع عند العرب، الجزء الأول: الأصول، دار الساقى، ط. 10، 2011م.
- وليم شكسبير، السونيتات، ترجمة وتقديم جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1983.
- عبده وزن، محمود درويش الغريب يقع على نفسه، رياض الريس، بيروت، ط1، 2006.
- عشراي سليمان، الأمير عبد القادر المفكر، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، ط1، 2002م.
- سفيان الماجدي، اللغة في شعرية محمود درويش، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 2017م.
- صفاء عبد الفتاح محمد المهداوي، أنا في شعر محمود درويش: دراسة سوسيو ثقافية في دواوينه (1995-2008)، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2013.
- قيس بن الملو، ديوانه، رواية أبي بكر الوالبي، تحقيق يسرى عبد الغني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999م.
- محمود درويش، سرير الغريبة، دار الناشر، فلسطين، ط1، 2014م.
- نعمان بوقرة، قراءة سيميائية في رسالة "طوق الحمامة" لابن حزم الأندلسي، الملتقى الدولي الأول (السيمياء والنص الأدبي)، الذي نظمته قسم الآداب واللغة العربية، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر، بسكرة/ الجزائر، نونبر 2000م.

نظرة استشرافية للنهوض بالثقافة الشعبية من خلال الصناعة الإعلامية

محمد الحبنوني

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة طنجة
تطوان الحسيمة - المغرب



زكرياء الأنصاري

الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين لجهة الشرق
وجدة، المغرب

ملخص:

يروم هذا المقال إلى تبين العلاقة الجوهرية بين الصناعة الإعلامية والثقافة الشعبية وتأثير وتأثر كل منهما بالآخر، خصوصا في عصرنا الحالي الذي ظهرت فيه أهمية كل من الإعلام والثقافة الشعبية في تشكيل الوعي الجماعي للأفراد والمجتمعات، وقد تطرقنا في هذا العمل إلى تعريف الإعلام بنوعيه التقليدي والجديد وكذا إلى ماهية الثقافة الشعبية وأهميتها الأساسية في تشكيل الهوية للمجتمعات، كما درسنا العلاقة الجدلية بين هاذين العنصرين، وقدمنا في الأخير نظرة استشرافية لكيفية مساهمة الإعلام في إبراز مواطن القوة في الثقافة الشعبية التي لم تعد أداة لاستحضار الماضي، وإنما أصبحت آلية من آليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأصبحت المراهنة عليها إحدى الوسائل المعتمد عليها من طرف المؤسسات والمنظمات، وذلك لما تتميز به من توافقات عند جميع أفراد المجتمع الواحد وهو عامل أساسي يمكن الاطلاق منه بمقاربة تشاركية وأفقية للبحث عن عوامل النجاح الاقتصادي والتنمية المستدامة.

كلمات مفتاحية: الصناعة الإعلامية، الثقافة الشعبية، الإعلام التقليدي، الإعلام الجديد، التنمية.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

الأنصاري، زكرياء، الحبنوني، محمد (2024، غشت). نظرة استشرافية للنهوض بالثقافة الشعبية من خلال الصناعة الإعلامية. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 233-249.

Abstract:

This essay delves into the intricate relationship between the media industry and popular culture, exploring their reciprocal influence and impact on each other, particularly in today's era where both media and popular culture play a pivotal role in shaping the collective consciousness of individuals and societies. The work begins by defining media in its traditional and modern forms, followed by an examination of popular culture and its fundamental role in shaping societal identity. The dynamic relationship between these two elements is then analyzed, leading to a forward-looking perspective on how the media can contribute to highlighting the strengths of popular culture, which has transcended its role as a mere reminder of the past. Popular culture has emerged as a driving force for economic, social, and cultural development, becoming a strategic tool employed by institutions and organizations. This transformation stems from the inherent unifying nature of popular culture, resonating with all members of a society. This common ground serves as a cornerstone for adopting a participatory and horizontal approach in the pursuit of economic success and sustainable development.

Keywords : Media industry, popular culture, traditional media, new media, development.

مقدمة

ظهر الإعلام منذ ميلاد البشرية بطرق تقليدية كانت عبارة عن إشارة مثل: استعمال النار، الدخان... ثم تطورت شيئا فشيئا من أداة لنقل الأخبار إلى أداة تؤثر على حياة الشعوب والجماهير، كما شهدت تطور سريع في أنواعه وأدواته عند مقارنتها مع بعض المجالات الأخرى، حيث إن التطور التكنولوجي الذي حدث يعتبر أحد الأسباب التي ساعدت في تطور الوسائل المختلفة للإعلام سواء كانت مسموعة أو مرئية، وفي الآونة الأخيرة بدأ يحتل الإعلام الجديد مكانة كبيرة حتى أصبح ضمن أهم أنواع الإعلام.

لقد ساهم الإعلام في معالجة جميع القضايا الراهنة ومنها الثقافية المتعلقة بالثقافة الشعبية، وكيفية الحفاظ عليها بتسخير أدوات وطرق تساعد في ذلك، لأنه يعتبر ارث ثقافي وبناء للحياة الحديثة، كما يعتبر مورد اقتصادي تاريخي هام. وبالتالي، فإن توظيف الإعلام في تقديم الثقافة الشعبية له دور فعال وإيجابي وسيأخذ بنجاحه المجتمعات إلى الحفاظ على الثقافة الشعبية وقيمتها من جيل إلى جيل، وهذا يحتاج إلى تخطيط ورسم سبل تحقيق ما يتطلع إليه.

وقد لعب الإعلام دورا بارزا في تنمية الوعي بضرورة العناية والاهتمام بالثقافة الشعبية، وهو ما يتجلى في العديد من المنشورات والتقارير. وتكمن أهمية هذا الموضوع في الطرق والسبل التي اتخذها الإعلام في إبراز معالم الثقافة الشعبية والتعريف بها وتعزيز ثقافة المحافظة عليها ولما لا جعلها تساهم في تنمية البلد.

الإشكالية:

يعتبر الإعلام وسيلة لنشر العلم وتعميم المعرفة، وتثبيت القيم والسلوكيات والعادات والممارسات، وتحقيق الرفاهية على مستوى التواصل الثقافي والحضاري والاجتماعي والإنساني بين الأفراد والشعوب، ويحمل في طياته قيم ومبادئ وأخلاق وثقافات تتماشى مع التطور الحضاري للمجتمع. وإن لهذا التطور الإعلامي دورا كبيرا

في التعريف بالثقافة الشعبية وأماكنها ومساعدة الباحثين والمهتمين بتسهيل مهمة الوصول إليها، وما يقدمه من خدمات لتطويرها والحفاظ عليها.

من خلال ما سبق سنحاول معالجة الإشكالية التالية: كيف يمكن للصناعة الإعلامية المساهمة في النهوض بالثقافة الشعبية؟

وعلى ضوء الإشكالية المطروحة نطرح بعض التساؤلات:

- هل يقوم الإعلام بمعالجة قضايا الثقافة الشعبية؟
- هل يؤدي الإعلام دورا في الحفاظ على الثقافة الشعبية؟
- ما الذي يجب القيام به لخلق صناعة إعلامية تجعل من الثقافة الشعبية عنصرا أساسيا يساهم في تنمية البلد؟

أهمية الموضوع:

تبدو أهمية الموضوع من خلال ما أصبح لوسائل الإعلام التقليدية والجديدة دورها في التنمية الاجتماعية والاقتصادية وبخاصة الثقافية، وبعد أن أصبح حق الثقافة حقاً أساسياً للإنسان كحق التعليم. فالتنمية الثقافية مهمة لعدة أسباب منها:

- بث الوعي بين المواطنين على مختلف مستوياتهم وتنوير عقولهم.
- استغلال أوقات الفراغ لدى المواطنين لصياغة ثقافة ترقى بأفكارهم .
- رفع المستوى الثقافي لدى المواطن لجعله قادراً على المساهمة في التنمية الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، والثقافية .
- الثورة الإلكترونية التي يشهدها العصر بكل ما تحتويه من تقنيات تفرض العناية بفكر ووجدان المواطن من أجل الوصول إلى التوازن في المجتمع.

المحور الأول: الاعلام وعلاقته بالثقافة:

أولا. تعريف الثقافة والثقافة الشعبية والإعلام:

1- تعريف الثقافة:

تُعرف الثقافة على أنها تلك الخصائص والصفات المشتركة لمجموعة من الناس، وتشمل اللغة، والدين، والطعام، والعادات والتقاليد الاجتماعية، والموسيقى، والفنون، وأنماط الزواج، وطرق الجلوس على المائدة، وكيفية أداء التحية للغير، وغيرها من السلوكيات، والتفاعلات المشتركة التي يتم تعلّمها في التنشئة الاجتماعية، وهي انعكاس للقيم، والمعتقدات، والعادات، وتتمظهر في التاريخ والتراث، وطرق التعبير عن الأفكار، بالإضافة إلى أنّها تقيس جودة الحياة، وصحة المجتمع.

والثقافة بوصفها منتوجا إنسانيا، واجتماعيا وتاريخيا، يأتي كحصار لتفاعلات اجتماعية متعددة مختلفة داخل البيئة الاجتماعية لهذا المجتمع أو ذاك، وبين هذه البيئة وبيئتها الطبيعية والبناءات الاجتماعية الأخرى والعوامل المحيطة بالبشر وبمجتمعهم.

2- تعريف الثقافة الشعبية:

توصف على أنها مستوى نوعي لمفهوم الثقافة، له خصائصه التي تميزه عن غيره من المستويات كالثقافة الرسمية التي تصدر عن أجهزة الدولة، وثقافة الصفوة أو الخاصة التي تعبر عن خصائص هذه الفئة الاجتماعية، وهو منتج مكثف ومتنوع في صيغته وأشكاله وأدواته، أنتج عبر مراحل وتراكمات تاريخية، للتعبير عن كنه القوى والجماعات الاجتماعية، لها خصائص مشتركة مع غيرها من القوى والجماعات التي عاشت المراحل التاريخية معها، وتفاعلت معها اجتماعيا بفعل الضرورة.

والثقافة الشعبية تشتمل على العناصر والمكونات التي تشتمل عليها الثقافة بصفة عامة، الروحية والاجتماعية والفنية والمادية، ولها الغايات نفسها، الساعية لإشباع الحاجات الأساسية والتعبير عن الأفراح والأتراح، وتنظيم العلاقات والتفاعلات وتسجيل الخبرة والممارسة التاريخيتين لمن تعبر عنهم، كما تصور واقعهم للحفاظ عليه وإعادة إنتاجه، أو بالحلم المستقبلي بشأنه. ويمكن تصنيف هذه المكونات إلى مجموعتين:

- الأولى مسجلة منظورة، وهي غالبا ما تغطي ما يسمى بالعناصر المادية : كالمسكن والملبس والمشرب وأدوات العمل والفن وما شابه ذلك .

- الثانية متداولة شفاهية وتشتمل على عناصر لا مادية كالمعتقدات والمعارف والتقاليد والعادات والأدب والفن الشعبيين فضلا عن العناصر اللامادية الكامنة وراء ما هو مادي، أي الأفكار والقيم والمعارف التي قامت عليها العناصر المادية.

3- تعريف الإعلام:

يُعدّ الإعلام وسيلةً لنقل المعلومات المختلفة إلى أعداد كبيرة من الناس خلال فترة زمنية محددة، وفي آن واحد، وقد تكون هذه المعلومات أخباراً، أو إعلانات تجارية، أو خدمات عامّة، أو خاصّة، أو منتوجاً ثقافياً، أو غيره. ومن هذه الوسائل: التلفاز، والراديو، والصحف، والمجالات، والإعلانات الخارجية، والأفلام، والحفلات الموسيقية، المعارض ومواقع الإنترنت، وشبكات التواصل الاجتماعي، والبريد الإلكتروني، وتطبيقات الهاتف، فكلّ هذه الوسائل تُتيح نقل المعلومات إلى أيّ مكان وفي أيّ زمان.

ومع تعدد هذه الوسائل وسهولة الولوج إليها، "فأنها أصبحت تضطلع بدور بالغ الأهمية على مختلف المستويات؛ النظرية والتطبيقية وعلى نطاق واسع في إيصال معطيات الفكر والمعرفة إلى الناس، بلغة وأدوات أكثر نفاذاً وفاعلية في تشكيل فكر المجتمع ووجدانه، فقد ازداد الاهتمام العالمي بوسائل الإعلام والاتصال

صناعة وإنتاجا وتسويقا ومتابعة... لما له من أهمية كبرى في التوجيه والتأثير في حياة الأفراد سلبا أو ايجاباً¹. وتعاظم استخدام هذه الوسائل الإعلامية انتقل الفرد من الممنوع المطلق إلى المسموح المطلق والحر، وأصبحت هذه الوسائل في عصر تكنولوجيا المعلومات هي المغذي الأول للعقول، فهي تثقف متابعيها وتمدهم بكافة القيم والمعتقدات التي تبثها بغض النظر عن مطابقتها أو تعارضها لما يحمله مجتمعهم من الثقافة.

ثانيا: العلاقة بين الثقافة والإعلام:

1- علاقة تأثير وتأثر:

تؤثر كل من وسائل الإعلام والثقافة على بعضها البعض، حيث يُمكن لوسائل الإعلام أن تؤثر على المجتمع وثقافته السائدة، باعتبارها جزءاً من الحياة اليومية للأفراد، كما أنّ للثقافة تأثير كبير على وسائل الإعلام، حيث إنّ تطورها المتسارع والمتزايد، وظهور وسائل إعلام جديدة يُعدّ نتيجة الاحتياجات الثقافية المختلفة، ونتيجة تنوع الثقافات التي أسهمت في نشر الأفكار، فثقافة العلوم والتكنولوجيا تُعدّ عاملاً مهماً في تطوير وسائل الإعلام المستخدمة، وفي المقابل يمتلك التطور السريع لهذه الوسائل تأثيراً كبيراً على طرق التواصل وتبادل الثقافات بين البشر، ففي البداية، كان الإعلام يتم بطرق تقليدية عبر الأسواق والمساجد والمناسبات الاجتماعية والدينية وغيرها من بنيات المجتمع، ثم ظهرت الوسائل المكتوبة، كالجرائد والمجالات، وكان لها تأثير كبير على المجتمعات، قبل أن تتطور العلوم وتظهر وسائل الإعلام الحديثة، والرقمية والتي كان لها الأثر الأكبر على عملية التواصل الثقافي، حيث أدّى ظهور الهاتف والإنترنت إلى تسهيل إمكانية الوصول لأي نوع من المعلومات في أي مكان وزمان، وتوفير الوقت، والجهد، والتكلفة في الوصول إليها، كما

¹ - محمد خليل الرفاعي، دور الإعلام في العصر الرقمي في تشكيل قيم الأسرة العربية دراسة تحليلية، مجلة جامعة دمشق-المجلد 27 العدد الأول والثاني، 2011، ص: 689

أدى التطور السريع لوسائل الإعلام إلى تراجع الثقافات التقليدية، فتوفر الكتب والمعلومات بشكل إلكتروني، أدى إلى تقليل عدد الأشخاص الذي يستخدمون القواميس، والمجلات، ويرتادون المكتبات، ومن الناحية الاقتصادية لعبت وسائل الإعلام دوراً مهماً في تنمية الاقتصاد، وتسهيل الوصول إلى الجماهير المستهدفة، وتوفير مختلف الخدمات والحاجيات إلكترونياً. وفي المقابل تأثرت وسائل الإعلام بالنمط الثقافي المهيمن وتأقلمت مع هذا النمط من حيث دراسة الحاجة والذوق ودرجة جنوح المجتمع ومتطلباته.

من هنا ارتبط الإعلام بالثقافة ارتباطاً وثيقاً باعتبارهما أهم أوجه النشاط البشري وأعمقها تعبير على الصيرورة الاجتماعية، "حيث يكاد التأريخ للحضارة الإنسانية يقوم على المتغير الإعلامي - الحتمية الإعلامية لمارshall ماكلوهان - والتي تفسر التطور الحضاري تفسيراً اتصالياً يحدد حقب التغير الثقافي التي يساهم فيها بشكل مباشر العامل التكنولوجي الإعلامي - من الحضارة الشفوية، إلى حضارة التدوين، إلى حضارة الموجة الثالثة - وبتداخل مجالي الإعلام والثقافة تأسست العالقة بينهما على اعتبارات عدة منها ما هو ذاتي ومنها ما هو موضوعي في المجالين فرضت هذا النوع من الاعتماد والتفاعل المتبادلين"¹.

2- الإعلام أداة لتحقيق الهيمنة الثقافية:

لقد أصبحت وسائل الإعلام أدوات أساسية تلعب دورها في عملية التطبيع والتنشئة الاجتماعية، "إذ يتعرض الفرد منا إلى ساعات طويلة أمام هذه الوسائط التي تزودنا بمعلومات، آراء ومواقف تساعد إلى حد كبير على تكوين تصورنا للعالم الذي نعيش فيه"².

¹ - أديب خضور، الإعلام الثقافي المتخصص: طبيعة العالقة بين الإعلام والثقافة، محاضرة دون تاريخ، ص 6

² - جهمان أحمد رشدي، الأسس العلمية لنظريات الإعلام، دار الفكر العربي القاهرة، 1978، ط2، ص. 305

إن الثقافة المهيمنة داخل المجتمعات لا تكون مهيمنة إلا إذا توفرت لها عدة شروط، فبالإضافة الى شرعية الاعتراف أو الاعتراف الشرعي لممارسة هذه الثقافة، فإن وسائل الإعلام على مختلف أنواعها تلعب دورا أساسيا في خلق هذه الهيمنة حيث لا يمكن أن تتحقق إلا إذا نالت الاعتراف الجماعي والمجتمعي.

وتشكل الثقافة جملة من الإنتاجات التي ينتجها مجموعة من الأفراد في مكان وزمان معينين قصد تحقيق مجموعة من الأهداف والمنافع الاجتماعية والفردية، والإنتاج الثقافي يكون بمثابة الإرث الثقافي في فترات من التاريخ، ويكون فيها المنتج الثقافي جد نشيط، الشيء الذي أنعش هذا الإرث وأغناه، إذ هناك علاقة عضوية بين الإرث الثقافي والإبداع وتحتاج الإنتاجات الثقافية وهذا الإرث الثقافي إلى الاعتراف الاجتماعي والجماعي حيث يعد الإعلام وصناعة الإعلام أحد مرتكزات تحقق هذا الاعتراف.

إن الحديث عن المنتج الثقافي يستدعي تحديد الجهات المصدرة والمنتجة لهذا المنتج داخل المجتمعات، في علاقتها بالفئات المستهلكة، ففي الحقل الاقتصادي دائما ما نستحضر المنتج والمستهلك وأدوات الإنتاج وطرق الاستثمار وخطط التدبير بنزعة رأسمالية، والشيء نفسه بالنسبة للثقافة كمجال للإنتاج والاستهلاك والاستثمار والتدبير، ويعد المجتمع الثقافي وعاء محتضنا لجميع العمليات الثقافية، فهو يتوفر على مؤسسات الإنتاج التي تصدر الثقافة للمجتمع الثقافي المحلي ثم إلى المجتمعات الأخرى، والمنتج الثقافي المصدر يحتوي على أفكار وقيم ومبادئ تستهدف إقصاء سلوك وأفكار الآخرين في المجتمعات المستهلكة لهذه الثقافة، "إذ كلما أقصبت القيمة كلما ازداد حجم الانفلات الأخلاقي والعبثية السلوكية السالبة، أي الاضطراب الاجتماعي والنفسي، وتزداد درجة نشازته عن المنظومة الثقافية المحلية مما يفتح عليه باب الاغتراب والانسلاخ الفكري والتهيه"¹، وذلك يتأتى عبر وسائل

¹ - بوعلي نصير، بمساهمة أحمد عبدلي وآخرون، قراءات في نظرية الحتمية القيمية في الإعلام، منشورات مكتبة اقرأ قسنطينة الجزائر، ط1، ص: 216.

عدة، لعل أبرزها وسائل الإعلام، التي تعد أهم قناة تسعى من خلالها بعض الجهات إلى توحيد العالم ثقافيا تحت شعار "الثقافة في خدمة الاقتصاد"، فقديمًا كنا نقول بان العولمة كثقافة هي ظاهرة عرفت لها البلدان الأوروبية التي تطمح إلى جعل العالم قرية صغيرة، هذا الكلام معناه أن مؤسسات العولمة المنتجة للثقافة كجزء من الإنتاج العام الذي تسعى من ورائه إلى تحقيق أرباح مادية ورمزية عن طريق الإنتاج الثقافي والاستثمار فيه، حيث نجحت هذه المؤسسات المنتجة للمواد الثقافية إلى حد كبير في تجاوز كل الحدود العالمية وصولاً إلى اختراقها لكل المؤسسات التقليدية الشعبية التي يحكمها العقل الثقافي الشعبي، ولم تتوقف فلسفة هذه المؤسسات عند هذا الحد بل بدأت في العقود الأخيرة تستهدف الإنسان كفرد داخل جماعته وثقافته، وهذه الفلسفة هي الأخطر حيث أصبحت هذه المجتمعات غير المنتجة تعاني من أزمات عدة، كأزمة القيم والمبادئ، أزمة الروحانيات، أزمة المؤسسات وعلى رأسها مؤسسة العائلة... إلخ. "إذ هناك اتفاق عام على أن وسائل الإعلام تحدث آثاراً على الاتجاهات والقيم، أما الفترة اللازمة لإحداث هذا الأثر فما زالت محل جدل، إذ تشير بعض الدراسات إلى أن وسائل الإعلام تقوم بدور ملموس في تكوين الآراء أكثر مما تساهم في تغييرها"¹.

وتبرز أهمية نجاح هذه المؤسسات المنتجة للثقافة في كونها تسخر كل شيء من أجل البقاء في ممارسة الهيمنة وديمومتها، تسخر العلم والقانون والدين والمؤسسات والموارد المالية وكل شيء بهدف التمسك بمكانتها داخل المجتمع الثقافي.. فمثلاً اللاعبون المتميزون والفنانون والمفكرون الكبار عالمياً سلب منهم مفهوم الفرد، المواطن، ابن فلان وابن فلانة... لتحل محلها مفاهيم أخرى تنتمي إلى ثقافة معية وهذا ما نجده في غالبية الإشهاريات والدعايات التي توظف الفنانين والنجوم لحصد أكبر عدد من المستهلكين لمنتوج ثقافي معين، ويتضح الاستهلاك الثقافي في الشارع العمومي بشكل بارز، من خلال الألفاظ التي نسمعها والتي لا تنتهي إلى

¹ - خليل صابات، وسائل الإعلام نشأتها وتطورها، مكتبة الانجلو مصرية، القاهرة، 1972، ص. 16.

ثقافتنا، وأيضاً نوعية اللباس وطريقة الاستهلاك والعلاقات الاجتماعية...، ويعود ذلك إلى عجز المجتمعات المستهلكة لهذه الثقافات عن الصمود أمام هذا المد القوي للثقافة المهيمنة عالمياً ومجالياً ما يجعل ثقافة الدولة أو النخبة تعد فرعاً من فروع الثقافة المهيمنة العامة.

المحور الثاني: نظرة استشرافية للنهوض بالصناعة الإعلامية خدمة للثقافة الشعبية

أحدثت التكنولوجيا قفزة نوعية في مجالي الاعلام والاتصال حيث سمحت بظهور ما يعرف بالاعلام الجديد، فقد استطاع بوسائله أن ينتشر بوتيرة سريعة بفعل ثورة الاتصالات والمعلومات، وأصبح إقبال الجمهور على هذه الوسائل قوياً، حيث شكلت هذه الأخيرة قوة تستوعب اهتمامات الشعوب وطموحاتهم.¹

فكيف يمكن الاستفادة من هذا التطور التكنولوجي والصناعة الإعلامية بغية استثمار الثقافة الشعبية في تنمية البلد؟

إن الثقافة الشعبية أو الفلكلور أو الموروث الثقافي شكل من الأشكال التعبيرية المنطوقة والتي تختزنها الذاكرة الشعبية، وهي جزء من الثقافة الإنسانية ككل، يتم حفظها بشكل شعوري أو غير شعوري لتتجسد في كلاً من المعتقدات والعادات والممارسات الحياتية، وتشمل هذه الثقافة: الموروث السردى (الحكايات، والخرافات...)، والحكم والأمثال الشعبية وغيرها من فنون التعبير الأخرى. وتكمن أهمية الثقافة الشعبية في أنها تؤدي دوراً في إبراز تراث الأمم وتعزيز خصوصيتها، كما أنها مجموع العناصر التي تشكل ثقافة المجتمع المسيطرة في أي بلد أو منطقة جغرافية محدودة، والتي تنتشر باستخدام طرق إعلام شعبية، وتنتج هذه الثقافة من التفاعلات اليومية بين عناصر المجتمع إضافة لحاجاته ورغباته التي تشكل

¹ - عباس مصطفى صادق، الإعلام الجديد : المفاهيم والوسائل والتطبيقات، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2008، ص 29.

الحياة اليومية للقطاع الغالب من المجتمع، وهي مفصولة عن السلطتين السياسية والدينية، وغالبًا ما يُستخدم مصطلح الثقافة شعبية كمصطلح مضاد ومخالف للثقافة العليا أو النخبوية.¹

لقد تبين أن الاعلام الجديد أدى دورا أساسيا في جعل العالم وكأنه قرية واحدة، فبدأ يؤثر على ثقافات المجتمعات المختلفة وهويتها، وأصبحت وسائل الاعلام الجديدة تمتلك تكنولوجيا اتصال فعالة تخترق بواسطتها الثقافات المحلية من تسويق ونشر لهاته الثقافات، من بينها الثقافة الشعبية التي تعتبر اللوحة التي تعكس ثقافة المجتمعات، وهي تعد احدى الركائز من العادات والتقاليد التي تركها الأسلاف.

كما أنه بات من الضروري حماية التراث، أو ما يسمى بالموروث الثقافي بشتى أنواعه ليكون موردا ثقافيا وحضاريا.

إن تعزيز قيم الثقافة الشعبية في وسائل الإعلام يمكن أن يكون عاملاً محورياً في دعم التنمية الشاملة وهذه بعض السبل التي يمكن اتخاذها لتحقيق ذلك:

تسليط الضوء على التراث المحلي:

- إبراز القيم والتقاليد الشعبية المحلية من خلال البرامج التلفزيونية، الإذاعية، والمقالات.

تشجيع الفنون والحرف اليدوية:

- إعطاء المجال للفنانين المحليين وحرفيين لعرض مهاراتهم وإبداعاتهم في وسائل الإعلام؛
- إنتاج برامج تعليمية حول الحرف التقليدية والفنون الشعبية.

¹ - مجلة الثقافة الشعبية، 2019.

الترويج للسياحة الثقافية:

- عرض الجوانب الثقافية والتاريخية للمناطق المحلية في وسائل الإعلام لجذب السياح وتعزيز السياحة الثقافية.

التوثيق الثقافي:

- إنتاج وثائقيات توثق الحياة اليومية والتراث الثقافي للمجتمع؛
- إطلاق مبادرات لتوثيق القصص والتاريخ الشعبي.

تعزيز التفاعل المجتمعي:

- إقامة ندوات ومنتديات تتحدث عن قضايا ثقافية وتشجع على المشاركة الفعالة من قبل المجتمع المحلي؛
- إشراك الجمهور في الإنتاج الإعلامي وجمع القصص والتجارب.

تعزيز التعليم الثقافي:

- تكامل قيم الثقافة الشعبية في مناهج التعليم لتعزيز وعي الشباب بها؛
- دعم برامج تعليمية في وسائل الإعلام حول التراث الثقافي؛

التعاون مع الهيئات الثقافية:

- التعاون مع المؤسسات الثقافية والمنظمات ذات الصلة لتنظيم فعاليات ومشاريع تروج للثقافة الشعبية.

استخدام وسائل التواصل الاجتماعي:

- نشر محتوى ثقافي على وسائل التواصل الاجتماعي للتواصل مع الجمهور وتحفيز التفاعل؛

- باعتبارها جزءًا من استراتيجية التنمية، يمكن أن يسهم تعزيز قيم الثقافة الشعبية في وسائل الإعلام في تحفيز الاندماج الاجتماعي، وتعزيز الهوية الثقافية، وتعزيز الحوار الثقافي في المجتمع.
- ترويج مبادئ الثقافة الشعبية في الإعلام المغربي يعد أمرًا هامًا لتعزيز الترابط الثقافي وتعزيز الهوية الوطنية. يمكن تحقيق ذلك من خلال عدة وسائل:
- برامج تلفزيونية وإذاعية: إطلاق برامج تلفزيونية وإذاعية تسلط الضوء على التراث الشعبي المغربي، مثل الفنون الشعبية والموسيقى التقليدية، وتوجيه الانتباه إلى الحكايات والأساطير الشعبية؛
- المشاركة المجتمعية: تشجيع المشاركة المجتمعية في وسائل الإعلام، مما يتيح للمجتمعات المحلية تقديم قصصها وتجاربها الفريدة.
- الأفلام والوثائقيات: إنتاج أفلام ووثائقيات تعكس الحياة اليومية في المغرب، وتبرز التراث الثقافي الغني للشعب.
- وسائل التواصل الاجتماعي: استخدام وسائل التواصل الاجتماعي لتعزيز المحتوى الثقافي الشعبي والتفاعل مع الجمهور، مما يعزز التواصل والتفاعل المباشر.
- المهرجانات والفعاليات: دعم المهرجانات الثقافية والفعاليات المحلية التي تسلط الضوء على التراث الشعبي، وتشجع على التفاعل والمشاركة.
- الصحافة والنشر: تخصيص مساحات في الصحف والمجلات للمواضيع التي تعكس الثقافة الشعبية وتروج لقيمها.
- التعليم والتوعية: تضمين محتوى الثقافة الشعبية في مناهج التعليم والبرامج التوعوية، لتشجيع الشباب على فهم وتقدير تراثهم الثقافي.

من خلال هذه الجهود، يمكن لوسائل الإعلام المغربية أن تلعب دورًا فعالًا في نشر وتعزيز مبادئ الثقافة الشعبية، مما يساهم في تعزيز الانتماء والفهم المتبادل بين الفئات المختلفة في المجتمع.

نشر قيم الثقافة الشعبية في وسائل الإعلام، يمكن اتباع مجموعة من الإجراءات التي تساهم في تسليط الضوء على التراث الثقافي للمجتمع. إليك بعض الخطوات التي يمكن اتخاذها:

❖ ترويج المحتوى الشعبي:

- إعطاء الأولوية للبرامج والمحتوى التلفزيوني والإذاعي الذي يعكس التراث والتقاليد الشعبية؛
- إنشاء وتشجيع البرامج التي تتحدث عن قصص النجاح والإبداع في المجتمع.

❖ توجيه الضوء على الفنون والموسيقى:

- دعم الفعاليات الفنية والموسيقية التقليدية في الإعلام؛
- إقامة حفلات ومهرجانات فنية تعكس الفنون والتقاليد الشعبية.

❖ الاستفادة من وسائل التواصل الاجتماعي:

- نشر محتوى متنوع وجذاب عبر وسائل التواصل الاجتماعي، يتناول قصص وأحداث من الحياة اليومية؛
- تشجيع المشاركة المجتمعية والتفاعل عبر منصات التواصل الاجتماعي.

❖ إنتاج وثائقيات:

- إنتاج وثائقيات تسلط الضوء على التراث الثقافي والتقاليد الشعبية؛

- استضافة برامج حوارية تناقش قضايا ثقافية واجتماعية هامة.

❖ التعاون مع الفنانين والمثقفين:

- دعم الفنانين والكتّاب والشعراء الذين يعملون على تعزيز القيم الثقافية الشعبية؛

- تشجيع على وجود فنانين شعبيين في الوسائط المتعددة.

❖ تشجيع التعليم والبحث:

- تقديم برامج تعليمية تسلط الضوء على التراث الشعبي؛
- دعم البحث والنقد في المجال الثقافي ونشر النتائج في وسائل الإعلام.

❖ التعاون مع المؤسسات الثقافية:

- التعاون مع المتاحف والمعارض والمؤسسات الثقافية لتنظيم فعاليات وأنشطة؛

- من خلال اتباع هذه الخطوات، يمكن تحقيق تأثير إيجابي على نشر وتعزيز قيم الثقافة الشعبية في وسائل الإعلام وتحفيز التواصل الثقافي في المجتمع.

خاتمة:

تلعب وسائل الإعلام دورا مهما في حماية مكونات الهوية الوطنية وتمييزها للأجيال القادمة، لكن وجب مواكبة العناصر الجديدة للإعلام المنبثقة من التطور التكنولوجي المستمر لها، والتي أفرزت أنماط إعلامية جديدة تختلف عن الأنماط السابقة لها، ألا وهو الإعلام الجديد. حيث يجب أن يلعب هذا الأخير دورا كبيرا في نشر الرسالة الإعلامية المرتبطة بالثقافة الشعبية.

يجب على الإعلام الجديد أن يعالج قضايا التراث والثقافة وفق النموذجين التاليين: فالأول يتمثل في القضايا الصحفية والإعلامية التي تركز على المتابعة الإخبارية والتغطيات الصحفية، أما الثاني فتمثل النظرة المتكاملة لقضايا التراث وعلاقتها العضوية بالقضايا المجتمعية الأخرى. وعلى هذا الأساس أصبح لزاما على الإعلام الحديث أن يساهم أكثر في التنشئة والتربية والسلوك، إضافة الى تنمية وتشكيل وعي جماعي بأهمية التراث وضرورة المحافظة عليه.

ومن أجل إثراء هذا الموضوع ارتأينا تقديم مجموعة من التوصيات التالية:

- ضرورة التوجه إلى استحداث مواقع اجتماعية تعنى بحماية الثقافة الشعبية؛
- استحداث سياسات عمومية محفزة لحماية الثقافة الشعبية مع خلق مجالس علمية وإعلامية متخصصة في هذا المجال؛
- ضرورة إدراج الجامعات بكل تخصصاتها للمساهمة بالأبحاث والدراسات والاستطلاعات الإعلامية حول كل ماله علاقة بالتنمية وحماية الثقافة الشعبية؛
- حث مؤسسات المجتمع المدني من خلال أنشطته إلى إعطاء الأولوية للتراث والثقافة الشعبية؛
- السعي إلى تحويل التراث والثقافة الشعبية إلى مصادر لجلب الثروة محليا وإقليميا ودوليا؛
- اهتمام الدولة بالأنترنيت، بوضعها وسيلة اتصال مهمة في تناول قضايا التراث والثقافة الشعبية لتكون حلقة وصل بين أفراد المجتمع.

لائحة المصادر والمراجع

- أديب خضور، الإعلام الثقافي المتخصص: طبيعة العالقة بين الإعلام والثقافة، محاضرة دون تاريخ.
- جيهان أحمد رشتي، الأسس العلمية لنظريات الإعلام، دار الفكر العربي القاهرة، 1978، ط2.
- محمد خليل الرفاعي، دور الإعلام في العصر الرقمي في تشكيل قيم الأسرة العربية دراسة تحليلية، مجلة جامعة دمشق – المجلد 27 العدد الأول والثاني، 2011.
- مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، 2019.
- عباس مصطفى صادق، الإعلام الجديد: المفاهيم والوسائل والتطبيقات، عمان، دار الشروق للنشر والتوزيع، 2008.

دور الرحلة العلمية

في تطور الدرس اللغوي بالمغرب الأقصى

عبد الحكيم العبدى

طالب باحث في سلك الدكتوراه

تكوين الدكتوراه: لغات، ثقافات وتواصل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الأول بوجدة - المغرب

بإشراف الأستاذين: د. مصطفى البعقوي - د. فريد أمعشوشو



ملخص:

يتناول هذا المقال موضوعاً تاريخياً، ذا صبغة معرفية، يتعلق بالرحلة العلمية إلى المغرب الأقصى، خلال عَصْرِي المراهطين والموحدين. ويروم تسليط الضوء على دور هذه الرحلة في نشر علوم اللغة عموماً، وعلم النحو بشكل خاص، بالمنطقة؛ إذ سجلت كتب التزاج رحلة عدد كبير من علماء اللغة والنحو صوب حواضر المغرب العلمية آنذاك: فاس، مراكش، وسبتة، سواء من أجل الطلب المعرفي أو بغاية التدريس، وذلك من شتى أقطار العالم الإسلامي، وعلى رأسها الأندلس. وقد حركت هذه الرحلة عوامل عديدة، يتداخل فيها الثقافي والحضاري، والسياسي، والاجتماعي، والاقتصادي. كما اتخذت أشكالاً مختلفة؛ بالنظر إلى موطن المرحّلين، أو الأهداف التي دفعتهم إلى الانطلاق صوب المغرب الأقصى.

والحقيقة أن هذه الرحلات كان لها دور بارز في ازدهار الحركة العلمية والثقافية بحواضر المغرب، كما أسهمت - بشكل فعال - في نشأة علم النحو بالمغرب وتطوره، وبفضلها تنوّعت الأواصر الثقافية والعلمية بين المراكز العلمية بالمغرب من جهة، وبينها وبين نظيراتها في الأندلس وباقي أقطار شمال إفريقيا من جهة ثانية.

وقد بدأت المقال بمقدمة تناولت فيها مفهوم "الرحلة" وأهم أنواعها، بما فيها الرحلة العلمية اللغوية، وبينت فيها، أيضاً، مدى اهتمام المغاربة بالعربية وعلومها، والإسهام البارز للرحلة في نشأتها وتطورها. وقسمت صلب البحث إلى أربعة محاور: بحيث أفردت ثلاثة منها لإبراز معالم الحركة العلمية - ولاسيما اللغوية - بفاس ومراكش وسبتة، وجرّد لائحة بأساء علماء النحو واللغة الذين ارتحلوا صوبها، سواء خلال مرحلة الأخذ أو العطاء، وقد اعتمدت في هذا على أهم كتب التزاج، التي ترجمت لثأر هذه الحقبة ولغويتها، وبالتحديد كتاب "بغية الوعاة" للإمام السبوطي (ت 911هـ). أما المحور الأخير، فجمعت فيه أبرز الخلاصات المتعلقة برحلات اللغويين إلى المغرب؛ عبر التركيز على أنماط هذه الرحلات، والربواعت المشجعة على خوض غمارها..

كلمات مفتاحية: الرحلة العلمية، الدرس اللغوي، النحو، المغرب، العصران المراهطي والموحدي.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

العبدى، عبد الحكيم. (2024، غشت). دور الرحلة العلمية في تطور الدرس اللغوي بالمغرب الأقصى. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 250-273.

Abstract:

This article deals a traditional topic, related to the linguist' journey to the scientific capitals of Morocco (Marrakesh, Fes, Ceuta) during the middles ages. During this period, these cities achieved great prosperity and development in the political and cultural field. One manifestation of this is the emergence of a scientific and cultural movement; linguistics is one of the most important sciences that activated this movement at the time. The scientific journey is the most important factor for its development and prosperity.

This scientific journey resulted from many intertuned cultural, civilizational, political, social and economic factors. It was divided into different types, according to the travelers homeland and the goals that prompted their journey to Morocco. The truth is that these scientific journeys played a prominent role in the prosperity of the scientific and cultural movement in Morocco, And they also contributed to the emergence of the science of grammar in Morocco. Thanks to it, the relationship between Moroccan scientific centers and their Counter parts in Andalusia and North Africa is strengthened.

I started this research with an introduction in which I talked about the journey, its importance in the study and dissemination of knowledge and its role in the spread of linguistics in Morocco. The research was divided into four axis: 1, 2 and 3: the cultural situation of these cities during the middles ages. And inventory of linguists who left for Morocco during this period. The axis 4: study the lives of these flags and try to extrat the most reasons that encouraged them to move to Morocco.

Keywords : The scientific journey, Linguistic study, The grammar, Morocco, The middle ages.

مقدمة

تعدّ الرحلة¹ فعلاً أساساً ومهماً في النشاط البشري على مر العصور والأزمان، وهي عملية انتقال الفرد - أو الجماعة - بإرادته الفعلية من موطنه الأصلي إلى موطن آخر، وعزمه على تخطي حدود المكان الذي ينتمي إليه، سواء أكانت داخلية أم خارجية. وهي تنتج عن رغبة في تحقيق أهداف محددة؛ منها تحقيق المتعة والاكتشاف، أو لمقاصد روحية ودينية، أو لأسباب اجتماعية وأمنية... كما يمكن أن يكون العلم محرّكها الأساس، وأهم بواعثها.

لقد كانت الرحلة العلمية في العصور القديمة، والوسطى على الخصوص، من أبرز مصادر الثقافة والمعرفة؛ بسبب قلة مصادر التثقيف والتعلم التقليدية، من مدارس ومراجع وكتب وغيرها آنذاك؛ إذ كان من المفروض - وإن لم نقل: من الواجب - على من يريد أن يطلب علماً، أو يتصف بصفة "العالم" في أي تخصص كان، أن يحمل رحاله صوب الحواضر العلمية القليلة البعيدة، ويتحمل عناء السفر والتنقل من منطقة إلى أخرى. وقد كانت الرحلة هي التي تحدد منزلة العالم ضمن تخصّصه؛ إذ بقدر كثرة البلدان التي ارتحل إليها، والعلماء الذين جالسهم وأخذ عنهم، تكون مكانته العلمية.

وشكلت الرحلة عاملاً رئيساً في نشر العلوم والمعارف؛ فعلم النحو - مثلاً - كان، في بدايته، حبيس رقعة جغرافية محددة، ولكن، بفعل ارتحال الطلبة إلى علمائه البارزين، وكذا تنقل العلماء أنفسهم إلى مواطن أخرى، انتشر هذا العلم، وكثر المنتسبون إليه، واتسعت حركة الاشتغال به، والتدوين والتصنيف فيه. وقد دخل بلاد الأندلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، بعد رحلة بعض أبناء الأندلس

¹ - انظر في تعريف "الرحلة" لغويًا:

- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979، مادة "رحل".
- ابن منظور، لسان العرب، تح: مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة، د. ت، مادة "رحل".

صوب المشرق؛ كجودي بن عثمان ويحيى المهلي وغيرهما¹، لتُبْرَز، بعد عودتهم إلى موطنهم ذاك، حركة لغوية ونحوية أفرزت نُحاة أندلسيين كبارا. وبسبب الاندماج السياسي والتقارب الثقافي بين المغرب الأقصى وبلاد الأندلس، هاجر عدد من أولئك الأعلام نحو حواضر المغرب، وعلى رأسها مراكش وسبتة وفاس²، التي زرعوا فيها البذور الأولى لعلوم اللغة. ينضاف إلى ذلك رحلة بعض المغاربة إلى المشرق والأندلس. وبعد توطن هذا العلم بالمغرب، صارت حواضره قبلة للمتعطشين إلى التبَخُّر في اللغة والنحو.

وفي هذا السياق، يندرج مقالنا، الذي نروم من خلاله تتبع أعلام اللغة والنحو المرتحلين إلى المغرب الأقصى إبان فترة ازدهاره، خلال عهدَي المرابطين والموحدين، وتبيان طبيعة إقامتهم ونشاطهم اللغوي والنحوي بثلاثٍ من حواضره، ذكرناها في الفقرة السابقة. ولأن حصر كل اللغويين والنحاة المرتحلين صوب حواضر المغرب أمر صعب للغاية، ويستدعي البحث والتنقيب في كتب التراجم على كثرتها، فقد حَرَصْتُ على تتبع أولئك الأعلام في مصدر واحد، وهو كتاب "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة" للإمام جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)؛ لكونه من أهم المظانّ التي ترجمت لأعلام تلك الفترة، كما أنني اكتفيت -فقط- بمن أثبت السيوطي ارتحالهم إلى الحواضر الثلاث بصريح العبارة.

ولا شك في أن هذه الرحلات العلمية تُقَبِّع وراء تطورها عدة عوامل، ومما لا ريب فيه، أيضاً، أنها تتخذ صُورا وأنماطا متعددة، كما كانت لها تأثيرات في البيئة الثقافية والعلمية بالمغرب الأقصى، وهذا ما يجعلنا نطرح التساؤلات الآتية: ما

¹ - المختار محمد ولد باه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2008، ص: 223.

- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط7، د.ت، ص: 290.

² - أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، مطبعة موناستير، المحمدية، د.ت، ص ص: 10-11.

العوامل المشجّعة على الرحلة صوب المغرب الأقصى؟ وما أنماط هذه الرحلة؟ وما أهم تأثيراتها في البيئة المذكورة؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات، سنحاول أن نوظّف في دراستنا منهجا تاريخيا تحليليا؛ نعتمد فيه على البحث والتنقيب عن اللغويين الذين أثبت السيوطي ارتحالهم وهجرتهم إلى المغرب في مصنفه "بغية الوعاة"، وتحليل المعطيات التاريخية المجموعة، ثم استخلاص النتائج في نهاية المطاف. وقد قسّمت عملي هذا إلى أربعة محاور صغرى، مترابطة ومتكاملة، ثلاثة منها أفردتها للتعريف بثلاث من حواضر المغرب البارزة، وجرّد أسماء اللغويين الذين ارتحلوا نحوها، والإشارة إلى مدى إسهامهم في تطور الدرس اللغوي، بصفة عامة، فيها. أما المحور الرابع، فقد أوضّحت فيه أبرز العوامل التي شجعت على الرحلة صوب المغرب الأقصى، علاوة على تبيان أهدافها، وأهم أنماطها، وفي مقدمتها -طبعاً- الرحلة العلمية.

أولاً- الرحلة إلى مراكش:

1- التعريف بمراكش ومكانتها العلمية¹:

تأسست مدينة مراكش، عام 470هـ/ 1062م، وسط المغرب، في عهد دولة المرابطين على يد يوسف بن تاشفين، الذي اتخذها عاصمةً مُلكه، وبنى فيها الجوامع والمدارس والقصور، لتصبح - بعد فترة قصيرة - من أشهر الحواضر الإسلامية، وأكثرها ازدهاراً في كافة المجالات خلال العصر الوسيط. وتعززت مكانتها السياسية بعد أن اتخذها الموحدون عاصمة لهم أيضاً؛ فكانت -بحقّ- من أكثر المدن المغربية ثقافة وعلماً، وقبلة العلماء والأدباء المغاربة والأندلسيين خلال هذه الفترة.

¹ - للاطلاع على تاريخ مراكش، ومكانتها الثقافية والعلمية، انظر مثلاً:

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977، 94/5؛

- ليون الإفريقي (الحسن الوزان)، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت،

ط2، 1983، 127/1-128.

وقد تبوّأت مراكز هذه المكانة العلمية المرموقة؛ بفضل تشجيعات الأمراء والسلطين في هذا الإطار، ومن مظاهر ذلك بناء عدد كبير من الجوامع والمدارس. ولأن المقام لا يسمح بتعداد هذه المعالم والمراكز الثقافية كلها، فإننا سنكتفي بالحديث عن أشهرها فَحَسْب، وهو جامع ابن يوسف - والمدرسة التابعة له -، الذي شُيّد من قبل علي بن يوسف المرابطي عام 514هـ، الذي أولاه حَظًّا أوفرَ من عنايته، وجلب إليه أهل العلم والأدب والفكر والفضل؛ فوطّنته أقدام المغاربة والأندلسيين، وقد وصفه ليون الإفريقي بـ"أنه في غاية الحُسْن"¹. وللإشارة، فإن الدروس والحلقات العلمية لم تكن تقدّم أو تنظّم في المدرسة، بل داخل أسوار الجامع، وهذا سرٌّ من أسرار ارتباط المدرسة بالجامع؛ إذ كانت مخصصة لاستقبال الطلاب القادمين من أماكن بعيدة، وإيوائهم؛ فهي كانت بمثابة "حيّ جامعي"، أو "مدرسة داخلية"؛ بالتعبير المعاصر².

وقد حظي هذا المركز العلمي باهتمام أمراء المغرب وسلطينه المتعاقبين؛ فاعتنوا بترميمه وتطويره، وبث الحركة والروح العلمية بين أسواره؛ فكان ميدانا لمناظرات علمية وسياسية ودينية مشهورة، لعل من أهمها تلك التي درات بين المهدي وفقهاء المرابطين، ومنهم من قديم من الأندلس، وقد جرت أطوار هذه المناظرة في

¹ - وصف إفريقيا، 127/1.

² - محمد السروتي، المراكز العلمية والحضارية بالغرب الإسلامي: جامع ابن يوسف، مقال منشور في موقع "الرابطة المحمدية للعلماء". تم الاطلاع عليه بتاريخ: 2023/12/26

https://www.arrabita.ma/museums_cartes/cartes/marrakech/pages%20web/chawiya/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B1%D8%A7%D9%83%D8%B2%20%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%84%D9%85%D9%8A%D8%A9%20%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%B6%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%A9%20%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%BA%D8%B1%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85%D9%8A%20%D8%AC%D8%A7%D9%85%D8%B9%20%D8%A7%D8%A8%D9%86%20%D9%8A%D9%88%D8%B3%D9%81.html

حضرة الأمير علي بن يوسف¹. كما كان ذلك المركز، على امتداد قرون، محجاً للعلماء والطلبة المتعطشين إلى المعرفة في مختلف المجالات العلمية، ولاسيما ما يتعلق منها بعلم اللغة. ومن أشهر اللغويين، الذين درّسوا بهذا الجامع، الشيخ أبو موسى الجزولي الصنهاجي (ت 607هـ)؛ صاحب المقدمة الشهيرة في علم النحو، الذي كانت حلقاته مقصدا للطلبة الصغار، كما العلماء الكبار، ومن أبرزهم أبو علي الشلوبين².

2- اللّغويون المرتحلون إلى مراکش:

سندستعرض، فيما يأتي، طائفة من علماء اللغة الذين ثبت ارتحالهم إلى مراکش إبان حكم المرابطين والموحدين، ولاسيما خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، بالاعتماد حصراً على كتاب "بغية الوعاة" للإمام السيوطي؛ كما ذكرنا آنفاً:

- عبید الله بن عمر الإشبيلي، الذي تخصص في علم اللغة العربية، وصنف فيه كُتبا، أهمها "اختصار المصباح" و"شرح الدريديّة". وقد أقام بمراكش، وأقرأ بها زمناً، إلى أن توفي سنة 550هـ³.

- محمد بن عبد الله العبدري القرطبي: وكان موسوعياً؛ بحيث جمع بين الفقه والقراءات واللغة والآداب والنحو الذي كان مبرزاً فيه. واشتغل بالتدريس، وعُرف بكونه فكه المحاضرة. ألّف شرحين لكتاب "الجمل". وقد استوطن مراكش، وحضر

¹ - عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح واعتناء: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، ط1، 2006، ص: 139. وانظر أيضاً: عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 1970، 290/2.

² - محمد المنوني، العلوم والفنون والآداب على عهد الموحدين، دار المغرب للتأليف، الرباط، ط2، 1977، ص: 25.

³ - جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1979، 127/2.

مجالس عبد المؤمن، ويُروى أنه أنشد يوما شعرا لم يَرُقَ للأمير؛ فمنعه منذ ذلك الحين من الحضور، وصَرَفَه عن تدريس أبنائه. وتوفي بمراكش سنة 567هـ¹.

- محمد بن عمر الشواشي الشلبي: وكان أستاذا مُجيدا في إقراء العربية والنحو، كما كان شاعرا وكاتبا. هاجر إلى المشرق، ثم رحل إلى مراكش، ومات بها سنة 569هـ².

- الحسن بن محمد البَطْلَيْوُسي: وُلِد ونشأ في بطليوس الأندلسية، وتخصص في القراءات والنحو، وسكن مراكش، وتصدّر للإقراء بها، وتوفي سنة 576هـ³.

- عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي المالقي: وُلِد ونشأ بمالقة، وكُفَّ بصره في سن 17. تصدّر لتدريس اللغة والنحو، وعظُم صيته. ألّف "الروض الأنف"، وقدم شرحا لكتاب "الجمال". استُدعي إلى مراكش، واستقر بها، إلى أن توفي سنة 581هـ⁴.

- أبو زكريا اللبلي: وُلِد بلبلة الأندلسية، وهاجر إلى مراكش صغيرا، وأخذ علم العربية بفاس، كما تبصّر في النحو وأصول الفقه، وقد أدب ودرّس ابن المنصور، وتوفي سنة 590هـ⁵.

- نجبة بن يحيى الرعيّني الإشبيلي: ولد بإشبيلية عام 520هـ، ودرّس النحو والقراءات بمراكش، ودرّس بها أيضا. توفي سنة 591هـ⁶.

¹ - جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، 147/1.

² - نفسه، 202/1.

³ - نفسه، 521/1.

⁴ - نفسه، 81/2.

⁵ - نفسه، 332/2.

⁶ - نفسه، 312/2.

- عبد الجليل بن محمد القرطبي اللبكي: أقرأ القرآن والعربية بوادي آش، وهاجر إلى المغرب، وولي قضاء دكالة، كما سكن مراكش، وأقرأ بها. توفي في حدود 600هـ¹.

- أحمد بن عتيق أبو جعفر البلسني: وُلِدَ في بلنسية عام 545هـ، وتبحّر في اللغة العربية والقراءات والآداب والعلوم القديمة، ووَرَدَ مراكشَ باستدعاءٍ من المنصور، وتوفي سنة 601هـ².

- محمد بن عبد العزيز الإشبيلي: درّس بمراكش النحو واللغة، وكان مجلسه حافلاً؛ لتفتّنه في العلوم، وتوفي بها سنة 601هـ³.

- أحمد بن علي التّجبيّ الإشبيلي: رحل إلى مراكش، بعد أن ضيّق عليه قاضي إشبيلية، ودرّس بها نحو عامٍ، وأقبل عليه الناس هناك، ثم عاد إلى موطنه. وتوفي سنة 602هـ⁴.

- محمد بن علي السلاقي: عُرف بتبحّره في كتاب سيبويه، وحفظه الآداب. رحل إلى مراكش، واشتهر فيها. توفي سنة 605هـ⁵.

- يوسف بن أحمد الأندلسي المريبطي: ولد في بلدة "مريبطر" الأندلسية، ورحل إلى مراكش؛ حيث أقرأ الناس العربية، كما عُني بالطب، الذي خدم به الأمراء. توفي سنة 619هـ⁶.

¹ - جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، 73/2.

² - نفسه، 334/1.

³ - نفسه، 160/1.

⁴ - نفسه، 340/1.

⁵ - نفسه، 196/1.

⁶ - نفسه، 354/2.

- عبد الرحمن بن يخلفتن القرطبي: ولد ببلاد الأندلس عام 550هـ، ونزل تلمسان، وعاش بمراكش مدةً، وتوفي بها في 620هـ¹.

- عبد الرحمن بن إسماعيل التونسي: ولد بتونس، ورحل إلى مكة ومصر وإشبيلية، ثم مراكش التي أقرأ بها العربية. توفي سنة 640هـ².

- يحيى بن يحيى أبو زكريا الإشبيلي: تخصص في النحو، وقد أخذ عن الشلوطين في قرطبة، التي تركها بعد استيلاء النصارى عليها سنة 633هـ، وسكن مراكش، ودرس بها. وقد مات عن 60 سنة³.

ثانيا- الرحلة إلى فاس:

1- التعريف بفاس ومكانتها العلمية⁴:

أسست فاس على يد إدريس بن إدريس عام 192هـ، بعدما ضاقت مدينة وليلي؛ عاصمة ملكه، على ضفاف وادي جارٍ في موقع يزخر بالعيون والبساتين. وانقسمت المدينة إلى جزأين: العدوّة الشرقية والعدوّة الغربية، وسُميتا - فيما بعد - بـ"عدوّة القرويين" و"عدوّة الأندلسيين". ومنذ بنائها، صارت أبرز مدن المغرب، وعاصمته السياسية، والدينية، والعلمية. وإن كانت - في بعض فترات التاريخ - قد فقدت مكانتها السياسية لصالح مراكش، إلا أنها ظلت دوما عاصمة الثقافة والعلم؛ بفضل جوامعها ومدارسها العديدة...

¹ - جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، 91/2.

² - نفسه، 78/2.

³ - نفسه، 332/2.

⁴ - انظر في تاريخ المدينة، ومكانتها العلمية:

- ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، م.س، 218/1؛

- ياقوت الحموي، معجم البلدان، م.س، 230/4؛

- أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب،

الدار البيضاء، 1954، 220/1 وما بعدها.

ومن المؤكّد أن أبرز مراكز فاس العلمية والحضارية، التي استمدت منها المدينة إشعاعها العلميّ، هو جامع القرويين، الذي بنته فاطمة الفهرية عام 245هـ¹، ليصبح منذئذٍ منارةً للعلماء والطلبة التّواقين إلى التبحر في مختلف مجالات المعرفة، والقادمين من مختلف مناطق المغرب الكبير وبلاد الأندلس. قال ليون الإفريقي واصفاً هذا الجامع: "كان في غاية الكبر، يبلغ محيط دائرته نحو ميل، وله 31 باباً، وحول بناية الجامع أروقة... وبه ثريّات عديدة من البرونز... وفي داخل الجامع، على طوال الجدران، يشاهد المرء فيه كراسيّ مختلفة الأشكال، يدرّس عليها العديد من العلماء والأساتذة... ولا يتولى الدروس إلا رجال متضلعين في هذه المواد²، يتقاضون على دروسهم أجوراً عالية حسنة"³.

وكانت ثمة عدة مدارس تابعة لنفوذ الجامع، بلغ عددها 11 مدرسة، منها: المدرسة البوعنانية، الحلفاوين، الخصّة، المتوكلية، الصهريج، العطارين... هذا، بالإضافة إلى عدد من المساجد، والأروقة، والخزائن العلمية المليئة بغيون المصنفات العلمية والأدبية. بل إنّ سلاطين بني مرين أنشأوا فروعاً للقرويين في مدن أخرى من المغرب؛ للتخفيف من الضغط على الجامع والمدارس التابعة له بفاس. وقامت الدراسة فيه على نظام الكراسي العلمية، التي كثر عدّها، حتى لُقبت فاس بـ"المدينة ذات الـ140 كرسي"، وكان يقوم عليها علماء متضلّعون من مختلف ميادين المعرفة، يُختارون وفق شروط ومواصفات صارمة، أهمها ضبط السند العلمي للكتب التي يدرّسونها⁴.

¹ - أحمد بن شقرون، أرجوزة من زهر الآس عن جامع القرويين بفاس، من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1994، ص: 15.

² - يقصد المواد المقررة في التدريس، وهي متعلقة بالعلوم الأخلاقية والروحية المتصلة بالشريعة الإسلامية.

³ - ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، 224/1.

⁴ - عبد الهادي التازي، جامع القرويين، دار نشر المعرفة، الرباط، ط2، 2000، م2، ص: 343 - ص: 402 - ص: 368، بتصرف.

وفي الميدان اللغوي، حُصص عدد من الكراسي العلمية للنحو واللغة، منها كرسيان داخل أسوار الجامع نفسه؛ أحدهما سُمي بـ"كرسي النحو"، والثاني عُرف بـ"كرسي الوريالكلي"، فضلا عن كثير من الكراسي في المساجد والمدارس التابعة للجامع. وقد تصدر للتدريس بها علماء النحو المبرزون في زمانهم؛ منهم المغاربة، ومنهم الوافدون من الأندلس وباقي مناطق بلاد المغرب؛ من أمثال ابن طاهر الإشبيلي (ت 580هـ)، وأبي محمد الزقاق (ت 559هـ)¹...

2- اللغويون المرتحلون إلى فاس:

سنذكر، في الآتي، عددا من علماء اللغة الوافدين على فاس، سواء لطلب العلم أو للتدريس، مقتصرين دائما على مَنْ أثبت السيوطي رحلتهم إليها في "بغية الوعاة":

- محمد بن حكم الجزامي السرقسطي: ولد ونشأ بسرقسطة. أقرأ كتب النحو والفقه. استوطن فاس، وأخذ الناس عنه بها، وولي أحكامها. توفي سنة 530هـ بفاس، وقيل بتلمسان².

- أحمد بن محمد العامري الغرناطي (ابن مسعدة): ولد بغرناطة عام 468هـ. تخصص وشارك في النحو والأدب والفقه، كما كان كاتباً مجيداً. استوطن فاس مدةً، ومات بها سنة 537هـ³.

- أحمد بن عبد الجليل التدمري: يُنسب إلى "تدمر"، الواقعة في بلاد الشام. نحوي ولغوي وأديب. ألف كتباً، منها "التوطئة في النحو". رحل إلى فاس، ودرّس بها، كما أدب أولاد الخليفة. توفي سنة 555هـ بفاس⁴.

¹ - المرجع نفسه، ص: 403 - ص: 429.

² - السيوطي، بغية الوعاة، 96/1.

³ - نفسه، 373/1.

⁴ - نفسه، 321/1.

- محمد بن أحمد أبو بكر الإشبيلي (الخدب): ولد بإشبيلية عام 512هـ. تبخّر في النحو. وبعد رحلته إلى فاس، اشتغل خياطاً، كما درّس "كتاب" سيبويه. ومن تلاميذه ابن خروف؛ النحوي الأندلسي المعروف. توفي بفاس سنة 580هـ¹.

- أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي القرطبي: ولد بإشبيلية عام 513هـ. نحوي معروف. كان رحلة في الرواية، وتميز بآراء خاصة. من مصنفاته "المشرق"، و"الرد على النحاة". أقام مدةً بفاس؛ حيث درّس، وولي قضاءها. توفي بإشبيلية سنة 592هـ².

- عبد العزيز بن علي السماتي القرطبي: من أهل إشبيلية، وذكر ابن الأثير أنه ولد بقرطبة عام 549هـ. شارك في علوم كثيرة، منها النحو واللغة والتاريخ. أخذ بفاس عن ابن حنين، ودرّس بها، توفي بها سنة 624هـ³.

- محمد بن علي الغساني (ابن العربي): ولد في 682هـ. اعتنى بالنحو والقراءات. أخذ بفاس عن ابن أجروم، ودرّس بمختلف الحواضر الأندلسية. توفي سنة 748هـ⁴.

- محمد بن أحمد أبو عبد الله التلمساني: ولد بتلمسان. تخصص في الفقه والتفسير والنحو. رحل إلى معظم أقطار العالم الإسلامي، ومنها فاس⁵.

¹ - السيوطي، بغية الوعاة، 28/1.

² - نفسه، 323/1.

³ - نفسه، 199/2.

⁴ - نفسه، 186/1.

⁵ - نفسه.

ثالثا- الرحلة إلى سبتة:

1- التعريف بسبتة ومكانتها العلمية¹:

تقع سبتة في أقصى شمال المغرب، قبالة سواحل أوربا، ويحيط بها البحر من الشرق والشمال والغرب. وهي مدينة عريقة، يعود تاريخها إلى العهد الروماني؛ حيث كانت فُتْرَتْنِذِ حاضرة موريطنيا، وحَكَمَها القوط فيما بعدُ، وتمكن المسلمون، في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، من فتحها حوالي سنة 89 للهجرة؛ فصارت منذئذٍ إحدى أهم المدن المحصنة من قواعد المغرب، وصِلَة وصل بين المغرب وبلاد الأندلس؛ بفضل موقعها الجغرافي الاستراتيجي، الذي جعلها أقرب إلى الساحل الأندلسي، وكذا مَرَسَاها الذي كان يعد أجود مرسى على البحر. وبعد سقوط الأندلس بفترة وجيزة، استولى عليها البرتغاليون سنة 818هـ، قبل أن تنتقل إلى حُكْم الإسبان، وما زالت - إلى حدّ الآن - محتلة من لدُنْهم.

وقد عَرَفَت سبتة، خلال عهدها الإسلامي، نهضة حضارية شاملة. والذي يتصفّح، مثلاً، كتاب "اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار"، سيقف - لا محالة - على حجم الازدهار الذي بلغته المدينة، وعاشته؛ فقد كانت تضم 360 فندق؛ مما يدل على كثرة زوارها والمآزِين بها، و24000 حانوت؛ مما يعطي فكرة واضحة عن قيمتها الاقتصادية والحضارية، ناهيك عن 47 زاوية...

أما على المستوى العلمي والثقافي، فقد كانت المساجد والجوامع، التي تجاوز عددها فيها الألف، تؤدي مهمتها في التعليم؛ مثل مسجد عياض الجد، ومسجد ابن عبيد. كما كانت المدارس تبنى إلى جوارها لأداء مهمة التدريس، وإيواء الطلبة الوافدين عليها من مختلف الأصقاع للتعليم على علمائها وأساتذتها؛ بحيث يذكر صاحب كتاب "قيام دولة المرابطين" أن المدارس كانت منتشرة بسبتة في العهد

¹- ليون الإفريقي، وصف إفريقيا، 316/1-317؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، 183/3؛ ابن القاسم السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تح: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط2، 1983.

المرابطي، ومن أشهرها مدرسة المحدث علي الشاري الغافقي السبتي، والمدرسة الجديدة التي بناها السلطان أبو الحسن المريني (ت 752هـ)، ووقف عليها أوقافا من كتب وغيرها، واشتهرت اشتهارا عظيما، وتردد ذكرها في عدد من المصادر التي ذكرت سبته.

كما تميزت المدينة بخزائنها العلمية العامرة، التي بلغ عددها 62، منها 08 موقفة على طلاب العلم، وأقدمها خزانة علي الشاري، التي تعد أول خزانة وقفت بالمغرب على أهل العلم، وخزانة الجامع العتيق، التي عرفت بكثرة المؤلفات بها وتنوع مجالاتها؛ بحيث لم يشذ منها فن من الفنون، ولا نوع من المعارف. وثمة خزانة أخرى بالمدرسة الجديدة، علاوة على الخزائن الأخرى، التي توزعت على مساجد المدينة وجوامعها العديدة¹.

وقد حافظت سبته على ازدهارها الثقافي خلال كل حقبتها الإسلامية؛ فقد ذكرنا أنفا انتشار المدارس بها إبان عصر المرابطين. أما على عهد الموحّدين، فلم تكن مدينة بالمغرب تضاهيها في نشاطها العلمي والقرائي، وكثرة الرجال القارّين بها والوافدين عليها. ووصل هذا الازدهار أوجّه خلال عهد العزّفيّين؛ بحيث أورد ابن تاويت، رحمه الله، أن "دولة العزفيين كانت دولة علم أكثر منها دولة سياسة"². والحقيقة أن المكانة العلمية، التي حظيت بها هذه المدينة، لا ترجع - في الأساس - إلى العامل السياسي فحسب، بل إلى الموقع الجغرافي المتميز، الذي جعلها نقطة عبور لعدد كبير من العلماء ورجال المعرفة. ولم يكن عبور العالم كما نفهمه اليوم، وإنما كان معناه الإقراء والأخذ. ناهيك عن أن عددا منهم اختار الاستقرار بالمدينة؛ مثل الحسن بن طريف التاهرتي (ت 501هـ)، الذي يعد من باعّثي الاهتمام بعلوم اللغة،

¹ - ابن القاسم السبتي، اختصار الاخبار عما كان كان بشعر سبته من سني الآثار، ص: 29-30.

² - ابن تاويت الطنجي، تاريخ سبته، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1982، ص: 119.

وعلم النحو خاصة، بسبته والمغرب الأقصى عامة؛ بحيث تتلمذ له هناك الكثير من الطلبة، منهم القاضي عياض، وابن أبي الربيع الذي رحل إليها بعد سقوط إشبيلية.

2- علماء اللغة المرتحلون إلى سبته:

سُورِد، في الآتي، علماء اللغة الذين أثبت السيوطي تنقلهم إلى سبته من خارج المغرب الأقصى؛ كما فعلنا مع السابقين:

- محمد بن عبد الله الجزيري: كان مولده بالجزيرة الخضراء. وعلاوة على تضلعه من النحو والآداب، كان أحد فحول الشعراء في وقته. أقرأ النحو والآداب بسبته، ومن أعلام طلبته فيها القاضي عياض اليحصبي. توفي بالجزيرة الخضراء سنة 500هـ¹.

- محمد بن عمر الزبيدي الإشبيلي: ولد بإشبيلية. نحوي وأديب وأصولي. درّس بسبته، ويعد من شيوخ القاضي عياض، وتوفي بها سنة 501هـ².

- الحسين بن علي التاهرتي: وُلِد بتاهرت الجزائرية. درس النحو والآداب بسبته. توفي سنة 501هـ كذلك³.

- علي بن دُرّي الأنصاري النحوي: ولد بطُلَيْطلة. سكن سبته مدة طويلة، وأقرأ النحو والقراءات، ثم انتقل إلى غرناطة؛ حيث توفي سنة 520هـ⁴.

- الحسن بن إبراهيم بن عياش الخزاعي: أستاذ نحوي، درّس بسبته، وكان يفضّله الناس على غيره. توفي سنة 595هـ⁵.

¹ - بغية الوعاة، 150/1.

² - نفسه، 199/1.

³ - نفسه، 513/1.

⁴ - نفسه، 188/2.

⁵ - نفسه، 293/1.

- عبد الرحمن بن علي الجزيري: نحوي وفقيه، أقرأ ببلده الجزيرة الخضراء، ثم استقر بسبته، وكان ممن رُجل إليه بها، وأخذ عنه "الكتاب" وغيره. توفي سنة 605، وقيل: في 608ه¹.

- أحمد بن محمد القرطبي (ابن أبي حجة): ولد بقرطبة عام 562هـ. اشتغل بتدريس النحو والحديث، وتنقل بين حواضر الأندلس، قبل أن يركب البحر إلى سبته، وأسر بعدها. توفي في 643ه².

- إدريس بن محمد الأنصاري القرطبي: تزلع من النحو والآداب والقراءات. سكن سبته، وأقرأ بها، وكان مشكورا في علمه وأدبه. توفي سنة 647ه³.

- محمد بن أبي العاص البرجي: ولد في بلدة تقع قرب سرقسطة، تدعى "برجة". نحوي وأديب ومقرئ. أقرأ بالمرية، ثم استُدعي إلى سبته، قبل أن يرحل إلى تونس، وينقطع خبره بدءا من سنة 646ه⁴.

- عبد الله بن أحمد أبو الحسين بن أبي الربيع: نحوي معروف. ولد بإشبيلية. ولما استولى عليها الإفرنج، رحل إلى سبته، وعكف بها على التدريس والتأليف إلى أن توفي سنة 688ه⁵.

- محمد بن أحمد النميري: ولد بوادي آش. تزلع من النحو والأدب، وكان يقرض الشعر. رحل إلى سبته، ولزم فيها ابن أبي الربيع، الذي أخذ عنه النحو والأدب، ودرّس بها مدة، ثم عاد إلى موطنه، وتولى هناك القضاء. توفي سنة 694ه⁶.

¹ - بغية الوعاة، 84/2.

² - نفسه، 383/1.

³ - نفسه، 436/1.

⁴ - نفسه، 123/1.

⁵ - نفسه، 125/2.

⁶ - نفسه، 42/1.

- إبراهيم بن أحمد أبو إسحاق الغافقي: مولده بإشبيلية عام 641هـ. درس بسبته على ابن أبي الربيع، وصار لاحقا شيخ النحاة والقراء بها. توفي في حاضرة سبته سنة 710هـ¹.

- محمد بن علي الجذامي: ولد بالأندلس في 630هـ. درس بسبته على يد ابن أبي الربيع وغيره، وتصدّر فيما بعد للإقراء بمالقة، إلى أن توفي سنة 723هـ².

- إبراهيم بن محمد التنوخي: ولد بطريف عام 677هـ. قرأ بسبته على يد الغافقي وابن زرقون، ودرس النحو. توفي سنة 726هـ³.

- أبو عبد الله العبدري الغرناطي: متضلع من النحو، ومشارك في الطب. أثرى من التكسب بالكتب. سكن سبته مدة، وقرأ على يد ابن الزبير، ورجع إلى غرناطة، وأقرأ بها. توفي سنة 753هـ⁴.

- محمد بن عبيدة الإشبيلي: نحوي وأديب وأستاذ مقرئ. نزل سبته، ودرس بها⁵.

رابعا- بواعث الرحلة العلمية إلى المغرب، وأنماطها:

1- البواعث والعوامل المحفزة على الرحلة:

من خلال تحليل تراجم مختلف الأعلام، الذين ذكرناهم سالفا، يمكن إجمال أهم العوامل التي دفعت هؤلاء اللغويين إلى الرحلة صوب حواضر المغرب الأقصى فيما يأتي:

¹ - بغية الوعاة، 405/1.

² - نفسه، 187/1.

³ - نفسه، 424/1.

⁴ - نفسه، 233/1.

⁵ - نفسه، 170/1.

- الازدهار الحضاري والثقافي الذي عرفته بعض الحواضر المغربية على عهد المرابطين والموحدين؛ إذ قد كان جل الأمراء والسلاطين يسعون إلى مجارة المشرق، والتفوق عليه، وشكّل العلم مجالا مهماً من مجالات إظهار الشخصية المغربية. ولعل من مظاهر ذلك استدعاء الأمراء والحُكّام بعض الأعلام من الأندلس، وباقي أقطار بلاد المغرب؛ لتأديب أولادهم، أو لتنشيط مجالسهم... ومن هؤلاء أبو جعفر البلسني¹، الذي ورد مراكش باستدعاء من المنصور.

- اتساع رقعة الدولة المغربية: بحيث كانت مناطق شاسعة من شمال إفريقيا وبلاد الأندلس تابعة لحكم الدولة المركزية بالمغرب؛ الأمر الذي سهّل عملية ترحال علماء اللغة، وتنقلهم صوب المراكز العلمية بالمغرب الأقصى.

- تولي بعض اللغويين مناصب ووظائف بهذه المدن والحواضر، وبخاصةً وظيفتا القضاء والتدريس، ومن أشهر هؤلاء ابن مضاء القرطبي، الذي ولي قضاء الجماعة بفاس، ودرّس بها أيضاً²؛ وأبو محمد الحضرمي الإشبيلي، الذي رحل إلى مراكش، ودرّس بها اللغة العربية والنحو³.

- السعي إلى الأخذ عن علماء اللغة الموجودين بالمدن المغربية، والحصول على السند العلمي للكتب والمصنفات النحوية، وقد عدّ ذلك أمراً ضرورياً في تلقي العلوم، وبمثابة حيازة "الشهادة" بلغة العصر. ومن المرتحلين لهذا السبب نذكر أبا عبد الله الغساني، الذي أخذ بفاس -مثلاً- عن ابن أجروم الصنهاجي.

- الرحلة لأسباب سياسية، تجلت أساساً في استيلاء النصارى على بعض المدن الأندلسية؛ كما حدث لابن أبي الربيع الإشبيلي السبتي، الذي رحل إلى سبتة بعد سقوط إشبيلية⁴. ويُلاحق بهذا الداعي الرحلة لأسباب أمنية خاصة؛ مثلما وقع لأبي

¹- بغية الوعاة، 334/1.

²- نفسه، 323/1.

³- نفسه، 186/1.

⁴- بغية الوعاة، 125/2.

القاسم التُّجَيْي الإشبيلي، الذي رحل إلى مراكش، بعد أن ضيَّق عليه أبو حفص بن عمر؛ قاضي إشبيلية¹.

- الرحلة لأسباب اجتماعية؛ كهجرة الأسرة إلى المغرب لسبب ما؛ كما حدث مع أبي زكريا اللبي، الذي انتقل إلى مراكش صغيراً رفقة أسرته، وأخذ فيما بعدُ علم النحو بفاس².

2- أنماط الهجرة العلمية نحو الحواضر المغربية على عهدَي المرابطين والموحدين: يمكن أن نتحدث، باعتبار الموطن الأصلي للمُرتَجِّل، عن نمطين اثنين من الرحلة:

- الرحلة العلمية من الأندلس: فبتصفُّح سريع لأسماء هؤلاء المرتحلين من علماء اللغة صوب المغرب الأقصى، يبدو - بشكل واضح - أن معظمهم ينحدر من مدن الأندلس. وهذا يرجع - كما ذكرنا آنفاً - إلى أنَّ هذه البلاد قد كانت جزءاً من الدولة المغربية، مع ما يستتبعه ذلك من سهولة التنقل والحركة. ومن الأندلسيين الذين ارتحلوا إلى المغرب أبو علي البطليوسي، وأبو بكر العبدري، وأبو جعفر السرقسطي، وأبو بكر الإشبيلي.

- الرحلة العلمية من شمال إفريقيا: على الرغم من التقلبات السياسية التي عرفت هذه المنطقة، وكثرة الدول التي تعاقبت على حُكمها، إلا أن العلاقة ظلت وطيدة ومستمرة بين الحواضر العلمية في هذه المنطقة الممتدة؛ فقد ظلت القيروان وتلمسان وفاس وسبتة متعلقة ببعضها بعضاً ثقافياً وعلمياً... ومَنْ يتتبع الكتب، التي ترجمت لأعلام اللغة المنحدرين من المغربين الأوسط والأدنى وسائر أرجاء الشمال الإفريقي، سيجد أن عدداً منهم قد ارتحل إلى مدن المغرب الأقصى؛ للطلب المعرفي أو للتدريس، ومنهم - على سبيل التمثيل لا الحصر - الحسين بن علي التاهرتي، الذي

¹ - بغية الوعاة، 340/1.

² - نفسه، 332/2.

يعد من واضعي البذور الأولى للدرس النحوي بسبته والمغرب الأقصى عموماً¹؛ وأبو القاسم بن الحداد التونسي، الذي رحل إلى مراكش، وأقرأ بها النحو².

أما فيما يخص رحلة اللغويين من المشرق نحو المغرب الأقصى، فهي قليلة جداً؛ بحيث إننا، بعد تصفحنا كتاب "بغية الوعاة"، لم نعثر فيه على أي لغوي مشرق، رحل إلى المغرب الأقصى، سوى شخص واحد، اسمه أبو العباس التدمري³، الذي رحل إلى مراكش، وأدب أولاد صاحبها، كما استوطن فاس مدة من الزمن. والملاحظ أنه ينسب إلى بلدة "تدمر" الشامية، ولكن لا دليل على أنه قد وُلد أو نشأ بها؛ مما يجعلنا نتحفظ على نسبته إلى الشام أو المشرق. ولعل من أبرز أسباب ندرة رحلات لغويي المشرق نحو المغرب بُعد المسافة، وكثرة المراكز العلمية والثقافية بالمشرق خلال هذه الفترة خصوصاً؛ مما أغنى المشرقيين عن الرحلة إلى أقطار أخرى، والعلماء كانوا يأتون إليهم، ويقصدونهم من كل حذب وصوب؛ مما جعل المشرق مركز الحضارة العربية الإسلامية، مع ما في ذلك من تهميش للأقطار الأخرى. ويمكن أن نقسّم رحلة اللغويين نحو المغرب، بحسب الغاية منها؛ فنميز - في هذا الإطار - بين نمطين اثنين منها:

- رحلة طلب العلم؛ بحيث كانت مدن المغرب مراكز علمية، تستقطب عدداً من طلبة علوم اللغة من الأقطار المجاورة؛ بفضل ما كانت تتوافر عليه من جوامع ومدارس، تقدم التعليم والإيواء، وبفضل احتوائها على علماء متخصصين في علوم اللغة عامة، وفي النحو خاصة. وممن وفد على المغرب لغاية التعلم والأخذ أبو عبد الله الغساني، الذي رحل إلى فاس، وأخذ بها عن ابن أجروم؛ وإبراهيم بن محمد التنوخي، الذي سكن سبته مدة ليتلمذ لأساتذتها؛ كالغافقي وابن زرقون⁴. والملاحظ

¹ - بغية الوعاة، 513/1.

² - نفسه، 78/2.

³ - نفسه، 321/1.

⁴ - بغية الوعاة، 424/1.

أن سبته كانت رائدة في استقطاب طلبة علوم اللغة والنحو من الأندلس؛ بسبب القرب الجغرافي بين المنطقتين، وتشجيع الأمراء العزفيين على العلم والثقافة.

- الرحلة للتدريس والإقراء؛ بحيث حَجَّ عددٌ ممَّن اشتهر في النحو واللغة بالأندلس وشمال إفريقيا إلى المغرب ليدرِّسوا، ويُقرِّئوا الكتب في مدارسهم وجوامعهم. وتعد مراكش رائدة في استقبال هذا الصنف من المرتحلين، ولاسيما في زمن المرابطين والموحدين، حين كانت المدينة عاصمة المغرب سياسيًا. وممن اتخذها قبلةً له أبو بكر بن عبد العزيز الإشبيلي، الذي أقرأ بها إلى أن مات، وقد كان مجلسه حافلًا؛ لتفنُّنه في علوم شتى¹.

على سبيل الختم:

يتضح، بعد كل هذا، أن الرحلة بقدر ما كانت نتاج بيئة ثقافية وعلمية، عرفها المغرب إبان حكم المرابطين ثم الموحدين، كانت أيضًا عاملا بارزا وحاسما في ازدهار هذه البيئة أكثر، ولاسيما فيما يتعلق بعلوم اللغة والنحو. وقد رأينا كيف شجعت عوامل متعددة على رحلة الكثير من اللغويين إلى حواضر المغرب الأقصى، سواء من الأندلس أو من باقي مناطق بلاد المغرب؛ منها ما هو سياسي، يتمثل في انتفاء الحدود الجغرافية، وتشجيع السلاطين والأمراء العلماء على التنقل والتَّرحال إلى المغرب؛ لتنشيط المجالس، أو للتعليم، أو لتولي الوظائف. ومنها ما هو حضاري، يتجلى في الازدهار الثقافي والعلمي الذي عرفته حواضر المغرب، بالإضافة إلى عوامل اجتماعية واقتصادية وأمنية، أشرنا إلى بعض تفاصيلها بين ثنايا هذا المقال.

أما من حيث أصناف الرحلة العلمية إلى المغرب، فتنقسم - من حيث مَوْطن المرتحل - إلى قسمين؛ رحلة من الأندلس، ورحلة من باقي مناطق شمال إفريقيا، وقد هيمن النوع الأول؛ بسبب الاتصال الكبير الذي كان بين الأندلس والمغرب الأقصى، ولأنَّ بلاد الأندلس كانت مركزا حضاريا مهمًا في الغرب الإسلامي عصرئذٍ. وتنقسم،

¹ - بغية الوعاة، 160/1.

أيضا، من حيث الهدف منها، إلى صنفين؛ الصنف الأول يتعلق بالرحلة من أجل الدراسة والتعلم، ويرتبط الصنف الثاني بالرحلة من أجل التدريس.

وقد أسهم هؤلاء الأعلام، المرتحلون صوب مراكش وفاس وسبتة، في وضع اللبنة الأولى في صرح الدرس اللغوي والنحوي بالمغرب، الذي عرف بعض التأخر مقارنة بباقي أنحاء العالم الإسلامي، بحيث درّسوا الطلبة المتعطّشين إلى العربية وعلومها؛ فتكوّن على أيديهم لغويّون كبار، شدّت إليهم - فيما بعد - الرّجال من مختلف المناطق، كما رحلوا بدورهم إلى الأندلس والمشرق، وأسهموا فعليّا في التلاقح الثقافي بين حواضر العالم الإسلامي.

لائحة المصادر والمراجع

- أحمد بن شقرون، أرجوزة من زهر الأس عن جامع القرويين بفاس، من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، 1994.
- أحمد الزواوي، أبو موسى الجزولي، مطبعة موناستير، المحمدية، د.ت.
- ابن تاويت الطنجي، تاريخ سبتة، ط1، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1982.
- ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979.
- ابن القاسم السبتي، اختصار الأخبار عما كان كان بثغر سبتة من سني الآثار، تح: عبد الوهاب بن منصور، الرباط، ط2، 1983.
- ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، تح: مجموعة من الأساتذة، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- جلال الدين السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1979.
- شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط4، د.ت.
- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، ط7، د.ت.
- عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 1970.
- عبد الهادي التازي، جامع القرويين، دار نشر المعرفة، الرباط، ط2، 2000، المجلد الثاني.
- عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرح واعتناء: الدكتور صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، ط1، 2006.
- ليون الإفريقي (الحسن الوزان)، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1983.
- محمد السروتي، المراكز العلمية والحضارية بالغرب الإسلامي: جامع ابن يوسف، مقال

- منشور في موقع "الرابطة المحمدية للعلماء"، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 26 دجنبر 2023.
- محمد المنوني، العلوم والفنون والآداب والفنون على عهد الموحدين، دار المغرب للتأليف، الرباط، ط2، 1977.
 - المختار محمد ولد باه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 2008.
 - الناصري أبو العباس، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954.
 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1977.

المغرب المجهول:

المستكشفون والرحالة الأجانب بحث في آليات المعرفة والسلطة

الدكتور حاجي البكاي

أستاذ التعليم العالي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة محمد الأول بوجدة، المغرب



عبد الاله بوعلي

طالب باحث بسلك الدكتوراه

، مختبر تاريخ، تراث، لغات وعمارة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة - المغرب

ملخص:

سنحاول من خلال هذا المقال أن نسلط الضوء على موضوع نراه بالأهمية بما كان والمتعلقة بدور الأجانب في بلورة تاريخ المغرب. لقد عرفت الحقبة المعاصرة من تاريخ المغرب وفود رحالة ومكتشفون وعلماء من مختلف المناحي العلمية والمشارب الفكرية والأيدولوجية والذي كان هدفهم واحد هو بلورة نظرية علمية عن المغرب المعاصر وقراءة المغرب في ظل نظريات علمية خلقها هؤلاء العلماء وادعوا علميتها وحقيقتها نتائجها في الواقع سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وقد عملت هذه النظريات العلمية ولمدة طويلة باعتبارها البوصلة التي كان لزاما على كل عالم حاول البحث أو التنقيب في تاريخ المغرب أن يعمل بها وأن يحدد من خلالها موقعه وأفكاره ومواقفه السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

لقد اطلقت هذه الدراسات مما اعتبرته هذه المرجعية حقائق. لكن إلى أي حد كانت هذه الفرضيات التي تبنتها هذه النظريات علمية؟ وإلى أي حد أثرت هذه النظريات وهذه الفرضيات في تاريخ ومستقبل المغرب؟

إن الإشكالية التي نريد بسطها في هذا المقال هو بيان مدى موضوعية هذه النظريات وهذه الدراسة التي قدمها الأجانب حول المغرب وهل فعلا كان هدفها دراسة المغرب من أجل بناء معرفي صرف أم هدف استعماري إمبريالي بحث.

كلمات مفتاحية: المغرب، فرنسا، الاستكشاف، البحث العلمي، الرحالة، الاستعمار، السلطة، التطويع، المجهول.

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بوعلي، عبد الاله، حاجي، البكاي. (2024، غشت). المغرب المجهول: المستكشفون والرحالة الأجانب بحث في آليات المعرفة والسلطة. مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية، المجلد 1، العدد 5، السنة الأولى، ص 274-287.

Abstract:

Through this article, we will try to highlight a topic that we consider to be of great importance and related to role of foreigners in shaping Morocco's history.

The contemporary era of Moroccan's history has witnessed the arrival of travelers, explorers and scientists from various scientific backgrounds and ideological walks whose goal was to develop a scientific theory of contemporary Morocco and to interpret the country in light of the scientific theories created by these scholars, they claimed the scientific validity of these theories and the truth of their outcomes concerning reality whether in the past, present, or future.

These scientific theories have operated for a long time as the compass that every scholar seeking to research and explore in Moroccan's history had to use it to determine their position, ideas and consent.

These studies have been launched from what it considers to be facts. However, to what extent were these hypotheses embraced by these theories were scientific? Moreover, to what extent did these theories and hypotheses affected the history and future of Morocco.

Keywords : Morocco; France; Exploration; Scientific Research; Explorer; Colonization; Authority; Adaptation; The Unknown.

مقدمة

كيف تحول المغرب إلى موضوع للمعرفة؟

إن الإشكال الذي يطرحه هذا المقال، هو كيف تحول المغرب في حقبة ما قبل الحماية إلى موضوع للمعرفة؟ وما هو أثر هذه المعرفة على مصير المغرب؟ وعلى مستقبله السياسي والمعرفي؟

لقد دخلت الجزائر في استعمار مباشر ابتداء من 1830، حيث كانت الحركات الإمبريالية للدولة العظمى في أوجها وفرنسا في قوتها العسكرية، السياسية والاقتصادية، رغم المشاكل الداخلية التي كانت تعاني منها. لهذا لم يكن استعمار الجزائر إلا نقطة بداية للاستعمار شمال أفريقيا برمتها باعتبارها الثمرة التي حاولت وعملت فرنسا على إنضاجها لكي تقطفها¹.

لهذا كانت العين دائما على المغرب ذلك البلد المجهول، صحيح أن الجزائر هي قلب شمال إفريقيا، لكن المغرب له موقع جيو-استراتيجي مهم فهو على واجهتين بحريتين، البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي وأنه قد تعرض للغزو من قبل الدول العظمى "البرتغال" و"إسبانيا"، وأن استعمارها من طرف فرنسا يجعلها تتحكم ليس فقط في الثروة "ثروة المغرب الاقتصادية"، بل يجعلها تتحكم في المبادلات البحرية والتجارية، ويجعلها تسيطر على هذه القبلة المهمة والتي طالما كانت تمنى النفس بها، إضافة الى ذلك فهذه السيطرة تمنحها مراقبة إسبانيا وإنجلترا.

لكن السؤال هل يمكن استعمار المغربي بالطرق التقليدية والعسكرية فقط؟

¹ جرمان عياش؛ "دراسات في تاريخ المغرب"، الشركة المغربية للنashرين المتحددين، الطبعة الأولى، 1986، ص 11.

إن المغرب بعيون الأجانب ظل دائما مجهولا بالنسبة للآخر، مجهولا في ثقافته وفكره ودينه، وظل كذلك لغزا حاول الآخر اكتشافه من أجل استغلاله¹، لهذا حاولت فرنسا قبل أن ترسل جيشا عسكريا للاستعمار والاستغلال أرسلت جيشا من الرحالة والمستكشفين الأجانب بمختلف علومهم، السوسيولوجية والأنثروبولوجية والتاريخية والاثنوغرافيا والجغرافيا² وغيرها من العلوم التي من خلالها عملت فرنسا على دراسة المغرب من أجل استغلاله واستعمار به بشكل جيد، خاصة وهي تعلم علم اليقين درجة المقاومة التي تعرض لها الغزو الأجنبي للمغرب ومدى بسالة وقوة المجتمع المغربي وتماسكه. لهذا نجد أن الرحلة والبعثات العلمية الفرنسية كان لها الدور الكبير في فهم "الآخر وشكلت المعرفة والسلطة علاقة جدلية مهمة في توليد نظام للمراقبة والضبط والعقاب، حيث كانت المعرفة في خدمة أهداف ليست علمية، بل أهداف استعمارية-إمبريالية.

I. جدلية المعرفة والسلطة

لقد اجمعت الدراسات³ المرتبطة بهذا المجال بأن النظرة الماقبل الكولونيالية كانت تحاول جعل المعرفة العلمية العالمية معرفة كولونيالية في صالح المستعمر، الغرض الأساس منها هو تطويق أو لنقل تطويع الشعوب وجعلها خاضعة للدراسة وللتفسير وهنا أستخدم كلمة التفسير لأنها تنحو منحى علمي-إمبريقي، ذلك أن جل الدراسات التي تناولت العادات والتقاليد والأفكار والمعتقدات والذهنيات كانت تنحو إلى الاتجاه الوضعي- السوسيولوجي مدرسة إيميل دوركايم وأوغست كونت في

¹ عبد الله العروي؛ "مجلد تاريخ المغرب"، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء، الجزء الأول، 2016، ص 27.

² جيرار لكلرك؛ "الأنثروبولوجيا والاستعمار"، ترجمة جورج كوثر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بدون تاريخ، ص 26.

³ نور الدين الزاهي؛ "سوسيولوجية المجتمع المغربي"، دفاتر عدد 3، أبريل-ماي 2020.

السوسيولوجيا، مارسيل موس وغيرهم في الأنثروبولوجيا والإثنوغرافيا والتي كانت شعارهما معالجة الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء¹.

إذن المنهج الذي اتخذته هذه المدارس كان منهجا يؤمن بالمقدمات العلمية الملاحظة العلمية الدقيقة ثم الفرضية التي تطرحها الدراسة، ثم التجارب وصولا إلى القانون العام المتحكم في الظاهرة².

طبعاً هذا المنهج الذي استعاره الباحثون في مجال العلوم الإنسانية من العلوم الحقة ابتداء من القرن التاسع عشر نجد صدهاء عند كل من أوغست كومت Auguste Comte 1798-1857 الذي يعتبر المؤسس الروحي لعلم الاجتماع الفرنسي، ثم عند دوركايم Emile Durkheim 1858-1917 في كتابه الشهير قواعد المنهج في علم الاجتماع، والذي يعتبر المؤسس الحقيقي والمقعد للظاهرة السوسيولوجية وللقوانين العلمية التي أصبحت أساس البحث السوسيولوجي.

لهذا يمكن القول أنه إلى جانب العنف العسكري والقوة العسكرية التي كانت فرنسا مستعدة كدولة استعمارية لتوفيرها من أجل إخضاع المغرب، ظهرت هناك حاجة ماسة إلى قوة علمية عالمية، لكن هذه القوة الهدف منها هو تطويع المغرب واكتشافه وضبطه علمياً ومعرفياً من أجل استعمارها.

وهذا ما سيولد حتى داخل فرنسا صراعاً بين مدرستين أو اتجاهين أيديولوجيين حيث سيكون الصراع بين ما عرف بمدرسة الجزائر التي يعتبر "إدموند دوتي" Edmond Doutte أحد المؤسسين لها والتي كانت تعتبر أن مسألة استعمار المغرب مسألة ضرورية وحتمية تاريخية لا مناص منها، فالجزائر هي طريق لاستعمار المغرب لهذا كانت هذه المدرسة "مدرسة دوتي" تدعو إلى معرفة المغرب معرفة علمية

¹ Emile Durkheim ; « les règles de la méthode sociologique », Les presses universitaires de France, 16ème édition, 1967, P 8.

² Claude Bernard ; « Introduction à l'étude de la méthode expérimentale » garnier-flammarian, 1996, P 216.

وإحصاء كل شيء؛ الخيول، البنادق، إحصاء الأفراد، معرفة المناطق، والتعرف على العادات والتقاليد من أجل الإفادة الإخبارية أو الإفادة الاستخباراتية.

ثم المدرسة الثانية، فقد تمثلت في "لوشاتولييه" -1855 Alfred Le Chatelier الذي يعتبر المؤسس الروحي لها والتي كانت تدعوا إلى إخضاع المغرب بطريقة سلمية للاستعمار الفرنسي.

ويمكن إجمالاً القول بأن هاتين المدرستين عملتا على ثلاث محددات كبرى:

أولاً: العمل على اكتشاف البلاد وخيراتها الفلاحية والثروات المعدنية ومناطق الرعي ونقاط المياه والقدرات العسكرية واللوجستكية ومعرفة الإنسان ومدى تقلب مزاجه وفكره والتعرف على الذهنيات والتدين.

ثانياً: إنجاز معرفة علمية دقيقة كان الهدف منها الوصول إلى قوانين متحكممة بالظاهرة البشرية والتي اعتبر المستعمر أن التحكم في هذه القوانين يعني التحكم في الأفراد لهذا أنجزت دراسات لغوية-أنثروبولوجية، وإثنولوجية وإثنوغرافية وسوسولوجية دينية-حضرية من أجل ضبط الإنسان.

ثالثاً: هذه المعطيات التي تم تجميعها كان الهدف هو تقديمها للإدارة الفرنسية من أجل تسهيل التوغل داخل المغرب وجعله ليناً طيعاً في يد الفرنسيين من جهة، ومن جهة أخرى تحفيز المعمرين الفرنسيين لزيارة المغرب والقدوم إليه ولاسيما باعتباره البيت الجديد لفرنسا¹.

هكذا حولت الدراسات الكولونيالية المغرب إلى مستعمرة قابلة للسيطرة عليها وذلك من خلال فهمها والتعرف عليها.

¹ نور الدين الزاهي، نفس المرجع، ص 4.

II. إدموند دوتي: الأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا الدينية وأثرها في فهم المجتمع المغربي

ولد إدموند دوتي 1867 وتوفي 1926، يعتبر إلى جانب موليراس Auguste Moulieras 1855-1931 وشارك دوفوكو Charles De Foucauld 1858-1916 أهم مؤسسي الإثنوغرافيا الفرنسية¹، ولا شك أنه الأب الروحي لعلم الاجتماع الديني، وكما أشرنا سابقا إلى أن المدرسة الفرنسية كانت وفيه لروح كونت ودوركايم تلك الروح العلمية التي كانت تعتمد على الملاحظة والدقة في تسجيل المعلومات والقيام بالمشاركة في الحقل الأنثروبولوجي.

لهذا عمل دوتي في القرن التاسع عشر على الوصف والرحلة باعتبارهما المحددان الأساسيان، فقد أنجز رحلة إلى "مراكش" ورحلة إلى "رحاب القبائل" من أجل جمع المعلومات المهمة الإثنوغرافية حيث تمكن من جمع المعطيات القروية وتحديد المناطق الجغرافيا واللغات واللهجات التي يتكلم بها سكان هذه المناطق، هذه الرحلة امتدت من مراكش إلى أغمات وزاوية تحناوت ومولاي إبراهيم وقبائل معمورة في الأطلس الكبير، ثم قبيلة حاحا والصويرة وصولا إلى الرباط ثم مكناس² هذه الرحلة عمل من خلالها على جمع المعطيات حول المناطق القروية والتي تم تقسيمها إلى معطيات طبيعية وبشرية:

- طبيعي حيث حاول دراسة الجغرافيا وطبيعة تضاريس الجبال ووصف السهول والتلال، ونقاط الماء وكل ما هو مرتبط بالطرق وصعوبة المسالك المؤدية إلى التجمعات القروية- السكانية.

طبعا هذه المعرفة العلمية ستساهم لا محالة في إعطاء نظرة عن طبيعة الأرض وعن التدخلات العسكرية دون أن ننسى رسم الخرائط التي كانت تعتبر

¹ نور الدين الزاهي، نفس المرجع، ص 5.

² المرجع نفسه، ص 5.

محددا استراتيجيا مهما فبدون خريطة لا يمكن التوغل والدخول إلى هذه الأرض أو معرفة الطرقات والمسالك، فهذه المسالك كانت صعبة حتى على أهل المنطقة فما بالك بأجانب عنها لا يعرفون المكان، فمن شروط الانتصار معرفة أرض المعارك.

● المحدد الثاني الذي اهتم به دوتي هو معرفة الإنسان، حيث وجهت الدراسة باستخدام المنهج السوسيولوجي والإثنولوجي إلى معرفة العادات والتقاليد والذهنيات ومعرفة العقول والأمزجة والنفوس التي تسكن هذه المناطق الوعرة، لهذا وجه دراسته إلى الإنسان حيث حاول معرفة كل شيء عن هذا الكائن الذي تكيف مع هذه الطبيعة القاسية فمن خلال هذه الدراسة والتي استخدم فيها منهج التطورية: لتشارلز داروين 1809-1882 Charles Darwin نظرية التكيف وكذلك مناهج مدرسة مارسيل موس Marcel Mauss في فرنسا (1872-1950) والذي اشتهر بدراسة حول الأعطية والأضحية والسحر

ولا شك أن دوتي له دراسة حول الدين والسحر (والتي سنعود لكي نتحدث عنها)، مارسيل موس هو ابن أخت عالم الاجتماع دوركايم صاحب الدراسة المهمة في علم الاجتماع¹ حول "الانتحار"، و"قواعد المنهج في علم الاجتماع"، وله دراسة مرتبطة "بالأشكال الأولية للحياة الدينية" والذي سطر فيها دوركايم مناهج علم الاجتماع الديني والتي تبعتها مارسيل موس في دراسة حول المعتقدات والشعوب والديانات وحول الأمم والثقافات واللغات والشعوب.

هذه الدراسات والمناهج طبقها دوتي على مجتمع الحوز وعلى مناطق المغرب القروية، فقد اهتم بدراسة العادات والتقاليد والمشاركة فيها وقد ركزت مدرسته على المعيش اليومي والذي يعتبر محددًا أساسيًا في فكر مارسيل موس لهذا نجده يسجل أغاني الحصاد ويصوره ويصف كل ما رآته عيناه في الأسواق والأضرحة وكل المزارات

¹ عبد الله عبد الرحمن يتييم؛ "الثقافة الشعبية"، فصلية علمية متخصصة، العدد 6، 2023، البحرين، ص 2.

يسجلها ويقوم بتدوين كل ملاحظاته ويعمل على تحديدها وتفسيرها وفق المعطيات العامة أو يقوم في نهاية الأمر بتحديد الاستنتاجات الخاصة به.

ثم المرحلة الثانية حيث سينطلق من البيضاء اتجاه أزموور عبر شاوية ثم أزموور عبر دكالة، وهي مناطق وسطى للمغرب كما أنها غنية من حيث الفلاحة والخيرات كما أنها مناطق تمتاز بسهولة التنقل مقارنة مع مناطق الحوز ومرتفعاته، هكذا حدد دوتي هذه المناطق وحاول دراستها ودراسة كل ما يتعلق بالإنسان والمجال فيها.

III. نتائج الدراسة

يمكن القول أن هناك نتائج مهمة توصل إليها دوتي في هذه المناطق التي تعتبر "مناطق عذراء" لم يصلها الناس ولا العلماء ولم تكن يوما محط دراسة علمية.

تستند أطروحة دوتي إلى شيئين أساسيين:

المحدد الأول: من خلال الزيارات والرحلات التي قام بها: الرحلة الأولى، والرحلة الثانية، اكتشف دوتي أن هناك مفارقة فالمجتمع المغربي خصوصا في المجال القروي يمتاز بكونه مجتمعا فقيرا حيث يعيش الفقر والتمهيش والهشاشة في كل شيء:

1- تدني أو انعدام مستوى التعليم كانت نتائجه ظهور عقلية أولية:

2- صعوبة المناخ: ارتفاع درجة الحرارة صيفا مع ندرة المياه أو انعدامها أما شتاء فتنخفض درجة الحرارة بشكل كبير يجعل الحياة صعبة والأوضاع مزرية:

3- كما لاحظ دوتي أن الناس يسكنون في بيوت من القش وفي قرى نائية تنعدم فيها الطرق ووسائل المواصلات. إذن نحن أمام نظام اقتصادي فقير وبني هشّة لا تقبل المقاومة.

لكن المفارقة تتجسد في عادات هذا المجتمع المنغلق على ذاته والمكتفي بذاته، حيث فجأة أمام هذا الفقر تظهر قيمة البذل والعطاء فتجد هذا المزيج من أن المجتمع المغربي يقوم على معنى الشرف والسمو والرفعة، وهذا الشرف والسمو

الرفعة لا يتحقق إلا بالعطاء والبذل والتضحية وهذه المعاني كلها تتجسد في معنى الحياة والموت: الولادة/ الوفاة.

هكذا تتكاثر الجهود، والقبائل تضحي بالثروة على قلتها ونذرتها من أجل أن تقدم معنى عام وهام وهو معنى الشرف المقدس في حياة الفرد والجماعة

إذن العطاء والبذل والتكاثر الذي هو رمز الفخر والشرف وهو ما يميز المجتمع المغربي وهذا ما تحدثت عنه نظرية موس (تدمير الثروة) وما تحدث عنه دوركايم في المجتمع الآلي (مجتمع الحوز/ و مجتمع إيبنال Epinal القرية التي ولد فيها دوركايم) حيث يكثر التلاحم بالفرد هو جزء لا يتجزأ من الجماعة فكل واحد من الأفراد يمثل الجماعة بداخله كما لا ننسى نظام القرابة الذي يكون صارما حيث أن القبيلة تشارك في أب واحد روعي أو أب بيولوجي تنحدر منه القبيلة كلها. هنا تظهر ثنائية مهمة سيكتشفها المستعمر فيما بعد وهي أن هذه التضاريس الوعرة والصعبة وهذا النظام المعيشي الذي يعتمد على شظف العيش وهذا التماسك الاجتماعي (القبلي/ الدموي) سيعطي لنا إنسانا عصيا على التطويع إنسانا يمتاز بالمقاومة لا يمكن إخضاعه بسهولة كائننا يشبه الوسط الذي ولد فيه كائننا غير مدجن.

المحدد الثاني: يتجلى المحدد الثاني في دراسة مهمة قام بها إدmond دوتي وهي حول "السحر والدين في شمال إفريقيا" التي نشرت 1909¹.

فهذا الكتاب حاول فيه دوتي إبراز أن السحر سابق عن الدين وأن التظاهرات السحرية: الشعوذة، التنبؤ بالغيب، الحديث عن الجن، أو تسخير الجن، وعبادة الأرواح كلها تظاهرات مهمة كانت في إفريقيا الشمالية قبل ظهور الديانات التوحيدية التي تدعو إلى عبادة الإله الواحد وقد استعرض معنى الكهانة والعرافة ودورهما في فهم الذهنيات واعتبر أن المرأة هي التي تقبل على ممارسة الطقوس السحرية لأنه

¹ محمد أبيهي؛ قراءة في كتابه إدmond دوتي: "السحر والدين في شمال إفريقيا"، مجلة ليكسوس، العدد 41 فبراير 2022، ص 125.

يعتقد أن الدين قد أقصى المرأة، فالدين منسجم مع الطبيعة الذكورية. لهذا كان لا بد من أن تعوض المرأة هذا الإقصاء والتهميش على الساحة الاجتماعية والسياسية بالسحر والممارسات السحرية ويستشهد دوتي حتى بالحسن الوزان الذي أعطى عدد الساحرات والعرفات في فاس واستنتج نفس الملاحظة¹.

إذن الذهنيات المغربية هي ذهنيات هشّة لا تعتمد على الفكر العلمي أو التفكير المنطقي، بل هي ذهنيات خرافية تعتمد على العقل الأسطوري.

هنا نلامس اتجاهان مهمان أثرا على فكر إدmond دوتي وهو اتجاه السير جيمس فريزر James Frazer 1854-1941 صاحب كتاب الغصن الذهبي، والذي أرجع فيه أن فكرة الخوف هي المحدد الأول لظهور الدين، ذلك أن الإنسان عندما رأى هول الطبيعة (قوة البراكين، الزلازل، القحوط، والمجاعات) لجأ إلى الخوف من الطبيعة وهذا الخوف سبب له نقصان وشعورا بالعدمية لا يتم تجاوزه إلا بالعبادة وتقديم القرابين المقدسة (الحيوان، نبات، إنسان) والتي من خلالها ترضى الطبيعة على هذا الكائن والذي عوض أن تعاقبه تقوم بإثابته.

ثم المحدد الثاني الذي يمكن أن نستشف من خلاله نظرية دوتي حول السحر هو قانون كونت، قانون الحالات الثلاث حيث قسم تطور الذهنيات البشرية داخل المجتمعات إلى ثلاث حالات:

1- الحالة الأولى: اللاهوتية؛ حيث تكون الخرافة والغياب التام للفكري النقدي؛

2- الحالة الثانية: الميتافيزيقيا؛ وهي حالة تسود فيها الطوطمية؛

3- الحالة الوضعية حيث يسود الفكر العلمي والنقد المعرفي التام².

¹ محمد أبيبي؛ قراءة في كتابه إدmond دوتي: "السحر والدين في شمال إفريقيا"، مرجع سابق، ص 126.

² عبد الباسط عبد المعطي؛ "اتجاهات نظرية في علم الاجتماع"، عالم المعرفة، غشت-سبتمبر 1981، ص 90.

هكذا خلص دوتي من خلال المحددان الأول والثاني إلى أن المجتمع المغربي مجتمع هش اقتصاديا كما أن الذهنيات الفكرية والثقافية ما زالت ذهنيات بدائية-أولية.

لهذا فالمجال السوسيو-سياسي والاقتصادي والبيئي أمام فرنسا لكي تحول هذا الاكتشاف إلى معرفة وهذه المعرفة إلى استعمار من خلاله تجسد أوروبا رسالتها الحضارية اتجاه الشعوب التي مازالت بدائية إن رسالة أوروبا وفرنسا كوريثة شرعية لهذه الحضارة هي نقل المجتمعات البدائية إلى مصاف الدول المتقدمة والتي تعيش الرفاه.

هكذا بدأت آلة الإعلام الفرنسي (البروبغندا) حملتها على المغرب بحملة علمية قادها ضباط واستخباراتيون وعلماء ومستكشفون ومغامرون استهواهم المغرب المجهول الذي أرادوا جعله معلوما لكن لصالحهم ولصالح مخططاتهم وانتهى باستعمار جاثم على القرى والبوادي، استعمار يخرب الأرض والعرض.

IV. خلاصات عامة

من خلال هذا المقال يمكن أن نحدد مجموعة من الخلاصات والتي نوردها على الشكل التالي:

1- أهمية المعرفة العلمية في دراسة الشعوب ومحاولة فهم عاداتها وأفكارها وتقاليدها؛

2- المحددات العلمية تساهم في بناء معطيات لوجستكية مهمة من خلال وصف المناطق وطبيعتها الجغرافية: السهول، الجبال، الهضاب، رسم خرائط، ومعرفة وعورة الأراضي؛

3- دور المعرفة العلمية في خلق معرفة استطلاعية-عسكرية؛

4- تحديد الذهنيات ودراستها لكي يتم توظيفها بشكل جيد؛

- 5- المعرفة الجيدة تمكن كذلك من معرفة العقاب وخلق نظرية للسيطرة؛
- 6- تحديد المركزية الغربية: أوروبا المركز ≠ العالم الهامش؛
- 7- البروباغندا الإعلامية وتغذية الآلة العسكرية والايديولوجية الاستعمارية الفرنسية وإبراز دور فرنسا الحضاري والتاريخي في تثقيف الشعوب الأقل تحضرا؛
- 8- تشجيع الاستعمار الاستيطاني للمغرب وذلك بتسهيل الخدمات والاستيلاء على أجود الأراضي واعتبار المغرب بلدا مشجعا على الإقامة؛
- 9- توظيف هذه المعرفة لبيان حقيقة الصراع بين الأنا والآخر؛
- 10- ضمان استعمار واستغلال جيد وبأقل التكاليف.

خاتمة

هكذا حاولنا من خلال هذا المقال ملامسة الإشكالية التي طرحناها في البداية وبيان أن الأمر في تاريخ المغرب لم يكن سهلا، بل كان أمرا صعبا ومعقدا وأن الدراسات التي طرحها الأجانب الرحالة المكتشفون لم يكن لها طابع العلم والمعرفة ولو أنها استندت إلى نظريات علمية تدعي الموضوعية، لكنها لم تحقق مسألة الموضوعية سواء تعلق الأمر بالموضوع نفسه الذي هو الإنسان من جهة والذي اعتبر عصيا عن كل دراسة أو تمحيص علمي دقيق.

ومن جهة أخرى، فإن الإنسان الذي حاولت هذه النظريات دراسته كان المستعمر الذي حاولت الدراسات الكشف عن مكامن الضعف والقوة فيه والاعتماد عليها كي تُحكّم قبضتها عليه.

إذن الدراسات العلمية لم تكن بريئة ولا صادقة ولم يكن هدفها المعرفة العلمية البحتة، بل كانت وجهها خفيا من أوجه الاستعمار الإمبريالي الذي عرفه المغرب في بداية القرن العشرين والتي استغلته فرنسا ليس للنهوض به وبناء حضارته كما ادعت هي فيما كانت تقررره ضمن أيديولوجيتها العامة، بل ساهمت في تفقيره وهشاشته وساهمت في تفويت فرص التقدم والازدهار عليه. والأدهى أن هذه النظريات العلمية الإيديولوجية واكبت هذه الشخصية المغربية لسنوات وعقود عدة وساهمت في خلق نوع من البلبلة الهوياتية داخل المنظومة العامة للشخصية المغربية والتي مازلنا نعاني منها إلى الآن.

لائحة المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية:

- نور الدين الزاهي؛ "سوسيولوجية المجتمع المغربي"، دفاتر عدد 3، أبريل - ماي 2020.
- عبد الرحمن يتيم؛ "الثقافة الشعبية"، مجلة علمية فصيحة متخصصة، العدد 6 - البحرين 2023.
- محمد أبيهي؛ قراءة في كتاب إدموند دوتي: "السحر والدين في شمال إفريقيا"، مجلة ليكسوس، العدد 41 فبراير 2022.
- عبد الباسط عبد المعطي؛ "اتجاهات نظرية في علم الاجتماع"، عالم المعرفة، غشت - سبتمبر 1981.
- يونس الوكيل؛ "ادموندوتي: رائد الأنثروبولوجيا الدينية الكولونيالية بالمغرب"، مجلة مؤمنون بلا حدود مجلة الكترونية المغرب – التصفح، والاطلاع 16 نونبر 2023.
- جرمان عياش؛ "دراسات في تاريخ المغرب"، الشركة المغربية للنشر المتحددين، الطبعة الأولى، 1986.
- عبد الله العروي؛ "مجلد تاريخ المغرب"، المركز الثقافي العربي، الطبعة الرابعة، الدار البيضاء، الجزء الأول، 2016.
- جيرار لكرك؛ "الأنثروبولوجيا والاستعمار"، ترجمة جورج كوثرة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

المراجع باللغة الفرنسية:

- Emile Durkheim ; « les règles de la méthode sociologique », Les presses universitaires de France, 16ème édition, 1967, P 8.
- Claude Bernard ; « Introduction à l'étude de la méthode expérimentale » garnier-flammarian, 1996, P 216.

التدين الأندلسي نموذجاً للتعايش الحضاري مع الآخر

محمد لمقدم

باحث في الفقه والقانون
المغرب



مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبده ورسوله الأمين سيدنا ونبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، ونذيراً وبشيراً للناس أجمعين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه إلى يوم الدين.

أما بعد:

وجد المسلمون في الأندلس، البلد الجديد، اختلافات أعمق وأشد -لا يمكن بحال من الأحوال مقارنتها بالهجرات السابقة، كهجرتهم إلى المدينة- وفروقا ومستجدات مست جميع الأصعدة والنواحي: اللغة والاقتصاد والجغرافيا والسياسة وشعوب النصرى، الذين وجدوهم فرقا دينية متناحرة، وكذلك الشأن بالنسبة لليهود.

كل هذا أثر في طبيعة المجتمع الأندلسي، فقد حاول المسلمون التعايش والاندماج مع هذا الواقع الجديد، ومراعاة أحواله وإيجاد طرق ووسائل تمكنهم من التكيف والتأقلم معه، وهذا كان سببا في ظهور حركة اجتهادية لإيجاد فقه يلائم هذه البيئة الجديدة، ويواكب حياة المسلمين فيها، ويعالج قضاياهم الواقعية والمصلحية، وقد كان لزاما على المسلمين هناك تأسيس رؤية ثقافية على أساس الشريعة، وضرورة انبعاث دور العقل في الاجتهاد والنظر، للتكيف مع العالم الجديد، ومعالجة مشكلاته.

وهكذا ظهر فقهاء وفلاسفة ومفكرون وعلماء، فنتج بذلك ثراء فقهي وفكري وعلمي غير مسبوق.

فكان الفقه الأندلسي النموذج الأمثل في التعامل مع الواقع، فهو يعتبر فقه وقائع ونوازل بامتياز، لأنه عبارة عن تطبيقات تأثرت بالبيئة الجديدة، لهذا اختلف عن المشرق؛ لأن الفقه الأندلسي لم يهتم بالجانب العملي فقط بل اهتم بالجانب الفكري والفلسفي في الفتوى أيضاً وأعاره اهتماما كبيرا، فجل الفقهاء في الأندلس اطلعوا على الفلسفة، والفقيه الأندلسي عرف الفلسفة ومختلف اتجاهاتها الفكرية وحاول أن يمزج ذلك بالفقه مما يدل على الغنى والثراء، وهذا ما جعله يدخل في حوارات دينية مع مكونات المجتمع الذي يعيش فيه، والانخراط في مناظرات وسجلات فكرية مع التيارات الأخرى، كابن رشد الفقيه المالكي والفيلسوف العقلاني، الذي دخل في حوار مع الفيلسوف والطبيب اليهودي ابن ميمون.

إن المسلمين أسسوا حضارة عظيمة في الأندلس، تجلت في انتشار العلوم والفن والعمران، فضلاً عن الزراعة والري والصناعة والهندسة المعمارية، مما جعل البلاد آنذاك مركز إشعاع فكري وحضاري وثقافي انعكس أثره على معظم بلاد أوروبا. هذا الأمر أدى إلى خلق نوع من التبادل العلمي والمعرفي بين شعوب العالم أجمع، هذا الفضل يعود بكل تأكيد إلى الإسلام الذي كان تأثيره جلياً وواضحاً على علماء أهل الذمة من يهود ونصارى، ولا يمكن تجاهله على الرغم من بعض الكتابات الغربية الحديثة والمعاصرة، التي تحاول طمس تلك الحقبة الذهبية من تاريخ الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس، فهذه الحقبة قد استوعبت الآخر وعملت على خلق مجتمع متعايش.

الفصل الأول: الأندلس ومجتمعها

المبحث الأول: نبذة عن الأندلس

المطلب الأول: سبب تسمية الأندلس، وأول من سكنها

قال ياقوت الحموي: "الأندلس: يقال بضم الدال وفتحها، وضم الدال ليس إلّا: وهي كلمة عجمية لم تستعملها العرب في القديم وإنما عرفت في الإسلام، وقد جرى على الألسن أن تلزم الألف واللام، وقد استعمل حذفهما في شعر ينسب إلى بعض العرب، فقال عند ذلك:

سألت القوم عن أنس؟ فقالوا: ... بأندلس، وأندلس بعيد⁽¹⁾

وجاء في نفح الطيب: "قال ابن سعيد: إنّما سميت بأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح، لأنّه نزلها، كما أن أخاه سبت بن يافث نزل العدو المقابلة لها، وإليه تنسب سبته. قال: وأهل الأندلس يحافظون على قوام اللسان العربي، لأنّهم إمّا عرب أو متعربون.

وقال ابن غالب: "إنّه أندلس بن يافث، والله تعالى أعلم⁽²⁾".

"وقيل إن أول من نزل الأندلس بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلس (بشين معجمة)؛ فسميت بهم الأندلس (بالسين غير معجمة). وقيل إنهم كانوا مجوساً، فأراد الله قلعهم منها، فحبس المطر عنهم حتى غاضت مياههم وعيونهم وأنهارهم، وخرجوا منها، وافترقوا في البلاد، وأقامت خالية مائة سنة، من حدّ إفرنجة إلى البحر، ثم دخلها بعد ذلك قوم من الأفارقة، أجلاهم صاحب إفريقية من الجوع، فلما نزلوا الأندلس، وجدوا أنهارها قد جرت، فملكوها نحو مائة وخمسين سنة. وعدد ملوكهم أحد عشر ملكاً، ودار ملوكهم مدينة طالفة، ثم غلبت عليهم الإسبانية، حتى

¹ معجم البلدان، 1/262.

² نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 1/125.

أخرجوهم عن الملك، وصار الملك إليهم؛ ومهم سميت إشبيلية؛ فبنوها وسكنوها؛ وخربت طالققة. وهجم عجم رومة، فكانوا ملوكا، حتى دخل البشترلقات على الرومانيين، وقد بعث الله المسيح - عليه السلام - فبعث الحواريين إلى البلدان كلها، وظهر دين النصرانية وغلب. ثم كان دخول البشترلقات من رومة. وكانوا يملكون إفرنجة، وبيعثون عمالهم إليها. ودار ملكهم ماردة؛ فكانت عدّة ملوكهم سبعة وعشرين ملكا.

ثم ظهر بإشبيلية إشبان، وكان رجلا ضعيفا حرّاثا، فوقف به الخضر - عليه السلام - وهو يحرق، فقال له: (إذا تغلبت على إيلياء، فأرفق بأولاد الأنبياء!) فقال له: (كيف يكون هذا، وأنا ضعيف، من غير بيت ملك؟). فقال له: (يُقدر ذلك من قدر في عصاك ما قدر!). فلما نظر إلى عصاه، إذا بها قد أورقتن ففرع، وغاب عنه الخضر. ووقع ذلك بنفس إشبان؛ فلم يزل يصطنع الرجال حتى علا اسمه، وشاع ذكره، وتغلب على الأندلس؛ فخرج في السفن إلى إيلياء؛ فغنمها وهدمها، وقتل فيها مائة ألف من اليهود، وباع منهم مائة ألف، وانتقل رخامها إلى الأندلس. وكان ملكه نحو عشرين سنة، وبعد سنتين من ملكه، غزا إيلياء. ويقال إن إشبان اسمه إصيهان، لأنه ولد بإصيهان؛ فسمى بها، والله أعلم. فعدة ملوكهم خمسة وخمسون ملكاً.

ثم دخل القوط الأندلس، وقطع الله ملك رومة منها. وعدة ملوك القوطيين ستّة عشر ملكا، آخرهم لذريق، الذي دخل عليه المسلمون⁽¹⁾.

والأندلس تسمى الآن إسبانيا والبرتغال، أو ما يسمى بشبه الجزيرة الأيبيرية.

المطلب الثاني: جغرافيا الأندلس

أطلق المؤرخون والجغرافيون العرب كلمة الأندلس على شبه الجزيرة الأيبيرية، وهذه الجزيرة في الإقليم الخامس والرابع إلى المغرب، ومعظم الأندلس تقع في الإقليم الخامس ومنها في الرابع كإشبيلية، وملقاة، وقرطبة، وغرناطة والمرية ومرسية،

¹ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذاري المراكشي، 2/ 3-2

والأندلس آخر المعمور في المغرب، لأنها متصلة ببحر أقيانس الأعظم، الذي لا عمارة وراءه⁽¹⁾.

وتقع شبه الجزيرة الأيبيرية (الأندلس) في قارة أوروبا، وتحديدا في الجنوب الغربي من القارة، وتوجد في الجنوب سلسلة جبال (البورتات) التي تفصله عن الجنوب الفرنسي⁽²⁾.

أما عن تضاريس الأندلس ومناخها، فيقول الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي: "والأندلس أندلسان في اختلاف هبوب رياحها ومواقع أمطارها وجريان أنهارها: أندلس غربي، وأندلس شرقي، فالغربي منها ما جرت أوديته إلى البحر المحيط الغربي، ويمطر بالرياح الغربية، ومبتدأ هذا الحوز من ناحية المشرق مع المفازة الخارجة مع الجوف إلى بلد شنتمرية طالعا إلى حوز أغريطة المجاورة لطليطلة مائلا إلى الغرب ومجاورا للبحر المتوسط الموازي لقرطاجنة الحلفاء التي من بلد لورقة، والحوز الشرقي المعروف بالأندلس الأقصى، وتجري أوديته إلى الشرق، وأمطاره بالرياح الشرقية، وهو من حدّ جبل البشكنس، هابطاً مع وادي إبره إلى بلد شنت مرية، ومن جوف هذا البحر وغربه المحيط، وفي القبلية منه البحر الغربي الذي منه يجري البحر المتوسط الخارج إلى بلد الشام، وهو البحر المسمى ببحر تيران، ومعناه الذي يشق دائرة الأرض، ويسمى البحر الكبير"⁽³⁾.

وقد وصف الحميري في الروض المعطار الأندلس بقوله: "والأندلس شامية في طيها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جناتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها"⁽⁴⁾.

¹ صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار، الحميري، ص: 2

² التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، عبد الرحمان علي حجي، ص: 97

³ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 128/1، 129

⁴ الروض المعطار في خبر الأقطار، ص: 33

المطلب الثالث: فتح الأندلس

لا يمكن الحديث عن فتح الأندلس بمعزل عن بقية حروب التحرير التي خاضها المسلمون في سبيل إعلاء كلمة الله، ونقل رسالة السماء إلى الشعوب المضطهدة التي كانت ترزح تحت نيران القوى الأجنبية كالفرس والبيزنطيين. فلقد كان للمسلمين غاية نبيلة في الفتوح تمثلت في تحرير الشعوب الأخرى من الجهل والوثنية والتسلط الأجنبي، ثم في نشر قيم ومثل الحضارة الإنسانية التي أنارت الدرب لهذه الشعوب، وساعدت على امتزاج الثقافات، والتجارب والخبرات، خدمة للبشرية جمعاء. ولقد نجح العرب في شمال أفريقيا -كما نجحوا في غيرها من الأماكن- في كسب سكان البلاد الأصليين، أي البربر، إلى جانبهم، ووحد الإسلام بين الإثنين، فأصبحوا قوة كبيرة في المنطقة. واعتمد العرب اعتماداً كبيراً على البربر، لا سيما في عهد الوالي موسى بن نصير، حيث عهد إلى زعماء من البربر بقيادة الجيوش الإسلامية التي استمرت تؤدي رسالتها في استكمال تحرير شمال أفريقيا. وبفضل هذا التعاون الفعال استطاع المسلمون أن يحققوا فتح الأندلس⁽¹⁾، سنة 92 هـ بقيادة طارق بن زياد⁽²⁾.

وقد ذهب ابن حزم في رسالته حول فضل الأندلس إلى أنّ فاتحي الأندلس هم الجماعة الثانية المعنية في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي بشر بها ومدحها وأثنى عليها خيرًا، حيث قال: وأنا أقول لو لم يكن لأندلسنا إلا ما رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر به، ووصف أسلافنا المجاهدين فيه، بصفات الملوك على الأسرة، في الحديث الذي رويناه من طريق أبي حمزة أنس بن مالك أن خالته أم حرام بنت ملحان، زوج أبي الوليد عبادة ابن الصامت، رضي الله تعالى عنه وعنهم أجمعين،

¹ تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرائي، وعبد الواحد ذنون طه، وناطق صالح مصلوب،

ص: 23.

² الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 35/4

حدثته به عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أخبرها بذلك لكفى شرفاً بذلك⁽¹⁾، يَسْرُ عاجله ويغبط آجله⁽²⁾.

المبحث الثاني: مكونات المجتمع الأندلسي بعد الفتح

شهدت بلاد الأندلس بعد الفتح الإسلامي توافد أجناس مختلفة تفاعلت مع السكان الأصليين، فزادت في تنوعها العرقي والديني، كونت بعد ذلك مجتمعا متعايشا، تحت مظلة حكم المسلمين، وفيما يأتي بيان مكونات المجتمع الأندلسي:

المطلب الأول: العرب

دخل العرب الأندلس في شكل موجات من الجنود عرفت بالطوابع، كان أولها طالعة موسى بن نصير، "فقد عبر موسى البحر إلى اسبانيا في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر، في سفن صنعها خصيصا لذلك، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان، وذلك في رمضان سنة 93 هـ (يونيه سنة 712 م)"⁽³⁾.

¹ يشير إلى حديث أورده البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمعه يقول كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على أمّ حرام بنت ملحان، فتطعمه، وكانت أمّ حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطعمته وجعلت تُفلي رأسه، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ استيقظ وهو يضحك. قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناسٌ من أمّتي عرضوا عليّ، غزاة في سبيل الله، يركبون بُنَج هذا البحر، ملوكًا على الأسيرة، أو مثل الملوك على الأسرة». قالت: فقلت: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمّ وضع رأسه، ثمّ استيقظ وهو يضحك، فقلت: وما يضحكك يا رسول الله؟ قال: «ناسٌ من أمّتي عرضوا عليّ، غزاة في سبيل الله». كما قال في الأوّل. قالت: فقلت: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت من الأوّلين». فركبت البحرَ في زمان معاوية بن أبي سفيان، فصرعت عن دابّتها حين خرجت من البحر، فهلكت (كتاب الاستئذان، باب من زار قوما فقام عندهم، رقم الحديث: 2789).

² رسائل ابن حزم الأندلسي، 173/2.

³ دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، 39/1.

أما الطالعة الثانية فجاءت مع الحر ابن عبد الرحمن، في أربعمائة رجل من وجوه إفريقية، وكان قدوم الحر الأندلس سنة 99 من الهجرة⁽¹⁾.

وفي ركاب جيش بلج بن بشر دخلت الطالعة الثالثة وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام سنة 123 في ذي القعدة منها⁽²⁾.

وآخر الطوالع هي طالعة أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، ومعه ثلاثون رجلا سنة 125هـ، وهي الطالعة الثانية من الشاميين⁽³⁾.

"لم يقتصر دخول العرب على هذه الطوالع فقط، بل توافدوا عليها فرادى وجماعات في عهد الدولة الأموية التي شجعتهم على المجيء، ومع ذلك فإن عددهم لم يكن كثيرًا."

وليس لدينا من الوثائق ما نتمكن به من تقدير نسبة العرب في مئات السنين الثماني التي دام فيها سلطان الإسلام بإسبانية، ولكن سير الأمور يدل على أن العرب، بعد انفصال إسبانية عن خلافة المشرق، كانوا يعتمدون في بقائهم في إسبانية على تناسلهم، بل توالد العرب وسكان إسبانية الأصليون أيضًا، فكان العرب يتزوجون النصرانيات على الخصوص، فيُمدُّون بذلك دوائر حريمهم ويُديمون بذلك نسلهم، هؤلاء النصرانيات كنَّ من مختلف الأجناس، تجري في عروقهن الدم الإيبيري واللاتيني واليوناني والقوطي وغير ذلك⁽⁴⁾.

المطلب الثاني: البربر

ولى موسى بن نصير طارق بن زياد على قيادة الجيش الإسلامي المتجه إلى فتح بلاد الأندلس، لأنه جمع بين التقوى والورع والكفاءة الحربية والجهاد في سبيل الله

¹ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 25/2

² نفس المصدر، 31-30/2

³ تاريخ افتتاح الأندلس، ابن القوطية القرطبي، ص: 43

⁴ حضارة العرب، غوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيت، ص: 281-282

والرغبة في أن يموت في سبيل الله، وهو بربري ليس بعربي، وقد قدمه موسى بن نصير على العرب لما له من الكفاءة والفضل، ثم إن طارق بن زياد لكونه كان من البربر يستطيع أن يقود البربر، فليس هناك أي موانع نفسية لديه تجاه الإسلام، ثم إنه يفهم لغة البربر ويتقن الحديث باللغة العربية⁽¹⁾.

عبر الجيش بقيادة طارق بن زياد مضيق جبل طارق سنة 92 من الهجرة، وكان اجتمع لطارق اثنا عشر ألفا من البربر⁽²⁾، وقد تواصلت هجراتهم صوب الأندلس بعد ذلك. والمعروف أن استقرار البربر بالأندلس جاء نتيجة امتزاج تاريخي من أربع مجموعات.

فبالإضافة إلى المجموعة الأولى التي تعود إلى أيام الفتوح الأولى للأندلس، فتتمثل المجموعة الثانية في المجموعة التي استقدمها المنصور بن أبي عامر للخدمة في الجيش، وفي هذا الصدد يقول ابن عذارى: "وأذل قبائل الأندلس بإجازة البربر، وأخمل بهم أولائك الأعلام الأكابر؛ فإنه قاومهم بأضدادهم، واستكثر من أعدادهم، حتى تغلبوا على الجمهور"⁽³⁾.

في حين تتمثل الثالثة: في صنهاجة اللثام الذين لبوا دعوة ملوك الطوائف لردع الخطر النصراني، فأنزلوا قبائلهم في المدن والثغور⁽⁴⁾. إلى جانب الفئات السابقة الذكر يضاف إليها فئة رابعة: تتشكل من بربر العدو الذين تدفقوا على الأندلس خلال العصر المرابطي⁽⁵⁾.

¹ الأندلس من الفتح إلى السقوط، 5/2

² ينظر البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 6/2

³ نفسه، 274/2

⁴ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 121-115/4

⁵ الكامل في التاريخ، 188/9، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، 98/4

ولعل ما نلاحظه عن تواجد البربر في الأندلس أن تعدادهم كان في تزايد مستمر. وهذا ما نستنتجه من تحديد ابن الخطيب نسبة البربر إلى الأندلس في أول المائة الخامسة بنصف معشار أو أقل⁽¹⁾.

وحقيقة الأمر أن المسلمين الأول الذين دخلوا البلاد، عربا وبربرا... قد كان لهؤلاء البربر أثر عظيم جدا في انتشار الإسلام في الأندلس، فإن البربري قريب جدا من حيث المزاج والطبع –والأصل أيضا- من أهل البلاد الأصليين، وخاصة أولئك الذين كانوا يعمرن الأرياف منهم، فامتزجوا بهم دون تكلف. ثم إن البربر لم يعرفوا عصبية الجنس[...] وكانوا شديدي الحماس للإسلام، فكان الإسلام بالنسبة إليهم رمز سيادة، فأظهروا العصبية له، واجتهدوا في نشره، وأعانهم على ذلك أنهم بطبيعتهم جنس متدين شديد التعلق بعقيدته، فلا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الجماعات البربرية التي انبثت في نواحي البلاد من أكبر العوامل التي تحول أهلها إلى الإسلام⁽²⁾.

لقد رصدت لنا المعلومات المتناثرة بين المصادر أن البربر الأوائل اندمجوا في المجتمع الأندلسي، أما المتأخرون والذين كانوا في الأساس جنودا فقد كانوا أقل اندماجا في المجتمع.

المطلب الثالث: المولدون

المسلمون المولّدون من تزاوج العرب بالبربر، أو العرب بالإسبانيات والصقالبة، وكان لذلك سبب كبير، وهو أن الجيش الفاتح كان من الرجال النازحين من الشرق الذين قطعوا مسافات بعيدة حتى وصلوا إلى الأندلس، فكان طبيعياً ألا يرحل معهم عدد كبير من النساء، فاضطررتهم الحاجة إلى أن يتزوّجوا من الإسبانيات أو من البربر ويستولدوهن. وقد خرج من هذا الازدواج بين عربي وبربرية، أو عربي

¹ اعلام الأعلام فيمن يوقع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ص: 227.

² فجر الأندلس، حسين مؤنس، ص: 429-430.

وإسبانية جيل جديد مولّد، يشبه ما كان في الشرق من تزاوج بين عربي وفارسية، وقد عرف المولدون من النساء الإسبانيات بالذكاء والشجاعة والجمال، وكان لهم في تاريخ الأندلس تاريخ طويل⁽¹⁾.

وروى مؤرخو العرب أن العرب تزوّجوا في بدء الفتح ثلاثين ألف نصرانية، ولا يزال يرى في قصر أشبيلية رَذَهَةٌ تُدعى ردهة الصبايا اللائي كان النصراري يُلزمون بتقديم مائة منهن إلى أحد ملوك العرب في كل سنة كجزية، فنحن إذا ما رأينا أن هؤلاء النصرانيات كنّ من مختلف الأجناس، وأنه كان يجري في عروقهن الدم الإيبيري واللاتيني واليوناني والقوطي ... وغير ذلك، علمنا أنه نشأ عن توالد النصراري والبربر والعرب، الذي دام في بيئة واحدة قرونًا كثيرة، عرق جديد مختلف عن العروق التي فتحت إسبانية اختلافاً بَيْنًا⁽²⁾.

المطلب الرابع: النصراري

نصارى الأندلس تسميهم الوثائق المسيحية بالمستعربين كانوا يؤلفون إبان الفتح الإسلامي للأندلس أغلب سكانه⁽³⁾، "ويمكن القول إن العرب الفاتحين قد أظهروا كثيرا من الحكمة والعدل في ممارسة الحكم في الأندلس فقد كان للمسيحيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضائهم، وعُيّن لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ويجمعون الضرائب ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف، وأصبح سكان المدن لا يُكَلّفون إلا الجزية والخراج - إن كانت لهم أرض تزرع- بعد أن كانوا في عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التي تُنفق على الدولة، وكانت الجزية متدرجة على حسب منزلة المطالبين بها، فكانت تبتدئ من اثني عشر درهماً إلى ثمانية وأربعين في العام، أو من نحو ثلاثة جنيهات إلى اثني عشر، وقد قُسمت اثني عشر قسماً، يُجَبى قسط في كل شهر للتخفيف عن الرعية، أما ضريبة الأراضي التي كانت

¹ ظهر الإسلام، ص: 472

² حضارة العرب، ص: 281

³ التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، حسن أحمد النوش، ص: 40

تتفاوت على حسب قدرة إنتاج الأرض، فإنها فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعاً، ولم يكن المسيحيون على أسوأ الفروض ملزمين دفع ضرائب أكثر مما كان يدفع جيرانهم المسلمون، على أنهم قد ظفروا بحق لم يكن لهم أيام ملوك القوط، فأصبحوا في عهد الإسلام قادرين على نقل ملكية أراضيهم لغيرهم، أما التسامح الديني فلم يدع للإسبانيين سبباً للشكوى، فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود.

وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضي المسيحيون بالنظام الجديد، واعترفوا في صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الإفرنج أو القوط⁽¹⁾.

وتقلد النصارى في عصر الإمارة المناصب العليا فتولوا شؤون الدواوين ولم يتعرضوا لأية مضايقات تذكر رغم حركة العصيان التي قاموا بها في القرن الثالث الهجري⁽²⁾.

أما في عصر الخلافة فإننا نجد من النصارى من وصل في عهد "عبد الرحمن الثالث" إلى العمل في القصر، ولعل ما وصل إليه "عريب بن سعد" المعروف سابقا باسم -برشموند- لدليل على ذلك حيث كتب هذا الأخير "لعبد الرحمن الثالث" التقويم القرطبي المشهور، وقام بشغل عدة وظائف دبلوماسية في "جرمانيا" و"بزنطة"، وكوفي بتولية أسقفية البيرة⁽³⁾.

¹ قصة العرب في اسبانيا، ستانلي لني بول، ص 48-49.

² مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، إبراهيم القادري بوتشيش، ص: 70

³ الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، 2/ 971

المطلب الخامس: اليهود

إن الحديث عن اليهود في الأندلس على عهد الدولة الإسلامية يتطلب منا العودة إلى العهود الأولى لتواجدها في الأندلس. فالمعروف أن اليهود يرجع وجودهم في المنطقة إلى فترة ما قبل الفتح الإسلامي، "في العهد القوطي خاصة، في هذا العهد برز دورهم إذ كانوا يتصدرون بعض الأعمال المالية والحسابية في دواوين الحكومة غير أن القوط عادة ما كانوا يكونون لهم الكراهية بسبب اختلاف عقيدتهم، وبسبب تعاملهم بالربا، فتعرضوا لكثير من المضايقات"⁽¹⁾.

ويضيف الدكتور أحمد الظاهري: لقد تواجد اليهود في المجتمع (الاسباني) قبل الفتح العربي الإسلامي يعملون في المجال الاقتصادي ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل يعانون أشد ألوان الجور والاضطهاد وكانت الكنيسة منذ أن اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود وتتوسل إلى تحقيق غايتها بالعنف والمطاردة فأجبروا على اعتناق النصرانية أو النفي من البلاد أو المصادرة، فأعتنق النصرانية عدد منهم كرها أو رياء، ولما اشتدت الضغوط على اليهود حاولوا أن يديروا مؤامرة للقضاء على الحكم القائم إلا أن المؤامرة اكتشفت فزاد الضغط على اليهود وانتزعت أملكهم في سائر الولايات الإسبانية وشردوا وقضى عليهم بالرق الأبدي للنصارى وأن ينتزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على النصرانية⁽²⁾.

كان من أثر اضطهاد القوط لليهود أن رحبوا بقيام الدولة الإسلامية في الأندلس؛ لأن الحكومات الإسلامية قد جنحت إلى التسامح مع غير المسلمين، بل إن هذه الحكومات قد استخدمت من اليهود الكثيرين، وظفروا بالمناصب العالية

¹ في تاريخ المغرب والأندلس، أحمد مختار العبادي، ص 52

² عامة قرطبة في عصر الخلافة، أحمد الطاهري، ص: 20

والنفوذ الواسع⁽¹⁾. وحسبنا في ذلك ما وصل إليه اليهود في بعض الإمارات الطائفية كإمارة غرناطة التي أصبحوا فيها أصحاب الحل والعقد⁽²⁾.

وقد استقر اليهود في مختلف المدن الأندلسية، ويبدو أن عددا قليلا منهم قد استقر في البوادي بحكم ابتعادهم عن العمل الزراعي وتعاطيهم كليا للتجارة، وعلى هذا الأساس كان تمركزهم أكثر بالمدن المعروفة آنذاك كمحطات تجارية، أو الواقعة في طرق تجارة العبور وأهمها "غرناطة" التي كانت تعرف باسم "غرناطة اليهود" لأن نازليها من اليهود⁽³⁾.

المطلب السادس: الصقالبة

يعرف ابن منظور الصقلاب بأنه: الرجل الأبيض وقيل الأحمر ويشير إلى الصقالبة بأنهم "حمر الألوان، صهب الشعور، يتاخمون الخزر وبعض جبال الروم"⁽⁴⁾.

ويعرف السيوطي الصقالبة بقوله: الصقالبة جمع مفرده صقلب، وصقلبي بفتح أوله وسكون القاف آخره موحدة إلى الصقالبة، وهم ولد صقلب بن نبطي⁽⁵⁾.

ويعرفهم المسعودي بأنهم: هم من ولد يافث بن نوح وإليه يرجع سائر أجناس الصقالبة، فهم أجناس مختلفة فمنهم من ينقاد إلى دين النصرانية، ومنهم من لا كتاب له، ولا ينقاد إلى شريعة.

كما أن معنى كلمة صقلبي فرنسي قديم يعني عبد أو رقيق، وهو المعنى نفسه الذي استعمل في الأندلس فقد أطلق أولا على أسرى الحروب الذين كان يأسرهم

¹ المسألة اليهودية، عبد الله حسين، ص: 108

² البيان المغرب، 3/ 264

³ - الروض المعطار في خبر الأقطار، ص: 45

⁴ لسان العرب، 7/ 378.

⁵ لب الباب في تحرير الأنساب، ص: 73.

الجرمان والإسكندنافيون ويبيعونهم للأندلس⁽¹⁾، ثم توسع الأندلسيون في استعمال هذا المعنى وأطلقوه على مواليم الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوروبية⁽²⁾.

وهؤلاء الصقالبة كانوا يجلبون أطفالا، ويتعلمون اللغة العربية، ويدينون بالإسلام ويختلطون بالشعب الأندلسي ويعيشون الحياة الإسلامية، إذ كانوا يربون تربية عسكرية ويدربون على الخدمة في القصور، والانخراط في سلك الجندية ليكونوا جنودا في الحرس والجيش⁽³⁾.

وظهور فئة أبناء الصقالبة والتي تربت في المجتمع الأندلسي كان له تأثير في ذوبان هذه الفئة وسط طبقات سكان الأندلس بعد أن شاركوا في حياته الاجتماعية والثقافية حتى أن أصولهم لم يعد يشار إليها⁽⁴⁾.

الفصل الثاني: التدين الأندلسي نموذجا للتعايش الحضاري

منذ بدايات الفتح الإسلامي للأندلس، اتسمت معاملة المسلمين لغيرهم من أهل البلاد المفتوحة بالتسامح التام الذي أشاد به غير المسلمين، وكثير من المؤرخين الأوروبيين.

يقول ستانلي لين بول: "ويجب ألا يجول ببال أحد أن العرب عاثوا في البلاد أو خرّبوها بصنوف الإرهاب والظلم كما فعل قطعان المتوحشين قبلهم، فإن الأندلس لم تحكم في عهد من عهودها بسماحة، وعدل، وحكمة كما حكمت في عهد العرب الفاتحين"⁽⁵⁾.

¹ مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، ابراهيم قادري بودشيش، ص: 45.

² ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ليث سعود جاسم، ص: 58.

³ تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين عبد الرؤوف الفقي، ص: 205.

⁴ الصقالبة في أسبانيا: أصلهم ونشأتهم وعلاقاتهم بحركة الشعوبية، العبادي، ص: 30.

⁵ قصة العرب في اسبانيا، ص 48-49.

ويقول غوستاف لوبون: "واستطاع العرب أن يحولوا إسبانية مادياً وثقافياً في بضعة قرون، وأن يجعلوها على رأس جميع الممالك الأوروبية، ولم يقتصر تحويل العرب لإسبانية على هذين الأمرين؛ بل أثروا في أخلاق الناس أيضاً، فهم الذين علّموا الشعوب النصرانية، وإن شئت فقل حاولوا أن يُعلّموها، التسامح الذي هو أئمن صفات الإنسان، وبلغ جُلّم عرب إسبانية نحو الأهلين المغلوبين مبلغاً كانوا يسمحون به لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية، كمؤتمر أشبيلية النصراني، الذي عُقد في سنة 782م، ومؤتمر قرطبة النصراني الذي عُقد في سنة 852م، وتُعد كنائس النصارى الكثيرة التي بنّوها أيام الحكم العربي من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التي خضعت لسلطانهم"⁽¹⁾.

ونستشهد أيضاً برأي مهم للمستشرق والمؤرخ الأمريكي سكوت، حيث يقول: "سمح المسلمون للنصراني المتعصب لدينه بمزاولة شعائره دون أدنى تدخل، بل أكثر من ذلك سمح للملحد أن يجهر بأرائه دون أن يخشى عاقبة ذلك، وسمحوا للأحبار والرهبان بأن يزاولوا أمور دينهم في سلام، وأن ما كتبه كتاب النصارى من قيام العرب باضطهاد النصارى، ووصفهم بأفطع الأوصاف، كلها افتراءات ومبالغات لم تحدث، وما دفعهم لذلك تعصيمهم الأعلى ضد المسلمين"⁽²⁾.

وفيما يأتي استعراض لأهم مظاهر التعايش بين المسلمين والنصارى في الأندلس:

¹ حضارة العرب، ص: 290-291

² Philadelphia, 1904, P 264, Samuel Parsons Scott : History Of The Moorish Empire in Europe, Volume I

المبحث الأول: التعايش بين المسلمين والنصارى في الأندلس

المطلب الأول: التعايش مع النصارى في المجال الاجتماعي

اندفع المسلمون بشكل كبير نحو التسامح الديني والتعايش السلمي مع النصارى منذ الفتح، وذلك من خلال الاختلاط والاحتكاك المباشر، وتوجت علاقات الطرفين بقيام المصاهرات بينهما، وهو الأمر الذي أثرى الحياة الاجتماعية في الأندلس بشكل عام.

"ومن أمثلة ذلك زواج الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير بالأميرة أيله المعروفة عند الإسبان باسم Egilona أرملة رذريق Rodrigo آخر ملوك القوط، وقد تكنت بأم عاصم وأقامت معه في اشبيلية.

وهناك قصة الأميرة سارة حفيدة الملك القوطي غيطشه Witiza التي سافرت إلى دمشق وقابلت الخليفة هشام بن عبد الملك في شكاية لها ضد عمها أرطباس على ميراث أبيها. وهناك زوجها الخليفة مولاه القائد العربي عيسى بن مزاحم الذي عاد بها إلى الأندلس وأنجب منها سلالة كريمة من الأبناء والأحفاد، منهم المؤرخ المعروف أبو بكر محمد المعروف بابن القوطية (ت 267هـ) صاحب كتابي الأفعال، وتاريخ افتتاح الأندلس" ⁽¹⁾.

"لقد أصبح الزواج من إسبانيات تقليدا شائعا عند أهل الأندلس، أمراءهم وخلفاءهم وخاصتهم وعامتهم. ومن أمثلة ذلك زواج أمراء بني أمية في الأندلس من نساء البشكن والجلالقة ممن يقعن في أيديهم سبيا بسبب الحروب المتواصلة والغزوات المتتابة، إلى حد أن كثيرا من الباحثين المعاصرين يعتبرون البيت الأموي

¹ مقال بعنوان: صور من التسامح الديني والتعاون المشترك، الدكتور أحمد مختار العبادي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السادس والعشرون، مدريد 1993-1994، ص: 09.

بيتا مولدا، وإن كان هؤلاء الأمراء-الذين هم في كثير من الأحيان نتاج هذا الزواج المختلط- يعترفون بأصولهم العربية ويتغاضون عن أصولهم الإسبانية⁽¹⁾.

وبلغ عدد زوجات المسلمين من بنات الإسبان في بدء الفتح ثلاثين ألف نصرانية⁽²⁾.

وقد نتج عن طريق هذا الزواج المختلط جيل من المولدين نشأ على الإسلام وتعلم العربية واشتهر هذا الجيل المولد بصفات عدة منها: الجمال والذكاء والشجاعة⁽³⁾.

وقد ظهرت أيضا مظاهر الاندماج والتعايش في الاحتفالات، والأعياد، حيث كانت الأعياد في الأندلس كثيرة، وعلى رأسها أهم عيدين للمسلمين، وهما عيدي الفطر والأضحى، هذا علاوة على الأعياد التي استحدثت من كلا الطرفين، وكان الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من أهم الأعياد الدينية التي تلقى اهتماما واسعا في الأندلس يحضرها الرجال والنساء والأطفال هذا عن الأعياد الدينية، أما ما يمكن أن نطلق عليه الأعياد الوطنية، والتي كان يشارك فيها كل أهل الأندلس مجتمعين من رجال ونساء، مسلمين ونصارى، ومثال لذلك عيد العصير، وهو موسم جني محصول العنب، الذي يتم في جو من الغناء والمرح أيضا، وكانوا يرتدون في هذا اليوم أجمل وأبهى ثيابهم⁽⁴⁾.

وكان المسلمون والنصارى يحتفلون بالأعياد المسيحية، وبخاصة أن أعياد النصارى معروف وقتها مسبقا، فهي منتظمة طبقا للتقويم الميلادي، تأتي دائما في

¹ فجر الأندلس، ص: 376 وما يليها.

² الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة (92-422هـ)، خالد الجبالي، ص: 42.

³ المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (138هـ-422م/755-1030م)، حسين دويدار، ص: 74.

⁴ الأعياد في مملكة غرناطة، أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد الخامس عشر، 1970م، ص 140 وما يليها.

الوقت نفسه من العام، لها ميعاد ثابت، عكس الأعياد الإسلامية التي لا ترتبط بتوقيت معين من السنة، ومن أهم هذه الأعياد المسيحية التي كان يتشارك في الاحتفال بها جل الشعب الأندلسي، عيد الميلاد، أي مولد سيدنا عيسى عليه السلام، وخميس أبريل أو خميس العهد.⁽¹⁾

ومن الأعياد القومية أيضا في الأندلس عيد العنصرة⁽²⁾، وكان موعد الاحتفال به في الأندلس في الرابع والعشرين من شهر يونيو، وطقوس الاحتفال كانت عبارة عن إشعال نار كبيرة، وإيقاد بعض الشموع، وكان المسلمون يذهبون لمشاهدة تلك المناظر، بل ومشاركة النصاري في احتفالاتهم⁽³⁾.

ويعلل مشاركة المسلمين للنصاري في أعيادهم، بسبب حسن الجوار، ومخالطتهم للنصاري في التجارة، وعلاقات المودة والتسامح التي سادت بين الطرفين.⁽⁴⁾

وإذا ما انتقلنا إلى نقطة أخرى، وهي النقطة الخاصة بالزي، وهو يمثل جانبا مهما في إظهار الفروق بين الطبقات في الشعب الواحد إلى يومنا هذا، والحقيقة لم يؤثر عن الأندلسيين، أنهم فرقوا في الزي بين فئات المجتمع، كما حدث في العديد من البلدان الإسلامية، وبخاصة في عصري الإمارة والخلافة، حيث كان الحكام في بعض البلدان الإسلامية يلجؤون أحيانا إلى تمييز أهل الذمة على وجه التحديد من النصاري واليهود بلباس معين⁽⁵⁾.

¹ الحياة الاجتماعية في الأندلس، في عصر دولتي المرابطين والموحدين، 484 - 620 هـ / 1091 - 1223 م، سعيد سيد أحمد أبو زيد، ص 185.

² تاريخ الفكر الأندلسي، أنخل جنثالث بالنثيا، ص 21.

³ مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ص 212.

⁴ الدر المنظم في مولد النبي المعظم، العزقي، أبو القاسم محمد بن أبي العباس بن أحمد بن محمد، نشر وتحقيق المستشرق الإسباني: فرناندو دي لا جرانا، مجلة الأندلس، 1969م، ص: 21.

⁵ مقال: المسلمون والنصاري نموذجا للتعايش السلمي في الأندلس، راوية عبد الحميد شافع، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، المجلد 3، العدد 9، شتاء 2018، 358-359.

أما في الأندلس فلم تظهر هذه العادة، فقد كان التداخل الحضاري بين كلا الجانبين واضحاً في استخدام الأشياء نفسها.

يقول المقري: "وأما زِيّ أهل الأندلس فالغالب عليهم ترك العمام، لا سيما في شرق الأندلس، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضياً ولا فقيهاً مشاراً إليه إلا وهو بعمامة، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك، ولقد رأيت عزيز بن خطاب أكبر عالم بمرسية، في حضرة السلطان في ذلك الأوان، وقد خطب له بالملك في تلك الجهة، وهو حاسر الرأس، وشيبهه قد غلب على سواد شعره. وأما الأجناد وسائر الناس فقليل منهم تراه بعمّة في شرق منها أو في غرب، وابن هود الذي ملك الأندلس في عصرنا رأيتُه في جميع أحواله ببلاد الأندلس وهو دون عمامة، وكذلك ابن الحمر الذي معظم الأندلس الآن في يده، وكثيراً ما يتزيّ سلاطينهم وأجنادهم بزِيّ النصارى المجاورين لهم، فسلّاحهم كسلّاحهم، وأقبيتهم من الإشكراط وغيره كأقبيتهم، وكذلك أعلامهم وسروجهم" ⁽¹⁾.

المطلب الثاني: التعايش مع النصارى في المجال الإداري

أما فيما يخص التنظيمات الإدارية للطوائف المسيحية فقد تركت الحرية للمسيحيين بتنظيم شؤونهم المدنية والدينية كيفما شاءوا ⁽²⁾. فقد كانت لهم إدارة محلية يختارونها بأنفسهم ويديرها رجال منهم أطلق على كل واحد منهم لفظ "قومس" وهو لقب يقوم حامله بمهمة جليلة تجاه طائفته، وكان هؤلاء الرؤساء يحاطون بمظاهر التبجيل والاحترام، وكانوا مسؤولين أمام المسلمين عن كل ما يتصل برعاياهم النصارى فيجمعون منهم الضرائب ويفصلون فيما يحدث بينهم من نزاعات ⁽³⁾.

¹ نفح الطيب، 223-222/1

² التصوير الفني للحياة الاجتماعية في الشعر الأندلسي، ص: 41

³ نفس المرجع والصفحة.

وهذا ما أكدّه لسان الدين بن الخطيب بقوله: "استمرّ سكانهم في غمار من الروم؛ يعالجون فلاحه الأرض، وعمران القرى، يرأسهم أشياخ من أهل دينهم، أولو حنكة ودهاء ومدارة، ومعرفة بالجباية اللازمة لرؤوسهم".⁽¹⁾

أما فيما يخص الجانب القضائي فقد كان للنصارى قضاء خاص بهم بعيد تمام البعد عن تدخل الدولة في شؤونه يرأسه قاض يعرف باسم "قاضي النصارى" مهمته النظر في أمور الجنايات والنزاعات الخاصة بهم.⁽²⁾

المطلب الثالث: التعايش مع النصارى في المجال العلمي

عمل المسلمون منذ بداية الفتح الإسلامي للأندلس على خلق بيئة علمية ثقافية متسامحة تحترم الآخر كيفما كان، وكان لهذا أثره الكبير في اللقاء العلمي بين المسلمين وغير المسلمين في الأندلس، قل ما نجد له مثيلا في بلد آخر من بلدان الإسلام⁽³⁾.

وكانت طرق التواصل مع النصارى عبر محبي العلم والمعرفة والثقافة العربية الإسلامية، وفي مقدمتهم الراهب الفرنسي "جربودت دي أورباك" الذي عني بدراسة العلوم الرياضية وبرع فيها، وأصبح فيما بعد بابا روما باسم البابا سيلفستر الثاني، وله دور بارز في نشر علوم العرب في أوروبا⁽⁴⁾.

واهتم رهبان دير (سانتا ماريا دير يبول) بترجمة أعداد كبيرة من المؤلفات العلمية العربية، وأدى وجود مدارس للترجمة في الأندلس إلى اجتذاب مجموعة من رجال الفكر المنتمين إلى الأديان السماوية في الأندلس، وتعايشوا جنبا إلى جنب مع

¹ الإحاطة في أخبار غرناطة، 21/1.

² في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، عبد العزيز سالم، ص 176.

³ فجر الأندلس، المقدمة: هـ

⁴ أثر الحضارة العربية في الأندلس، السامرائي، ص: 474.

المسلمين خلال أعمال الترجمة، وحتى اللغة الإسبانية استفادت من الاستعارات اللغوية من اللغة العربية⁽¹⁾.

لقد برع بعض النصارى في مجالات مهمة كالترجمة والتأليف في اللغة العربية ومنهم قسطنطين الأفريقي، نزيل قرطبة المتوفى سنة 480هـ، والذي يعد من أقدم المترجمين للمؤلفات العربية ولاسيما الطبية منها.

وقد توجه النصارى لدراسة اللغة العربية وعلومها وآدابها لرغبة في تبوء المناصب الإدارية العليا في الدولة العربية في الأندلس وهذا لا يمكن بلوغه إلا بتعلم اللغة العربية، وقد أشارت الروايات التاريخية إلى تبوء بعض النصارى المناصب الإدارية ولاسيما الوزارة، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر يحيى بن إسحاق الذي استوزر في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر⁽²⁾.

وفضلا عن ذلك فإن ما حازته المراكز العلمية والثقافية في الأندلس من شهرة علمية وثقافية مرموقة، جعلها تستقطب وتجذب كثير من العقول المسيحية الوافدة من أوروبا ومنها الحاضرة قرطبة التي كانت محطة علمية لكثير من النصارى⁽³⁾.

ولم يقتصر اهتمام النصارى في المجال التأليفي والترجمة إنما امتد ليشمل مجالات مهمة في الأدب والشعر، إذ ذكرت الروايات التاريخية أن بعض النصارى قد نشطوا في دراسة الشعر العربي ولاسيما الغنائي منه على وجه الخصوص وبمرور الوقت نشأ ضرب من الشعر العامي القشتالي استخدمه المسيحيون في

¹ الإبداع الحضاري للمسلمين في الأندلس في عهدي الإمارة والخلافة، مجدي خليل محمد البردويل، نسخة pdf، رسالة ماجستير، سنة 2014، غير مطبوعة.

² العلوم الفيزيائية والطبيعية في الأندلس، فينيه اخوان، ترجمة أكرم دنون، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلى الجيوسي، 1297/2

³ قصة العرب في اسبانيا، استانلي، لين بول، ترجمة عفيف البعلبكي، ص: 134

الأناشيد الدينية وأعياد الميلاد، وقد أشارت الروايات أيضا إلى وجود تأثير كبير للموشح الأندلسي في ظهور هذا الضرب من الشعر⁽¹⁾.

المبحث الثاني: التعايش بين المسلمين واليهود في الأندلس

المطلب الأول: التعايش مع اليهود في المجال الاجتماعي

عاش اليهود داخل المجتمع الإسلامي في الأندلس أكثر من ثمانية قرون، فتأثروا بعادات المسلمين وتقاليدهم. لكنّ عيشهم في تجمعات أو أحياء خاصة بهم، والسماح لهم بممارسة عاداتهم وتقاليدهم وشعائهم الدينية داخلها، مكنهم من المحافظة على كثير من العادات والتقاليد اليهودية.⁽²⁾

يمكن القول إن تفاعل الجماعة اليهودية مع الحضارة الإسلامية أمر لا نظير له في أية حضارة أخرى، لأنها أعطت لهم وسيلة الحياة ومنهج النقد وفهم التطورات الإنسانية خلال العصور الوسطى، فخرجوا من دوائهم الضيقة إلى عالم أرحب.⁽³⁾

فالنصوص التاريخية تشير إلى تعايش وتفاعل كبير بين المسلمين واليهود في الأندلس. كالنازلة التي وردت في فتاوى ابن رشد أن أحد اليهود سكن بجوار مسلم وشربهما معا من بئر واحدة،⁽⁴⁾ كما أوردت لنا الأمثلة العامة ما يكشف عن تعامل اليهود مع المسلمين يوميا، وهذا ما خلق التواصل والاندماج فيما بينهم، ولعل ما يؤكد هذا الاندماج في المجال التجاري أن "صاحب المعيار" أورد فتوى تعالج شكوى من باعة جوالين يهود تتحدث خاصة عن سهولة وصولهم إلى النساء في البيوت لبيعهن البضائع⁽⁵⁾، وقد دلت هذه الشكوى على تحرك اليهود في الوسط الاجتماعي.

¹ علاقة الإمارة الأموية في الأندلس مع الممالك النصرانية في إسبانيا، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2001م، ص: 145.

² اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، خالد يونس الخالدي، ص: 269.

³ اليهود في المغرب الإسلامي، كواتي مسعود، ص: 295.

⁴ ينظر: فتاوى ابن رشد، 1/ 605.

⁵ ينظر: المعيار، 53/7.

كما تُركَّ يهود الأندلس يتسمَّون بأسماء عربية، فتسمى كثير منهم بأسماء مشتركة وردت في كلِّ من التوراة والقرآن، لكنهم تقيَّدوا بالنطق العربي للاسم، فتسموا بموسى، بدل موشي، وإبراهيم، بدل أبراهام، وهكذا، كما تسموا بأسماء عربية خالصة، حتى في معناها مثل سَهْل، وبَسَّام، ويعيش، وعبد الصمد، ونسيم، كما أطلق الكثير من يهود الأندلس على بناتهم أسماء عربية⁽¹⁾.

المطلب الثاني: التعايش مع اليهود في المجال الإداري

فيما يخص المجال الإداري لدى الطائفة اليهودية فإن لليهود الحقوق نفسها التي كانت للنصارى في انتخاب رؤسائهم الذين يراعون فيها أقدارهم وأعرافهم بشؤون مذهبهم⁽²⁾.

ومثلما قام الحكام الأمويون بتعيين القومس ليكون رئيساً للطائفة النصرانية، قاموا كذلك بإيجاد منصب لقائد الطائفة اليهودية. وكان لقب صاحب هذا المنصب هو "ناسي" (NASI)، كان المنصب الثاني الذي يلي منصب الناسي في الأهمية هو منصب كبير الأحرار أو الحاخام الأكبر كما سُمِّي لاحقاً، وبعد منصب الحبر الأعظم، يأتي منصب القاضي، أو الديَّان كما يسمِّيه اليهود، وكان الناسي هو الذي يعيِّن القضاة اليهود في المدن الأندلسية، ولكنَّ هذا النظام تغيَّر فيما بعد، حيث تُظهر فتاوى أحرار اليهود منذ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي أنَّ القضاة صاروا ينتخبون انتخاباً⁽³⁾.

ويتم تقاضي الطائفة اليهودية أمام محاكمهم الخاصة فيما يخص نزاعاتهم وقضاياهم التي ليس فيها طرف غير يهودي دون تدخل إدارة الدولة في شؤونها،

¹ اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، خالد يونس الخالدي، ص: 272-273

² الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، عبد العزيز بنعبد الله، ص: 121

³ اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، خالد يونس الخالدي، ص: 336-339-345

ولقضاءهم كامل الحرية والصلاحيات في تقدير وتطبيق ما يصدرونه من أحكام وعقوبات على بني ملتهم⁽¹⁾.

وكانت الخلافات التي تقع بين مسلم ويهودي في الأندلس تحال إلى المحاكم الإسلامية. أما قضايا اليهود فيما بينهم، فيترك الأمر فيها للمتخاصمين، فإمّا أن يذهبوا إلى المحاكم اليهودية، أو يتوجهوا إلى المحاكم الإسلامية.⁽²⁾

"ومن المناصب الإدارية داخل الطائفة اليهودية، منصب الحزان، وهو فيهم بمثابة الخطيب يصعد المنبر، ويعظهم. وكان لكل كنيس يهودي حزان خاص، ومن مهماته أيضاً الإنشاد وإمامة المصلين في المناسبات الدينية. واشترط أحبار اليهود أن يكون الحزان متعلّماً، صاحب سمعة جيّدة، وصوت جميل، ومجيداً للأناشيد العربية.

ومن التنظيمات الإدارية المهمة للطوائف اليهودية في الأندلس، وجود مجلس في كلّ مدينة توجد فيها طائفة يهودية، يشرف على إدارة شؤون الطائفة في المدينة، ويتكوّن هذا المجلس من سبعة أشخاص، وكان اليهود يسمونهم "الشيوخ"، وهم يصلون إلى هذا المجلس بالانتخاب، ومدة بقاء هذا المجلس سنة واحدة، تحسب بالتقويم اليهودي، وقد أخذ يهود الأندلس هذا التنظيم الإداري عن الرومان الذين اعتمدوا في إدارة مدنها على مجلسٍ منتخب من أبناء تلك المدن، وقد مارس اليهود هذا التنظيم منذ عهد الحكم الروماني لإسبانيا، وتمسكوا به في عهد القوط، ولم يتركوه إلّا بعد أن اشتدّ عليهم اضطهاد القوط الكاثوليك، ثم عادوا إليه طوال مدة الحكم الإسلامي للأندلس. ومن بين مهمات مجلس الطائفة أو الشيوخ، أن يُشرّع مجموعة من القوانين، ويطالب اليهود باحترامها والالتزام بها، وكان أحبار اليهود يوصون بطاعة هذه القوانين باعتبارها قائمة على الشريعة اليهودية، وقد سُمّيت

¹ المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، إبراهيم حركات، ص: 146

² تاريخ قضاة الأندلس (المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، أبو الحسن الجذامي، ص: 56-57.

مجموعة القوانين التي يصدرها المجلس (TAKKANOT)، وهي كلمة عبرية، كما سميت أيضاً (الضوابط)⁽¹⁾.

المطلب الثالث: التعايش مع اليهود في المجال العلمي

أصبحت بلاد الأندلس بعد استقرارها من بين أهم المراكز العلمية والفكرية في الدولة الإسلامية، إذ استقطبت مدارسها ومنتدياتها العلمية علماء كبار من مختلف المناطق والمدن والأقاليم، ومما ساعد في ذلك توافر البيئة العلمية والثقافية، فضلاً عن التشجيع المنقطع النظير الذي وجده العلماء الوافدون إليها من قبل الخلفاء والأمراء، مما جعلها تسمو في مجال المعرفة.

ومما لا شك فيه، فإن تسليط الضوء على صور من اللقاء العلمي بين المسلمين وغير المسلمين في الأندلس، وإسهاماتهم في الحياة العلمية والفكرية، يؤشر بوضوح إلى تحديد مواطن التأثير العربي والإسلامي، والمدى الواسع لهذا التأثير في مختلف فئات المجتمع الأندلسي، فضلاً عن أنه مؤشر مهم للتأثير المتبادل بين الشعوب، وهذا في الواقع يدعو إلى إيجاد بيئة علمية وثقافية متعايشة ومتسامحة كالتى كانت في بلاد الأندلس بعد الفتح الإسلامي لها، والتي ظلت على صلتها العميقة ببيئتها المشرقية، وعلى اعتدالها فيما يتعلق باحترام الآخر كيفما كان.

أما عن اليهود فقد عملوا على جعل مدينة قرطبة مركزاً علمياً وفكرياً للدراسات اليهودية⁽²⁾، وجل العلماء اليهود قد تخصصوا في علوم اللغة وآدابها حتى أن بعضهم صار حجة في بعض مواضيعها، ولعل مروان بن جناح اليهودي القرطبي المتوفى سنة 441هـ، يقف في مقدمتهم وقد كرس جهده لدراسة ظواهر

¹ اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، ص: 349-350

² اليهود في الأندلس، محمد بحر عبد المجيد، ص: 23

اللغة العبرية وكانت نتيجة بحثه كتاب "اللمع" وأضاف إليه كتاباً آخر هو "معجم للعهد القديم" سماه "الأصول" والكتابان يتتمان بعضهما لفهم اللغة العبرية⁽¹⁾.

ونذكر كذلك سليمان بن جبرول اليهودي المتوفى سنة 442هـ، فقد تخصص في ميدانين خصبين هما اللغة والشعر⁽²⁾.

ومن المؤلفين اليهود الذين ساروا على نهج المؤلفين العرب والمسلمين موسى بن يعقوب المتوفى سنة 459هـ، صاحب كتاب "المحاضرة والمذاكرة"، ولم تكن الجوانب الاجتماعية بعيدة عن مؤلفه، إذ سلك فيه نهج التنوخي، علي بن محمد المتوفى سنة 384هـ، في كتابه "نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة"، من ناحية المعالجة التاريخية والاجتماعية⁽³⁾.

ويعكس النتاج العلمي والثقافي لليهود والذي فاق نتاج النصارى كماً ونوعاً قدرتهم على التعلم بسرعة والتكيف مع الحياة العلمية المبدعة السائدة في بلاد الأندلس ولا سيما قرطبة، ومما يدل على ذلك الترجمات الكثيرة لعدد غير قليل من المؤلفات العربية من دون تغير في محتواها إلى لغتهم العبرية، وهذه ولا شك عملية غاية في الدقة والصعوبة⁽⁴⁾.

خاتمة

نعلم أن معرفة التدين الأندلسي سيظل في حاجة إلى مساحة أكبر من هذا البحث وسيجعل من المستحيل أن نستوعب كل ما يمكن أن يكتب فيه في مثل هذه المساحة المرصودة له في هذه الإسهامة، لذا فسأحاول قدر المستطاع أن أشير إلى ما يمكن استفادته من هذه التجربة التاريخية:

¹ عيون الأنبياء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، ص: 457

² يهود الأندلس والمغرب، الزعفراني حاييم، ترجمة، أحمد شحلان، ص: 151

³ التراث العبري اليهودي في المغرب الإسلامي، أحمد شحلان، ص: 64

⁴ تراث الاسلام، جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، ترجمة: حسين مؤنس، 217/2.

1. معرفة التدين الأندلسي يساعدنا على إبداع نموذج لتعايش المسلمين اليوم في العالم المعاصر، ويفيدنا في خلق عقلية مشاركة تتفاعل مع الآخرين وتتعاون معهم من أجل بناء حضارة إنسانية.
2. المسلمون في الأندلس كانت عندهم قدرة على معرفة الواقع الذي يعيشون فيه وعلى التأقلم معه.
3. علماء الأندلس دخلوا في حوار مع المجتمعات التي يعيشون فيها ومع مكوناتها الدينية، حيث صنفوا وترجموا كتباً عديدة في هذا المجال، ودخلوا في مناظرات وسجلات علمية. وسيكون من المهم اليوم الاهتمام العلمي بالأديان الأخرى ويكون للمسلمين إسهامات في حوار الأديان.
4. الفقيه الأندلسي كانت له متابعة وإحاطة بكل الأمور فيما يتعلق بالتيارات والمعتقدات وغيرهما، والفقيه المعاصر يجب أن ينتهج منهج فقهاءنا بالأندلس في هذا المجال، علماً بأن الفقيه المعاصر يتجاوز الفقيه الأندلسي في الإمكانيات المتاحة اليوم التي تتيح له الاطلاع على أكبر قدر من المعلومات في وقت وجيز، ونتائج أبحاثه تعرض وتنتشر في العالم في وقت وجيز كذلك، عبر استخدام الوسائل الحديثة، وهذا يحمله مسؤولية أخرى تجاه ما سيخرجه.
5. وجود المسلمين بأعداد كبيرة في العالم الغربي يمكن أن يشكل أساساً للتفاهم والتعاون بين الإسلام والغرب وفرصة للتفاعل وتبادل الأفكار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية كما حدث في الأندلس.

لائحة المصادر والمراجع

- المصحف الشريف، برواية ورش عن نافع.

المصادر والمراجع باللغة العربية:

- ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، لليث سعود جاسم، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، مصر، الطبعة الثانية، 1988م.
- الأحكام السلطانية للفراء، القاضي أبو يعلى، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (ت 458هـ)، صححه وعلق عليه: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية - بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، 1421 هـ - 2000 م
- الأحكام السلطانية، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت 450هـ)، دار الحديث، القاهرة.
- أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (ت 543هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، 1424 هـ - 2003 م.
- الإسلام والتفاهم والتعايش بين الشعوب، لهاني المبارك وشوقي أبو الخليل، دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، (1996م).
- أصول الدين، عبد القاهر بن طاهر البغدادي، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1423هـ - 2002م.
- إعلام الأعلام فيمن بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام، للسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: ليفي بروفنسال، دار المكشوف الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، (1956م).
- الأعياد في مملكة غرناطة، لأحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، المجلد الخامس عشر، (1970م).

- انبعاث الإسلام في الأندلس، لعلي المنتصر الكتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (2005م).
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي، أبي عبد الله محمد بن محمد (ت 695هـ)، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، (1983 م).
- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في المسائل المستخرجة، وضمنه: المستخرجة من الأسمعة المعروفة بالعتبية، لمحمد بن أحمد بن رشد القرطبي، أبي الوليد (ت 255 هـ)، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية، (1408 هـ - 1988م).
- تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون، المحقق: خليل شحاده - سهيل زكار، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط 1421هـ/ 2000م.
- تاريخ افتتاح الأندلس، لمحمد بن عمر القرطبي المعروف بابن القوطية (ت 367 هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية، (1410هـ - 1989م).
- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، 1413 هـ - 1993 م.
- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، لعبد الرحمان علي حجي، دار القلم، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، (1976م).
- تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، لخليل إبراهيم السامرائي، وعبد الواحد ذنون طه، وناطق صالح مصلوب، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (2000 م).
- تاريخ الفكر الأندلسي، لأنخل جنثالث بالنثيا، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة النهضة

- المصرية، الطبعة الأولى، القاهرة، 1955م.
- تاريخ المغرب والأندلس، لعصام الدين عبد الرؤوف الفقي، القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، دت.
 - تاريخ علماء الأندلس، لعبد الله بن محمد بن يوسف المعروف بابن الفرضي (ت 403 هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتب اللبنانية، الطبعة الأولى، (1983م)
 - تاريخ قضاة الأندلس (المراقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)، أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن محمد ابن الحسن الجذامي النباهي المالقي الأندلسي (ت نحو 792هـ)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة – بيروت، لبنان، الطبعة: الخامسة، 1403هـ - 1983م.
 - تجديد الإنسانية بعد الصراع الأثني، لإنطونيا نسايز ومارثا ميناو، ترجمة: فؤاد السروجي، دار الأهلية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (2006م).
 - تراث الاسلام، لشاخت وبوزورث، ترجمة حسين مؤنس، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، (1988م).
 - التراث العبري اليهودي في المغرب الإسلامي، لأحمد شحلان، منشورات وزارة الأوقاف، المغرب، (2006م).
 - تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (ت 403هـ)، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية – لبنان، الطبعة: الأولى، 1408هـ - 1987م.
 - حضارة العرب، لغوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيت، الناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، الطبعة الأولى، (2012م)
 - الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، لسلي الخضر الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، (1998م).

- الحياة الاجتماعية في الأندلس: في عصر دولتي المرابطين والموحدين، (484 - 620 هـ / 1091 - 1223 م) ، لسعيد سيد أحمد أبو زيد، طبعت الرسالة: كلية الآداب، جامعة المنوفية، الطبعة الأولى، 1996م.
- الدر المنظم في مولد النبي المعظم، العزفي، أبو القاسم محمد بن أبي العباس بن أحمد بن محمد، نشر وتحقيق المستشرق الإسباني: فرناندو دي لا جرانخا، مجلة الأندلس
- دولة الإسلام في الأندلس، لمحمد عبد الله عنان، مطبعة المدني، القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة، (1997م).
- الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي (204 هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، الطبعة: الأولى، طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاد - مصر، 1357 هـ - 1938 م.
- رسائل ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (ت 456هـ)، تحقيق: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة: 1، 1978م.
- الروض المعطار في خبر الأقطار ، لمحمد بن عبد الله بن عبد المنعم الحميري (ت 900هـ)، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، لبنان، مطابع دار السراج، الطبعة: الثانية، (1980م).
- الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة (92-422هـ)، لخالد الجبالي، مكتبة الآداب، القاهرة، (د-ت).
- شرح تنقيح الفصول، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (ت 684هـ)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة، الطبعة: الأولى، 1393 هـ - 1973 م
- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري (ت256هـ)، الطبعة الثانية، عالم الكتب، بيروت- لبنان، 1982م.
- صفة جزيرة الأندلس منتخبة من الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد بن عبد الله بن

- عبد المنعم الجُميرى (ت 900هـ)، تحقيق: ليفي بروفندسال، مطبعة دار الجيل، بيروت، الطبعة الثانية، 1988م
- الصقالبة في أسبانيا: أصلهم ونشأتهم وعلاقاتهم بحركة الشعوبية، لأحمد مختار العبادي، وزارة المعارف العمومية، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، (1953م).
 - ظهر الإسلام، لأحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر - القاهرة، الطبعة الأولى، (2013م).
 - عامة قرطبة في عصر الخلافة، لأحمد الطاهري، منشورات عكاظ، الرباط - المغرب، (1989م).
 - العبدة مما جاء في الغزو والشهادة والهجرة، المحقق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول أبو هاجر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ/1985م.
 - العلوم الفيزيائية والطبيعية في الأندلس، لفينيه اخوان، ترجمة: أكرم ذنون، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمي الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، (1999م).
 - عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لأحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين، أبي العباس ابن أبي أصيبعة (ت 668هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، (1998م).
 - غياث الأمم في التياث الظلم، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (ت 478هـ)، تحقيق: عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، الطبعة: الثانية، 1401هـ
 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لشهاب الدين ابن حجر العسقلاني؛ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني (ت 852هـ)، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز - محمد فؤاد عبد الباقي - محب الدين الخطيب، دار المعرفة، دار المعرفة - بيروت، (1379هـ).
 - فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية 711-

- 756م، لحسين مؤنس، دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الرابعة، (2008م).
- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، لعبد العزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (1985م).
- قصة العرب في إسبانيا، للين بول استانلي، ترجمة عفيف البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، (1999م).
- الكامل في التاريخ، لعلي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، مراجعة وتصحيح محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، (2003م).
- لب الباب في تحرير الأنساب، جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، وأشرف عبد العزيز، ط:1، بيروت، دار الكتب العلمية، 1991.
- لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن علي، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت 711هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، (1414 هـ).
- مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، لإبراهيم القادري بوتشيش، دار الطليعة، بيروت- لبنان، خالية من رقم الطبعة والتاريخ.
- المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط، لإبراهيم حركات، بيروت، لبنان، (طبعة: 1998م)
- المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (138هـ-422م/755هـ-1030م)، لحسين دويدار، مطبعة الحسن الإسلامية، القاهرة، مصر، (1994).
- المدخل، لمحمد بن محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج (ت 737هـ)، دار التراث، بدون طبعة وبدون تاريخ.
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، لعلي بن الحسين بن علي المسعودي (ت 346هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، (1989م).

- المسألة اليهودية، لعبد الله حسين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، الطبعة الأولى، (2014م).
- المستصفي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت 505هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، 1413هـ - 1993م.
- معجم البلدان، لشهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت 626هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، (1995 م).
- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، لإبراهيم مصطفى، وأحمد الزيات، وحامد عبد القادر، ومحمد النجار، دار الدعوة، (د.ت)
- معجم مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي (ت 395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (طبعة 1399هـ - 1979م).
- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، لأحمد بن يحيى الونشريسي (ت 914هـ)، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، (1401هـ/1981م).
- الموافقات، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي (ت 790 هـ)، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، تقديم بكر بن عبد الله أبو زيد، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، 1417 هـ - 1997 م
- الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، عبد العزيز بنعبد الله، معلمة الصحراء، مطبوعات وزارة الثقافة والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المغرب، (1976م).
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت 1041هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، (1997م).
- الوثائق المختصرة، لمحمد بن أحمد أبي إسحاق الغرناطي (ت 579هـ)، إعداد: مصطفى ناجي، مركز إحياء التراث المغربي، الرباط، المغرب، (1988م).

- يهود الأندلس والمغرب، لحاييم الزعفراني، ترجمة: أحمد شحلان، مطبعة النجاح، الرباط، د.ت.
- اليهود تحت حكم المسلمين في الأندلس، لخالد يونس الخالدي، مطبعة دار الأرقم، غزة، فلسطين، الطبعة الأولى، (2011م).
- اليهود في الأندلس، لمحمد بحر عبد المجيد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، (1970م).

الرسائل والأطاريح الجامعية

- علاقة الإمارة الأموية في الأندلس مع الممالك النصرانية في أسبانيا، رسالة ماجستير تقدمت بها الطالبة: سائدة عبد الفتاح أنيس سويلم، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، 2001م، تحميل من موقع الجامعة.

البحوث والمقالات

- صور من التسامح الديني والتعاون المشترك، لأحمد مختار العبادي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد السادس والعشرون، مدريد 1993-1994
- المسلمون والنصارى نموذجا للتعايش السلمي في الأندلس، لراوية عبد الحميد شافع، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، المجلد 3، العدد 9، شتاء 2018م.

Références bibliographiques

ROBERT Jean-Pierre, ROSEN Evelyne, REINHARDT Claus, (2011) « Faire classe en FLE », Paris, Hachette.

Cadre européen commun de références pour les langues (2001), Apprendre-enseigner-évaluer, Paris, Editions Didier.

Cuq, J-P., (dir.), (2004). Dictionnaire de didactique du français langue étrangère et seconde, Paris, Asdifle, CLE International.

Weiss, F. (2002). Jouer, communiquer, apprendre, coll. Pratiques de classe, Paris, Hachette.

De Vecchi, G. (2010). Aider les élèves à apprendre. Paris : Hachette Éducation.

Bertocchini P., Costantanzo E. (2011). La notion d'autonomie In : "Le Français dans le monde", n° 374, p. 26-27.

De Vecchi, G. (2010). Aider les élèves à apprendre. Paris : Hachette Éducation.

B. L'apport des Sciences de l'Information et de la Communication

L'approche pédagogique dans l'enseignement devrait suivre les changements réalisés par les SIC (Sciences de l'Information et de la Communication) dans l'Internet depuis sa création. Au début, leWeb1.0 avait une forme linéaire de communication. Il proposait sur des sites des savoirs que les usagers devaient utiliser sans aucune réaction. Ils avaient un comportement passif. Par contre le Web 2.0, plus récemment, propose une approche plus dynamique où l'utilisateur est plus actif. Il réagit aux informations proposées par les sites Web. Il devient un acteur principal dans la diffusion de l'information et dans la communication. La communication prend une forme pluridimensionnelle.

Conclusion

Cette transformation est primordiale pour l'enseignement des langues dans l'université marocaine. Il était temps de s'adapter aux nouvelles conditions de l'apprentissage des langues à l'échelle internationale. Elles demandent de l'audace, de l'abnégation et beaucoup de travail de la part des enseignants chercheurs. E

En effet, il s'agit d'une nouvelle vision dans l'enseignement des langues. Les autorités de tutelles doivent s'investir également pour encourager les enseignants en leur permettant, particulièrement, d'accéder facilement aux nouvelles technologies de l'information et de la communication.

compétences linguistiques mais aussi une compétence culturelle, puisque tout acte de parole est aussi un acte culturel.

Une langue est une pratique culturelle d'une société dans laquelle les mots possèdent une « charge culturelle partagée », c'est à-dire une charge culturelle commune à tous les membres d'une culture.

La culture est composée de deux parties : une partie visible (la cuisine, les traditions, la littérature etc.) et une partie cachée (les croyances, les valeurs, etc.) Dans l'enseignement-apprentissage du français langue étrangère, l'enseignant ne devra pas seulement apporter des contenus culturels mais il devra aider l'étudiant à décoder certains comportements culturels et à les comprendre.

III. Le nouveau rôle de l'enseignant

A. Pendant le cours, l'enseignant est...

- Facilitateur d'apprentissage : il présente les objectifs du cours. Il aide les apprenants à acquérir des stratégies d'apprentissage et à devenir autonomes ;

- Il est expert : il donne des explications sur l'utilisation de la langue, répond aux questions, tranche en cas de doute sur un point précis, il rassure les apprenants;

- il est animateur : il invite les apprenants à réaliser les exercices, il anime les activités de communication orale ou écrite, les débats, les jeux de langue. Il s'efforce de rendre le cours agréable et productif ;

- Il est technicien : il utilise les équipements disponibles dans la salle de classe (lecteur de CD, vidéoprojecteur, ordinateur, tableau numérique interactif) ;

- Il est évaluateur : il évalue le progrès et les difficultés des apprenants ainsi que son propre travail, il gère le contrôle continu et les examens.

Comme dans tout métier, l'enseignant de langue cherchera aussi à développer ses compétences tout au long de sa vie professionnelle. Il développera par exemple, ses savoirs, c'est-à-dire les contenus qu'il doit enseigner ;

Sans avoir-être, autrement dit, l'attitude qu'il adoptera en fonction de chaque public ;

Son savoir-faire, c'est-à-dire sa capacité à utiliser différents moyens pour aider les apprenants à apprendre.

B. Comprendre la notion de tâche

Tout acteur social accomplit, dans une situation donnée, des actions en vue de parvenir à un résultat déterminé. L'ensemble de ces actions motivées par un besoin suscité par une situation donnée constitue une tâche.

Exemple : l'étudiant doit se préparer à un entretien professionnel.

Ici, nous avons bien un verbe d'action « se préparer » et l'objectif actionnel, c'est de réussir un entretien professionnel. Pour accomplir cette tâche, l'étudiant, doit certainement :

- Répondre à des questions formelles
- Parler de ses études et de son parcours professionnel
- Lister les principaux éléments ou événements liés à son parcours
- Réaliser l'entretien professionnel

Dans cet exemple, l'étudiant doit faire des choix en fonction de certaines contraintes. Ici, l'important n'est pas seulement d'être capable de communiquer mais d'être capable de mobiliser des connaissances linguistiques (des savoirs) et des capacités langagières (des savoir-faire) pour réaliser la tâche.

Comment l'enseignant peut-il faire pour l'intégrer dans ses pratiques en classe de langue ?

Il pourra proposer aux étudiants des tâches concrètes dans lesquelles ils seront amenés à résoudre des situations à problèmes. Les activités d'enseignement-apprentissage seront donc contextualisées (une situation que chacun de nous pourrait rencontrer dans sa vie professionnelle de tous les jours).

Elles poseront un certain nombre de problèmes :

Elles seront finalisées (l'objectif sera de résoudre les problèmes).

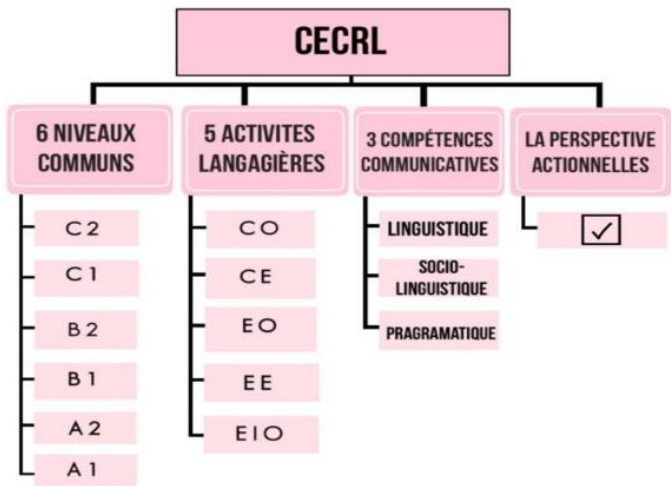
Elles seront complexes (elles nécessiteront la mobilisation de différents savoirs, savoir-faire, savoir-être). Et elles donneront un résultat (langagier).

Ainsi, en apportant des contraintes et en les laissant libres dans le choix des ressources, l'enseignant permettra aux étudiants de développer des stratégies pour qu'ils deviennent de plus en plus autonomes.

Dans l'approche actionnelle, l'étudiant communique pour agir avec une personne et doit comprendre sa culture du quotidien pour interagir avec elle. Donc, pour communiquer dans une langue étrangère, l'étudiant doit acquérir des

- Au niveau A2, il peut échanger des informations simples sur des sujets familiers et habituels.
- Au niveau B1, il peut se débrouiller dans la plupart des situations rencontrées en voyage, raconter un événement, une expérience, défendre un projet ou une idée.
- Au niveau B2, il peut communiquer avec aisance et spontanéité dans les situations habituelles. Il est assez autonome pour développer des arguments, pour défendre son opinion, expliquer son point de vue et négocier.
- Au niveau C1, il est autonome. Il peut s'exprimer couramment et spontanément. Il peut sans hésitation tenir un discours clair et bien construit.
- Au niveau C2, il peut comprendre sans effort pratiquement tout ce qu'il lit ou entend. Pour chaque niveau, le cadre européen commun de référence pour les langues décrit des compétences en distinguant cinq activités langagières : Lire, écrire, écouter, parler en continu et parler en interaction.

Le chapitre 2 du CECRL est consacré à la perspective actionnelle : il s'agit d'une nouvelle approche pour apprendre et enseigner les langues vivantes. Schéma descriptif des six niveaux de compétence en langue étrangère :



- Elles partent de documents authentiques, quotidiens et actuels.
- Elles qualifient l'enseignant en tant que guide, conseiller et accompagnateur, ne le considèrent pas uniquement comme une autorité savante
- Elles permettent aux étudiants le travail coopératif, du coup, elles développent leur compétence sociale.



II. La condition essentielle pour l'obtention d'une licence

Elle est liée au niveau B2. Le Centre Européen Commun de Référence pour les Langues (CECRL) a publié en 2001 un cadre de référence où il propose six niveaux de compétence en langues étrangères.

A. Contenu des six niveaux de compétence en langues étrangères

- Les niveaux A1 et A2 correspondent aux utilisateurs élémentaires ;
- Les niveaux B1 et B2, aux utilisateurs indépendants ;
- Les niveaux C1 et C2, aux utilisateurs expérimentés.

Pour mieux comprendre le contenu de ces niveaux, voici quelques descripteurs correspondant à chacun d'entre eux.

- Au niveau A1, le locuteur a des connaissances linguistiques de base. Il peut communiquer de manière simple, parler de lui-même et de son environnement immédiat.

Comment intégrer cette approche en classe et quel type de document l'enseignant doit-il privilégier ?

Dans le cadre de l'enseignement du français langue étrangère, l'approche communicative donne une place importante aux documents authentiques, ils vont permettre de faire entrer une réalité de la langue et celle de la culture qu'elle véhicule. On appelle « document authentique » tout document ou objet non élaboré à des fins pédagogiques. C'est, par exemple, un article de presse, un extrait d'une émission de radio, une photo ou une brochure. Ces documents permettent de développer la curiosité et d'introduire une dimension de plaisir à l'apprentissage. Avec l'approche communicative, la priorité est la communication entre des personnes dans un contexte précis, par exemple, faire une démarche administrative ou prendre la parole en public pour convaincre...

L'enseignant introduit la grammaire et le lexique en fonction des besoins et des objectifs d'une situation de communication et non dans le but de faire apprendre des règles grammaticales par cœur ou de réciter des listes de mots.

C. L'approche actionnelle

L'approche actionnelle découle de l'approche communicative, elle reprend les principes de l'approche communicative, mais elle est plus rigoureuse, plus aboutie car plus près de l'authentique : On met réellement en application les principes de la simulation de situations réelles.

L'approche actionnelle est basée sur les actions que l'étudiant réalise en langue étrangère. L'enseignant doit donc considérer l'étudiant comme une personne qui va agir dans la réalité personnelle, publique et surtout professionnelle. C'est un acteur social.

La perspective actionnelle reprend les principes de l'approche communicative, mais elle met l'accent sur la notion de tâche. Dans cette approche, l'étudiant devra mobiliser des compétences qui lui permettent d'agir pour accomplir des tâches qui ne sont pas seulement langagières. La tâche met donc l'étudiant en « action ».

Complémentarité des approches : actionnelle et communicative

- Elles sont centrées sur l'étudiant
- Elles visent à mobiliser l'étudiant physiquement
- Elles utilisent la langue et les textes en contexte

la réussite et de la victoire. Dans notre contexte, la victoire est de réussir à apprendre à communiquer en français. Pour notre étudiant, une stratégie d'apprentissage est donc une technique ou une méthode qu'il utilise pour apprendre à communiquer en français. Il existe plusieurs types de stratégies d'apprentissage, dont les plus importantes sont les suivantes :

- Les stratégies cognitives : c'est la manière dont nous traitons les informations, les organisons et les mémorisons.

- Les stratégies métacognitives : c'est la capacité de réfléchir sur la façon dont on apprend. C'est également l'idée de pouvoir planifier et contrôler son apprentissage.

- Les stratégies socio-affectives : c'est la capacité d'interagir avec une autre personne pour favoriser son apprentissage. L'idée de coopération et de contrôle des émotions est essentielle. Le rôle de l'enseignant est d'aider les apprenants à trouver les meilleures stratégies pour les aider à apprendre, à être plus autonome et indépendant dans leur apprentissage. Grâce à elles, il apprend aussi en dehors de la salle de classe.

B. Les approches liées à l'enseignement d'une langue étrangère

Chaque enseignant est amené à faire des choix, et ces choix vont déterminer d'une part, les contenus de son enseignement, et d'autre part, la façon dont il va les transmettre. Et pour cela, l'enseignant devra toujours avoir en tête ces quatre interrogations : Qui ? Quoi ? Pourquoi ? Comment ? C'est-à-dire, à qui j'enseigne ? Pourquoi faire ? Quoi enseigner ? Comment enseigner ? Je voudrais m'attarder sur l'interrogation suivante : comment enseigner ? Cette question forme la quintessence de l'approche communicative. Les méthodes précédant l'approche communicative, mettaient surtout l'accent sur la forme et la structure des langues. Alors que l'objectif premier, de l'approche communicative, est d'apprendre à communiquer en langue étrangère dans une situation de communication contextualisée. Cette dernière prend en compte la notion d'en joindre l'acte à la parole. C'est un moyen utilisé par la personne qui parle (le locuteur) pour agir sur son environnement avec des mots. Quand vous dites « Pouvez-vous ouvrir la fenêtre, s'il vous plaît ? », vous prononcez cette phrase, mais ce que vous faites, c'est « demander à quelqu'un de faire quelque chose », ici, ouvrir la fenêtre.

Le rôle du professeur dans l'enseignement du français comme langue étrangère à l'Université Marocaine

**Ibtissam LEKHBIZI**

Formatrice de Communication et Soft Skills à

l'OFPPPT et doctorante à l'université Mohammed V

Souissi de Rabat - MAROC

Introduction :

Les langues prennent de plus en plus une place importante à l'Université Marocaine. Ainsi, l'enseignement des langues étrangères est mis sur le même pied d'égalité que l'enseignement des matières dites fondamentales. Il serait souhaitable de poser la problématique du rôle du professeur accompagnateur dans cette transformation à la fois pédagogique et didactique. En effet, cette évolution pourrait aider à la fois les enseignants et les apprenants à trouver la meilleure stratégie pour une communication plus fluide et plus efficiente du savoir. Dans cette stratégie, le choix de la langue est primordial. Il doit porter sur une langue proche du vécu réel des étudiants. Il pourrait susciter chez l'étudiant le désir d'apprendre une langue étrangère. Ainsi, il peut découvrir sa culture tout en développant les compétences qui lui permettent d'affronter avec succès les situations de communication. Cette stratégie pourrait mener, avec succès, l'ensemble des intervenants pédagogiques vers le niveau B2, condition indispensable pour l'obtention de leur licence. Comment l'enseignant peut-il développer les compétences de l'étudiant pour qu'il soit capable d'affronter avec succès les situations de communication. L'idée de faire entrer dans la classe une langue proche du « réel » suscite chez l'apprenant le désir d'apprendre une langue étrangère et de découvrir la culture liée à cette langue.

I. Les stratégies d'apprentissage : Elles se définissent en fonction des principes et des concepts clés de l'enseignement du FLE

A. Contenu et signification pédagogique

Dans l'apprentissage du français langue étrangère, une stratégie d'apprentissage est une technique ou une méthode. Il existe des stratégies dans tous les domaines tels que militaire, politique, économique... Il s'agit donc de mettre en place des actions pensées et coordonnées pour atteindre un but, celui de

BIBLIOGRAPHIE

- Bouyelmani, Ahmadou, *Eléments de grammaire berbère : Parler rifain des Ayt Touzine*, Thèse de Doctorat d'Etat-ès Lettres, El Jadida, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, 1992.
- Dryer, Matthew S. et al. (eds.). *The World Atlas of Language Structures Online*. Munich, Max Planck Digital Library. 2011.
- Ennaji, Fatima, *A typology of questions in Berber*, MA Thesis, University of Essex, 1982.
- Ennaji, Moha, « Questions-Wh et focus en Tamazight ». In *Linguistica Communicatio : Revue internationale de linguistique générale*, pp. 17-30. Fès, 1989.
- Gross, Maurice. *Grammaire transformationnelle du français : syntaxe du verbe*. Paris, Librairie Larousse. 1968.
- Hirst, D. et Di Cristo, A. (eds). *Intonation systems: A survey of twenty languages*. Cambridge, Cambridge University Press. 1998.
- Mokhtari, Hicham. *Etude syntaxique des interrogatives en amazighe*. Mémoire pour l'obtention de master, Rabat, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines de Rabat. 2013.
- Penchoen, Thomas, *Etude syntaxique d'un parler berbère (Ait Frah de l'Aurès)*. Studi Magrebini V, Napoli, 1973.
- Sadiqi, Fatima. *Studies in Berber Syntax*. Würzburg, Königshausen + neumann. 1986.
- Sadiqi, Fatima. *Grammaire du berbère*. Casablanca, Afrique Orient. 2011.

Ensuite, nous avons traité les questions partielles qui contrairement aux questions totales (QON), ne portent que sur un seul constituant de la phrase et évoquent une réponse explicative autre que oui ou non. Ces questions explicatives se caractérisent par l'emploi d'un interrogatif en *m-*. Donc, elles sont appelées questions-*m* à l'instar des Wh-questions¹ comme nous l'avons mentionné. Les interrogatifs utilisés dans les questions-*m* sont réparties en trois classes : i) les pronoms interrogatifs fonctionnant comme des noms. Ils excluent l'indicateur du thème, attirent les pronoms personnels et les particules d'orientation et peuvent avoir les fonctions de sujet, complément d'objet direct ou indirect ou complément circonstanciel ; ii) les adverbes interrogatifs sont utilisés comme formes adverbiales, mais jamais comme sujets ou compléments. Ils entraînent eux aussi l'anticipation des pronoms personnels et excluent l'indicateur du thème. Les adverbes diffèrent des pronoms dans la mesure où ils peuvent à eux seuls constituer un énoncé ; iii) les adjectifs interrogatifs. Cette classe ne comporte que deux interrogatifs. Il s'agit de *matta* et *man*. Les deux sont invariables en genre et en nombre, ils ne peuvent être suivies que d'un nom ou pronoms et n'apparaissent jamais seuls.

Puis, nous avons comparé les questions directes et indirectes. Les premiers sont des phrases indépendantes caractérisées par une intonation montante. Quant aux deuxièmes, elles sont des structures constituées d'une interrogative subordonnée à une proposition principale formée avec un verbe tiré d'une classe limitée. Leur intonation est descendante et la présence d'un interrogatif dans les questions indirectes est obligatoire.

¹ En anglais, la majorité des morphèmes interrogatifs commencent par *wh-* (*who, what, when...*etc). Les questions introduites par ces morphèmes sont dites Wh-questions.

(regarder). Pour plus d'illustration considérons ces exemples empruntés à Gross (1968 : 160) :

- (51) a. Jean lui demande (comment + quoi) faire.
b. Jean lui dit (comment + quoi) faire.

En français ces deux phrases sont clairement différentes, l'exemple (51a) est une question, alors que (51b) est une déclaration. Le rôle des verbes *demande* et *dit* ici est évident. Le premier étant un verbe de demande et le deuxième verbe d'ordre (Roulet 1978 : 448), on comprend qu'avec "*demande* c'est Jean qui est le sujet de *faire*, alors qu'avec *dit*, c'est le pronom *lui* qui est le sujet de *faire*" Gross (*ibid.*). Maintenant considérons les phrases correspondantes amazighes de (51) :

- (52) a. seqsa Ahmed (mamš + min) γa negg !
demander+imp+2sg Ahmed (comment + quoi) faire.
« Demande à Ahmed (comment + quoi) faire ! »
b. innaš Ahmed (mamš + min) γa negg.
il+dire+ac Ahmed (comment + quoi) faire.

« Ahmed vous a dit (comment + quoi) faire. »

Les phrases en (52) peuvent être interprétées de manières différentes, (52a) est une question, alors que (52b) est une déclaration, comme nous l'avons vu dans (51). Sauf que (52b) accepte aussi une autre interprétation, elle peut être comprise comme question rapportée (Ahmed vous demande (comment + quoi) faire.). Dans ce cas-là, le verbe seul ne suffit pas pour interpréter la phrase. C'est le contexte qui joue rôle important pour enlever l'ambiguïté.

Conclusion

Dans cet article, nous avons comme principal objectif de présenter une brève typologie des interrogatives dans la langue amazighe. D'abord nous avons montré que les QON peuvent être marqués par l'intonation seulement. Par ailleurs, les QON sont introduites par les particules interrogatives *is* et *ma*, qui occupent toujours la position initiale de la phrase interrogative. Ces QON qui portent sur la totalité de l'énoncé sont dites questions totales et nécessitent une réponse par oui ou non. Elles sont positives ou négatives ; dans ce dernier cas, le morphème de négation vient se placer à l'initial dans les QON par intonation et directement après l'interrogatif dans les QON introduites par particule.

(47) nniy aš ma tkemmrad !

Je+dire+ac à+toi est-ce+que tu+finir+ac

« Je t'ai demandé si tu as fini ! »

Ou pour rapporter une question (48) :

(48) tñna aš yemma ma ad tššad.

elle+dire+ac à+toi mère+ma est-ce+que tu+manger+ao

« Ma mère te demande si tu veux manger. »

Les verbes supports des questions indirectes appartiennent à une classe limitée. D'une manière générale, ils expriment l'interrogation ou l'incertitude comme seqsa (demander). D'autres verbes comme ini (dire), xzar, raea (regarder), représentent certainement une notion claire de l'interrogation quand ils sont utilisés avec les questions indirectes, même s'ils ne traduisent pas intrinsèquement cette notion.

"The list of verbs which take INT CCs is interesting : apart from clearly interrogative verbs like sqsa (ask), most of the other verbs are non-assertive" (Sadiqi 1986 : 212)

D'après cette citation, l'auteur nous dit que la majorité des verbes utilisés avec les questions indirectes n'implique pas la notion d'interrogation. Ces verbes mêmes s'emploient avec les complétives déclaratives. Ceci nous mène à signaler qu'il ne faut pas confondre les questions indirectes avec les complétives déclaratives, puisque les premiers expriment une demande, alors que les deuxièmes sont une déclaration.

(49) eliy mani illa.

voir.je où il.être

« J'ai vu où il est. »

(50) elu mani illa !

toi.regarder où il.être

« Regarde où il est ! »

L'exemple (49) est une déclaration que le locuteur connaît l'information, alors que dans (50), le locuteur demande une information d'une façon indirecte. Même s'il les deux phrases contiennent l'adverbe de lieu *mani* (où) et le verbe *elu*

la question indirecte est toujours un énoncé verbal, formé avec des verbes appartenant à une classe limitée (nous y reviendrons).

(44) a. xzər ma ffɣen !

regarder+imp+2sg est-ce+que ils+sortir+ac

« Regard est-ce qu'ils sont sortis ! »

b. nniɣ as ma ʔusmed !

je+dire+ac à+lui est-ce+que tu+être jaloux+ac

« Je lui ai dit est-ce que tu es jaloux ! »

Notons que l'intonation des questions directes diffère de celles des questions indirectes. Alors que les premiers se caractérisent par une intonation montante, ces derniers ont une intonation descendante. Ceci implique que l'utilisation des interrogatifs dans les QON est obligatoire comme le montre l'exemple (45) :

(45) a. ræa is idda !

regarder+imp+2sg est-ce+que il+partir+ac

« Regard s'il est partis ! »

b. * ræa idda !

regarder+imp+2sg il+partir+ac

« Regard s'il est partis ! »

Les questions indirectes sont utilisées pour demander ou poser une question d'une manière indirecte (46a) ou comme forme de politesse (46b) :

(46) a. ini yi ma irzan šrjam.

dir+imp+2sg à+moi qui il+casser+partic fenêtre

« Dis-moi qui a cassé la fenêtre ! »

b. ɛafak, ini yi mani tella lmaḥṭa ?

s'il+vous+plaît dir+imp+2sg à+moi où elle+être+ac gare

« S'il vous plaît, dites-moi où est la gare ! »

Pour réitérer ou insister sur question que l'interlocuteur n'a pas entendue ou dont il veut esquiver la réponse, on emploie des structures comme (47) :

b. man wen daysen ?

quel celui entre+eux

« Lequel d'entre eux ? »

c. * matta tannayt Mohammed ?

quel tu+voir+ac Mohammed

« Quel Mohammed as-tu vu ? »

d. * man ?

« Quel ? »

e. * matta ?

« Quel ? »

L'agrammaticalité de (41d) et (41e) montre que les adjectifs interrogatifs n'apparaissent jamais seul.

3. Les questions directes et indirectes

Jusqu'à présent, nous n'avons parlé exclusivement que des questions directes. Il est important d'ajouter que ces questions ont la structure interrogative d'une phrase indépendante, dans le sens où elles fonctionnent en autonomie, et ne dépendent d'aucune autre proposition, comme dans (42) :

(42) mani irwl ?

où il+fuir+ac

« Où s'est-il enfui ? »

Par contre, les questions indirectes sont des phrases, où la structure interrogative est enchâssée dans une autre proposition principale. Comparons l'exemple (42) ci-dessus avec (43) :

(43) seqsa mani irwl !

Demander+imp+2sg où il.fuir

« Demande où il s'est enfui ! »

On remarque qu'à l'opposé de (42), la question dans (43) est précédée du verbe *seqsa* dont elle en est le complément. D'ailleurs, la phrase principale qui constitue

préposition génitive *n* lorsqu'ils déterminent un nom (38) et des focalisateurs *ad* et *ay/a* lorsqu'ils s'emploient avec un verbe (39). Ces interrogatifs sont invariables à l'exception de *mnnaw* qui s'accorde en genre avec le nom qu'il détermine (40) :

- (38) a. *mšta n yewdan* ?
combien de EA+personnes
« Combien de personnes ? »
- b. *mešhar tazart* ?
combien figue
« Combien les figues ? »
- (39) a. *mšhal ay jin yirdn* ?
combien c'est ils+faire+ac blé
« Combien vaut le blé ? »
- b. *šhal ihwa* ?
combien il+descendre+ac
« Combien il est descendu ? »
- (40) a. *mnnaw wussan* ?
combien EA+jours
« Combien de jours ? »
- b. *mnnawt tmyarin* ?
combien EA+femmes
« Combien de femmes ? »

iii) Les adjectifs :

Les adjectifs interrogatifs *man* et *matta* sont invariables. En d'autres termes, ils ne s'accordent ni en genre ni en nombre. Ces adjectifs peuvent être suivis par un nom (41a) ou un pronom (41b), mais jamais par un verbe (41c).

- (41) a. *matta tayawsa lli tsiggilt* ?
quel chose que tu+chercher+ac
« Quelle est la chose que tu cherches ? »

b. mnšk iswa uyrum ad ?

combien il+coûter+ac EA+pain ce

« Combien coûte ce pain ? »

En outre, ils excluent l'indicateur de thème et entraîne l'anticipation des particules d'orientation et des pronoms personnels, tout comme les pronoms interrogatifs :

(35) a. mamnk as iskr Lahsen ?

comment à+lui il+faire+ac Lahsen

« Comment Lahsen l'a-t-il fait ? »

b. * mamnk Lahsen as iskr ?

comment Lahsen à+lui il+faire+ac

« Comment Lahsen l'a-t-il fait ? »

(36) a. mani d tusa ?

où vers+ici elle+venir+acc

« Où est-elle venu (vers ici) ? »

b. * mani tusa d ?

où elle+venir+acc vers+ici

« Où est-elle venue (vers ici) ? »

Les adverbes interrogatifs, peuvent, à eux tout seuls, constituer une question comme le montre l'exemple (37) :

(37) a. may ?

« Où ? »

b. mism ?

« Comment ? »

c. mnšk ?

« Combien ? »

Les adverbes interrogatifs de quantité diffèrent des autres dans la mesure où ils sont compatibles avec les noms. Ils sont suivis, mais pas obligatoirement, de la

qui la il+prendre+partic

b. * wi iksin t ?

qui il+prendre+partic la

« Qui l'a pris ? »

Notons d'abord que le verbe qui suit les pronoms *u* et *ma* quand ils fonctionnent comme sujet prend la forme participiale (*i_n*). Ensuite que tous les pronoms interrogatifs peuvent être utilisés pour se référer aux humains et non-humains à l'exception de *min* qui est [- humain]. Enfin, tandis que tous les interrogatifs se placent à l'initiale, nous avons relevé un cas particulier illustré par (32-33), où l'interrogatif se place en finale. Il s'agit du pronom *mi* qui, d'une part et contrairement aux autres interrogatifs, n'apparaît jamais au début de la phrase, d'autre part il remplit toujours la fonction complément d'objet direct.

(32) a. ifka mi ?

il+donner+ac quoi

b. * mi ifka

quoi il+donner+ac

« Qu'a-t-il donné ? » (Complément d'objet direct)

(33) a. tesya eiša mi ?

elle+acheter+ac Aicha quoi

b. * mi tesya eiša ?

quoi elle+acheter+ac Aicha

« Qu'a acheté Aicha ? » (Complément d'objet direct)

ii) Les adverbes :

Les adverbes interrogatifs à l'inverse des pronoms, ne fonctionnent pas comme des noms. Ils sont utilisés comme des formes adverbiales, mais jamais comme sujets ou compléments :

(34) a. milmi iyra lktab ?

quand il+lire+ac livre

« Quand a-t-il lu le livre ? »

Tout comme en anglais et en arabe standard, les interrogatifs en amazighe occupent toujours la position initiale de la phrase, sauf pour certaines particularités que nous signalerons ultérieurement. Les catégories grammaticales auxquelles appartiennent ces interrogatifs ont été mentionnés auparavant, et c'est ainsi que les questions seront présentées ici selon les interrogatifs qui les introduits.

i) Les pronoms :

Les pronoms interrogatifs fonctionnent comme des noms et partagent certaines de leurs compatibilités. Ils peuvent tous avoir la fonction de sujet, complément d'objet direct, indirect et complément circonstancielle.

- (29) a. wi iwṭin ?
qui il+frapper+partic
« Qui a frappé ? » (Sujet)
- b. may ttegg yemmam ?
que elle+faire+inac Mère+ta
« Que fait ta mère ? » (Complément d'objet direct)
- c. u mi tewšid aman ?
qui à tu+donner+ac eau
« À qui as-tu donné de l'eau ? » (Complément d'objet indirect)
- d. ma s tunft tiḥlut ?
quoi avec tu+ouvrir+ac porte
« Avec quoi as-tu ouvert la porte ? » (Complément circonstancielle)

Ces interrogatifs entraînent l'exclusion de l'indicateur du thème, en plus de l'anticipation des pronoms personnels et des particules d'orientations spatiales.

- (30) a. min tesya eiša ?
que elle+acheter+ac Aicha
- b. * min eiša tesya ?
que Aicha elle+acheter+ac
« Qu'a acheté Aicha ? »

- (31) a. wi t iksin ?

interrogatifs. Toutes les langues naturelles ont un ensemble de morphèmes interrogatifs caractérisant les questions explicatives, qui appartiennent généralement à des catégories différentes (les pronoms interrogatifs, les adverbes interrogatifs, les adjectifs interrogatifs, les verbes interrogatifs¹). Il existe deux modèles communs aux langues pour la position des interrogatifs : i) en position initiale, tels-que l'anglais (24) ou l'arabe standard (25) et ii) en position finale comme le japonais en (26).

- (24) Where am I ?
où suis je
« Où suis-je ? » (Ang)
- (25) man huwa lbadilu ?
qui est le+remplaçant
« Qui est le remplaçant ? » (AS)
- (26) Kore wa ikura desu ka ?
ce est combien est-ce+que Inter.
« Combien ça coûte ? » (Jap)

Les questions explicatives peuvent être positives comme le montrent les exemples (24-26), ou négatives comme il est illustré par (27) et (28).

- (27) Who Can't Give Blood ?
qui ne.pouvoir.pas donner sang
« Qui ne peut pas donner du sang ? » (Ang)
- (28) man lam yanžah ?
qui ne+pas il+réussir
« Qui n'a pas réussi ? » (AS)

Dans cette section nous allons essayer d'exposer les caractéristiques des questions explicatives (questions-m) positives en amazighe. Quant aux questions-m négatives, elles présentent les mêmes caractéristiques des QON négatives. Pour cette raison, nous nous contentons de ce qui a été dit.

¹ Cf. Dryer (2011 : chapitre 93).

d'une QON par particule interrogative (23). Ces questions négatives expriment la demande comme elles peuvent aussi exprimer le doute dans l'exemple (23) ou la surprise dans (22).

(22) war yemriš ?!

ne+pas il+marier+ac

« Je ne crois pas qu'il n'est pas marié ?! »

(23) ma war yeffir ?!

est-ce+que ne+pas il+sortir+ac

« Je pense qu'il est sorti ?! »

En guise de récapitulation, nous avons montré que les QON en amazighe peuvent être marquées par l'intonation (montante) seulement, comme elles peuvent être introduites par des particules interrogatives qui sont principalement *is* et *ma*. Ces deux morphèmes interrogatifs ont les caractéristiques suivantes :

- (i) Ils introduisent des phrases verbales et non verbales.
- (ii) Ils sont compatibles avec le nom, le pronom, le nom de qualité, l'adverbe et le numéral.
- (iii) Ils apparaissent souvent mais pas obligatoirement, en combinaison avec *ša/kra* et *niγ/ny*.
- (iv) Le morphème *is*, contrairement à *ma*, entraîne l'anticipation de pronoms personnels clitiques et des particules d'orientation spatiale.

Notons que, ces QON peuvent passer de la forme positive à la forme négative, en gardant leurs structures, par la simple adjonction du morphème de négation. Ce dernier se place au début des QON par intonation et directement après le morphème interrogatif dans les QON introduites par une des particules interrogatives.

2. Les questions explicatives (questions-m)

Les questions explicatives, appelées aussi partielles diffèrent des QON en ce qu'elles portent sur un constituant spécifique de la phrase et provoquent une réponse explicative autre que oui/non. Ces questions sont construites avec des

interrogatifs qui dans ce cas ne sont nécessaires que pour répéter ou insister sur une question dans une conversation.

(19) a. *tɛtsad ša* ?

Tu+dormir+ac

« As-tu dormi ? »

b. *mamš* ?

comment

« Comment ? »

c. *ma tɛtsad ša* ?

est-ce+que tu+dormir

« Est-ce que tu as dormi ? »

L'exemple (19c) est une répétition de la question (19a) que l'interlocuteur n'a pas entendue. Il faut noter que *ø...niγ* est compatible avec le verbe, le nom de qualité, le nom, le pronom, l'adverbe et le numéral. Cependant *ø...ša* n'est compatible qu'avec le verbe et le nom de qualité.

(20) a. *šekk niγ* ?

toi ou

« Est-ce toi ? »

b. * *šekk ša* ?

(21) a. *umaš niγ* ?

frère+ton ou

« Est-ce ton frère ? »

b. * *umaš ša* ?

1.3 QON négatives

La négation en amazighe se fait par le morphème de négation *war*¹, qui occupe toujours une position préverbale. Les QON négatives gardent la même structure que leurs correspondantes positives, le morphème de négation se place à l'initial dans les QON par intonation (22) et suit directement l'interrogatif quand il s'agit

¹ Les variantes de *war* sont : *wa*, *u* et *ur*.

« Es-tu de Nador ? »

b. * tssent Ali is ?

tu+connaître+ac Ali est-ce+que

« Est-ce que tu connais Ali ? »

Les interrogatifs *ma* et *is* apparaissent souvent en combinaison avec *ša/kra* et *niγ/ny*, ou en dédoublement quand il s'agit d'une interrogation double. Nous relevons donc les formes suivantes : *ma...ša*, *ma...niγ*, *is...kra*, *is...ny* et *ma...ma*, *is...is*.

(16) a. *ma γarwm ša n rħmu* ?

est-ce+que vous+avoir+ac de la+chaleur

« Fait-il chaud chez vous ? »

b. *is illa kra n umaynu* ?

est-ce+que il+être+ac de nouvelles

« Y a-t-il des nouvelles ? »

(17) a. *ma tzum̥d niγ* ?

est-ce+que tu+jeûner+ac ou

« Est-tu en jeûne (ou quoi) ? »

b. *is d askka nγ d assa* ?

est-ce+que c'est demain ou c'est aujourd'hui

« Est-ce demain ou aujourd'hui ? »

(18) a. *ma i šekk ma i nešš* ?

est-ce+que pour toi est-ce+que pour moi

« Est-ce pour toi ou pour moi ? »

b. *is idda, is ikšm* ?

est-ce+que il+partir+ac est-ce+que il+entrer+ac

« Est-il parti ou est-il entré ? »

Il y a d'autres formes qui deviennent de plus en plus fréquentes. Ils s'agissent de *ø...ša* et *ø...niγ*. Ces formes expriment l'interrogation sans faire appel aux

Il faut noter que l'interrogatif *is* attire les pronoms personnels clitiques et les particules d'orientation *d* et *n*.

- (12) a. *is d uškin ?*
 est-ce+que ici ils+venir+ac
 « Sont-ils venus (ici) ? »
- b. *is as tn ifka ?*
 est-ce+que lui les il+donner+ac
 « Les lui a-t-il donnés ? »

Par contre, *ma* n'entraîne aucune anticipation des pronoms personnels clitiques, ni des particules d'orientation.

- (13) a. *ma yexḍer d ?*
 est-ce+que il+arriver+ac ici
 « Est-il arrivé (ici) ? »
- b. *ma yarra as t ?*
 est-ce+que il+rendre+ac lui le
 « Le lui a-t-il rendu ? »

Alors que les exemples (7a-13b) au-dessus montrent que les interrogatifs *ma* et *is* ont la possibilité d'être à l'initial, seul *ma* apparaît en position finale. Les phrases (14a) et (15a) sont grammaticales, tandis que (14b) et (15b) sont agrammaticales :

- (14) a. *yawweḥ ma ?*
 il+rentrer+ac est-ce+que
 « Est-il rentré ? »
- b. * *tugm is ?*
 elle+puiser+ac est-ce+que
 « A-t-elle puisé ? »
- (15) a. *šekk zi nnadu ma ?*
 toi de Nador est-ce+que

est-ce+que c'est homme

« Est-ce l'homme ? »

b. is d umam ?

est-ce+que c'est ton+frère

« Est-ce ton frère ? »

(9) a. ma d aziza ?

est-ce+que c'est bleu

« Est-ce le bleu ? »

b. is d amllal ?

est-ce+que c'est blanc

« Est-ce le blanc ? »

(10) a. ma d šekk ?

est-ce+que c'est toi

« Est-ce toi ? »

b. is d nkk ?

est-ce+que c'est moi

« Est-ce moi ? »

(11) a. ma snnež ?

est-ce+que en+haut

« Est-ce en haut ? »

b. is ddaw ?

est-ce+que en+bas

« Est-ce en bas ? »

Dans (7a-b) *ma* et *is* introduisent des phrases verbales. Dans (8a-10b) ils introduisent des phrases non verbales. *ma* et *is* sont compatibles avec le nom (8), le nom de qualité (9), le pronom (10), l'adverbe (11) et le numéral. Les interrogatifs *is* et *ma* sont toujours suivis par la particule prédicative *d* dans la phrase non verbale sauf quand ils s'emploient avec un adverbe.

Dans les exemples (3a), (3b) et (3c), on n'observe aucun marqueur interrogatif. Seule l'intonation indique qu'il s'agit d'une question et non pas d'une phrase déclarative. Ce type d'interrogation par intonation est compatible avec des énoncés verbaux (3b), (3c) et non verbaux (3a), il "s'emploie particulièrement, mais non exclusivement, lorsque le locuteur est à peu près certain de la réponse qu'elle soit positive ou négative" Bouylmani (1998 : 874).

1.2. QON introduites par une particule interrogative

Dans les langues naturelles qui utilisent une particule pour marquer les QON, cette particule apparaît dans l'une ou plusieurs des trois positions de phrases : i) initiale comme dans (4) de l'arabe standard, ii) centrale en finlandais (exemple (5)) et iii) finale comme le cas du japonais illustré par (6).

- (4) hal tašrabu lqahwata ?
est-ce+que tu+bois le+café
« Est-ce que tu bois du café ? » (AS)
- (5) sataa ko ulkona ?
Pleut+il est-ce+que dehors
« Est-ce qu'il pleut ? » (Fin)
- (6) are wa Fujisan desu ka ?
cela est Fuji+mont est-ce+que Inter.
« Est-ce que cela est le mont Fuji ? » (Jap)

Les particules qui forment les QON en amazighe sont principalement *ma* et *is* (est-ce que), comme dans les exemples suivants :

- (7) a. ma ddarn ?
est-ce+que ils+vivre+ac
« Est-ce qu'ils sont vivants ? »
- b. is ifta ?
est-ce+que il+partir+ac
« Est-il partie ? »
- (8) a. ma d aryaz ?

syntactiquement, qu'on trouve dans l'anglais et le français, où l'inversion sujet-verbe vient marquer l'interrogation et l'ordre SVO change alors en VSO, comme le montrent les exemples suivants :

- (1) a. Alex is sad.
b. Is Alex sad? (Ang)
- (2) a. Tu viens demain.
b. Viens-tu demain ? (Fr)

Quant aux deux derniers aspects, à savoir phonologique et l'insertion des particules interrogatives, ils seront traités par la suite.

1.1. QON par intonation

L'outil phonologique le plus commun pour distinguer un énoncé interrogatif d'un déclaratif est l'intonation (montante). Plus de 100 langues ont une intonation particulière pour marquer un énoncé comme une QON (Dryer 2011).

D'autres langues emploient l'intonation dans des contextes restreints ou n'utilisent plus l'intonation. (Hirst 1998) note que dans l'anglais britannique (British English) l'intonation (montante) indique plutôt la surprise, l'anglais britannique comme le suédois et le finlandais n'ont donc pas de questions par intonation. L'amazighe, par contre, fait partie des langues qui bénéficient de cet outil. Considérons les exemples suivants :

- (3) a. tiwešša ?
demain
« Est-ce demain ? »
- b. izedday di wejda ?
il+habiter+inac dans Oujda
« Il habite à Oujda ? »
- c. tennid as x umešri i nssumw nhara ?
tu+dire+ac lui sur le+repas que nous+préparer+ac aujourd'hui
« Tu lui as raconté qu'est-ce-que nous avons préparé au repas aujourd'hui ? »

Typologie des structures interrogatives en amazighe

**Hicham Mokhtari**

Doctorant

FLSH, USMBA, Saïs - Fès

MAROC

Introduction :

L'objet du présent travail est de présenter une typologie détaillée des diverses structures interrogatives attestées en amazighe, en nous basant sur les données exposées dans des travaux antérieurs, notamment (Penchoen 1973), (F. Ennaji 1982) et (Bouylmani 1998), entre autres. Dans la langue amazighe comme la plupart des langues naturelles on distingue entre : les questions qui requièrent une réponse par oui/non (QON), dites aussi questions totales par ce qu'elles portent sur l'ensemble de la phrase et les questions qui nécessitent une réponse explicative, elles sont dites questions partielles car elles portent sur un constituant précis de la phrase. Ces dernières sont introduites par une particule interrogative, pour cette raison nous allons appeler celles-ci (questions-m) en s'inspirant de (M. Ennaji 1989) et (Bouylmani 1998) qui ont fait le même choix à l'instar de Wh-questions de l'anglais.

Premièrement, nous exposerons les différents types des QON qui peuvent être marqués par l'intonation ou introduites par la particule interrogative, ensuite nous passons aux questions-m positives et négatives, enfin nous distinguerons entre les questions directes et indirectes dans les deux types (à savoir les QON et les questions-m).

1. Les questions oui/non (QON)

Dans les différentes langues naturelles, les QON sont généralement marquées par quatre outils d'ordre : morphologique, syntaxique, phonologique ou par l'insertion d'une particule interrogative. Les questions marquées morphologiquement n'existent pas en amazighe, elles se trouvent dans des langues comme l'esquimo et le coréen¹. La même chose pour les questions marquées

¹ Cf. Dryer (2011)

BIBLIOGRAPHIE

De Singly, F. (2016). Le questionnaire. Paris : Armand Colin.

Puren, C. (1988). Histoire des méthodologies de l'enseignement des langues. Paris : Clé international.

Puren, C. (2015). Théorie générale de la recherche en didactique des langues-cultures. 149, consulté à l'adresse <http://www.christianpuren.com/2015/03/21/publication-de-l-essai-theorie-generale-de-la-recherche-en-didactique-des-langues-cultures/>

faire social en langue-culture, et non pas « un savoir scolaire en rapport avec un savoir savant ».

4 Conclusion

Tout travail de recherche en didactique des langues doit reposer sur cette conduite méthodologique, pour un bon cheminement épistémologique. Certes, chaque travail appartient à un type précis et à une méthode précise de recherche. Mais, le chercheur en didactique des langues est le maître qui devrait sélectionner ce qui va et ce qui ne va pas avec sa recherche.

sur la comparaison de multiples perspectives en diversifiant les angles d'observation d'une manière successive.

3-9-6 L'approche constructiviste

Il est connu que la recherche en didactique des langues-cultures est dominée actuellement par le paradigme cognitif. Dans ce modèle cognitif, l'apprentissage de la langue est considéré, selon Puren, comme « un processus cognitif de construction, déconstruction reconstruction permanent par chaque apprenant de ses représentations conscientes et inconscientes concernant le fonctionnement de la langue et de la culture étrangères, représentations produites en particulier par le contact de celles-ci avec la langue et la culture maternelles » (PUREN 2020 : 5). Ce paradigme cognitif entretient un rapport avec l'approche comparatiste, car, en dépit « des activités réflexives de comparaison explicite entre les deux « langues et les cultures », il conduit à la valorisation des activités « méta-réflexives de comparaison explicite entre les modes et les tâches d'apprentissage et les modes et les tâches d'enseignement » (PUREN 2020:5).

Puren ajoute que l'élargissement de l'approche comparatiste, à l'instar et dans le même sens de l'approche constructiviste, est à la fois possible et obligé afin d'étudier les phénomènes de rapport :

A) Entre l'enseignement et l'apprentissage sur le plan des méthodologies des cultures, des traditions didactiques et pédagogiques, les spécificités des individus, les environnements... ;

B) Et entre les « didactiques des langues-cultures étrangères ».

3-9-7 L'approche comparatiste

Puren défend un projet de construction d'une didactique comparée interdisciplinaire, qui oblige les didacticiens de langues-cultures de travailler alors de façon plus réticente, parce que :

A) La conception de la dite didactique comparée interdisciplinaire est faite dans le domaine général des sciences de l'éducation, ce qui rend la didactique des langues-cultures une discipline non-autonome ;

B) Les didactiques des sciences exactes ont un impact sur la didactique comparée interdisciplinaire, notamment les mathématiques (sur le plan de la transposition didactique). Celle-ci, au niveau méthodologique, ne s'adapte pas en didactique des langues-cultures, vu que l'objectif est l'apprentissage d'un savoir-

3-9-3 L'approche qualitative

La recherche en didactique des langues-cultures porte sur le paradigme de qualité. Il y a, selon Puren, plus de « l'analyse qualitative » que de « l'analyse quantitative », car les chercheurs en didactique des langues-cultures ne travaillent pas sur des chiffres, mais également sur des mots recueillis sur terrain par des questionnaires, entretiens, étude des écrits, observation, etc.

3-9-4 L'approche pragmatiste

Puren affirme que les spécificités de la didactique des langues-cultures s'adaptent au modèle épistémologique pragmatique américain. Pour les pragmatistes américains, la vérité ne renvoie pas à la réalité ; c'est le critère de « pertinence et de l'efficacité » qui régit la réaction de tout projet dans son contexte. Si la connaissance est conçue positivement pour représenter la réalité, les didacticiens de langues-cultures s'opposent à la « représentation », ils choisissent « confronter » la connaissance avec la réalité.

3-9-5 L'approche complexe

Il faut dire que, selon Puren, la nature de l'objet de la didactique des langues-cultures est complexe. Même si l'objet se découpe d'une manière fine, la complexité reste inhérente à ses parties, chacune reste constituée d'éléments « variables », hétérogènes, pluriels,... De ce fait, Puren ne souligne que le modèle épistémologique en didactique des langues-cultures s'inscrit dans un cadre complexe nécessitant la recherche axée sur deux profils :

A) Les divers types de relation (relation d'opposition, relation d'évolution, de continuum, de contact,...) ; des relations qui peuvent être tissées entre des éléments opposés. Dans ce sens, Puren donne des exemples de ses relations « le processus d'enseignement et le processus d'apprentissage, la « forme » et le « sens », la « langue » et la « culture »... ;

B) Les multiples perspectives qui vont permettre d'aboutir à l'impossible « vérité ultime » sur ses objets de recherche (laquelle serait par ailleurs fort inquiétante dans un domaine où la subjectivité et l'intentionnalité des acteurs sont des paramètres décisifs...), d'en donner la perception la plus complexe en enchaînant différentes perspectives, comme lorsque l'on examine les diverses facettes d'un objet en le faisant tourner entre ses mains.(PUREN 2020 :4)

La complexité est l'un des piliers du comparatisme dans le domaine de didactique des langues-cultures : analyser un élément didactique repose également

qu'elle soit issue de la science (les notions théoriques liées au domaine de la didactique des langues vivantes), ou de l'expérience (les pratiques et les expérimentations individuelles ou collectives).

3-9 La didactique comparée des langues

En didactique comparée des langues, Puren souligne sept approches à suivre :

3-9-1 L'approche compréhensive

Puren définit « l'approche compréhensive » en relation avec la didactique comparée des langues comme approche qui est empruntée à l'opposition bien connue des spécialistes du domaine entre une sociologie critique à la Bourdieu, dans laquelle le chercheur se propose de révéler des réalités dont la majorité des acteurs ne seraient pas conscients (ce qui permettrait en particulier à une minorité d'entre eux de les utiliser à leur profit), et une sociologie compréhensive à la Max Weber, qui se centre sur les acteurs dans leurs environnement en valorisant leur conscience, leur expérience et leur intentionnalité, c'est-à-dire leur degré de « compréhension » réelle (d'où l'appellation de cette approche) des jeux auxquels ils ont soumis, des enjeux auxquels ils sont confrontés, des actes qu'ils réalisent et des projets qu'ils construisent. (PUREN 2020 :3)

Alors, cette approche est parallèlement liée à un processus paradigmatique compréhensif dans le domaine des sciences sociales. Celles-ci entretiennent partiellement une relation avec l'épistémologie de la didactique des langues-cultures vu que les deux, sciences sociales et ladite épistémologie, vise dans leurs études des « acteurs » en liaison avec un cadre « institué ».

3-9-2 L'approche environmentaliste

Puren juge l'approche environmentaliste ou l'approche de la contextualisation comme paradigme où l'accent est mis sur la complexité régissant l'objet d'étude et son environnement.

En épistémologie, la didactique des langues-cultures s'inscrit dans, partiellement, dans la même logique des « sciences de l'ingénierie ». Elle repose sur la conception d'un processus d'enseignement-apprentissage, et non pas l'analyse des langues ou des cultures (objet d'enseignement-apprentissage).

3-7-2 La méthode qualitative

Au contraire de la méthode quantitative qui se caractérise par le fait de « mesurer les phénomènes », la méthode qualitative, selon Puren, repose sur la « compréhension » la nature et la qualité des phénomènes. Cette caractéristique fait de la méthode qualitative la démarche d'analyse la plus propice aux exigences épistémologiques du domaine de la didactique des langues-cultures. Dans ce sens, on peut citer le modèle d'analyse qualitative de Huber Man et Miles qui vise les constituants empiriques sous forme d'enregistrement, des entretiens, des observations et non pas des données chiffrées. De même, la démarche méthodologique de ce modèle repose également sur trois stratégies empiriques :

A) Le chercheur est appelé à sélectionner les données empiriques, les concentrer, les simplifier, les abstraire et les transformer pour les condenser ;

B) Ces données doivent être présentées sous forme de diagrammes, tableaux, de matrices graphiques dans le but de « tirer des conclusions » ;

C) Ces conclusions doivent être élaborées et vérifiées par une reproduction de résultat dans un « autre ensemble de données ».

3-8 La méthode historique

Dans la conclusion générale de son article « Histoire des méthodologies de l'enseignement des langues », Puren liste trois leçons qu'apporte cette perspective historique, et qui sont utiles pour tout chercheur en didactique des langues, expérimenté ou novice :

A) Leçon de modestie : Puren veut dire par cette leçon que tout chercheur quel que soit son profil académique (formation, expérience, fonction,...) adopte les avantages et les inconvénients de différentes méthodologies inscrites dans l'histoire pour se rappeler ses insuffisances et ses contradictions. Autrement dit, puisque toute méthodologie est exposée à la critique, la même chose s'applique au chercheur en didactique des langues-cultures ;

B) Leçon de prudence : Puren ajoute que tout chercheur en didactique des langues-cultures devient prudent «vis-à-vis des effets de cohérence du discours méthodologique et des effets pervers de la cohérence des constructions méthodologiques, qui tendent toutes à fonctionner, avec ou malgré leurs auteurs»;

C) Leçon de réserve : Puren, en se basant sur « la perception de la complexité et de la permanence des problèmes fondamentaux » de la didactique des langues vivantes qu'offre l'histoire, ne laisse aucune chance pour les discours d'autorité,

3-6-3 La méthode hypothético-déductive

Christian Puren définit la méthode hypothético-déductive en relation avec les domaines des sciences humaines. Pour Puren, il y a une méthode hypothético-déductive lorsque « l'hypothèse initiale peut ne pas être à proprement invalidée, mais doit être modifiée : reformulée, précisée, soumise à conditions, etc... ». Puren illustre sa définition par l'exemple de la didactique de grammaire lorsqu'il propose de demander aux élèves d'induire des hypothèses sur la règle à partir des énoncés, puis de les vérifier en s'assurant si la règle est applicable sur d'autres exemples afin de « déduire » l'applicabilité de la règle. Si les exemples n'en obéissent pas, les apprenants se trouvent dans l'obligation de modifier la première règle.

3-7 Méthode quantitative/ Méthode qualitative

3-7-1 Méthode quantitative

Ce type d'analyse des données se caractérise, selon Puren, par « sa qualité liée à la quantité et de la représentativité des personnes enquêtées, de la rigueur, du traitement statistique, de la clarté du mode de présentation finale des données et enfin de la pertinence des analyses et interprétations qui en sont faites du point de vue didactique et par rapport à la problématique de recherche ». De même, Puren souligne que l'analyse quantitative est souvent applicable lorsqu'il s'agit des résultats des données collectées des questions destinées aux apprenants ou aux professeurs. Par ailleurs, ce type d'analyse est, selon Puren, aussi faisable pour les données recueillies des observations de classes ou des matériels didactiques, lorsque le chercheur élabore des grilles adoptées.

Pour mener une analyse quantitative, Christian Puren propose aux chercheurs en didactique des recommandations techniques pour une bonne fin académique :

A) Les questionnaires doivent être testés auprès de quelques individus, puis le chercheur peut les mettre en ligne ou les distribuer ;

B) Toute démarche menée doit être présentée et justifier le choix et la manière de conception des questionnaires ;

C) Pour présenter et interpréter les résultats, il faut prendre en considération le nombre des personnes répondant à l'enquête ;

D) Il faut savoir que les chiffres des données ne se considèrent importants que si ces données sont analysées entre elles et interprétées en relation avec la problématique de recherche.

- A partir de ces deux exemples qui reposent sur l'apprentissage basé sur la motivation des élèves, le chercheur pourrait les motiver par l'introduction des jeux différents dans son travail avec les élèves.

Cette application base sur la connaissance certaine est, en fait, un exemple de dispositifs à appliquer, à tester pour vérifier ce qui va et ce qui ne va pas dans les situations d'apprentissage.

Par ailleurs, lorsqu'on n'est pas certain de cette connaissance. Autrement dit, si cette connaissance est l'objet de vérification et non pas ses modes d'application, c'est-à-dire si cette connaissance est considérée comme « hypothèse à infirmer ou à confirmer », la recherche dans ce cas est une expérimentation (au contraire de l'application). De même, Puren reprend le même exemple de didactique de grammaire dans ce propos. Puren propose que les élèves sont appelés de « vérifier » si la règle tirée de l'exemple déjà donnée est faisable dans d'autres exemples. De même, Puren propose « autrement » trois exemples d'illustration de « l'application » pour mettre le point sur l'expérimentation dans le domaine de la recherche en didactique des langues-cultures :

A) La scénarisation d'une expérimentation d'enseignement pour trois groupes d'élèves : le premier groupe avec une approche communicative, le deuxième et le troisième groupe sera soumis à un mode d'enseignement d'auto-apprentissage et par groupes ;

B) L'organisation d'un apprentissage de la grammaire basé sur l'erreur. Les élèves recourent à leurs erreurs pour un premier groupe ; pour le deuxième, on propose un apprentissage basé sur la conceptualisation portant sur « des énoncés correctes » et pour un troisième groupe, on propose un apprentissage axé seulement sur des « exercices structuraux », c'est-à-dire des exercices intensifs qui portent sur la reproduction d'un des modèles langagiers. L'objectif, selon Puren, est de vérifier l'hypothèse suivante : « le processus d'apprentissage d'une langue par un apprenant consistant dans une évolution positive de son interlangue, sa réflexion sur ses erreurs facilite fortement cette évolution ;

C) La comparaison de progression chez plusieurs classes « ou sont organisées des activités ludiques systématiques, et d'autres où elles sont absentes ».

Il semble que, au contraire, de « l'application » en recherche dans le domaine de didactique, « l'expérimentation » nécessite des groupes qui ne soient pas soumis à l'expérimentation, c'est-à-dire de groupes-témoins.

3-6 La méthode inductive/ la méthode déductive

Entre la connaissance et l'expérience, il y a la recherche de l'information. Mais de quel volet peut-on partir ? Est-ce que celui de la connaissance ou celui de l'expérience ?

En didactique des langues, Puren ne viole pas ce qui est en vigueur en sciences humaines.

3-6-1 La méthode inductive

Certes, cette méthode se base sur l'expérience pour induire une connaissance qui pourrait prendre la forme d'une théorie, règle... Pour Puren, cette logique est reprise, par exemple, dans le domaine de la didactique de la grammaire. Dans cette méthode inductive, on peut partir de l'exemple observé pour en tirer « une norme langagière », c'est-à-dire une règle grammaticale. Dans ce sens, Puren ajoute que, dans la recherche en didactique, il est possible de considérer que l'apprentissage chez les élèves diffère d'un élève à un autre, que l'enseignement chez les enseignants doit se caractériser par la variabilité au niveau méthodique afin que les élèves aient les capacités de recourir à leurs propres styles d'apprentissage.

3-6-2 La méthode déductive

Au contraire de la méthode inductive, la méthode déductive est régie par la logique de production d'une expérience à partir d'une connaissance. Dans cette perspective, Christian Puren affirme que cette connaissance en question pourrait être considérée comme « certaine » ou « non certaine ». Lorsqu'il s'agit du premier cas, c'est une « application ». Dans ce sens, Puren donne trois exemples liés à la didactique des langues-cultures. Ce sont les exemples cités dans la méthode inductive :

- A partir de la variabilité des méthodes d'enseignement par les enseignants et leurs propositions aux élèves des démarches pour que ces derniers puissent auto-apprendre, le chercheur pourrait penser à tester des « approches et des démarches différentes » ;

- A partir de la question de l'auto-apprentissage chez les élèves, le chercheur est appelé à concevoir un corpus d'activités susceptibles de didactiser cet auto-apprentissage : conception des activités pour sensibiliser les élèves autour de leurs lacunes langagières, sur leur styles d'apprentissage ;

3-5-3 Préparation d'entretien

Tout entretien se fait après une préparation basée sur les éléments suivants :

- Délimiter les blocs, chacun regroupe des questions ;
- Envisager un scénario d'intervention ;
- Penser à la structuration du discours loin de l'orientation ;
- Respecter la progression logique pour un bon cheminement des questions ;
- Contrôler les éléments para-discursifs de l'enquêteur (rythme, ton,...) ;
- Penser à éviter toute rigidité.

3-5-4 Éthique de l'entretien

Pour un bon déroulement de l'entretien, l'interviewé et l'intervieweur doivent partager entre eux le sens de l'écoute, le respect idéologique et la modestie intellectuelle. De même, l'intervieweur doit tenir compte aux éléments déontologiques suivants :

- L'entretien n'est enregistré qu'après l'accord préalable de l'interviewer ;
- L'anonymat doit être pris en considération au niveau du traitement et de communication des réponses collectées.

3-5-5 Transcrire l'entretien

Transformer la parole en écrit semble une tâche facile. Mais, dans le cadre de l'entretien, les choses ne sont pas simples, car le chercheur ne transforme pas des paroles en écrit, mais il y a des éléments para-discursifs (geste, hésitations, silence, ...) auxquels le chercheur doit penser en la matière de transcription. Il faut penser bien sûr à garder la compréhension de transcription en respectant aussi « la tonalité de l'entretien ».

3-5-6 Limite de l'entretien

Comme le questionnaire, l'entretien a aussi des limites liées à la recherche et à son contexte :

- Le risque du « hors-sujet » est possible si le chercheur n'arrivera à bien conduire le déroulement ;
- Le chercheur pourrait négliger les réactions de l'interrogé à cause de son occupation aux constituants de la grille.

résultats en graphes ou pourcentage ou sous forme d'effectifs, pour exposer d'une manière claire les interprétations.

3-4-7 Limites du questionnaire

Comme instrument d'enquête dans les recherches, le questionnaire reste limité par rapport à d'autres instruments en vigueur. Pour illustrer ce point, on peut évoquer deux notions qui expliquent ces limites : déclaration et observation. Les données collectées, à partir du questionnaire, sont déclarées, même s'elles sont fiables et valides. C'est-à-dire que celui qui répond déclare des propos, alors qu'il ne s'agit pas d'une observation sur terrain. Par ailleurs, les réponses « déclarées » ne sont pas hasardeuses. Il y a bien sûr une expérience « racontée » après une réflexion sur l'ensemble des questions posées.

3-5 L'entretien

Alain Blanchet (1985) définit l'entretien comme « mode d'accès efficace aux représentations et aux opinions individuelles, il engage ainsi des personnes (intervieweur et interviewé) dans une situation de « face à face » où l'interviewé veut généralement dans un entretien et vont plus ou moins en faveur de la qualité des données collectées »

3-5-1 Pourquoi l'entretien ?

Par rapport au questionnaire, l'entretien est plus technique et pratique, car il permet de collecter les données de manière rapide vu que son avantage est qu'il est direct avec le fournisseur des informations, ce qui favorise la crédibilité des résultats.

3-5-2 Types d'entretien

Trois types d'entretiens s'imposent :

- L'entretien directif : dans ce type d'entretien, le chercheur conçoit un « guide d'entretien » contenant toutes les questions qui doivent être posées selon une progression déjà établie ;

- L'entretien semi-directif : ce type est en quelque sorte différent par rapport au précédent. L'enquête et le chercheur sont les deux libres. L'esprit de l'entretien est à la fois semi-fermé et semi-ouvert ;

- L'entretien libre : il ne repose sur aucun plan préétabli. L'enquête et le chercheur font une conversation dite « naturelle ».

Certes, les répondants interagissent avec les questions fermées, dont les données recueillies sont faciles à traiter et à analyser. Toutefois, l'introduction des questions ouvertes est possible pour diversifier l'enquête et pour que le questionnaire ne soit pas monotone.

Il est à noter qu'il est plus pratique d'analyser les données des questions fermées par les logiciels statistiques (Sphinx, SPP,...). De même, les possibilités de réponse aux questions fermées sont diverses : oui/non (deux possibilités) ; jamais-parfois-souvent-toujours : échantillon large...).

3-4-3 Formulation des questions

Le travail de formulation des questions doit se faire de façon minutieuse. C'est une phase fondamentale que le concepteur du questionnaire est appelé à bien soigner en se basant sur la clarté et la simplicité, loin de complexité et d'ambiguïté. Il faut aussi que le langage des questions formulées soit propice à celui de l'enquête. Il faut s'assurer que le vocabulaire utilisé est simple, qu'il n'y a pas des structures grammaticales complexes ou des idées mises dans une seule question. La progression de questionnaire doit se faire du général au particulier.

3-4-4 Le prétest du questionnaire

Dans la tradition, avant de distribuer le questionnaire, un travail d'expérimentation est nécessaire. Dans ce propos, pour vérifier sa pertinence et s'assurer qu'il n'y a pas d'erreurs. Et pour identifier les erreurs d'une manière objective, il est possible de demander à quelqu'un d'autre qu'il le vérifie et/ou de le distribuer à d'autres.

3-4-5 Pertinence et fiabilité du questionnaire

Vérifier la pertinence et la faisabilité de questionnaire signifie s'assurer de sa crédibilité, car si le questionnaire ne conduit pas au recueil des données fiables, il ne pourra pas être crédible. Dans ce propos, le prétest pourrait contribuer pour s'arrêter sur ce qu'il faut retravailler.

3-4-6 Traitement des données collectées

Le travail du traitement du corpus vient après la collecte des données. On peut filtrer et trier les données qui semblent pertinentes pour la question de recherche et son contexte. Toutefois, les données collectées des questions dont les réponses nécessitent des explications justificatives qui ne concernent pas le traitement statistique, même s'elles restent incontournables pour la finesse d'interprétation des résultats. Après cette étape, il faut traiter chaque question en traduisant les

entretiens axés sur l'apprenant ou l'enseignant ou les deux la fois, par l'observation des conceptions didactiques des cours ou les traces des apprenants (production, réception, interaction).

3-4 Le questionnaire

Comme enquête de recherche, le questionnaire peut être jugé favorable pour mener des investigations de recueil des données répondant partiellement ou totalement à des questions de recherche. De même, le questionnaire est un outil plus pratique puisque celui qui répond à l'ensemble de ses questions dispose du temps pour fournir des réponses réfléchies. Par ailleurs, le répondant au questionnaire fait souvent une réflexion globale sur la totalité des questions posées avant qu'il réponde. En revanche, ce qui freine le questionnaire est souvent la négligence des répondants. Pour dépasser ce problème, l'enquêteur est appelé à partager son questionnaire au maximum possible de répondants pour réussir le cheminement d'enquête, et par conséquent les objectifs escomptés de recherche.

3-4-1 Répartition du questionnaire

Les questions formulées dans un questionnaire sont organisées dans des sections. Le concepteur du questionnaire doit être attentif lorsqu'il divise ces sections pour un bon découpage logique des questions. Alors, la fluidité et la pertinence doivent régir le passage d'une section à une autre pour atteindre l'objectif tracé au départ.

3-4-2 Choix des questions

Le choix des questions n'est pas une démarche facile. Il dépend de l'objet de l'enquête. Le questionnaire peut être constitué des questions fermées, des questions ouvertes, des questions de fait (ex : avez-vous consacré combien du temps pour rédiger votre thèse ?), des questions d'opinion (ex : qu'est-ce que vous pouvez dire de votre parcours doctoral ?). Alors, il ne serait facile de s'arrêter sur les questions propices à la question de recherche.

De même, la manière de poser les questions de recherche est requise. Le concepteur du questionnaire doit en prendre en considération. Les réponses fournies traduisent les questions du départ. Dans ce sens, De Singly (1992) définit les questions fermées comme « celles où les personnes interrogées doivent choisir entre des réponses déjà formulées à l'avance. Les questions ouvertes sont celles où, au contraire, les personnes interrogées sont libres de répondre comme elles le veulent » (DE SINGLY 1992 :130).

3-3-1 Définition de concept de « pratiques de classe »

Jean-Pierre Cuq définit les pratiques de classe comme :

Des activités réalisées par l'enseignant lui-même face aux apprenants dans la salle de classe. Il s'agit des activités concrètes ou procédures directement observables (par exemple la proposition par l'enseignant d'une activité de conceptualisation grammaticale suivie d'exercices d'application), par opposition aux activités abstraites ou processus (les traitements cognitifs correspondants effectués par l'apprenant). Il s'agit des activités effectivement réalisés, par opposition aux activités exigées par les principes pédagogiques, les théories ou la méthodologie référence, les instructions officielles ou encore les concepteurs du matériel didactique utilisé : l'auteur d'une thèse récente sur la grammaire en classe de français langue étrangère a ainsi observé que, dans les pratiques de classe, les enseignants privilégiaient la méthode transmissive et déductive (ils expliquaient eux-mêmes la règle de grammaire avant de donner des exercices d'application) alors que le principe de centration sur l'apprenant aurait demandé qu'ils mettent en oeuvre les méthodes opposées, active et inductive, (en demandant aux apprenants de conceptualiser eux-mêmes. (CUQ 2003 : 198)

En fait, comme l'affirme Puren, on ne peut pas séparer les pratiques d'enseignement-apprentissage de leur méthodologie de conception.

3-3-2 L'emplacement des « pratiques de classe » : de l'observation à l'épistémologie disciplinaire

En effet, le domaine de la didactique des langues-cultures vise à améliorer le processus d'enseignement-apprentissage. A partir de cet objectif, le projet d'observation et l'évaluation des pratiques d'enseignement-apprentissage dans le cadre de la recherche disciplinaire a pour objet de formuler des propositions pour améliorer telles pratiques.

3-3-4 L'observateur entre la classe et ses acteurs

Le chercheur dispose de diverses techniques pour avoir accès aux pratiques d'enseignement-apprentissage. L'accès direct à ces pratiques peut être effectué par l'observation réelle (sur terrain) de classes ou virtuelle (sur des enregistrements vidéo). L'accès indirect est d'ailleurs, possible par le biais des

d'apprentissage ». Par ailleurs, ces outils confrontent la problématique d'adaptation en classe de la conception à la mise en pratique. Cette problématique joue un rôle important dans la recherche en didactique du français langue étrangère puisqu'il y a des professeurs étrangers qui utilisent des dispositifs conçus en France et vice-versa ;

- Les matériels didactiques ne peuvent, en aucun cas, être remplacés par un autre outil, ils resteront un dispositif incontournable, soit pour l'enseignant soit pour l'apprenant. Puren cite le manuel comme outil du travail commun entre l'enseignant et l'apprenant. Dans le même sens, une vague de critique vise le manuel pour les raisons suivantes : l'utilisation d'un seul manuel est loin de la crédibilité didactique ; l'utilisation du manuel s'inscrit dans l'enseignement collectif, tandis que les nouvelles perspectives didactiques exigent « la centration sur l'apprenant » ;

- Christian Puren juge que toute théorie, tout modèle ou une conception issues de n'importe quelle discipline linguistique ou didactique ou d'une discipline connexe, ne sont pas pertinents en didactique des langues sauf s'ils sont impliqués concrètement sur le plan des « matériels didactiques ». Il ajoute que les théoriciens de ces modèles sont eux-mêmes appelés à démontrer ce principe épistémologique.

3-3 L'observation des pratiques didactiques

Les pratiques de classes sont observées, analysées et interprétées par l'enseignant. Cette démarche méthodique contribue à son parcours auto-formatif, et par conséquent, il devient professionnel et chercheur de terrain. Mais l'observation, l'analyse et l'interprétation des pratiques de classe posent aussi un problème épistémologique pour le chercheur. Puren, dans ce propos, donne un exemple pour chaque opération fondamentale :

- L'observation : la sélection des données recueillies est faite par l'observateur. Il est impossible d'avoir une observation exhaustive.

- L'analyse : les données d'observation ne s'inscrivent pas seulement dans le domaine de la didactique des langues. L'intervention d'autres disciplines (sociologie, psychologie, ...) est toujours présente dans ce propos. L'épuisement d'analyse est impossible.

- L'interprétation : le chercheur est exposé aux mauvaises interprétations des données des pratiques de classes. Ces dernières sont très sensibles à l'environnement personnel et collectif, alors que le chercheur ne peut connaître de manière exhaustive tel environnement.

- du point de vue qualitatif, d'une bonne capacité de lecture «compréhensive» de tous types de documents, telle que sa formation générale universitaire doit normalement la lui avoir donnée ;

- et du point de vue quantitatif, d'une bonne capacité de travail, qui permette de brasser et rebrasser en tous sens les données du terrain avec les idées des autres et ses idées personnelles jusqu'à atteindre ce seuil critique (parfois proche de l'obsession...) à partir duquel, sur l'ensemble de son domaine d'observation et d'intervention, va progressivement émerger et se structurer un réseau conceptuel nouveau : l'originalité de la recherche, qui est l'une de ses premières qualités attendues, ne vient pas – ou très rarement – d'idées véritablement nouvelles, mais, entre des idées déjà connues, de relations nouvelles établies de manière imprévue et qui se révèlent pertinentes par rapport à sa problématique de recherche. (PUREN 2013 :35)

3-2-2 L'analyse du matériel didactique

D'après Christian Puren, le concept « matériels didactiques » renvoie, dans la tradition, aux matériels didactiques classiques : manuel, cahier d'exercices, guide pédagogique. Mais, selon lui, la nouvelle génération connaît des matériels didactiques plus avancés : il s'agit du « site compagnon », c'est un espace virtuel asynchrone conçu par un éditeur et/ou les enseignants et les apprenants qui travaillent collaborativement (échange des documents, des idées, des expériences,...).

Puren explique l'importance de l'analyse des matériels didactiques dans le domaine de recherche en didactique des langues-cultures en mettant le point sur quatre propos qui illustrent la nécessité incontournable de cet outil :

- Puren voit que les matériels didactiques sont « un ensemble cohérent de procédés, techniques et méthodes qui s'est révélé capable, sur une certaine période historique et chez des concepteurs différents, de générer des cours antérieurs et équivalents entre eux quant aux pratiques d'enseignement-apprentissage induites » (PUREN 2013 :3). Il ajoute que les matériels didactiques sont, historiquement, précieux, vu qu'ils sont des traces concrètes issues de l'ingénierie didactique de leurs auteurs-concepteurs. De même, Puren lie les matériels didactiques à « la réalité historique de toute méthodologie, toute méthodologie est à la fois un projet, un outil et une pratique » (PUREN 2013 :3) ;

- Dans la perspective didactique, les matériels didactiques se considèrent comme intermédiaire entre l'ergonomie et les « pratiques d'enseignement et

3-2 La recherche documentaire

La recherche documentaire regroupe toutes les démarches de recherche relatives au domaine de didactique des langues et des cultures. Dans ce propos, Puren propose la consultation en ligne de plusieurs sites du domaine en question:

- l'ACEDLE, Association des Chercheurs et Enseignants en Didactique des Langues Étrangères (acedle.org /), et sa revue Les Cahiers de l'ACEDLE ;

- l'AUF, Agence Universitaire de la Francophonie (www.auf.org /) : on y trouvera en particulier un moteur de recherche international sur le FLE précieux pour se tenir au courant des colloques et autres journées d'études (taper « FLE » dans le moteur de recherche interne

- l'ALSIC, revue Apprentissage des langues et systèmes d'information et de communication, (<http://alsic.revues.org> /) avec de nombreux articles portant sur l'exploitation des technologies éducatives dans l'enseignement-apprentissage des langues ;

- l'APLIUT, Association des professeurs de langues en IUT (www.apliut.com /), et sa revue Les Cahiers de l'APLIUT ;

- l'APLV, Association des Professeurs de Langues Vivantes (www.aplvlanguesmodernes.org /), et sa revue Les Langues modernes ;

- « Franc-Parler, Le site des professeurs de français », site de l'Organisation Internationale de la Francophonie (www.francparler-oif.org /), avec des fiches pédagogiques, des articles et des dossiers thématiques ;

- « ÉDUFLE.NET, site collaboratif du FLE » (www.edufle.net /), avec une série de dossiers thématiques en didactique du FLE plus ou moins bien documentés ;

- la FIPF, Fédération Internationale des Professeurs de Français, qui édite la revue papier Le Français dans le monde (www.fdlm.org)

3-2-1 L'analyse documentaire

En fait, une technique d'analyse documentaire spécifique au domaine de recherche en didactique de langues n'existe pas. Mais, Puren souligne généralement deux capacités indispensables chez tout chercheur en didactique des langues :

Cette hybridation de ces divers types de recherche doit se faire d'une manière réflexive : le chercheur est appelé à montrer qu'il a une réflexion non pas seulement sur sa recherche mais également sur la recherche qu'il mène en étroite relation avec la didactique des langues et des cultures. Autrement dit, le chercheur doit justifier tout ce qui a mis en oeuvre dans sa recherche.

3- Méthodes de recherche en didactique des langues

Ce second volet est réservé pour une lecture de quelques méthodes de recherche en didactique des langues et des cultures.

Dans le domaine de didactique des langues, les méthodes de recherche sont liées aux démarches épistémologiques axées sur le recueil et le traitement des données. Ces dernières pourraient être collectées par le chercheur « au moyen de ses observations, de lectures d'ouvrages et d'articles, d'analyse de productions d'élèves, d'enquêtes et d'entretiens auprès de différents acteurs, par ex.) où générées par des interventions réalisées à cet effet (dans des séquences expérimentales de classe ».

3-1 La méthode documentaire

Selon Christian Puren, la méthode documentaire concerne la recherche axée sur des documents déjà existants et qui pourraient fournir des informations compatibles avec le sujet de recherche (articles, ouvrages, mémoires, thèses, actes de colloques,...). Par ailleurs, l'insuffisance de ces documents disponibles pourrait constituer un problème, notamment lorsqu'il s'agit d'une recherche dont le terrain de recherche est propre au chercheur. Dans ce cas, Puren propose au chercheur divers choix pour compléter sa documentation, mais ces choix obligent le chercheur de produire

ses propres documents : une recherche sur la planification de séquences d'enseignement exigera ainsi qu'il recueille des préparations écrites d'enseignants ; une recherche sur la progression d'apprentissage, des productions écrites d'apprenants échelonnées dans le temps ; une recherche sur l'enseignement de la grammaire, des enregistrements de classes ; une recherche sur la formation des enseignants de langues – pour reprendre un exemple donné plus haut. (PUREN 2013 :31)

Selon Puren, Cette méthode comporte deux volets :

2-5 La recherche-action

Ce type de recherche a connu un large corpus de définitions didactiques qui diffèrent d'un chercheur à un autre. Christian Verier (1999) définit la recherche-action, d'une manière globalisante, comme

Démarche de recherche qui s'est développée sur la base d'une contestation des formes « traditionnelles » de recherche, d'une critique de l'utilisation des sciences sociales comme instruments de domination, d'une volonté d'intégrer les résultats de la recherche dans l'action sociale. La recherche-action se propose d'établir un nouveau rapport entre théorie et pratique (ne pas confondre avec la recherche appliquée). La recherche-action renvoie à un processus de connaissance orienté vers l'émancipation des chercheurs et des sujets (sont désignés par sujets les personnes ou groupes sur lesquels porte la recherche). Elle implique que soit défini un but commun aux chercheurs et aux sujets [...] La recherche-action permet de limiter l'asymétrie entre les chercheurs et les sujets de la recherche ; elle peut même garantir aux sujets de la recherche un véritable contrôle de la problématisation, du processus de recherche et de la gestion des résultats. (VERIER 1999 : 230)

De plus, Puren souligne aussi qu'il y a de nombreuses incompatibilités entre la recherche-action et la recherche universitaire initiale, ce qui rend l'hybridation entre les deux types de recherche impossible.

Le domaine de didactique des langues et des cultures n'est pas le seul domaine qui connaît divers types de recherche. Comme l'affirme Maryline Coquidé (1998) dans son article :

Tout processus de recherche [...] nécessite l'articulation de différentes postures, depuis l'expérience « vécue », en passant par les pratiques empiriques plus ou moins contrôlées et systématiques (exploration et enquête), jusqu'aux pratiques expérimentales, et l'articulation, dans les investigations, de recherche documentaire et de recherche expérimentale ; ce qui conduit à une vision élargie de l'expérience scientifique [...], et qui inclut de façon très interactive la démarche d'enquête, l'observation active, l'application de techniques, l'expérimentation et la modélisation. (COQUIDÉ 1998 : 109)

Permet aux élèves d'explorer et d'agir, à travers des situations variées et diversifiées, avec des finalités de familiarisation pratique à des objets, à des phénomènes, et à des instruments scientifiques et techniques. Les rôles de l'enseignant sont donc de penser les aménagements, les situations ou les interventions qui permettront une fécondité. Mais aussi de favoriser les comparaisons, de relancer le questionnement, d'introduire le doute, d'aider à reformuler et de favoriser les apprentissages d'ordre pratique. (PUREN 2013:21)

De même, l'expérimentation est, pour Puren, un mode d'« expérience-objet » qui :

Facilite la compréhension des pratiques effectives de la science, avec des articulations indispensables entre moments empiriques et moments expérimentaux dans l'investigation, et une importance particulière donnée au raisonnement, à la méthodologie, et à la validité des conclusions. Il s'agit de confronter les élèves à un réel peu aménagé, de les aider à problématiser ou à émettre un projet, de favoriser la mise en oeuvre effective des investigations, de favoriser les dynamismes et les confrontations, de distinguer un guidage pédagogique d'exploration et un guidage pédagogique de validation, et d'inciter les élèves à réfléchir sur les démarches et sur les raisonnements. (PUREN 2013 :22)

Il reste l'expérience-validation que Puren nomme « expérience-outil ». Ce mode est :

Un outil mis au service de l'élaboration théorique, pour la construction de concepts ou de modèles. Les expériences sont envisagées dans un cadre d'apprentissage conceptuel systématique, et ce mode est plus développé dans les travaux pratiques. Il s'agit de mettre à l'épreuve les constructions intellectuelles, pour en éprouver la pertinence et le domaine de validité. (PUREN 2013 :13)

fondamentaux de la didactique des langues-cultures : méthodologique, didactique et didactologique.

Pour ce qui est du volet méthodologique, Puren renvoie à :

Toutes les propositions concernant des modes d'enseignement-apprentissage. Dans toute recherche, ces propositions vont forcément limiter leur domaine en fonction de la problématique de recherche ; elles porteront par exemple sur un type de public, d'objectif, de dispositif, de support, de technologie, d'activité, de démarche ou approche, de pédagogie : jeunes enfants, FOS, compétence de communication, travail de groupe, jeux, chansons, documents authentiques, littérature, tableau interactif, compréhension écrite ou orale, lexique, simulations globales, ateliers d'écriture, scénarios actionnels, pédagogie de projet,... (PUREN 2013 :14)

En ce qui concerne le volet didactique, Puren signifie par produit de recherche, par exemple, « les grilles d'analyse de matériels didactiques et d'observation de classes ».

Enfin, le volet didactologique des produits englobe, selon Puren, « les chartes pédagogiques et déontologiques, les curricula, les modèles de contrat d'enseignement-apprentissage, les programmes de formation »

2-4 La recherche-expérienciation

Certes, le terme « expérienciation » pourrait relever du domaine des sciences exactes, car selon Puren le concept de « recherche-expérienciation » « a été développé par les didacticiens des sciences pour penser les fonctions et formes scolaires des activités expérimentales dans l'enseignement des matières scientifiques ». De même, certains didacticiens tissent un lien entre la recherche-expérienciation et la recherche expérimentation en postulant que la première pourrait préparer les apprenants à la deuxième à condition d'organiser une troisième qui fait une transition entre la première et la deuxième. Dans ce sens, Maryliné Coquidé (1998) établit une transition entre « l'expérienciation » et l'expérimentation » par l'introduction de « l'expérience-validation ». Pour elle, les trois types constituent des modes didactiques dans l'enseignement des sciences. Puren reprend ces modes de sa manière en les renommant sans aucune reprise critique contre Marline Coquidé. Pour Puren, « l'expérienciation » est un mode « d'expérience-action » qui

L'analyse de pratiques observées chez un enseignant, par exemple, peut dans certains cas limites relever de l'analyse psychanalytique, mais il ne me semblerait pas raisonnable de la part d'un chercheur en didactique de s'y risquer... (PUREN 2013 :12)

2-2 La recherche-description

Dans les travaux universitaires de recherche en didactique des langues-cultures, la recherche-description, selon Puren, prend une part importante notamment lorsqu'il s'agit de l'observation de classe ou l'analyse du matériel didactique. Puren, dans ce sens, attribue à cette description le sens de «narration» lorsque cette description est dynamique comme :

c'est le cas lorsqu'il s'agit d'un processus d'enseignement-apprentissage (par ex. l'organisation des supports et activités successifs au sein d'une unité didactique, la réalisation d'une séquence de classe), ou lorsque la recherche doit être décrite elle-même dans sa procédure (la succession des activités réalisées par le chercheur) et dans son évolution (par ex. la modification des objectifs, des méthodes et/ou des activités de recherche en raison des difficultés ou opportunités surgies en cours de travail). (PUREN 2013 :13)

Par ailleurs, Puren n'oublie pas de citer les points négatifs de ce type de recherche en soulignant les risques, notamment lors de :

La présentation du constat initial, du terrain de recherche et du dispositif de recherche, et plus généralement dans les types de recherche-expérienciation et de recherche-action, où les dimensions contextuelle et chronologique sont suffisamment importantes pour que l'on doive présenter de manière suffisamment détaillée le terrain de la recherche et le déroulé temporel de la recherche. (PUREN 2013 :13)

2-3 La recherche production

Comme le montre le terme production, Christian Puren définit la recherche-production en didactique des langues-cultures comme tout travail de recherche à des fins de conception-élaboration des produits favorisant l'enseignement-apprentissage. Selon Puren, ces produits peuvent servir les trois volets

2-1 La recherche-modélisation

Dans le domaine de la didactique des langues-cultures, Christian Puren définit la modélisation comme :

L'équivalent épistémologique de la théorisation dans les sciences qui se veulent « exactes ». Non seulement toute recherche en DLC, mais tous les types de recherche dont elle se compose, doivent donc comprendre une part de modélisation, que les modèles utilisés soient empruntés tels quels, modifiés ou créés. (PUREN 2013 :9)

Dans ce sens, Puren voit que tout chercheur en didactique des langues-cultures pourrait opter pour des « théories extra-didactiques » au cas où son processus de recherche présente des cas problématiques non-didactiques où lorsque le domaine de didactique exige une ouverture sur d'autres disciplines, ce que Puren nomme « principe d'émergence ». Au contraire, Puren introduit un autre principe différent, celui de « subsidiarité ». Ce principe caractérise le chercheur en didactique des langues-cultures par son utilisation des sous-domaines de la didactique des langues-cultures dans sa recherche comme le schéma suivant qui représente la réciprocité entre ces deux principes :

Selon Puren, ce schéma montre le processus qui régit le parcours formatif d'un chercheur en didactique des langues-cultures selon les deux principes cités auparavant : le point de départ de tout chercheur en didactique des langues est son enseignement-apprentissage envisagé à « modéliser » en se basant sur les théories didactiques déjà existantes. L'introduction de tout ce qui est extra-didactique ne vient que si son domaine ne peut pas répondre à ses besoins de recherche. De même, Puren veut dire que ces théories sur lesquelles repose la recherche en didactique des langues-cultures ne sont, en fait que des « modèles », et même lorsqu'il s'agit des sciences dites « exactes ». De plus, Puren renvoie par ces modèles aux « outils de compréhension et/ou d'intervention que l'on va abandonner dès que d'autres plus puissants et plus efficaces apparaîtront ». Dans le même sens, Puren souligne que le chercheur en didactique des langues-cultures doit être prudent lorsqu'il opte pour « les modèles extra-didactiques » puisqu'il apporte des outils d'analyse autre que ceux de son domaine. Pour ce faire, Puren propose au chercheur-didacticien des langues-cultures d' :

Emprunter des analyses déjà faites par des spécialistes, si on en a vraiment besoin, plutôt de se risquer à des analyses personnelles au moyen d'outils que l'on n'est pas sûr de maîtriser.

1- Introduction

Les deux volets de cet article portent sur la méthodologie de recherche en didactique des langues. On veut dire par méthodologie de recherche en didactique des langues les investissements épistémologiques et méthodologiques pour une bonne conduite d'une recherche du point du départ au point d'arrivée. Dans ce sens, le travail sera consacré à la mise au point sur les types et les méthodes en didactique des langues.

2- Types de recherche en didactique des langues

Un projet de recherche est, selon Christian Puren, orienté réciproquement par deux éléments : la compréhension et l'intervention. Les deux constituent deux types d'orientation. Pour Puren, la compréhension se centre sur :

Les acteurs dans leur environnement en valorisant leur conscience, leur expérience et leur intentionnalité, c'est-à-dire leur degré de « compréhension » réelle (d'où l'appellation de cette approche) des jeux auxquels ils ont soumis, des enjeux auxquels ils sont confrontés, des actes qu'ils réalisent et des projets qu'ils construisent. Cette approche compréhensive correspond à l'émergence d'un paradigme compréhensif [...] qui repose sur une réhabilitation de la part explicite et réfléchie de l'action, ainsi que de la compétence des acteurs à analyser eux-mêmes leur environnement et les actions qu'ils y réalisent. (PUREN 2013 :8)

Tandis qu'il définit l'intervention comme :

L'action sur le processus d'enseignement-apprentissage qui a pour objectif d'améliorer ce processus en proposant aux enseignants et apprenants des manières et moyens d'enseigner-apprendre ensemble plus efficacement. Elle n'a pas pour autant à se limiter uniquement à ce qui paraît possible sur le terrain au moment de la recherche. (PUREN 2013 :8)

D'après lui, lorsqu'il s'agit d'une courte recherche, le chercheur pourrait orienter son projet par un seul type d'orientation, l'intervention ou la compréhension ; mais un travail de recherche universitaire (thèse, mémoire) nécessite de la part du chercheur l'orientation de son projet par les deux types cités.

La recherche en didactique des langues : quels choix méthodologiques ?



Mohammed AGUIDI

Doctorant

Laboratoire Communication, Education, Digital Usage and Creativity
Faculté des lettres et des Sciences Humaines, Université Mohammed Premier,
Oujda, Maroc

Résumé

Mener une recherche en didactique des langues nécessite la réponse préalable à plusieurs questions d'ordre méthodologique qui positionnent le projet de recherche dans les pistes épistémologiques les plus adéquates avec la nature de tel projet : quel est le type de cette recherche ? Cette recherche appartient-elle à un seul type de recherche ? Quelle est la méthode de recherche la plus propice pour cette recherche ? Peut-on opter pour plus d'une seule méthode de recherche ? Si oui, comment faire ? y-a-il des interrelations entre les types et les méthodes de recherche en didactique des langues ?

Mots-clés : didactique des langues, méthodologie de recherche, type de recherche, méthodes de recherche.

Citation :

AGUIDI, Mohammed. (2024, août). La recherche en didactique des langues : quels choix méthodologiques?. Revue de recherche en sciences humaines et cognitives, Tome 1, N° 5, Première Année, P 4-28.

Abstract

Conducting research in language teaching requires the prior response to several methodological questions that position the research project in the most appropriate epistemological tracks with the nature of such a project: what is the type of this research? Does this search belong to a single search type? What is the best research method for this research? Can we choose more than one research method? If yes, how? are there interrelationships between the types and methods of research in language teaching?

Keywords: language teaching, research methodology, type of research, research methods.

Éditorial

Nous sommes heureux de vous présenter ce numéro de la Revue de Recherche en Sciences Humaines et Cognitives, qui comprend une variété d'articles scientifiques et de recherches précieuses partagés par des chercheurs et des universitaires distingués de diverses universités marocaines et arabes. À travers ce numéro, nous visons à renforcer le dialogue académique et l'échange de connaissances entre les chercheurs et les intéressés dans différents domaines de connaissance.

Ce numéro se distingue par la participation d'articles couvrant un large éventail de sujets dans les sciences humaines et cognitives, allant des études littéraires et historiques, en passant par les recherches humaines et sociales, jusqu'aux études linguistiques et aux analyses juridiques. Chaque article contribue à offrir de nouvelles perspectives et une compréhension plus profonde des défis et des questions auxquels nos sociétés sont confrontées aujourd'hui.

À la Revue de Recherche en Sciences Humaines et Cognitives, nous croyons en l'importance de la science et de la connaissance pour réaliser le progrès et la prospérité. Nous nous efforçons toujours de soutenir les chercheurs et de les encourager à présenter leurs recherches et leurs créations intellectuelles à la communauté académique et au grand public. La diversité des sujets et des idées présentés dans ce numéro reflète la richesse intellectuelle et scientifique de nos universités, et contribue à renforcer la compréhension et l'entente entre différentes cultures et communautés.

Nous espérons que vous trouverez dans ce numéro de quoi vous inspirer et vous ouvrir de nouveaux horizons de connaissance et de réflexion critique. Nous adressons nos sincères remerciements à tous ceux qui ont contribué à la préparation de ce numéro, et nous invitons tous les chercheurs et les intéressés à continuer de participer et d'interagir dans les prochains numéros de la revue.

Avec nos meilleures salutations,

Oujda, Le : 31 août 2024

Rédacteur en chef
Dr. ESSARRAJE Jamal Dine

Sommaire

Sommaire	2
Éditorial	3
La recherche en didactique des langues : quels choix méthodologiques ?	
Mohammed AGUIDI	4
Typologie des structures interrogatives en amazighe	
Hicham Mokhtari	29
Le rôle du professeur dans l’enseignement du français comme langue étrangère à l’Université Marocaine	
Ibtissam LEKHBIZI	48

Tous droits réservés à l'éditeur et à la revue

Titre : Revue de recherche en sciences humaines et cognitives
Page Web : www.crshc.com
E-mail : contact@crshc.com
Tél/whatsapp : +212 614-024544
Mise en page : BOURHAOUTA mohamed
Dépôt légal : 2024PE0032
ISSN : 3009-5581
N° de presse : 07/2024
Imprimerie : Cortoba, Oujda, Maroc
Copyright : Réservés à l'éditeur et à la revue © 2024



Dr. ESARRAJE jamal Dine

Éditeur

Professeur de communication

Faculté des Lettres et Sciences Humaines Oujda - MAROC

●● La revue de recherche en sciences humaines et cognitives est une plate-forme académique dédiée à la publication de recherches et d'études dans les domaines des sciences humaines et des sciences cognitives. Cette revue vise à renforcer notre compréhension de l'esprit humain, des différentes cultures, et de l'impact des facteurs sociaux et psychologiques sur le comportement et la pensée humains. Les domaines d'étude de cette revue couvrent un large éventail de spécialités telles que la psychologie, la sociologie, la linguistique, la philosophie, la littérature, les sciences de la communication, les sciences politiques, l'histoire, ainsi que d'autres domaines des sciences humaines, sociales et cognitives. Cette revue est une source importante pour les chercheurs et les universitaires afin de publier leurs recherches et de partager leurs idées avec la communauté académique mondiale. ●●

Conditions de publication

- La recherche ne doit pas avoir été publiée auparavant, être actualisée et exacte, et appuyée sur une bibliographie novatrice et à jour ;
- Les communications sont acceptées dans les langues suivantes : Arabe - Amazigh - Français - Anglais ;
- Le nombre de mots de la recherche ne doit pas dépasser (4000 - 6000) mots, et le chercheur joint deux résumés en arabe, ainsi qu'en anglais, et le nombre de mots de l'auteur ne doit pas dépasser (200) mots, et une photo personnelle de l'auteur avec un résumé de son CV ;
- Les manuscrits doivent être soumis en arabe dans Word (Sakkal Majalla) en taille 16 dans le corps, 12 dans la marge et 1,5 dans l'interligne, et en français ou en anglais en police (Calibri Light) en taille 12 dans le texte et 10 dans la marge ;
- Respecter les critères scientifiques et éthiques dans toutes les questions liées à la documentation exacte des sources, des références et des notes de bas de page, qui doivent être fixées séquentiellement au bas de chaque page ;
- Les articles de recherche sont présentés à des répondants ayant des compétences et de l'expérience pour approbation ou non approbation de publication ;
- Les recherches individuelles et partagées sont acceptées.
- Le comité scientifique informe l'auteur de la réception de son travail dès qu'il le reçoit, puis l'informe ultérieurement de la décision du comité scientifique quant à son aptitude à la publication.

Les auteurs sont seuls responsables des opinions exprimées dans cette revue et de toute infraction à la loi



Le directeur responsable :
BOURHAOUTA Mohamed

Rédacteur en chef :
ESSARRAJE Jamal Dine

**Rédacteur
en chef adjoint :**
AL ACHAARI Said

**Membres du comité
de rédaction :**
AMAADACHOU Farid
EL BOUZIKI Mohamed
BOURAOUTA Abdellah
CHAHIR Ouissam
KAZZOUT Hicham
ARDIF Said

مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية
+o048!+ | 80X88 8Σ +Co00o!ΣI +ΣIHXo!ΣI 8 +U00o!ΣI
Revue de Recherche en Sciences Humaines et Cognitives

Revue de Recherche

■ en Sciences Humaines et Cognitives ■

Dépôt légal : 2024PE0032

ISSN : 3009-5581

N° de presse : 07/2024

whatsapp : +212 6 14 02 45 44

E-mail : rrshc@gmail.com

Page Web : www.crshc.com

Tous droits réservés à l'éditeur et à la revue
MAROC © 2024

Les réseaux sociaux de la revue



Tiktok



Youtube



Facebook

■ Indexée dans des bases de données internationales ■



INTERNATIONAL
STANDARD
SERIAL
NUMBER
INTERNATIONAL CENTRE

Google
Scholar

EBSCO





مجلة البحث في العلوم الإنسانية والمعرفية

ⵜⴰⵎⴻⵔⴰⵢⵜ ⵏ ⵉⵎⵓⵔⵉⵙ ⵏ ⵉⵎⵓⵔⵉⵙ ⵏ ⵉⵎⵓⵔⵉⵙ ⵏ ⵉⵎⵓⵔⵉⵙ ⵏ ⵉⵎⵓⵔⵉⵙ

Revue de Recherche en Sciences Humaines et Cognitives

Revue scientifique internationale à comité de lecture et à parution mensuelle



Tome 1, Numéro 5, Première Année - Août 2024
Tous droits réservés à l'éditeur et à la revue

Dépôt Légal

2024PE0032

ISSN

3009-5581

N° de presse

07/2024

E-mail

contact@crshc.com

N° Téléphone

+212 614-024544